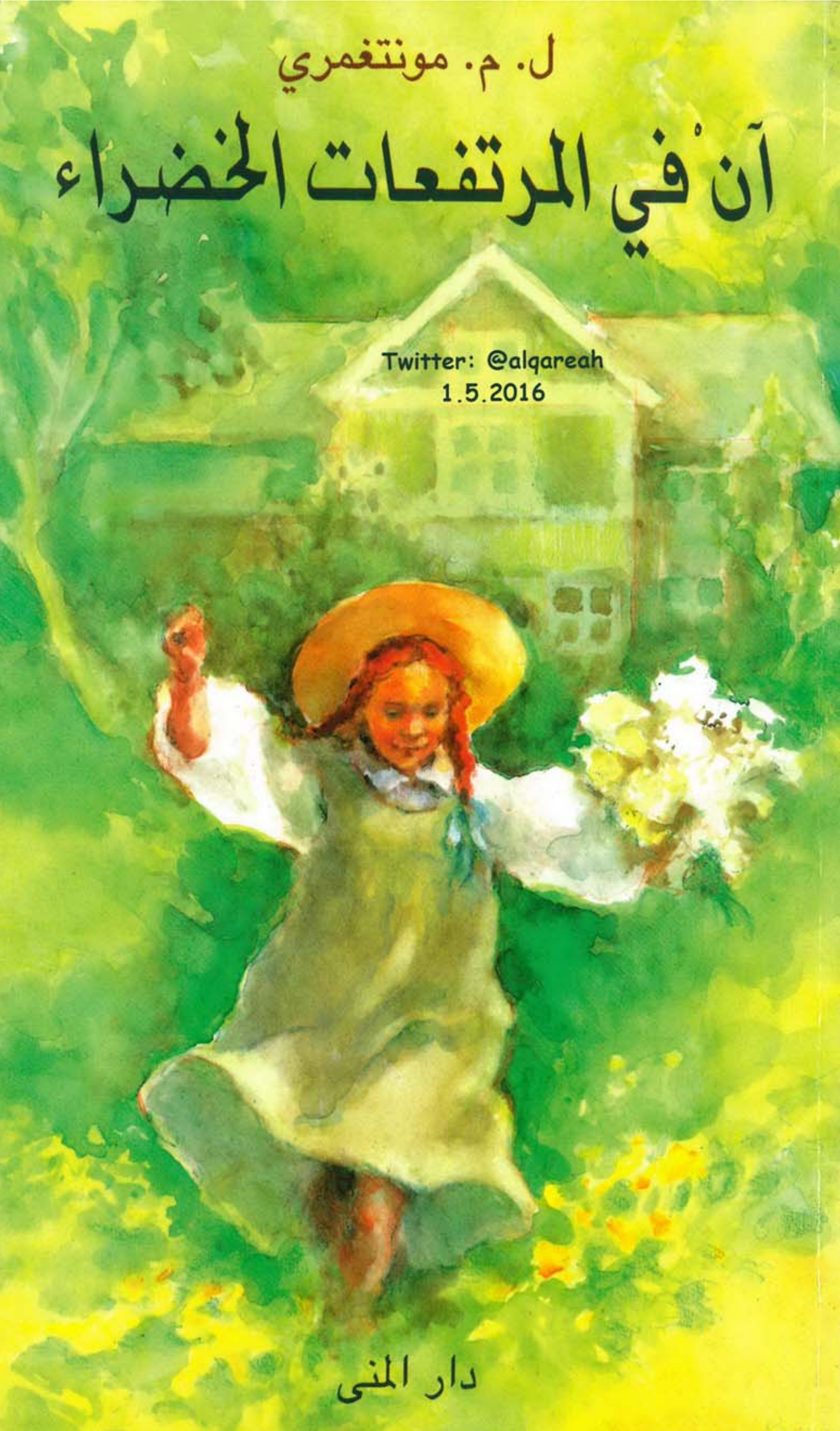

ل. م. مونتغمري
آن في المرتفعات الخضراء
Twitter: @alqareah
1.5.2016
دار المنى

ل. م. مونتغمري

آن في المرتفعات الخضراء

رواية

أعمال كلاسيكية

النص العربي بقلم:
سكينة ابراهيم

دار المنى

Original title: Anne of Green Gables
Cover: Elisabeth Nyman
Arabic text: Sukainah Ibrahiem
Printed in Sweden
ISBN 978 91 88356 33 8

Dar Al-Muna
Box 127
SE 182 05 Djursholm
Sweden

١

دهشة السيدة ريتشيل ليند

كانت السيدة ريتشيل ليند تسكن حيث ينحدر طريق قرية أفونليا الرئيسي نحو الغَور الصغير، الذي تحفّه الأعشاب الحرجية والعرائش، ويقطعه جدول ينبع من الغابة التي يقع فيها منزل آل كُثْبيرت القديم. جدول اشتهر أنه كان في باكورة جريانه جدولاً غنياً متدفقاً في تلك الغابات التي تحتفظ بأسرار المستنقعات والشلالات. لكنه مع الوقت الذي وصل فيه إلى غَور ليند تحوّل إلى غدير صغير ساكن ومطواع. إذ حتى الجدول لا يستطيع المرور من أمام بيت السيدة ريتشيل ليند بدون أن يأخذ لياقته واحتشامه بعين الاعتبار. ولعله ساعة جريانه هناك شعر بأن السيدة ريتشيل كانت تداوم على الجلوس قرب نافذتها مسلّطة عيناً حادة على كل ما يمرّ أمامها، بدءاً من الجداول والأطفال إلى ما يتجاوزهم، وأنها عند ملاحظتها حدثاً غريباً أو شيئاً في غير موضعه فلن تعرف طعماً للراحة إلاّ بعد أن تتحرّى أسباب ومسببات ما يجري.

لا شكّ أن هناك وفرة من الناس في أفونليا وخارجها، ممّن يستطيعون عن طريق إهمالهم لشؤونهم الخاصة، مراقبة شؤون جيرانهم عن كثب. لكن السيدة ريتشيل ليند كانت واحدة من تلك المخلوقات القديرة التي تستطيع تدبّر شؤونها الخاصة وشؤون بقية القوم في وقت واحد. كانت ربّة منزل ماهرة، قادرة على إنجاز عملها دائماً، وعلى إنجازه بإتقان. وكانت تشرف على حلقة الخياطة، وتساعد في إدارة مدرسة الأحد، كما كانت تُعتبر الدعامة الأقوى لجمعية معونة الكنيسة والإرساليات التبشيرية الأجنبية. مع ذلك، كثيراً ما وجدت السيدة ريتشيل متسعاً من الوقت لتجلس لساعات أمام نافذة مطبخها تحيك أغطية اللحف القطنية؛ التي حاكت منها

ستة عشر غطاءاً، كما كانت ربّات بيوت أفونليا تردد بأصوات يشوبها الهلع، بينما تسلّط في نفس الوقت عيناً ثاقبة على الطريق الرئيسي الذي يشقّ الغَور صعوداً نحو الهضبة الحمراء بعد الغَور. وبما أن أفونليا كانت تقع في شبه جزيرة صغيرة مثلثة تشرف على خليج سانت لورانس ويحيط الماء جانبين من جوانبها، فإنه كان لِزاماً على أي شخص يغادرها أو يقدم إليها أن يسلك طريق تلك الهضبة، متبوعاً بعينيّ السيدة ريتشيل الناقدتين اللتين لا تغفلان شاردة.

جلست السيدة ريتشيل في عصر يوم من أوائل أيام شهر حزيران أمام نافذتها، وقد انسابت أشعة الشمس عبر النافذة دافئة وساطعة، وتألق بستان الغَور الذي يشرف عليه المنزل محتفلاً بعرس براعمه ذات البياض المورّد، والتي همهمت فوقها أفواج من النحل. في تلك الأثناء، كان توماس ليند؛ الرجل المتواضع الذي يدعوه أهالي أفونليا زوج ريتشيل ليند، يبذر بزور موسم اللفت الأخير في حقل التلّة خلف البيدر. وكان من المفترض أن يكون ماثيو كُثْبيرت أيضاً يبذر بزوره في حقل الجدول الأحمر الكبير، بعيداً إلى الأعلى عند المرتفعات الخضراء. كانت السيدة ريتشيل تعرف هذا لأنها في الأمسية السابقة سمعته في مخزن ويليام بلير في بلدة كارمودي وهو يخبر بيتر موريسون عن عزمه على بذر بزور اللفت في عصر اليوم التالي. لقد سأله بيتر بالطبع، لأن ماثيو كُثْبيرت لم يُؤثر عنه تطوعه بالبوح بأية معلومة عن أي شئ طيلة حياته.

مع ذلك هاهي ترى ماثيو كُثْبيرت، في الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم حافل بالعمل، يقود عربته برباطة جأش مجتازاً الغَور نحو التلة، والأهمّ من ذلك أنه كان يضع ياقة بيضاء ويرتدي أحسن بِزّة من بِزّاته، ممّا يدلّ بجلاء على مغادرته أفونليا. بل إن العربة والفرس البُنيّة تبرهنان على أن وجهته تبعد مسافة جديرة بالاعتبار.

فإلى أين يذهب ماثيو كُثْبيرت ياترى؟ ولماذا هو ذاهب إلى حيث ينوي الذهاب؟

لو كان الأمر يتعلق بأي رجل آخر في أفونليا، لتمكّنت السيدة ريتشيل من وضع الأمور في نصابها بمنتهى الشطارة، ولربما تمكّنت من التوصل إلى تكهّن يليق بالسؤالين معاً. لكن ماثيو كان نادراً ما يغادر المنزل، ممّا يعني أن ما استدعاه لذلك لا بدّ وأن يكون حدثاً طارئاً، خارجاً عن الحسبان. فقد كان ماثيو من أكثر الرجال الأحياء خجلاً، وكان ينفر من الاضطرار إلى الذهاب حيث يوجد الغرباء، بل وحتى إلى أي مكان يضطر فيه إلى الكلام. ولم تكن رؤيته متأنقاً بالياقة البيضاء ومعتلياً العربة من المشاهد التي يغلب حدوثها. وما كان بإمكان السيدة ريتشيل مهما أحدّت ذهنها أن تعثر على جواب ما.

وهكذا، أفسد عليها ما رأته، متعة ذلك العصر.

أخيراً، توصلت المرأة الوجيهة إلى قرار. "سوف أقصد المرتفعات الخضراء بعد تناول الشاي وسأعرف من ماريلا إلى أين ذهب ولماذا،" قالت السيدة ريتشيل لنفسها. "إنه على وجه العموم لا يذهب إلى البلدة في هذا الوقت من السنة ولا يزور أحداً أبداً، وإذا كان قد نفذ منه بزر اللفت فإنه لن يتكلّف عناء التأنق وقيادة العربة لجلب ما يريد؛ كما أنه لم يكن يقود العربة بسرعة توحي أنه بصدد الذهاب إلى الطبيب. مع ذلك لا بدّ أن أمراً طارئاً قد حدث الليلة الماضية أجبره على الانطلاق اليوم. أنا في حيرة كاملة، هذه هي الحقيقة، ولن أعرف دقيقة واحدة من سلام الفكر أو الشعور قبل أن أعرف ما الذي أخذ ماثيو كُثْبيرت خارج أفونليا اليوم."

وفقاً لما قررته، انطلقت السيدة ريتشيل نحو المرتفعات الخضراء بعد تناولها الشاي. لم يكن عليها الذهاب بعيداً، فالمنزل الكبير الذي يظلله البستان العريشي حيث يقطن آل كُثْبيرت يبعد بمقدار ما يقارب ربع ميل صعوداً من غَور ليند، لكن لا ريب أن الدرب الطويل المؤدي إليه جعله أكثر بعداً. كان والد ماثيو كُثْبيرت الذي ورث عنه ابنه حياءه وصمته، قد رغب عندما أسس ركيزة بيته في الابتعاد عن الناس قدر

مـا أمكنه، بدون أن ينعـزل في الغـابة. وهكذا شـيّد دارة المرتفـعـات الخضـراء عند نهاية حدود أرضـه، ومـا زالت قـائمة هناك إلى الآن، لا تكاد تستـبينها العين من الطريق الرئيسـيـة التي تستـقرّ على طولها جميع منـازل أفونليا الأنيسة. ولـم تكن السيـدة ريتشـيل تعتبـر الحيـاة في مكان كذاك المكان حياةً على الإطلاق.

"هو مكان للسكن فقط، إنه لكذلك حقاً،" قالت السيـدة ريتـشيل لنفسها وهي تتتبع الدرب المخدّد المعشوشب المُحاط بأجمات الأزهار البرية. "ولا عجب في أن يكون مـاثيو ومـاريلا غريبي الأطوار قليـلاً، نتيـجة عيشـهـمـا هنا وحدهمـا. فرفقة الأشجـار ليست بتلك الرفقة الأثيرة، ولو كانت كذلك فلا شكّ أن ديهما ما يكفي منها. أمّا أنا فإني أفضّل صحبة الناس. لكن، لا ريب أنهمـا يبدوان راضـيين بحيـاتهمـا، رغم اعتقادي أنهمـا قد اعتادا على هذا الوضـع ليس إلاّ . فـالمرء، كمـا يقـول الإيرلنديون، قـادر على الاعـتـيـاد على أي شئ حتـى على حـبل المشنقة."

بهذه الأفكار تجاوزت السيدة ريتشيل الدرب المخدّد إلى فناء دارة المرتفـعـات الخضـراء الخلفي. كـان الفناء يتـمـيّز بالخـضـرة والنظافـة والتـرتيب، تصطف على أحد جـانبـيـه أشـجـار الصـفـصـاف المهيـبـة، وتصطف على جانبه الآخر أشجار الحَور المتشامخة. ما كان يمكن لمح عود شـارد أو حجر فيـه، وإلا لرأته السيـدة ريتشـيل التـي تظن فيـمـا بينها وبين نفسها أن مـاريلا كُثْبيرت تواظب على كنس ذلك الفناء كلما كنست بيتهـا، حتى ليستطيـع المرء تناول وجبة طعامـه من على الأرض مباشرة، بدون أن يتلوث ذلك الطعام بأدنى ذرة غبار يمكن أن يُضرب بها المثل.

نقرت السيـدة ريتـشيل على باب المطبخ بـكياسـة، ودخلت عندمـا دُعيت. كان مطبخ المرتفعات الخضراء أشبه بغرفة مبهجة، أو بالأحرى كان يمكن أن يكون مطبخـاً مبـهـجاً لو لم يكن مزعجاً بنظافتـه التي أضفت عليه مظهراً يشبه مظهر ردهة استقبال مهجورة. كانت نوافذه

تُشرف على الشرق والغرب؛ وكان العباب اللطيف لأشعة شمس حزيران ينساب من النافذة الغربية المُطلّة على الفناء الخلفي. أما النافذة الشرقية التي تتيح للناظر رؤية أزهار الكرز البيضاء وأشجار البتولا المتمايلة الغضّة قرب الجدول عند الغَور، فقد أشرفت على الخضرة التي اصطبغت بها الكروم المتشابكة. عند هذه النافذة كانت تجلس ماريلا إن هي جلست، لأنها لم تكن تثق بأشعة الشمس أبداً، معتبرة إياها شيئاً عديم المسؤولية، مبالغاً في التراقص في عالم يجب أخذه على محمل الجد. وهناك جلست في ذلك الوقت تحيك، وقد أعدّت الطاولة خلفها للعشاء.

تمكّنت السيدة ريتشيل قبل أن تغلق الباب خلفها بلباقة، من تدوين ملاحظة ذهنية بجميع ما رأته على تلك الطاولة. كان يوجد عليها ثلاثة أطباق، وهذا يعني أن ماريلا تتوقع حضور زائر مع ماثيو لتناول الشاي؛ لكن الأطباق كانت أطباق الاستعمال اليومي ولا يوجد على الطاولة سوى مربّى التفاح البري ونوع واحد من الكعك، ممّا يعني أن الرفقة المتوقعة ليست بالرفقة المهمة. لكن، ماذا عن ياقة ماثيو البيضاء والفرس البُنيّة؟ كل هذه العلائم جعلت السيدة ريتشيل مذهولة من ذلك الغموض الفريد الذي عمّ أجواء المرتفعات الخضراء الخالية من أي ألغاز.

"أهلاً بك ياريتشيل،" قالت ماريلا بحيوية. "أليست هذه الأمسية أمسية جميلة حقاً؟ ألا تتفضلين بالجلوس؟ كيف حال جميع أنسبائك؟"

شيء ما من تلك الأشياء التي تفتقر إلى أي تعريف آخر يوضحها، لايمكن أن يوصف هنا إلاّ بأنه كان نوعاً من الصداقة التي تربط بين ماريلا كُثبيرت والسيدة ريتشيل. صداقة كانت دائماً موجودة بينهما، رغم تباينهما أو ربما بسبب هذا التباين.

كانت ماريلا امرأة طويلة نحيلة ذات جسم محدّد التفاصيل خال من النتوءات المكتنزة بالدهن، تتخلل مسحات الشيب شعرها الغامق الذي اعتادت على ضمّه عند مؤخرة رأسها وتثبيته بدبوسين للشعر

مغروزين فيه بإحكام. كانت تبدو كأنها امرأة محدودة الآفاق متبلّدة المشاعر، وتكاد تكون كذلك فعلاً لولا ذلك التعبير المبهم حول قسمات فمها، الذي ربّما لو كان أكثر وضوحاً لأفصح عن امتلاكها لروح مرحة.

"نحن جميعاً بأحسن حال،" قالت السيدة ريتشيل. "لكني خشيت ألاّ تكوني أنت على ما يرام، وذلك عندما رأيت ماثيو مغادراً اليوم. لقد ظننته ذاهباً إلى الطبيب."

أفصح تقلّص شفتي ماريلا عن فهمها لسبب زيارة السيدة ريتشيل والتي كانت تتوقعها، لأنها كانت واثقة بأن رؤية ماثيو وهو يرتحل من غير سابق تفسير، ستكون أمراً عظيماً يفوق طاقة احتمال جارتها الفضولية.

"آه، لا، أنا بخير، رغم أني عانيت البارحة من صداع مرهق،" أجابت ماريلا. "لقد ذهب ماثيو إلى بلدة برايت ريفر. فقد عزمنا على تبني صبيٍّ صغير من ملجأ للأيتام في نوفا سكوتيا، وهو قادم بالقطار الليلة."

لو قالت ماريلا إن ماثيو ذهب إلى بلدة برايت ريفر ليلاقي حيوان كنغارو من أستراليا فإن دهشة السيدة ريتشيل لما كانت أعظم، فقد أبكمها النبأ كلية لخمس ثوان. ورغم أنها لم تشكّ أبداً في أن ماريلا كانت تسخر منها إلاّ أنها اضطرت إلى افتراض ذلك تقريباً.

"هل أنت جادّة فيما تقولينه ياماريلا؟" ألحّت المرأة عندما استعادت صوتها.

"نعم، بالطبع،" قالت ماريلا، وكأن تبني الصبية من ملاجيء الأيتام في نوفا سكوتيا كان جزءاً من متطلبات أعمال الربيع في أية مزرعة عادية في أفونليا، وليس بدعة لم يسبق لها مثيل.

شعرت السيدة ريتشيل كما لو أن النبأ أصابها بارتجاج ذهني عسير. وفكرت باندهاش، صبي! ماريلا وماثيو كُثْبيرت من بين جميع الناس يتبنيان صبياً! ومن ملجأ للأيتام! عجباً، لا بدّ أن العالم قد

انقلب رأساً على عقب! لا شئ سيذهلها بعد الآن أبداً! لا شـــــئ!

"لكن، بحقّ السماء، ما الذي أدخل هذه الفكرة إلى رأسك،" سألتها السيدة ريتشيل باستهجان. فما دام البتّ في هذا الموضوع قد تمّ بدون طلب النصح منها، لا بدّ إذن أن يُستهجَن.

"لقد فكّرنا بهذا الموضوع لفترة من الوقت، طيلة فصل الشتاء في الحقيقة،" ردّت ماريلا. "وحدث أن كانت السيدة أليكسندر سبنسر هنا قبل يوم من عيد الميلاد، وأخبرتنا عن عزمها على تبني فتاة صغيرة من أحد ملاجئ مدينة هوبتاون في الربيع. وذلك بعد أن زارت السيدة سبنسر ابنة عمها التي تعيش هناك واطّلعت على كل شئ. ومنذ ذلك الحين لم نكفّ أنا وماثيو عن مناقشة هذا الموضوع، وفي النهاية قرّرنا تبني صبي. إن ماثيو، كما تعلمين، آخذ في الهرم، فقد أصبح الآن في الستين من العمر، ولم يعد نشطاً كما كان، بالإضافة إلى أن قلبه صار يرهقه كثيراً. وأنت تعرفين مدى صعوبة استئجار من يستطيع مساعدته. فالمرء لا يجد إلاّ أولئك الصبية الفرنسيين الحمقى الذين لم يكتمل نموهم. وما إن تحظي بأحدهم وتعلّميه شيئا حتى يشبّ عن طوقه ويغادرك إلى مصانع تعليب الكركند أو إلى الولايات. في البدء، اقترح ماثيو إحضار خادم من المستوطنين. ولكني قلت: لا صريحة، لذلك الاقتراح. لعلهم لا شائبة فيهم؛ أنا لا أقول إنهم ليسوا كذلك، ولكني لا أريد متشردين من الأزقّة في منزلي، لذلك قلت له: أحضر لي صبياً من المواليد المحليين على الأقل. ستكون هناك مجازفة مهما يكن الصبي الذي ننوي جلبه، ولكني سأشعر بارتياح فكري أكثر وسأنام ليلي باستغراق أعمق إذا جلبنا صبياً من مواليد كندا. وفي النهاية، قررنا سؤال السيدة سبنسر لتختار لنا صبياً عندما تذهب إلى الميتم لتحضر طفلتها الصغيرة. وقد سمعنا في الأسبوع الماضي أنها على نيّة الذهاب، لذا أرسلنا لها كلمة عن طريق أنسباء ريتشارد سبنسر في كارمودي لتجلب لنا صبياً تبدو عليه سيماء النباهة، في حوالي

العاشرة أو الحادية عشرة من العمر. فقد ارتأينا أن هذا العمر هو الأفضل: كبير بما فيه الكفاية ليكون ذا نفع في أداء الأعمال الروتينية بإتقان، وصغير بما فيه الكفاية لتتم تربيته بأسلوب لائق. ونحن عازمان على أن نوفّر له بيتاً طيباً وتعليماً جيداً. وقد وصلتنا اليوم برقية من السيدة أليكسندر سبنسر، جلبها ساعي البريد من المحطة، وتنصّ على أنهم سيحضرون على متن قطار الساعة الخامسة والنصف الليلة. وهكذا ذهب ماثيو إلى برايت ريفر ليقابل الصبي، فالسيدة سبنسر سوف توصله إلى هناك، ثم ستتابع طريقها بعد ذلك إلى محطة وايتساندس".

لطالما فاخرت السيدة ريتشيل بنفسها لأنها ما تحرّجت أبداً عن البوح بما يجول في خلدها. وفي تلك اللحظة شعرت أنه عليها الإفصاح عن خواطرها بعد أن تكيّف موقفها الفكري مع مقتضيات ذلك الخبر المدهش.

"حسناً ياماريلا، بكل صراحة أقول لك إنك على وشك ارتكاب خطأ جسيم، بل هو حقاً أمر محفوف بالمخاطر. إنك لا تعرفين ما أنت مُقدِمة عليه. إنك تجلبين صبياً غريباً إلى عقر دارك وأنت لا تعرفين أدنى شئ عنه، لا مِن أي عريكة هو، ولا أي نوع من الأهل كان أهله، ولا عن أي طبع سيسفر فيما بعد. ولمَ كل هذا العناء؟ في الأسبوع الماضي فقط قرأت في الجريدة كيف أن صبياً، تبنّاه رجل وزوجه في غرب الجزيرة من ملجأ للأيتام، قام بإشعال النار في المنزل ليلاً.. أشعلها عامداً ياماريلا.. وكاد الزوجان يحترقان في سريريهما. بل وأعرف قضية أخرى عن صبي مُتبنى اعتاد على مصّ البيض، ولم يفلح أهله في ردعه ليكفّ عن هذه العادة. ولو سألتني النصح فيما يختصّ بهذا الموضوع.. الأمر الذي لم تفعليه ياماريلا.. لطلبت منك بدافع من الخوف عليك، ألاّ تُقدمي على هذا التصرف مهما كلّف الأمر."

استمرّت ماريلا تحيك مابيدها بهدوء، بدون أن يبدو عليها الانزعاج أو الارتباك من ذلك الاستفزاز المبطّن.

"لا أنكر أن هناك مغزى فيما تقولينه ياريتشيل، فقد سبق وأن عانيت أنا نفسي من بعض الشكوك. لكن ماثيو كان مصمماً تصميماً لا رجعة فيه، ولمّا لمستُ ذلك منه كففت عن المعارضة. إنه من النادر جداً أن يصمّم ماثيو على أمر ما، وعندما يفعل أشعر دائماً أن واجبي يقتضي مني التنازل. أمّا بالنسبة إلى المخاطرة، فإن هناك مخاطرة في أي شئ يمكن أن يقوم به المرء في هذا العالم. بل إن المجازفات تتعدى هذا إلى الأطفال الذين ينجبهم الناس من صلبهم؛ فهم لا يصبحون دائماً كما هو مرجوٌ منهم أن يكونوا. فضلاً عن ذلك فإن نوفا سكوتيا قريبة جداً من الجزيرة. وليس الأمر كما لو أننا سنجلب الصبي من إنجلترا أو من الولايات، ولا أعتقد أنه سيكون مختلفاً كثيراً عنّا."

"حسن، آمل أن يسفر الأمر على خير،" قالت السيدة ريتشيل بلهجة نمّت بوضوح عن شكوكها الجمّة. "لكن لا تقولي ذات يوم أني لم أحذرك إذا أحرق الصبي المرتفعات الخضراء أو دسّ لكم سمّ الزرنيخ في البئر، إذ سبق وسمعت عن قضية جرت في بلدة نيوبرنسويك حيث ارتكب هذه الجريمة طفل من ملجأ للأيتام. وكانت النتيجة أن ماتت جميع العائلة بعد عذاب رهيب. مع فارق أن الطفل في تلك الحادثة كان فتاة."

"لا بأس إذن، فنحن لسنا بصدد إحضار فتاة،" أجابت ماريلا، كما لو أن دسّ السم في الآبار كان عملاً أنثوياً خالصاً، ولا يمكن أن يكون مدعاة للقلق إذا تعلّق الأمر بصبي. "إني لا يمكن أن أتخيّل ولو مجرّد خيال إمكانية رعايتي لفتاة، وكم تدهشني السيدة أليكسندر سبنسر لقيامها بذلك. ولكن بالنسبة إليها وفي حال راقتها الفكرة، فإنها لن تتقاعس عن تبني ملجأ أيتام بأكمله."

ودّت السيدة ريتشيل لو أنها كانت تستطيع البقاء إلى أن يعود ماثيو مع يتيمه المستورد. ولكنها بعد أن فكّرت ملياً، وخمّنت بأن هناك ساعتين كاملتين على أقل تقدير قبل أن يحين موعد قدومه، قررت أن

تغادر وتسلك الطريق المؤدي إلى منزل آل روبرت بيل لتطلعهم على الأخبار، التي ستكون حتماً حدثاً مثيراً فريداً. ولا شئ يضاهي ولع السيدة ريتشيل بإشاعة الأخبار المثيرة. وهكذا تحاملت على نفسها وغادرت، مزيحة برواحها شيئاً من الثقل عن صدر ماريلا التي أزكى تشاؤم السيدة ريتشيل الثقيل مخاوفها وشكوكها.

"عجباً من كل الأمور التي كانت أو التي ستكون،" هتفت السيدة ريتشيل عندما اختلت بنفسها في طريق عودتها. "يبدو الأمر كما لو أني أعيش حلماً. حسناً، أنا ، ومن غير أية مواربة، أرثي لذلك الصغير. إن ماثيو وماريلا لا يعرفان شيئاً عن الأطفال، وسيتوقعان منه أن يكون أحكم وأعقل من جدّه، هذا إن سبق وكان له جدّ في يوم ما ، وهو بالطبع أمر مشكوك فيه. وعلى نحو ما ، يبدو وجود طفل في المرتفعات الخضراء شيئاً خارقاً للطبيعة، إذ لم يسبق أن قطنها طفل أبداً، وعندما تمّ تشييد المنزل الجديد كان ماثيو وماريلا كبيرين، هذا إذا سبق لهما أن كانا طفلين في يوم ما ، الأمر الذي يصعب تصديقه عندما ينظر المرء إليهما. ربّاه، إني لا أتمنى مطلقاً أن أحلّ محلّ ذلك اليتيم مهما كان الثمن. وإني بكل صراحة أشفق عليه."

هكذا أفضت السيدة ريتشيل لأجمات الأزهار حولها بما كان يعتلج في أعماق قلبها. ولكنها لو رأت الطفل الذي كان ينتظر بصبر عند محطة بلدة برايت ريفر في تلك اللحظة بالذات فإن إشفاقها كان سيصبح أشدّ وطأة وعمقاً.

٢
دهشة ماثيو كُثْبيرت

تهادى ماثيو كُثْبيرت قائداً فرسه البُنيّة التي خبت بتؤدة على طول الأميال الثمانية المؤدية إلى بلدة برايت ريفر. كان الطريق جميلاً، يمتدّ تارة بين الأبنية الريفية الأنيقة، تتخلله بين فينة وأخرى أشجار التنوب العطرية، ويمتدّ تارة أخرى عبر المنحدرات المتألقة ببراعم الخوخ البري الغضّة. كان الهواء عليلاً يفوح بعبق بساتين التفاح، وكانت المروج تشقّ عباب المدى ماضية نحو ضباب الأفق ذي الشفانية الأرجوانية بينما:

غرّدت العصافير الصغيرة كما لو أن النهار ما كان
إلاّ النهار الصيفي الوحيد في ذلك العام

استمتع ماثيو برحلته على طريقته الخاصة، إلاّ أثناء لحظات مصادفته للنساء في الطريق واضطراره إلى الإيماء لهن برأسه محيياً. ففي جزيرة برنس إدوارد يُفترض منك إلقاء التحية على كل من تصادفه في طريقك بدون استثناء سواء كنت على معرفة سابقة به أم لم تكن.

كان ماثيو يفزع من جميع النساء عدا ماريلا والسيدة ريتشيل؛ ولطالما ألحّ عليه شعور مزعج بأن تلك المخلوقات الغامضة كانت تهزأ منه في سرّها. ومن المحتمل كثيراً أن يكون شعوره هذا صحيحاً لأنه كان مخلوقاً غريب الأطوار، أخرق المظهر، ذا شعر رمادي يصل إلى حدود كتفيه المنحنيين، ولحية كثّة ذات لون بنّيّ فاتح التحاها منذ أن كان في العشرين من العمر.

وفي الحقيقة، لم يكن مظهر ماثيو وهو في العشرين من العمر يختلف كثيراً عمّا بدا عليه في الستين باستثناء افتقاره إلى القليل من الشيب.

بلغ ماثيو محطة برايت ريفر لكنه لم يجد ما يدلّ على وصول أي قطار، فظن أنه وصل مبكراً جداً، لذا عقل فرسه في باحة فندق برايت ريفر المتواضع واتّجه نحو مبنى محطة القطار. كان رصيف المحطة الطويل شبه مقفر، لا تستبين العين فيه إلاّ مخلوقاً وحيداً يجلس على كومة من الحصى عند نهاية الرصيف. وعندما مرّ ماثيو بالقرب من ذلك المخلوق ولحظ أنه كان فتاة حثّ خطاه مبتعداً عنها بأقصى سرعته بدون أن ينظر إليها. ولو نظر لما أعجزته الملاحظة عن رؤية الترقّب المتوتر والأمل في مسلكها وتعابيرها. كانت تجلس هناك تنتظر حدثاً ما أو شخصاً ما. وبما أن الجلوس والانتظار كانا جُلّ ما تستطيع القيام به في ذلك الوقت، جلست وانتظرت بكل ما لديها من طاقة احتمال.

صادف ماثيو مسؤول المحطة وهو يغلق مكتب التذاكر تمهيداً لعودته إلى البيت للعشاء، وسأله عمّا إذا كان قطار الساعة الخامسة والنصف سيصل قريباً.

"وصل قطار الساعة الخامسة والنصف وغادر منذ نصف ساعة،" أجاب ذلك المأمور المستعجل. "ولكن يوجد هنا مسافر يخصّك تمّ إنزاله من القطار: بنت صغيرة. هاهي تجلس هناك على الحصى. لقد طلبت منها الذهاب إلى غرفة انتظار السيدات ولكنها أعلمتني برزانة أنها تفضل البقاء خارجاً. قالت لي: هناك مجال أوسع للخيال. إنها بنت غريبة الأطوار حقاً."

"أنا لا أتوقع حضور بنت،" قال ماثيو بدهشة. "لقد جئت من أجل صبي. ويجب أن يكون هنا، فمن المتفق عليه أن تجلبه لي السيدة أليكسندر سبنسر من نوفا سكوتيا."

صفّر مسؤول المحطة تعجباً، وقال: "لا بدّ من وجود خطأ ما،

فالسيدة سبنسر نزلت من القطار بصحبة تلك الطفلة وسلّمتها لي وقالت إنك وأختك ستتبنيانها من ملجأ للأيتام، وإنك سوف تحضر لأخذها عمّا قريب. هذا كل ما أعرفه عن الموضوع وليس لدي في هذا الجوار أيتام آخرون أخفيهم عنك."

"لست قادراً على فهم شئ،" قال ماثيو بنبرة يائسة، متمنيّاً وجود ماريلا معه لتعالج المشكلة.

"أرى أنه من الأفضل لك استجواب الطفلة،" قال مسؤول المحطة بلامبالاة. "إني واثق من قدرتها على توضيح هذا الالتباس، فهي ليست بكماء بكل تأكيد. ولعله ما عاد لدى أصحاب الملجأ نوع الصبية الذي تريده."

غادر الموظف الجائع المكان بسرعة، وبقي ماثيو التعيس وحده لينجز ما هو أصعب بالنسبة إليه من تحدّي أسد في عرينه.. السير قُدماً نحو فتاة.. فتاة غريبة.فتاة يتيمة.. ومحاسبتها لأنها لم تكن صبياً. أنّت روح ماثيو عندما استدار وجرّ قدميه ببطء على طول الرصيف نحوها.

كانت الطفلة تراقبه منذ مروره السابق من أمامها، وكانت تصوّب عينيها عليه بينما سلك طريقه نحوها. لكن ماثيو لم يكن ينظر إليها، ولو فعل لما استطاع أن يستبين شكلها، مع ذلك فقد كان بإمكان أي إنسان عادي أن يلاحظ التالي:

طفلة في حوالي الحادية عشرة من العمر، ترتدي فستاناً قبيحاً، بالغ الضيق والقصر من القطن السميك ذي البياض المائل للصفرة، تعتمر قبعة بحارة ذات لون بُنيّ باهت، تتدلى تحتها على امتداد الظهر ضفيرتان سميكتان حمراوان. كانت ذات وجه صغير، نحيل، أبيض ومنمش، وذات فم واسع وعينين نجلاوين تبدوان في بعض الأضواء والأمزجة خضراوين وتميلان في أضواء وأمزجة أخرى نحو اللون الرمادي.

أمّا إذا كان الناظر إليها ذا بصيرة أبعد من المراقب العادي فبإمكانه أن يرى أنها كانت ذات ذقن دقيقة واضحة التفاصيل، وأن عينيها النجلاوين مفعمتان بالطاقة والحيوية، وأن فمها محدّد بشفتين رقيقتين معبّرتين وأن جبهتها عريضة وممتلئة. وكان يمكن لهذا الناظر البصير الحاذق أن يستنتج بكل بساطة أن الروح التي تسكن جسم تلك الأنثى الصغيرة الشريدة لم تكن بالروح العادية؛ تلك الفتاة التي كان ماثيو الخجول خائفاً منها إلى حدّ مثير للسخرية.

لحسن الحظ، نجا ماثيو من كارثة مبادرتها بالكلام، لأن الطفلة ما إن تأكّدت أنه كان متوجّهاً نحوها، حتى وقفت قابضة بيد هزيلة سمراء على مَسْكة خُرْجٍ رثّ قديم الطراز، بينما مدّت يدها الأخرى إليه لتصافحه.

"أظن أنك السيد ماثيو كُثْبيرت من المرتفعات الخضراء،" قالت بصوت لطيف واضح النبرات. "أنا سعيدة جداً بلقائك، لأني بدأت أشعر بالخوف من عدم حضورك لأخذي، وشرع خيالي يستعرض جميع العوائق التي قد تكون منعتك من المجيء. وأخيراً، قررت في حال عدم مجيئك الليلة أن أقصد شجرة الكرز البري تلك عند منعطف الطريق، ثم أتسلقها لأقضي ليلتي عليها. وثق أني لن أشعر بذرّة من الخوف. ألا ترى معي أنه سيكون من الرائع أن أنام تحت ضوء القمر بين أحضان أغصان شجرة كرز بري متّشحة بالبراعم البيضاء؟ ألا يمكنك حينها أن تتخيل أنك تعيش في قصر من الرخام؟ على كل حال كنت متأكدة من حضورك في صباح الغد إذا لم تحضر الليلة."

صافح ماثيو اليد الصغيرة الهزيلة بارتباك، وهناك وفي تلك اللحظة توصّل إلى حل يرضيه. فما دام لن يملك الجرأة على إخبار هذه الطفلة ذات العينين المتوهجتين بأن هناك خطأ ما، لذلك يستحسن أن يأخذها معه إلى البيت لتتولى ماريلا الأمر. وفي جميع الأحوال من المستحيل تركها في برايت ريفر. ومهما كانت فداحة الخطأ الذي حدث فإنه يمكن تأجيل جميع التساؤلات والاستفسارات إلى أن يرجع إلى

المرتفعات الخضراء مصحوباً بالسلامة.

"أنا متأسف لأني تأخرت عليك،" قال ماثيو بحياء، "تعالي اتبعيني، فالحصان في الباحة هناك، وأعطني خُرْجك لأحمله."

"أوه، أستطيع حمله وحدي،" ردّت الطفلة بمرح. "إنه ليس ثقيلاً. طبعاً أنا أحمل داخله جميع ما أملكه في هذا العالم، لكنه ليس ثقيلاً. إنه خُرْج بالغ القِدم، وإذا لم يُحمل بطريقة معينة فإن مَسْكته قد تنقطع، لذلك يُستحسن أن أحمله أنا لأني أعرف كيفية التعامل معه. أوه، يسعدني قدومك حقاً، رغم أنه كان من الرائع أن أنام بين أغصان شجرة كرز بري. أظننا سنستقل العربة لمسافة طويلة، أليس كذلك؟ علمت من السيدة سبنسر أنها ثمانية أميال، وهذا يسرّني لأني أحب السفر. أوه، من الرائع أن أنتمي إليكم وأعيش معكم، فأنا لم يسبق لي الانتماء إلى أحد انتماءً حقيقياً، ولكن الملجأ كان أسوأ مكان ذهبت إليه. ورغم أنه لم يمض على وجودي فيه سوى أربعة أشهر، إلاّ أن هذه المدّة تكفيني. طبعاً لا أظن أنك كنت في يوم ما يتيماً في ملجأ، ولذلك من الصعب عليك معرفة ما أعنيه. إنه أسوأ من أي شئ يمكنك تخيلُّه. قالت لي السيدة سبنسر إن كلامي هذا مشين، لكني ما قصدت أن أكون سيئة. ألا تظن أنه من السهل على المرء أن يكون سيئاً بدون أن يشعر بذلك؟ أنا في الحقيقة لا أعني أصحاب الملجأ لأنهم كانوا أناساً طيبين، ولكن الملجأ نفسه لا يوجد فيه أي مجال يسمح للخيال بالانطلاق. وكل ما كنت أستطيع فعله هو تخيُّل أشياء تتعلق بالأيتام الآخرين. وكان من الممتع فعلاً تخيُّل الكثير من الأمور عنهم؛ ما رأيك مثلاً إذا تخيّلت أن الفتاة التي تجلس إلى جانبك هي في الحقيقة ابنة نبيل مهم وأنها قد اختُطِفَت من أهلها في طفولتها على يد ممرضة قاسية ماتت قبل أن تعترف. لقد اعتدت على البقاء مستيقظة في الليل لأتخيَّل أشياء كهذه لأني ما كنت أملك متسعاً من الوقت في النهار. وأعتقد أني نحيلة لهذا السبب بل أظنني هزيلة جداً، ألست كذلك؟ فعظامي لا يكسوها أي لحم أبداً، ولا شئ يسعدني أكثر

من تخيُّلي لنفسي بأني مليحة وسمينة ولديّ غمازات في مرفقيّ."

هنا توقفت رفيقة ماثيو عن الكلام لأن نفَسَها كان قد انقطع، ولأنهما كانا قد وصلا إلى العربة. ولم تنبس ببنت شفة إلى أن غادرا القرية وانحدرا من تلة عالية صغيرة نحو الطريق المشقوق بعمق في التربة الناعمة، والذي انحنت على جانبيه براعم أشجار الكرز البري والبتولا البيضاء الغضّة، متدلية على مسافة بضعة أقدام من رأسيهما.

مدّت الطفلة يدها وكسرت غصناً من أغصان شجر البرقوق البري التي احتكت بحافّة العربة. ثم سألته: "أليس هذا المنظر جميلاً؟ تُرى بِمَ توحي لك تلك الشجرة ذات البراعم البيضاء المنحنية على ضفة الطريق؟"

"هه، لا أعرف حقاً،" أجاب ماثيو.

"عجباً! عروس طبعاً. عروس ترفل بثوب أبيض وتتشح بوشاح سديمي جميل. ورغم أني لم أر عروساً من قبل، أستطيع تخيُّل ما يمكن أن تكون عليه العروس. طبعاً، لست أتوقع أن أصبح أنا نفسي عروساً في يوم ما لأن شكلي عادي جداً بحيث لن أجد من يرغب في الزواج مني، إلاّ إذا كان مبشِّراً أجنبياً، فأنا لا أعتقد أن المبشِّر الأجنبي سيبالي بشكلي كثيراً. لكني آمل أن أحصل في يوم ما على ثوب أبيض فهذا هو ما أعتبره السعادة الأرضية الأعظم. أنا أعشق الملابس الجميلة رغم أني، على ما أذكر، لم أحصل في حياتي على أي ثوب جميل. لكن ألا تظن أن هذا شئ آخر من الأشياء التي يمكن أن أحلم بتحققها؟ كما أنه بوسعي متى شئت تخيُّل نفسي بثياب فائقة الروعة. عندما غادرت الملجأ هذا الصباح شعرت بالخزي لاضطراري إلى ارتداء هذا الفستان القطني البغيض. ولكن جميع الأيتام في الملجأ مضطرون إلى ارتدائه. يُقال إن تاجراً في مدينة هوبتاون تبرع للملجأ في الشتاء الماضي بثلاثمائة ياردة من هذا القماش. ويقول البعض إنه فعل ذلك لأنه لم يتمكن من بيعه، أمّا أنا فأفضل الاعتقاد

بأن هذا العمل كان نابعاً من قلبه الشفوق، فما رأيك أنت؟ وعندما استقلّينا القطار شعرت وكأن جميع الناس كانوا ينظرون إليَّ بإشفاق ولكني حلّقت مع خيالي ورأيتني أرتدي ثوباً من الحرير الأزرق الفاتح لا يضاهي جماله شئ.. هذا لأنك عندما تتخيَّل شيئاً، يجب أن تتخيَّل ما يستحقّ التخيُّل.. كما رأيتُني أعتمر قبعة عريضة تكلّلها الأزهار والريش المتطاير، وأضع ساعة ذهبية وقفازات وجزمة يليقان بالأطفال. وسرعان ما شعرت بالابتهاج ممّا جعلني أستمتع برحلتي إلى الجزيرة استمتاعاً كاملاً. وعندما استقلّينا المركب لم أُصب بالدوار، وكذلك السيدة سبنسر رغم أنها عادة تصاب بدوار البحر. وقالت لي إنها لم تجد متسعاً من الوقت لتصاب بالدوار وهي تراقبني خشية أن أقع في الماء. وقالت أيضاً إنها لم تر أحداً يضاهيني في كثرة الحركة. لكن إذا كان تنقلي في أرجاء المركب قد منعها من أن تصاب بالدوار أفلم يكن ذلك لصالحها؟ لقد أردت رؤية كل شئ يمكن للمرء أن يراه على متن ذلك المركب لأني لا أعرف إذا كانت ستسنح لي فرصة أخرى لذلك. أوه، انظر، هناك المزيد من براعم شجر الكرز. إن هذه الجزيرة تتفوق على جميع الأمكنة الأخرى بما فيها من براعم، وأنا أحبها منذ الآن، وكم أشعر بالسعادة لأني سأعيش هنا. كثيراً ما سمعت أن جزيرة برنس إدوارد هي أجمل بقعة في العالم، وكثيراً ما حلمت بالعيش فيها، لكني لم أتوقع أبداً تحقق هذا الحلم. ألا تظن أنه من الرائع أن تتحقق أحلامك؟ مع ذلك أنا أرى أن هذه الطرقات الحمراء مضحكة للغاية. عندما وصل بنا القطار إلى مدينة تشارلوت تاون وبدأت تلك الطرقات الحمراء تومض خلفنا أثناء تجاوزنا لها، سألت السيدة سبنسر عمّا يجعلها حمراء؟ فقالت إنها لا تعرف، وإنه عليّ، بحقّ السماء، أن أكفّ عن طرح المزيد من الأسئلة عليها، وأني قد سألتها حتى تلك اللحظة آلاف الأسئلة. في الحقيقة أظنني فعلت ذلك، ولكن كيف لك أن تعرف ما تريد معرفته عن الأشياء إذا لم تطرح أسئلة حولها؟ والآن، ما الذي يجعل الطرقات حمراء؟"

"هه، لا أعرف حقاً،" أجاب ماثيو.

"لا بأس، هذا واحد من الأمور التي سأحاول معرفتها يوماً ما. أليس من الرائع أن يفكّر المرء بكل تلك الأشياء التي يريد استكشاف كنهها؟ بل إن هذا يجعلني أشعر بالسرور لأني على قيد الحياة. فهذا العالم هو عالم مثير للاهتمام حقاً. ولو كنّا نعرف كل شيء عن كل شيء فإن أهميته ستتضاءل إلى نصف ما هي عليه الآن، ألا تعتقد ذلك؟ كما أنه لن يكون فيه مجال للخيال. ولكن أتراني أثرثر كثيراً؟ إن الناس يقولون لي ذلك دائماً. أتفضّل أن أصمت؟ إذا شئت هذا، سأتوقف عن الكلام حالاً. فأنا أستطيع التزام الصمت إذا عقدت نيّتي، رغم صعوبة ذلك."

كان ماثيو مندهشاً من نفسه لاستمتاعه بهذه الرفقة. كان مثل معظم الأشخاص الانطوائيين، يحب صحبة الناس الثرثارين عندما يتبرعون بالكلام بدون أن يتوقعوا منه مجاذبتهم أطراف الحديث، لكنه لم يتوقّع أبداً أن يستمتع بصحبة بنت صغيرة. كان يرى أن النساء سيئات بكل معنى الكلمة، ولكنه كان يعتبر الفتيات الصغيرات أسوأ من النساء. ولطالما مقت الطريقة الخجولة التي يتجاوزنه بها في الطريق، وهن يتتبعنه بنظراتهن الجانبية وكأنهن يخشين أن يلتهمهن بلقمة واحدة إذا جازفن بالتفوه بكلمة. هذا هو مسلك فتيات أفونليا المهذبات الذي يعرفه، لكن هذه الساحرة المنمشة كانت مخلوقاً مختلفاً. ورغم أنه وجد شيئاً من الصعوبة في متابعة تدفقات فكرها الحيوي بفكره الأبطأ، شعر أنه يستسيغ ثرثرتها، ولذلك قال بحيائه المعتاد:

"آه، لا، يمكنك التكلم قدر ما تشائين، أنا لا أمانع".

"أوه، كم يسعدني ذلك. أعرف أننا سنكون أنت وأنا على أتمّ وفاق مع بعضنا. إنه من المريح أن يتكلم المرء عندما يرغب، وأن لا يُقال له إن الأطفال يجب أن يراهم الناس بدون أن يسمعوهم. هذا ما كان يُقال لي ملايين المرات إن حدث وتكلمت ذات مرة. بالإضافة إلى أن الناس اعتادوا على السخرية مني لاستعمالي عبارات كبيرة في

حديثي. ولكن ألا ترى أنه إذا كانت لديك أفكار كبيرة فمن المفترض أن تستعمل لها عبارات كبيرة؟"

"نعم، يبدو هذا معقولاً،" أجاب ماثيو.

"قالت السيدة سبنسر إن لساني معلّق من وسطه. ولكنه ليس كذلك، إنه مثبّت بإحكام عند نهاية حلقي. وقالت السيدة سبنسر إن منطقة أملاكك تدعى المرتفعات الخضراء. وقد سألتها عن كل شئ يتعلق بها. أخبرتني أنها محاطة بالأشجار، وكم شعرت بالسعادة عندما علمت ذلك، فأنا أعبد الأشجار، ولم يكن في الملجأ أشجار تستحق الذكر إلاّ بضع شُجيرات ضئيلات ذابلات عند مدخل الملجأ من الخارج تسوّرها قضبان باهتة البياض. وكانت تبدو وكأنها هي أيضاً يتيمة. لقد كانت كذلك حقاً. وكان النظر إليها يحفّز عندي الرغبة بالبكاء. واعتدت أن أقول لها: آه أيتها الأشجار الهزيلة المسكينة كان يمكنك أن تكبري لو كنت ي غابة شاسعة كبيرة تحيط بك الأشجار الأخرى وتنمو حول جذورك الطحالب وأزهار حزيران، ويؤنسك جدول قريب وتغني العصافير على أغصانك. ولكنك هنا لا تستطيعين النمو، أليس كذلك؟ وعندما غادرت الملجأ هذا الصباح شعرت بالحزن لأني سأتركها وحدها. ألا ترى معي أن الإنسان يصبح مولعاً كثيراً بمثل هذه الأشياء؟ تُرى أيوجد أي جدول بالقرب من المرتفعات الخضراء؟ نسيت أن أسأل السيدة سبنسر هذا السؤال."

"ها، نعم، هناك جدول يجري تحت الدارة تماماً."

"يا للروعة، كان السكن قرب جدول واحداً من أحلامي، رغم أني لم أتوقع تحقق هذا الحلم، فالأحلام لا تتحقق دائماً، أليس كذلك؟ أما كان من اللطيف لو أنها كانت دائمة التحقق؟ الآن.. والآن فقط أشعر أن سعادتي أصبحت شبه مكتملة. شبه مكتملة لأني.. حسناً، أخبرني ما هو اللون الذي يمكن أن تطلقه على هذا؟"

هزّت الطفلة رأسها نافضة عن كتفها النحيل واحدة من جديلتيها

الطويلتين االلامعتين، وأمسكتها رافعة إياها باتجاه عينيّ ماثيو. لم يكن ماثيو معتاداً على الحكم على ألوان ضفائر النساء ولكن في هذه الحالة لم يكن هناك مجال كبير للشكّ.

"إنه أحمر، أليس كذلك؟" قال.

أفلتت الفتاة الجديلة من يدها وزفرت زفرة بدت وكأنها صادرة من أعمق أعماقها، وأنها قد أطلقت معها أحزان العصور كلها.

"نعم إنه أحمر،" قالت باستسلام. "ها أنت تعرف الآن لماذا لا يمكن أن تكتمل سعادتي. ولا أحد لديه شعر أحمر يمكن أن يكون كذلك. إن عيوبي الأخرى لا تهمّني كثيراً، أعني النمش والعينين الخضراوين والهزال، إذ يمكنني أن أتخيَّل نفسي بدونها. أستطيع بكل سهولة تصوّر نفسي ببشرة وردية نقيّة وعينين بنفسجيتين حالمتين، ولكني لا أستطيع تصوّر هذا الشعر الأحمر على غير ما هو عليه. ومع أني أبذل جهدي وأحاول إقناع نفسي بقولي: إن شعري الآن فاحم السواد.. أسود مثل جناح غراب، أعرف دائماً أنه أحمر، وهذا يحطم قلبي، وسيبقى باستمرار حزني الأبدي. لقد قرأت ذات مرة في إحدى الروايات عن فتاة كان لديها حزن أبدي، ولكنه لم يكن بسبب الشعر الأحمر. كان شعرها ذهبياً خالصاً، يتموّج فوق جبينها المرمري. أتعرف ما هو الجبين المرمري؟ لم أستطع أبداً أن أعرف ما هو. أيمكن أن تخبرني عن معناه؟"

"أخشى أني لا أستطيع، لأني لا أعرف،" أجاب ماثيو الذي بدأ يشعر بدوار لطيف، سبق له أن شعر بمثله ذات مرة في ريعان الطفولة الطائشة عندما أغواه صبي آخر على ركوب أرجوحة دوامة الخيل في إحدى النزهات.

"لا بأس، مهما يكن معناه لا بدّ وأنه شئ لطيف لأن تلك الفتاة كانت بديعة الجمال. أسبق لك أن تخيّلت كيف يمكن أن يشعر المرء إذا كان بديع الجمال؟"

"في الحقيقة، لا، لم أفعل،" اعترف ماثيو ببراءة.

"أنا أفعل ذلك غالباً. تُرى هل تفضّل فيما إذا كان لديك حقّ الخيار أن تكون بديع الجمال أو مفرط الذكاء أو ملائكي الخصال؟"

"أنا.. أنا لا أعرف بالضبط أيهم أحسن."

"ولا أنا أيضاً. ولا يمكنني أن أقرّر أبداً. ولكن هذا لا يشكّل فارقاً مهماً، لأني على ما يبدو لن أتحلّى أبداً بأية صفة من هذه الصفات. ومن المؤكد أني لن أكون ملائكية الخصال، تقول السيدة سبنسر.. أوه ياسيد كُثْبيرت، ياسيد كُثْبيرت، ياسيد كُثْبيرت!!!"

لم يكن هذا ما قالته السيدة سبنسر، كما أن الطفلة لم تكن على وشك الوقوع من العربة، وكذلك لم يقم ماثيو بأي عمل مثير للدهشة، بل كانا بكل بساطة قد وصلا إلى منعطف طريق، ووجدا نفسيهما أمام طريق أفينيو المشجّر.

كان الطريق المشجّر، الذي يطلق عليه أهالي قرية نيوبريدج اسم أفينيو، يمتدّ على طول أربع أو خمسمائة ياردة، تكلّله قناطر من أشجار التفاح الضخمة التي يكتظّ بها المكان، والتي زرعها منذ زمن بعيد مزارع غريب الأطوار. كانت أغصان الأشجار العالية المكتسية بالبراعم العبقة تتشابك منحنية ومتراصّة كقبّة ثلجية، وقد تضرّج الجو تحتها بظلال الشفق الأرجوانية، بينما شعّت السماء عند نهاية الطريق موشّاة بألوان الغروب، وكأنها نافذة مستديرة مخرّمة لكاتدرائية ما، تقع عند نهاية الممر.

أصاب جمال هذا المشهد الطفلة بالخرس. فتراجعت مستندة على مقعد العربة وقد تشابكت يداها النحيلتان أمامها، وانتصب وجهها بانتشاء متطلعاً إلى الأعلى نحو ذلك السناء الأبيض. ولم تتحرك أو تتكلم حتى بعد أن تجاوزا المكان واتجها نزولاً على طول المنحدر نحو نيوبريدج. وبقيت مستغرقة في سكينتها تحملق باتجاه الغروب بعينين شهدتا للتوّ رؤى احتشدت بروعة في ذلك المكان الباهر. وتابع

المسافران طريقهما بصمت أيضاً عندما مرّا في نيوبريدج، القرية الصغيرة الصاخبة التي نبحت فيها الكلاب عليهما، وصاح الصبية، واسترقت الوجوه الفضولية النظر إليهما عبر النوافذ. وظلّت الطفلة صامتة حتى بعد مُضيّهما قُدماً على طول ما يقارب ثلاثة أميال. كان يمكنها أن تلتزم بالصمت، كان هذا واضحاً. بل كان يمكنها أن تصمت بنفس الطاقة التي تستطيع أن تتكلم بها.

"أعتقد أنك تشعرين بالإرهاق والجوع،" قال ماثيو مجازفاً في النهاية. مفسّراً سبب استغراقها في الصمت بالشئ الوحيد الذي خطر على باله. "ولكن لم يتبق لنا مسافة طويلة لنقطعها الآن، ميل آخر فقط."

استفاقت الطفلة من أحلام يقظتها وهي تتنهّد بعمق، ونظرت إليه نظرة روح حالمة كانت تتجول بعيداً برعاية النجوم.

"أوه ياسيد كُثْبيرت،" همست. "ذلك المكان الذي كنّا فيه.. ذلك المكان الأبيض.. ما هو؟"

"ها، لا بدّ وأنك تقصدين الطريق المشجّر: أفينيو،" أجاب ماثيو بعد عدّة لحظات من التفكير العميق. "إنه مكان لطيف نوعاً ما."

"لطيف؟ أوه، لا تبدو كلمة لطيف الكلمة المناسبة هنا، ولا حتّى كلمة جميل لا تفي بالغرض. ربّاه، إنه رائع.. رائع. إنه الشئ الوحيد الذي رأيته والذي لا يمكن أن يضيف عليه الخيال أي شئ. لقد أشعرني بالاكتفاء هنا،" ووضعت يداً على قلبها. "لقد أصابني بوجع غريب عجيب ولكنه كان وجعاً محبباً. أسبق لك أن شعرت بمثل هذا النوع من الوجع ياسيد كُثْبيرت؟"

"في الواقع، لا أذكر أنه قد سبق لي الإحساس بذلك."

"أمّا أنا فإني أشعر به كثيراً، وذلك كلّما رأيت شيئاً ملكي الجمال. ولكن ما كان يجدر بهم أن يطلقوا على ذلك المكان مثل هذا الاسم، ليس هناك أي معنى لهذا الاسم. كان يجب أن يسموه.. دعني

أفكر.. نعم، درب البهجة الأبيض. أليس هذا بالاسم الخيالي الجميل؟ عندما لا يعجبني اسم مكان أو شخص أخترع له اسماً جديداً، وأتخيَّله دائماً بالاسم الذي اخترعته له. كان لدينا في الملجأ فتاة تدعى هيبزيبا جينكز ولكني تخيّلتها دائماً باسم روزالينا دو فير. يمكن للناس أن يطلقوا على ذلك المكان اسم الطريق المشجّر، أمّا أنا فسأسميه من الآن فصاعداً: درب البهجة الأبيض. أحقاً لم يبق بيننا وبين الوصول إلى البيت سوى ميل آخر؟ أنا سعيدة وحزينة في نفس الوقت. أنا حزينة لأن هذه الرحلة كانت ممتعة جداً، وعادة يصيبني الحزن عندما تنتهي الأشياء الممتعة. قد تأتي في المستقبل أشياء أكثر إمتاعاً منها، ولكنك لا يمكن أبداً أن تكون متأكداً من ذلك، بل غالباً ما يكون الآتي أقل إمتاعاً. هذا، على كل حال، ما عرفته من تجاربي. ولكني سعيدة لأننا سنصل إلى البيت، فأنا على ما أذكر لم يكن لي بيت حقيقي من قبل. ومجرّد التفكير بأني سأعيش في بيت حقيقي يسبب لي ذلك الوجع المحبب مرة أخرى، أليس هذا لطيفاً؟"

وصلت العربة إلى قمة تلّة، فأشرفا على بركة بدت أشبه بنهر طويل ملتوٍ. يقطعها عند منتصفها جسر ممتدّ فوقها. ومن بدايتها إلى طرفها الأقصى الذي يفصله عن الخليج الداكن الزرقة حزام من تلال الرمل الكهرماني اللون، سطع الماء فيها هالةً من الظلال الوجدانية المضرّجة بالصفرة الغامقة والحمرة الوردية والخضرة الأثيرية، والمتداخلة مع ألوان أخرى من تلك الألوان المحيّرة التي لم يتمّ العثور على أسماء لها أبداً. ومن على ضفّة البركة انحنت بين مكان وآخر أشجار البرقوق، كل شجرة كأنها صبية ترفل برداء أبيض، وتقف على رؤوس أصابعها لتتأمل انعكاس صورتها في الماء. كانت البركة تمتدّ بعد الجسر متغلغلة في الأحراش المحفوفة بأشجار التنوب والقيقب لتهجع بخفاء شفاني تحت ظلال الأغصان المتمايلة، ومن المستنقع الواقع عند رأسها تعالى نشيد جوقة الضفادع صادحاً برخامة حزينة. وإلى الوراء عند المرتفع انبثق بستان تفاح يطلّ عليه منزل

رمادي صغير. ورغم أن العتم لم يكن قد حلّ بعد، كان هناك ضوء يسطع من إحدى نوافذه.

قال ماثيو: "تلك بركة باري."

"آه، لم أحب هذا الاسم أيضاً، سأدعوها.. حسناً، دعني أفكر.. سأدعوها: بحيرة المياه البراقة. نعم، هذا هو الاسم المناسب لها. أنا أعرف بسبب الرعشة التي أشعر بها. فعندما أُوفّق في العثور على اسم مناسب للشئ الذي أريد تسميته أصاب بهذه الرعشة. هل تسبب لك الأشياء أي شعور بالارتعاش؟"

حاول ماثيو اجترار أفكاره.

"نعم أعتقد ذلك، أنا عادة أشعر بالارتعاش عندما أرى تلك اليرقانات البيضاء في غرسة القثّاء. وأنا في الحقيقة أكره رؤيتها."

"أوه، لا أعتقد أن هذا هو نفس النوع من الارتعاش الذي أعنيه، أتعتقد أنه يمكن أن يكون كذلك؟ لا يبدو أن هناك علاقة كبيرة بين اليرقانات وبين البحيرات ذات المياه البراقة، أليس كذلك؟ ولكن لماذا يسميها الناس بركة باري؟"

"أظن لأن السيد باري يعيش هناك في ذلك المنزل، واسم منطقته منحدر البستان. ولولا تلك الأجمة الكبيرة خلفه لكان بإمكانك رؤية المرتفعات الخضراء من هنا. ولكن علينا أن نقطع الجسر وننعطف مع الطريق، وهذا يعني ما يقارب مسيرة نصف ميل بعد."

"أيوجد عند السيد باري بنات صغيرات؟ لا أعني صغيرات جداً، بل بحجمي تقريباً؟"

"لديه ابنة في حوالي الحادية عشرة من العمر، اسمها ديانا."

أخذت الطفلة نفساً طويلاً وهتفت: "ياله من اسم بديع الجمال"

"هه، لا أعرف حقاً، يبدو لي أن هناك شيئاً وثنياً غير محبب فيه، أنا أفضّل اسم جين أو ماري أو أي اسم آخر معقول. ولكن صدف أنه

عندمـا وُلدت ديانا كـان يقـيم عندهم أسـتـاذ مـدرسـة، وطلبـوا منه تسميتها، فاختار لها اسم ديانا."

"أتمنى لو كان هناك أستاذ مدرسة مثله عندما وُلدت. أوه، ها نحن قد وصلنا إلى الجسر. سوف أغمض عينيّ بقوة، فأنا أخاف عبور الجسور دائماً، ولا أستطيع منع نفسي من تخيُّل أنها ربما عندما أصل إلى منتصفها ستتقوض مبتلعة كل شئ كأنها مطواة في طريقها إلى الانغلاق. لذلك أغمض عينيّ، لكني دائماً أفتحهما على وسعهما عندما أعتقد أني بلغت منتصفه، لأنه إذا حدث وانهار الجسر أرغب فعلاً في رؤيته أثناء تقوّضه. يا للقعقعة المرحة التي تصدر عنه، لطالما أحببت هذا الجزء من عملية عبور الجسور. أليس من الرائع أن تكون هناك أشياء كثيرة نحبها في هذا العالم؟ ها نحن قد تجاوزناه أخيراً. الآن سأنظر إلى الوراء. تصبحين على خير يابحيرة المياه البراقة الغالية. أنا دائماً ألقي تحية المساء على الأشياء التي أحبها، كما أفعل مع الناس تماماً. أظن أن هذه الأشياء تحب ذلك. تلك المياه بدت وكأنها تبتسم لي عندما حييتها."

عندما وصلت بهما العربة إلى التلّة الأخيرة وانعطف بهما الطريق، قال ماثيو:

"أصبحنا قريبين جداً الآن، تلك هي المرتفعات الخضراء عنـــ ....."

"أوه، لا.. لا تخبرني شيئاً،" قاطعته متسارعة الأنفاس، ممسكة ذراعه التي همّ برفعها مشيراً، ومغلقة عينيها حتى لا ترى إشارته، "دعني أخمّن. أنا متأكدة أني سأعرفها وحدي."

فتحت عينيها ونظرت حولها. كانا على قمة تلّة، وكانت الشمس قد غربت منذ بعض الوقت، ولكن الطبيعة احتفظت بمعالمها واضحة في كنف سماء الغروب اللطيف. رأت في الجهة الغربية قمّة الكنيسة المعتمة وقد ارتفعت باتجاه السماء المخملية. ورأت أسفل التلّة وادياً صغيراً يمتدّ بعده طريق منعطف، طويل، طفيف الارتفاع تبعثرت على

امتداده الأبنية الريفية الأنيسة. تنقلت عينا الطفلة من مسكن لآخر بلهفة وتوق، وأخيراً، وعلى ضوء الشفق المتغلغل في الأحراج، وبعيداً عن الطريق المأهول باتجاه اليسار، حطّت عيناها على منزل ناءٍ عن الطريق، ظللته الأشجار المزهرة ببياض مبهم، ولمعت فوقه عند سماء الجنوب الغربي الصافية، نجمة عظيمة لامعة كالزجاج، كأنها مصباح هداية وبشارة.

"ذاك هو، أليس كذلك؟" قالت مشيرة بيدها.

ساط ماثيو ظهر فرسه البُنيّة بابتهاج.

"حسناً لقد حزرت، ولكني أظن أن السيدة سبنسر وصفته لك، ولذلك تمكّنت من معرفته."

"لا، لم تفعل، صدقاً لم تفعل. كل ما قالته يتعلق تقريباً بجميع تلك الأماكن التي مررنا بها. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا هي عليه المرتفعات الخضراء ولكني ما إن رأيتها شعرت أن هذا هو البيت. يبدو لي وكأني في حلم. أتعرف، لا شكّ أن ذراعي أصبح الآن كالح الزرقة ابتداءاً من المرفق إلى الساعد، لأني اليوم قرصت نفسي مرات لا تحصى. إذ كان ينتابني بين فينة وأخرى إحساس مفزع مروّع بأن ما يجري ليس إلاّ مجرّد حلم، إلى أن خطر لي فجأة أني حتّى لو افترضت أنه مجرّد حلم فمن الأفضل لي الاستمتاع به قدر المستطاع، لذلك كففت عن قرص ذراعي. ولكن هذا ليس حلماً، إنه حقيقة أكيدة، ونحن على وشك الوصول إلى البيت."

تنهّدت الطفلة بجذل وأخلدت إلى الصمت. لكن ماثيو شعر بقلق مربك. وحاول طمأنة نفسه بأن ماريلا هي من سيخبر هذه المنبوذة بأن البيت الذي تتوق إليه لن يكون في النهاية بيتها.

تجاوزا غَور ليند الذي كان قد عمّه الظلام، ولكن ليس إلى ذلك الحدّ من الظلام الذي لا يسمح للسيدة ريتشيل أن تراهما من خلال نافذتها. اتجها بعد ذلك نحو التلّة ثم سلكا درب المرتفعات الخضراء

الطويل. وفي الوقت الذي وصلا فيه إلى الدارة كان قلب ماثيو مثقلاً بشعور غريب لم يستطع فهمه، ومنقبضاً من المواجهة المنتظَرَة. لم يكن يفكّر بماريلا أو بنفسه أو بالمشكلة التي سيسببها لهما هذا الخطأ، بل بخيبة أمل تلك الطفلة. وعندما فكّر بذلك البريق النشوان في عينيها الذي سيتمّ إخماده، سيطر عليه الشعور بأنه كان على وشك المشاركة في ارتكاب جريمة.. شعور يماثل الشعور الذي يهيمن عليه عندما يضطر إلى نحر حمل أو عجل أو أي مخلوق آخر صغير وبرئ.

كان الفناء غارقاً في العتمة عندما دخلاه، وكانت أوراق شجر الحَور تهمهم فيه بلطف.

"أنصِت إلى الأشجار وهي تحكي أثناء نومها،" همست الطفلة لماثيو عندما حملها من العربة إلى الأرض. "يا للأحلام الجميلة التي تحلم بها."

ثم تبعته إلى البيت، قابضة بإحكام على مَسْكة الخُرْج الذي يحتوي كل ما تملكه في هذا العالم.

٣

دهشة ماريلا كُثْبيرت

ما كاد ماثيو يفتح الباب حتى أسرعت ماريلا نحوه، لكنها سرعان ما تسمّرت مذهولة عندما وقعت عيناها على الطفلة الغريبة ذات الثوب الزريّ الكريه والجديلتين الحمراوين الطويلتين والعينين اللتين يشعّ فيهما بريق اللهفة.

"ماثيو كُثْبيرت، من هذه؟ أين الصبي؟" صاحت ماريلا.

"لم يكن هناك أي صبي، لم يكن هناك إلاّ هـــــي."

أجاب ماثيو باستسلام، وأومأ برأسه نحو الفتاة متذكّراً فجأة أنه لم يسألها عن اسمها.

"لم يكن هناك صبي! ولكن لا بدّ من وجود صبي،" ألحّت ماريلا. "لقد أرسلنا كلمة للسيدة سبنسر لتجلب لنا صبياً."

"يبدو أنها لم تفعل، وبدلاً من ذلك أحضرت هذه الفتاة كما فهمت من مسؤول المحطة. وفي جميع الأحوال كان عليّ أن أحضرها معي إلى البيت إذ لا يمكن تركها وحيدة هناك، مهما كانت فداحة الخطأ الذي تمّ ارتكابه."

"إنها لقضية بالغة التعقيد حقاً،" هتفت ماريلا.

بقيت الطفلة صامتة أثناء هذا الحوار. كانت تتابع المتحاوريْن بعينيها، وقد أخذت الحياة تخبو شيئاً فشيئاً من وجهها. ثم أدركت فجأة معنى ما كان يُقال، فأسقطت خُرْجها الغالي أرضاً واندفعت خطوة إلى الأمام ووقفت مشابكة يديها.

"أنتم لا تريدونني،" صاحت. " أنتم لا تريدونني لأني لست صبياً! كان يجدر بي توقّع هذا، فلا أحد أبداً أرادني من قبل. كان يجب أن

أعلم أن كل ما جرى هو أروع من أن يدوم. كان يجب أن أعرف أن لا أحد يريدني حقاً. ماذا سأفعل الآن؟ آه.. إني على وشك الانفجار بالبكاء."

وكان أن انفجرت بالبكاء فعلاً.

جلست على كرسي إلى جانب الطاولة، وطرحت ذراعيها عليها، مخفية وجهها بهما، وغابت في نوبة من النشيج. نظر ماثيو وماريلا إلى بعضهما بِحَيرةٍ من فوق الموقد حيث كانا يقفان، ولم يدر أحد منهما ماذا يفعل أو يقول. أخيراً توجّهت ماريلا نحو الطفلة في محاولة مترددة منها لرأب الصدع.

" هيا.. هيا.. لا داعي الآن للبكاء بسبب هذا الأمر."

"بلى هناك داعٍ للبكاء،" رفعت الفتاة رأسها بسرعة، مسفرة عن شفتين مرتجفتين ووجه خضّلته الدموع. "أنت أيضاً قد تبكين لو كنت يتيمة ثم قصدت مكاناً تظنين أنه سيكون بيتك، ثم تكتشفين أن أهله لا يريدونك لأنك لست صبياً. ياإلهي إنّ هذه أسوأ مأساة واجهتني في حياتي."

فجأة، لانت قسمات وجه ماريلا العابس كاشفة عن تعبير ما، يكاد يشبه ابتسامة مُتمنّعة، شبه صدئة من قلّة الاستعمال.

"هيا، كفّي عن البكاء الآن، فنحن لن نطردك خارجاً هذه الليلة. وستبقين هنا إلى أن نحقّق في هذه المشكلة. ما اسمك؟"

ترددت الطفلة للحظة، ثم قالت بحماس:

"أيمكن أن تناديني كورديليا؟"

"أناديك كورديليا؟ أهذا هو اسمك؟"

"لـ.. لـ.. لا..، إنه ليس اسمي فعلاً، ولكني أحب أن أُدعى كورديليا، فهو اسم جميل."

"إني، بحق السماء، لا أفهم ما الذي تعنينه بكلامك. إذا لم يكن

اسمك كورديليا فما اسمك؟"

"آن شيرلي،" تلعثمت صاحبة الاسم وهي تعلن اسمها مُكرهة، ثم أردفت: "ولكن، أرجوك ناديني كورديليا، إن الأمر لن يكون ذا أهمية بالغة بالنسبة إليك في أن تناديني بأي اسم ما دمتُ لن أبقى هنا إلاّ مدّة قصيرة، كما أن اسم آن اسم غير شاعري أبداً."

"غير شاعري.. هراء.." قالت ماريلا بلهجة خالية من العاطفة. "آن: اسم لطيف وسهل أيضاً، وليس هناك ما يدعو إلى الخجل منه."

"أوه.. أنا لا أشعر بالخجل منه،" أوضحت آن. "ولكني أحب اسم كورديليا أكثر. ولطالما تخيلّت أن اسمي كورديليا.. هذا على الأقل ما فعلته في السنوات الأخيرة. عندما كنت صغيرة اعتدت على تخيُّل أن اسمي هو جيرالدين، أمّا الآن فأنا أحب اسم كورديليا أكثر. ولكن إذا كنت تصرّين على مناداتي باسم آن، أرجوك مدّي الألف وأشبعي النون عند لفظه."

"وأي فرق هناك بمدّ الألف أو عدم مدّها وبإشباع النون أو عدم إشباعها؟" سألتها ماريلا وقد لاحت على وجهها ابتسامة أخرى صدئة بينما كانت تتناول إبريق الشاي.

"هناك فرق كبير جداً. إنه يبدو أجمل بكثير عندما نمدّ الألف ونشبع النون. عندما يُلفظ أي اسم أمامك ألا تتخيلينه في ذهنك؟ أنا أفعل هذا! واسم آن بدون مدّ الألف لن يكون مُشبع النون، وسيبدو شنيعاً. ولكن عندما نقول آن ونمدّ الألف ونشبع النون يصبح الاسم مميزاً فعلاً. وإذا ناديتني آن ومددت الألف وأشبعت النون سأوافق على عدم مناداتي باسم كورديليا."

"لا بأس! والآن.. ياآن، مع مدّ الألف وإشباع النون، أيمكنك أن تخبرينا كيف وقع هذا الخطأ؟ لقد بعثنا كلمة إلى السيدة سبنسر لتجلب لنا صبياً. ألم يكن هناك صبيان في الملجأ؟"

"بلى، إن هناك وفرة منهم. لكن السيدة سبنسر أكّدت على أنكما

تريدان بنتاً في حوالي الحادية عشرة من العمر، ورأت القيّمة على الملجأ أني أفي بالغرض. إنك لن تدركي أبداً كم شعرت بالسعادة، بل إن شدّة فرحي منعتني من النوم الليلة الماضية."

أجابت الطفلة ثم التفتت نحو ماثيو وأضافت بلهجة معاتبة: "لماذا لم تخبرني في المحطة أنكما لم تكونا ترغبان في وجودي وتركتني هناك؟ لو لم أر درب البهجة الأبيض وبحيرة المياه البراقة لما كان الأمر بمثل هذه القسوة."

" ما الذي تعنيه بحق السماء؟" سألت ماريلا ماثيو وهي تتفرس فيه.

"إنها... إنها تشير إلى محادثة جرت بيننا ونحن في طريقنا إلى البيت،" أجاب ماثيو بسرعة، ثم أضاف: "سأخرج لأضع الفرس في الحظيرة ياماريلا. أعدّي الشاي ريثما أعود."

"هل أحضرت السيدة سبنسر أحداً غيرك معها؟" تابعت ماريلا الحديث بعد أن غادر ماثيو.

"أحضرت لِيلي جونز لنفسها. لِيلي طفلة في الخامسة من العمر فقط، وهي جميلة جداً وذات شعر بلون البندق. تُرى لو كنت جميلة وذات شعر بلون البندق أكنتِ احتفظت بي؟"

"لا، نحن نريد صبياً ليساعد ماثيو في المزرعة، ولا نفع من وجود فتاة معنا. اخلعي قبعتك، سأضعها مع حقيبتك على طاولة الردهة."

خلعت آن قبعتها باستكانة. وبعد أن عاد ماثيو جلس الجميع حول الطاولة من أجل تناول العشاء. لكن آن لم تستطع الأكل. ورغم أنها حاولت قدر جهدها قضم لُقيمات الخبز بالزبدة، ونَقْد نُتَفٍ من مربّى التفاح المحفوظ في وعاء زجاجي مدوّر ناتئ الحواف، كان بالقرب من طبقها، إلاّ أن محاولتها لم تؤد إلى أية نتيجة.

"أنت لا تأكلين شيئاً،" قالت ماريلا وهي تعاين الطفلة باستهجان وكأن الأمر كان عيبا لا يغتفر.

تنهّدت آن.

"لا أستطيع، فأنا غارقة في أعماق اليأس. أيمكنك أكل شئ إذا كنت غارقة في أعماق اليأس؟"

"لم يسبق لي أن غرقت في أعماق اليأس، ولذلك لا أستطيع إفادتك بشئ عن هذا الموضوع." ردّت ماريلا متجاوبة مع الطفلة.

"لم يسبق لك ذلك؟ حسناً، أَسبقَ لك أن حاولت التخيُّل أنك في أعماق اليأس؟"

"لا...لم أفعل."

"إذن، لا أظنك ستتمكنين من فهم ما أعنيه. هو في الحقيقة إحساس غير مريح أبداً، وعندما تحاولين الأكل تعترض حلقك غصّة ما، تحول بينك وبين ابتلاع أي شئ، حتى لو كان ذلك الشئ قطعة حلوى من الكراميلة. لقد سبق لي ذات مرّة قبل سنتين أن حصلت على قطعة حلوى من الكراميلة، وكانت بكل بساطة لذيذة. وكثيراً ما حلمت أثناء نومي أنه لديّ الكثير من هذه الحلوى، ولكني كنت كلّما هممت بالتهامها أستيقظ من النوم. أرجو ألاّ تنزعجي من عدم رغبتي في الأكل. ورغم أن هذا الطعام شهي جداً، أنا عاجزة عن تناول أي شئ منه."

"أعتقد أنها متعبة،" قال ماثيو، الذي لم يتفوه بكلمة منذ عودته من الحظيرة. "يُستحسن أن تضعيها في الفراش لتخلد إلى النوم ياماريلا."

كانت ماريلا تسائل نفسها عن المكان الذي يجدر بها جعل آن تنام فيه. لقد سبق أن أعدّت أريكة في الحجرة التابعة للمطبخ من أجل الصبي الذي كانت تتوقع حضوره. ورغم أن المكان كان مرتباً ونظيفاً إلاّ أنها لم تره لائقاً بفتاة. وبكل تأكيد، لم تكن غرفة الضيوف الاحتياطية موضع نقاش يمكن حسمه لصالح تلك الشريدة البائسة. ولم تبق هناك خيارات أخرى سوى السقيفة الشرقية. وهكذا أشعلت ماريلا شمعة وطلبت من آن أن تتبعها، الأمر الذي فعلته الطفلة

تلقائياً. وعندما كانتا تتجاوزان الردهة في طريقهما إلى السلم، لاحظت آن وهي تتناول قبعتها وخُرْجها مدى النظافة المخيفة التي تعمّ الردهة، ثم اكتشفت أن نظافة الغرفة الصغيرة التي وجدت نفسها فيها تفوق نظافة تلك الردهة.

وضعت ماريلا الشمعة على طاولة ثلاثية الأرجل، ثلاثية الزوايا، ونحّت غطاء السرير.

"أظن أنك تملكين قميص نوم،" سألت ماريلا آن، فأومأت الأخيرة إيجاباً.

"نعم لديّ قميصان للنوم، صنعتهما لي القيّمة على الملجأ. إنهما رثّان للغاية، إذ لا يوجد أبدا من المال ما يكفي للاهتمام بكل شئ في الملجأ. لذلك تبقى الأشياء فيه رثّة، على الأقل في ملجأ فقير مثل الملجأ الذي كنت فيه. أنا أكره قمصان النوم الرثّة. ولكن ألا يشعر المرء بالسلوى عندما يكون قادراً على تخيُّل نفسه وهو يرفل بقمصان نوم جميلة لها ياقات مكشكشة؟"

"هيا، اخلعي ملابسك بأقصى سرعة واخلدي إلى النوم. سأعود بعد عدة دقائق لآخذ الشمعة، فأنا لا أجرؤ على ترك مهمة إطفائها لك، لأنه من المحتمل أن تجعلي المكان كله يهبّ بالنيران."

أخذت آن تتفحص الغرفة بلهفة بعد ذهاب ماريلا. لاحظت العريّ المخيف الذي كانت عليه جدرانها البيضاء الجرداء، وشعرت أن تلك الجدران المحدّقة بها كانت تتوجع من عريها. كانت أرض الغرفة عارية أيضاً إلاّ من حصيرة مجدولة دائرية الشكل تحتلّ وسط الغرفة، ولم تكن تشبه أي شئ سبق أن رأته آن من قبل. وفي إحدى زوايا الغرفة استقرّ سرير عالٍ قديم الطراز، ذو دعامات أربع قاتمة اللون طفيفة الانحناء. بينما انتصبت في الزاوية الأخرى الطاولة الثلاثية الزوايا المذكورة آنفاً، وقد وُضعت عليها وسادة مخملية صغيرة خاصة بغرز الدبابيس، غير أنها كانت صلبة لدرجة تؤهلها لأن تعقف رأس أجرأ

الدبابيس وأكثرها حدّة. وفوق الطاولة، عُلّقت على الحائط مرآة صغيرة مستطيلة. أمّا النافذة فكانت تقع في منتصف المسافة بين الطاولة والسرير، تجلّلها ستائر من الموسلين الأبيض المكشكش. وفي الجهة المواجهة لها انتصبت المغسلة.

كانت الغرفة بمُجملها توحي بقسوة تعجز عن وصفها الكلمات، ممّا بعث الرعدة في أوصال آن التي زفرت وخلعت ملابسها على عجل. وسرعان ما ارتدت قميص النوم البالي، وقفزت إلى السرير حيث دفنت وجهها في المخدة وسحبت الغطاء فوق رأسها.

عندما عادت ماريلا لتأخذ الشمعة، لم يكن في الغرفة ما يدلّ على وجود شخص آخر غيرها إلاّ المظهر الأهوج الذي بدا عليه السرير، وكومة الأسمال الرثّة التي خلعتها آن وتركتها مُلقاة على الأرض بعشوائية.

التقطت ماريلا ملابس آن من على الأرض برزانة، وحطتها بعناية على كرسي أصفر أنيق، ثم اتجهت نحو السرير وهي تحمل الشمعة بيدها.

"ليلة هانئة،" قالت ماريلا بلهجة مرتبكة ولكنها ليست خالية من الرقة.

انبثق وجه آن الأبيض بعينيه النجلاوين من تحت الغطاء بدهشة مُجفلة.

"كيف يمكنك وصفها بأنها ليلة هانئة، وأنت تعرفين أنها أسوأ ليلة شهدتها في حياتي؟" ردّت آن لائمة، ثم عادت وغطست تحت الغطاء مُخفية نفسها من جديد.

نزلت ماريلا ببطء ميممة شطر المطبخ، وشرعت تجلي أطباق وجبة العشاء. كان ماثيو يدخن الغليون، مما دلّ بشكل قاطع على تشوّش ذهنه. كان نادراً ما يدخن، لأن ماريلا لطالما عارضته في هذا الأمر مصرّة على أن التدخين عادة كريهة. لكن ماثيو كان في أوقات معينة

وفصول معينة يشعر برغبة لا تقاوم في التدخين. وفي مثل هذه الظروف كانت ماريلا تغضّ النظر، مدركة أنه يحقّ للمرء في بعض الأحيان أن يجد لنفسه وسيلة ما ينفس بها عن مشاعره.

"إنها بالتأكيد مشكلة عويصة،" قالت بنبرة غاضبة. "وهذه هي نتيجة إرسالنا كلمة شفوية بدلاً من ذهابنا بأنفسنا. لا بدّ أن أنسباء روبرت سبنسر حرّفوا تلك الرسالة بطريقة ما. ومن المؤكد أنه يتوجب على أحدنا الذهاب غداً لرؤية السيدة سبنسر. يجب أن تُعاد هذه البنت إلى الملجأ."

"نعم، أظن هذا،" قال ماثيو مُكرهاً.

"تظـــــــــن هذا؟ ألست على يقين بأن هذا ما يجب علينا عمله؟"

"في الحقيقة ياماريلا إنها طفلة لطيفة جداً، ومن المحزن فعلاً أن نعيدها إلى الملجأ في حين انصبّت جميع آمالها على البقاء هنا."

"مـــــــاثيو كُثْبيرت، أنت لا تعني القول إنه ينبغي لنا الاحتفاظ بها."

ما كانت دهشة ماريلا ستبدو أعظم، لو أن ماثيو عبّر لها عن رغبته في الوقوف على رأسه.

"لا.. لا أظن أني أعني هذا، ليس تماماً،" تأتأ ماثيو، بعد أن حشرته كلماته في الزاوية. "ولكني أرى أنه يمكننا الاحتفاظ بها."

"أمّا أنا فأرى عكس ما تراه تماماً، ثم، أي نفع هو هذا الذي ستعود به علينا؟"

"يمكن أن نكون نحن نافعيْن لها،" أجاب ماثيو على نحو مفاجئ غير متوقّع.

"ماثيو كُثْبيرت، يبدو أن هذه الطفلة أصابتك بالسحر! وأرى بوضوح أنك راغب في الاحتفاظ بها."

"إنها، في الحقيقة، مخلوق صغير مشوّق،" أجاب ماثيو مصراً على وجهة نظره. "كان يجب أن تسمعي حديثها أثناء عودتنا من المحطة."

"هه، من المؤكد أنها قادرة على الثرثرة بدون انقطاع، لقد لاحظت هذا في الحال. ولكن هذه الصفة ليست لصالحها أيضاً. أنا لا أحب الأطفال الذين لديهم الكثير ليقولونه، ولست راغبة في تربية بنت يتيمة، ولو أردت تبني واحدة، فإنها لن تكون هي، حينها سأختار بنفسي. كما أن هناك شيئاً في شخصيتها لا أستطيع فهمه. لا.. يجب أن تُعاد حالاً إلى المكان الذي جاءت منه."

"باستطاعتي استئجار صبي ليساعدني،" قال ماثيو. "ويمكن أن نبقيها لتؤنسك."

"لست أشكو من الوحدة،" ردّت ماريلا باقتضاب. "ولن أبقيها هنا."

"الرأي رأيك في جميع الأحوال ياماريلا،" قال ماثيو وهو ينهض بعد أن نحّى غليونه جانباً. "سأخلد إلى النوم الآن."

ذهب ماثيو لينام. وذهبت ماريلا بأساريرها المُتجهِّمة لتنام أيضاً، بعد أن رتّبت أواني المطبخ في أماكنها. وهناك في الطابق العلوي، في السقيفة الشرقية، ناحت طفلة يتيمة، مَوْحُودة، كسيرة القلب، حتى غلبها النوم.

٤
صباح في المرتفعات الخضراء

كان نور النهار قد غمر الكون عندما استيقظت آن وجلست في السرير تحدّق مُشوّشة الذهن باتجاه النافذة التي انسال عبرها فيض من أشعة الشمس المضرّجة بلون الكرز، بينما تماوج خارجها شئ أبيض هفهاف تحت بارقة السماء الزرقاء.

للحظة، عجزت عن تذكّر مكان وجودها. وفي البدء سرت في جسمها دغدغة مبهجة، كما لو أنها كانت ترتع في أحضان النعيم، ثم هيمن عليها سلطان الذكرى المروّعة. كانت هذه المرتفعات الخضراء، ولم يكن أصحاب هذا البيت يريدونها لأنها ليست صبياً.

مع ذلك إنه الصباح.. ونعم.. إن ذلك الشئ الوردي الذي يصطبغ به عباب الشمس والذي تطلّ عليه نافذتها هو حقاً شجرة كرز بلغ إزهارها أوجه. وسرعان ما حفّزت هذه الأفكار آن فغادرت السرير واتجهت نحو النافذة بقفزة واحدة، ثم دفعت إطار الشباك رافعة إياه. انطلق الإطار المتصلّب نحو الأعلى بصعوبة محدثاً صريراً يوحي بأنه لم يستعمل منذ مدة طويلة، وقد كان الأمر كذلك فعلاً، ثم علق في الأعلى بإحكام ممّا لم يستدع محاولة تثبيته لئلا ينزلق.

جلست آن على ركبتيها وحملقت في صباح ذلك اليوم من شهر حزيران، بينما تلألأت عيناها بوميض السعادة. ياالله، أليس هذا المنظر خلاباً؟ أليس هذا المكان جميلاً؟ ولتفترض أنها لن تعيش هنا، أليس بإمكانها على الأقل أن تتخيّل أنها ستفعل. إن هناك مجالاً واسعاً لانطلاق الخيال في مثل هذا المكان.

كانت شجرة الكرز ضخمة جداً وقريبة جداً، تتكئ أغصانها المتدافعة على جدران الدارة بتثاقل ينبئ عن حملها الغزير الذي تنوء به، إذ كانت ملأى بالبراعم المزهرة إلى حدّ يصعب معه تمييز أية ورقة خضراء فيها.

كانت البساتين تحتضن دارة المرتفعات الخضراء من جانبيها؛ جانب يحيطه بستان تفاح وجانب آخر يحيطه بستان كرز كلّلته البراعم أيضاً. وكانت تربة البستانيْن مكسوة بحشيش الهندباء البرية. أمّا الحديقة التابعة للدارة فقد افترشتها أغراس الليلك، التي بعثت أزهارها القرمزية مع نسيم الصباح عبيرها المسكر اللطيف باتجاه النافذة. وفيما وراء الحديقة امتدّ حقل البرسيم الأخضر وانحدر نزولا نحو الغَور، حيث جرى الجدول وانتصبت أشجار البتولا الوافرة متطاولةً في الفضاء، وكأنها تقترح إعلان تعاليها على السراخس والطحالب وبقية أغراس الغابة. وعند نهاية الحقل ظهرت تلّة خضراء، تكسوها أشجار الراتينج والتنوب التي تنفرج عند الوسط كاشفة عن منحدر بسيط، يقوم عليه المنزل الرمادي الذي رأته آن مساء اليوم السابق من جهة بحيرة المياه البراقة. وفي الناحية الشمالية من الدارة، انتصبت الحظائر الكبيرة التي يتلوها حقل متدرج الانحدار، يتيح للناظر فرصة رؤية البحر الأزرق المتلألئ.

تأملت عينا آن العاشقتان للجمال كل هذه المشاهد، محاولة الاحتفاظ داخلها بكل ما تراه عيناها. لقد سبق لها أن رأت الكثير من المناظر الكريهة في حياتها، تلك الطفلة التعسة، وما كانت تراه في تلك اللحظة بدا لها أروع من أي شئ حلمت به ذات يوم.

جثت هناك، غائبة عن كل شئ آخر عدا ذلك الجمال من حولها، إلى أن بوغتت بيد ماريلا على كتفها، والتي دخلت الغرفة بدون أن تشعر بها تلك الحالمة الصغيرة.

"حان الوقت لترتدي ملابسك،" قالت ماريلا بنبرة جافّة.

في الحقيقة، لم تكن ماريلا تتعمد القسوة والفظاظة، لكنها كانت

بكل بساطة تجهل كيفية مخاطبة الطفلة، وجعلها هذا القصور تتصرف بذلك الأسلوب الجلف.

وقفت آن على قدميها، وسحبت نفساً طويلاً.

"أليس هذا بديعاً؟" قالت مشرّعة ذراعيها على مداهما باتجاه العالم اللطيف خارج نافذتها.

"نعم إنها شجرة ضخمة،" أجابت ماريلا، "وهي تزهر بغزارة ولكن الفاكهة لا تنمو عليها كما ينبغي، فهي تبقى عجفى ومدوّدة."

"أوه، أنا لا أعني الشجرة فقط، طبعاً هي جميلة، بل هي فائقة الجمال، وطريقة إزهارها توحي بأنها تكاد تعي ما تفعله. لقد كنت أعني كل شئ: الحديقة والبستان والجدول والغابة، جميع هذا العالم العزيز العظيم. ألا تشعرين أنه لا يمكنك إلاّ أن تعشقي هذا العالم عندما ترين صباحاً مثل هذا الصباح؟ إني لأستطيع الآن سماع الجدول وهو يضحك. تُرى أسبق لك أن لاحظت كم هي مرحة تلك الجداول؟ إنها دائمة الضحك. بل إني أسمع ضحكها حتى في أيام الشتاء رغم الصقيع الذي يغلّف أسطحها. وأنا سعيدة جداً لوجود جدول بالقرب من المرتفعات الخضراء. لعلك ترين أن الأمر ليس بذي أهمية بالغة بالنسبة لي ما دمتِ لن تبقيني عندك، لكن هذه الحقيقة تعني لي الكثير، لأني سأتذكر دائماً أن هناك جدولاً يجري في المرتفعات الخضراء حتى وإن كنت لن أراها مرة أخرى. ولو لم يكن فيها جدول سأبقى طيلة عمري مؤرقة بهاجس ضرورة وجود واحد فيها. إني رغم شعوري بالحزن في هذا الصباح لست غارقة في أعماق اليأس. ولا يمكنني أن أكون كذلك في أي صباح. أليس وجود الصباح في هذا العالم شيئاً رائعاً؟ لقد كنت أتخيَّل للتوّ أنكما كنتما تريدانني أنـــا وأني سأبقى هنا إلى الأبد. وكانت فكرة مريحة جداً عندما استغرقت بها، ولكن أسوأ ما في تخيُّل الأشياء هو أنه لا بدّ من التوقف عن تخيُّلها في وقت ما، و.. و.. هذا مـــوجع."

"يُستحسن ألاّ تستسلمي الآن لخيالاتك وأن ترتدي ملابسك

وتنزلي،" قالت ماريلا ما إن سنحت لها الفرصة لتتكلم، "الإفطار جاهز. اغسلي وجهك وسرّحي شعرك، واتركي النافذة مفتوحة، وسوّي أغطية السرير. ابذلي جهدك لتكوني شاطرة قدر المستطاع."

بدا من الواضح أنه كان باستطاعة آن إنجاز بعض الأمور ببراعة، لأنها نزلت إلى المطبخ بعد عشر دقائق، وقد ارتدت ملابسها ومشطت شعرها وضفرته وغسلت وجهها. ورغم مشاعر الارتياح التي غمرت روحها لنجاحها في تنفيذ جميع ما طلبته منها ماريلا، كانت قد نسيت تسوية أغطية السرير.

"أنا جائعة جداً هذا الصباح،" أعلنت آن وهي تجلس على الكرسي الذي وضعته ماريلا لها. "ولا يبدو العالم وكأنه يولول بوحشية كما كان ليلة البارحة. ويسعدني كثيراً أن يكون هذا الصباح مشرقاً، رغم أني أحب الصباحات المطرة أيضاً. ألا تعتقدين أن جميع أنواع الصباحات ممتعة؟ إن المرء في الصباح لا يعرف ما الذي سيحدث معه خلال يومه، وهذا يتيح له مجالاً واسعاً للخيال. مع ذلك، يسرّني ألاّ يكون هذا الصباح ماطراً، فعندما يكون الصباح مشرقاً يصبح من السهل على المرء أن يستقبل يومه بانشراح وأن يحتمل بجلد ما يواجهه من محن، وأنا أشعر الآن أني أملك طاقة كبيرة على احتمال الأسى. طبعاً من الممتع أن يقرأ الإنسان عن الأحزان ويتخيّل نفسه يعيشها ببطولة، لكن الأمر ليس بهذه اللطافة عندما تضطره الحياة إلى عيش تلك الأحزان، أليس كذلك؟"

"أمسكي لسانك، بحقّ السماء،" هتفت ماريلا. "أنت تتكلمين كثيراً جداً بالنسبة إلى فتاة صغيرة."

لجمت آن لسانها بطاعة عمياء، غير أن صمتها المطبق أثار حفيظة ماريلا، التي شعرت وكأنها تواجه موقفاً غير طبيعي. كان ماثيو غارقاً في الصمت أيضاً، لكن هذا كان على الأقل تصرفاً طبيعياً بالنسبة إلى ما درج عليه ماثيو.

وهكذا أخذت وجبة الصباح مجراها بصمت. وبينما انكبّ الثلاثة

على تناول الطعام، شرعت آن تتدرج شيئاً فشيئاً في الانفصال عمّا يحيط بها. كانت تمضغ الأكل بطريقة آلية، وقد سافرت عيناها الواسعتان عبر النافذة نحو السماء وتسمّرتا عليها مغرقتان في إبحارهما حتى ما عادت الطفلة ترى شيئاً ممّا حولها. هذا جعل ماريلا أكثر عصبية من السابق، بل وجعلها فريسة الانزعاج الشديد، لإحساسها أنه على الرغم من وجود جسم تلك الطفلة الغريبة الأطوار في المطبخ معهما إلاّ أن هذا الوجود المادي لم يمنع روحها من التحليق بعيداً، تحملها أجنحة الخيال نحو إحدى عوالم الغيم القصيّة. ومَـــــن.. مَـن يرغب بوجود طفلة مثلها في بيته؟

مع ذلك، ومن بين جميع الأمور التي تقع خارج الحسبان، كان ماثيو يرغب في الاحتفاظ بها! لقد شعرت ماريلا أنه كان في ذلك الصباح مصمّماً على الاحتفاظ بها بنفس الإصرار الذي عبّر عنه في الليلة الماضية. وكانت متأكّدة من أنه سيظلّ متمسكاً بموقفه. فتلك هي طريقة ماثيو في معالجة الأمور؛ تروقه النزوة، فيتشبث بها بعناد، ويعبّر عن هذا التشبث بإلحاح صامت عجيب. ذلك الإلحاح الصامت الذي هو أكثر إفحاماً ولجاجة من الإفصاح عن تلك النزوة بالكلام.

عادت آن إلى عالم الواقع عندما انتهى الإفطار، وعرضت على ماريلا غسل الأطباق.

"أتتقنين تنظيفها كما ينبغي؟" سألتها ماريلا بنبرة شكّ.

"نعم، أنا أتقن ذلك، رغم أني أكثر مهارة عندما يتعلق الأمر برعاية الأطفال، لأني أملك خبرة واسعة في هذا المجال، ومن المؤسف حقاً ألاّ يوجد لديكم أطفال لأرعاهم."

"لستُ بحاجة إلى الانشغال بمزيد من الأطفال في الوقت الراهن، فوجودك يسبب لي متاعب تكفيني. ولا أدري ما الذي ينبغي لي فعله معك. أنا لم أر في حياتي رجلاً أسخف من ماثيو."

"ولكني أعتقد أنه شخص رائع،" قالت آن بلهجة معاتبة. "فهو

عطوف جداً، ولم تزعجه ثرثرتي مطلقاً، بل بدا وكأنه كان يستلطف حديثي. ومنذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها شعرت أن روحه توأم روحي."

"كلاكما غريب الأطوار بما فيه الكفاية، إذا كان هذا ما تعنينه بتوأم الروح،" أجابت ماريلا بلهجة متأنفة. "نعم يمكنك جلي الأطباق. استعملي كمية وافرة من الماء الساخن، وتأكدي من تجفيف الأواني جيداً بعد غسلها. لديّ ما يكفيني من المشاغل هذا الصباح، لأني سوف أذهب بعد الظهر إلى بلدة وايت ساندس لأرى السيدة سبنسر، وستأتين معي، وسنقرر ما الذي يجب أن نفعله بك. وبعد انتهائك من تنظيف الأطباق اصعدي ورتّبي سريرك."

جلت آن الأواني بإتقان، كما لاحظت ماريلا التي راقبتها بعين يقظة. لكنها لم تحرز نجاحاً كبيراً في تسوية سريرها لأنها لم تُلقَّن من قبل فنّ المصارعة مع وسائد الريش. وفي النهاية سوّته كيفما اتفق. ثم اقترحت عليها ماريلا، لتتخلص منها، مغادرة البيت لتتسلى خارجه حتى يحين موعد الغداء.

طارت آن نحو الباب وقد شعّ وجهها وتوقّدت عيناها، لكنها سرعان ما توقفت عند العتبة ثم تلفتت حولها ثم استدارت وعادت لتجلس إلى جانب الطاولة، وقد خبا البريق والتوقّد منها كما لو أن يداً خفية عثرت على الوسيلة التي يمكن إخماد حيويتها بها.

"ما القضية الآن؟" سألتها ماريلا.

"لا أجرؤ على الذهاب إلى الخارج،" قالت آن بلهجة شهيدٍ تخلّى عن جميع المسرّات الأرضية. "ما دمت لن أبقى هنا فلا فائدة من تعلّقي بالمرتفعات الخضراء. وإذا خرجت الآن وتعرفت على جميع تلك الأشجار والأزهار والبساتين والجداول، فلن أستطيع منع نفسي من التولّع بها. إن الأمر صعب عليَّ منذ الآن، ولن أجعله أكثر صعوبة ممّا هو عليه. إني لأرغب حقاً في الذهاب إلى الخارج فكل شئ هناك يبدو

وكأنه يناديني: آن.. آن.. تعالــــي إلينا، آن.. آن.. نريد رفيقة نلعب معها. مع ذلك يُستحسن ألاّ أستجيب لهذا النداء. فلا فائدة من التولّع بالأشياء إذا كنت سأُقتلع منها. كما أنه من الصعب عليّ منع نفسي من عشق الأشياء التي أراها حولي. وهذا هو السبب الذي جعلني أشعر بالسعادة عندما ظننت أنني سأعيش هنا، إذ اعتقدت أني سأحظى بأشياء كثيرة لأحبها بدون أن يعوقني شئ. لكن ذلك الحلم الموجز انتهى، وها أنا أستسلم الآن لمصيري، ولن أخرج من البيت حتى لا أثور على هذا المصير مرة أخرى. من فضلك ما اسم نبتة إبرة الراعي تلك الموجودة على حافة النافذة؟"

"تلك إبرة الراعي المطعّمة بعبير التفاح."

"أوه.. أنا لم أقصد هذا النوع من الأسماء. إنما عنيت الاسم الذي تطلقينه عليها أنت. ألا تطلقين عليها أي اسم؟ أ.. أتسمحين لي بتسميتها؟ أيمكن أن أسميها.. دعيني أفكر الآن.. بوني يمكن أن يفي بالغرض.. أيمكن أن أسميها بوني وأنا هنا؟ أرجوك.. أرجوك اسمحي لي بذلك."

"ربّاه.. لا يهمني أي اسم تطلقينه عليها، ولكن بحقّ السماء، أين يكمن المنطق في إطلاق اسم على نبتة إبرة الراعي؟"

"أنا أحب أن يكون للأشياء أسماء حتى لو كانت تلك الأشياء مثل نبتة إبرة الراعي، إن الأسماء تجعل تلك الأشياء أقرب إلى البشر. ومن أين لك أن تعرفي أن إبرة الراعي لن تشعر بالأسى إذا كان اسمها إبرة الراعي فقط. أتحبين ألاّ يطلق عليك الناس إلاّ اسم امرأة. نعم.. نعم سأسميها بوني. لقد أطلقت على شجرة الكرز التي رأيتها من نافذة غرفتي هذا الصباح اسم ملكة الثلج لأنها تعجّ بالبراعم البيضاء. طبعاً أعرف أنها لن تكون دائماً كما رأيتها اليوم، ولكن المرء قادر على تخيُّل ذلك."

"أنا لم أسمع ولم أر في حياتي مخلوقاً يشبهها،" دمدمت ماريلا

فيما بينها وبين نفسها، وهي تنسحب نحو القبو من أجل جلب بعض البطاطا. "هي مسلية فعلاً كما قال ماثيو. وإني لأتساءل منذ الآن عمّا تنوي قوله بعد ذلك. إنها بحقّ السماء على وشك رجمي بتعويذة ما، كما فعلت مع ماثيو.. وتلك النظرة التي حدجني بها عندما غادر البيت اليوم عبّرت بطريقة أخرى عن كل ما قاله أو ألمح إليه الليلة الماضية. لو كان من النوع الذي يتكلم لكان بإمكان المرء أن يحاججه ويناقشه بالمنطق. ولكن كيف يمكن التفاهم مع رجل يتكلم بعينيه؟"

عندما عادت ماريلا من قبوها الذي غابت فيه طويلاً، كانت آن مستغرقة في بُحرانها، وقد ارتكزت ذقنها على يديها وتسمّرت عيناها باتجاه السماء، فتركتها ماريلا على حالها حتى أصبح الغداء على الطاولة.

"أيمكن أن آخذ الفرس والعربة بعد الظهر ياماثيو؟" سألته ماريلا.

أومأ ماثيو إيجاباً ونظر بحزن نحو آن، لكن ماريلا اعترضت نظرته قائلة بتجهم:

"سوف أذهب إلى وايت ساندس لتسوية هذا الوضع. سأصطحب آن معي ومن المرجح أن تقوم السيدة سبنسر بإعداد الإجراءات اللازمة لإعادتها إلى نوفا سكوتيا بأسرع ما يمكن. سأعدّ لك لوازم الشاي قبل ذهابي وسوف أعود إلى البيت في الوقت المناسب من أجل حلب الأبقار."

لم ينبس ماثيو بكلمة، وشعرت ماريلا أن جميع ما قالته ذهب أدراج الرياح. وفكّرت فيما بينها وبين نفسها أن لا شئ أكثر خطورة من رجل يمتنع عن الإجابة إلاّ المرأة عندما تمتنع عن ذلك.

ربط ماثيو الفرس إلى العربة في الوقت المناسب، وفتح بوابة الفناء التي عبرتها العربة ببطء، وعندما أوشكت العربة على المضيّ بماريلا وآن قُدماً، قال بدون أن يبدو عليه أنه يوجّه حديثه إلى شخص معين:

"كان جيري بوت، ذلك الفتى الساحلي، هنا هذا الصباح، وأخبرته أني أرغب في استئجار خدماته هذا الصيف."

لم تجب ماريلا، لكنها ساطت ظهر الفرس التعسة بقسوة جعلت تلك الفرس السمينة التي لم تكن معتادة على مثل هذه المعاملة تئن، فخبّت باحتجاج على درب المرتفعات الخضراء.

وبينما اندفعت العربة نحو الأمام التفتت ماريلا إلى الوراء ونظرت مرة واحدة باتجاه ماثيو اللجوج الذي كان ينحني مرتكزاً على البوابة، مشيّعاً العربة بعينين مفعمتين بالأسى.

٥
حكاية آن

"أتعرفين.." أسرّت آن لماريلا، "لقد عقدّت نيّتي على الاستمتاع بهذه الرحلة. فخبرتي تؤكّد لي أنه بإمكانك الاستمتاع بالأشياء إذا عقدّت نيّتك بحزم. طبعاً، يجب أن تكون النيّة حازمة. لذا، لن أفكّر بعودتي إلى الملجأ أثناء رحلتنا هذه. لن أفكّر إلاّ بهذه الرحلة. أوه.. انظري، تلك وردة بريّة متفتّحة قبل أوانها! أليست جميلة؟ ألا تظنينها سعيدة لأنها وردة؟ أما كان من الرائع لو استطاعت الورود الكلام؟ أنا متأكّدة من أنها تملك روايات لطيفة لتقصّها علينا. و.. أليس اللون الوردي هو أكثر الألوان روعة في هذا العالم؟ أنا أحب هذا اللون، لكني لا أستطيع ارتداءه لأن أصحاب الشعر الأحمر لا يستطيعون ارتداء اللون الوردي، ولا حتّى في الخيال. تُرى، أصادفت في حياتك مخلوقة كانت حمراء الشعر في صغرها، ثم تغيّر لون شعرها عندما كبرت؟"

"لا.. لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا في حياتي،" قالت ماريلا من غير رأفة، "ولا أظن أن هذا سيحدث في حالتك أيضاً."

تنهّدت آن.

"لا بأس، هاهو أمل آخر يندثر. إن حياتي ليست إلاّ مقبرة للآمال. هذه جملة قرأتها في كتاب ذات مرة، وأقولها لنفسي دائماً على سبيل العزاء كلّما خاب أملي بشئ."

"لست أرى من أين يأتي العزاء في مثل هذه الحالة،" قالت ماريلا.

"كيف لا، إنّ وقعها على الأذن لطيف وذو صدى عاطفي، كما لو أني كنت بطلة رواية ما. أنا مولعة جداً بالأشياء العاطفية، وصورة

مقبرة مليئة بالآمال المدفونة، من أفضل الصور العاطفية التي يمكن أن يتخيَّلها المرء. ومجرد شعوري أني أمتلك مثل هذه المقبرة يعزّيني. هل سنسلك اليوم الطريق المؤدي إلى بحيرة المياه البراقة؟"

"لن نذهب عن طريق بركة باري، إذا كان هذا ما تقصدينه ببحيرتك ذات المياه البراقة. سنسلك اليوم طريق الشاطئ."

"لاسم طريق الشاطئ وقع جميل على الأذن." قالت آن بلهجة حالمة. "أهو بمثل جمال اسمه؟ لقد رأيت صورته في ذهني بمجرّد أن قلتِ طريق الشاطئ، هكذا.. رأيتها في الحال! وأرى أن اسم وايت ساندس جيد أيضاً، لكني لا أحبه بقدر ما أحب اسم أفونليا. أفونليا اسم جميل، وله وقع موسيقي. كم تبعد وايت ساندس عنا؟"

"إنها على مسافة خمسة أميال من هنا، وبما أنك، كما هو واضح، عازمة على متابعة الحديث، أرى أن تجعلي كلامك مفيداً وذلك بإخباري عمّا تعرفينه عن نفسك."

"أوه.. ما أعرفه عن نفسي لا يستحقّ الذكر،" قالت آن بحماس. "لكن لو تدعيني فقط أحدّثك عن الكيفية التي أتخيَّل نفسي عليها، سترين أنها أكثر إمتاعاً."

"لا، لست بحاجة إلى سماع تخيُّلاتك. أريد منك الالتزام بالحقائق المجرّدة، وابدأي منذ البداية، أين وُلدت وكم عمرك؟"

"بلغت الحادية عشرة من العمر في شهر آذار الماضي،" قالت آن، مسلّمة نفسها للحقائق المجرّدة بعد زفرة صغيرة. "وُلدت في بلدة بولينغبروك، التابعة لنوفا سكوتيا. اسم أبي ولتر شيرلي، وكان أستاذاً في ثانوية بولينغبروك. اسم أمي بِرتا شيرلي. أليس اسما ولتر وبِرتا بجميلين؟ كم أشعر بالسعادة لأن اسمي أبويّ جميلان. أما كان من المخزي فعلاً لو أن اسم أبي.. حسناً.. لِنقل جيديديا؟"

"أرى أنه لا أهمية للاسم الذي يحمله المرء ما دام حسن الخلق." أجابت ماريلا التي شعرت أن الموقف يقتضي منها زرع فضيلة جيدة

ومفيدة في نفس آن.

"لا أعرف حقاً." قالت آن مستغرقة في التفكير. "قرأت في أحد الكتب ذات مرة أن الوردة تظلّ محتفظة بعبيرها الزكيّ نفسه مهما كان اسمها، لكني ما استطعت تصديق هذه المقولة أبداً. ولا أؤمن أن الوردة ستكون بنفس اللطافة التي هي عليها لو دُعيت شوكة أو كرنبة كريهة. طبعاً لا أشكّ أن أبي سيبقى رجلاً صالحاً حتى لو كان اسمه جيديديا، لكني في نفس الوقت أعتبر هذا الاسم مصيبة. حسناً، كانت أمي معلّمة في تلك الثانوية أيضاً، لكنها عندما تزوجت أبي تخلّت عن مهنة التعليم. فالزوج وحده، كما تعلمين، مسؤولية كافية. أخبرتني السيدة توماس أنهما كانا زوجين فتيّين ومُعدمين كفئران الكنيسة. وبعد الزواج عاشا في منزل متواضع ذي طلاء أصفر في بولينغبروك. أنا لم أر ذلك البيت أبداً، لكني تخيّلته آلاف المرات. وأكاد أجزم أن نافذة قاعة الاستقبال فيه كانت تطلّ على شجيرات عطرة الأريج، وأن باحة فنائه تحتوي على أزهار الليلك والسوسن. نعم، وأن جميع نوافذه مجلّلة بستائر من الموسلين، فستائر الموسلين تُضفي على البيوت جوّاً خاصاً. لقد وُلدت في ذلك البيت، وأخبرتني السيدة توماس أنها لم تر في حياتها وليداً أبشع مني، كنت بالغة الهزال وضئيلة ولا شئ يبدو مني سوى عينين، ولكن أمي رأت أني كنت جميلة جداً. ألا ترين أني في هذه الحالة يجب أن أصدّق ما كانت تعتقده أمي؟ فالأم هي بلا شكّ ذات بصيرة أفضل من بصيرة امرأة مسكينة كانت تأتي لتشرف على تنظيف البيت. على كل حال أنا سعيدة لأنها كانت راضية بي. ولو علمت أني كنت خيبة أمل لها لشعرت بكثير من الحزن، لأنها لم تعش طويلاً بعد ولادتي، إذ أصابتها الحمّى وماتت وأنا ابنة ثلاثة أشهر. كم تمنيت لو أنها عاشت معي مدّة أطول لتتاح لي على الأقل فرصة تذكّر مناداتي لها ياأمي. ألا تظنين أنه من الرائع أن يقول المرء ماما؟ ثم أصيب أبي بالحمّى أيضاً، ومات بعدها بثلاثة أيام. وهكذا أصبحت يتيمة. واحتار الناس

في أمرهم، هكذا قالت السيدة توماس، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بي. أترينْ.. لا أحد أرادني منذ ذلك الوقت. ويبدو أن هذا قدري. كان أبي وأمي قد جاءا من مناطق قاصية، وكان من المعروف أنه لم يكن لهما أقرباء على قيد الحياة. أخيراً قالت السيدة توماس أنها ستتوكل بي، رغم أنها كانت فقيرة وزوجة رجل سكير، وربّتني بيديها كما اعتادت على القول. تُرى، أتعرفين بمَ يتميز الناس الذين رُبّوا باليدين عن الناس الذين لم يُربّوا بهذه الطريقة؟ لأن السيدة توماس كانت كلّما صدر عني تصرّف معيب، تقول لي شبه موبّخة إنها تستهجن سلوكي السيئ لأنها ربّتني بيديها!

بعد ذلك، انتقل السيد والسيدة توماس من بولينغبروك إلى ماريسفيل، وعشت معهما حتى بلغت الثامنة من العمر. وهناك ساعدت في رعاية أطفال آل توماس الذين كان يوجد أربعة منهم أصغر مني، وصدّقيني لقد تطلبوا الكثير من الرعاية. ثم قُتل السيد توماس عندما سقط تحت عجلات قطار، وعرضت أمه على السيدة توماس أن تؤويها مع أولادها، لكنها لم ترغب في وجودي. واحتارت السيدة توماس بأمري، كما قالت، ولم تدر ما تصنع بي. ثم جاءت السيدة هاموند التي تقطن عند ضفّة النهر العليا، وعرضت أن تأخذني عندما رأت براعتي مع الأطفال. وذهبت إلى السكن عند ضفّة النهر العليا، في أرض نائية بين أشجار مجزوزة الجذوع. كان مكاناً موحشاً جداً، ولو لم أكن صاحبة خيال خصب لما استطعت تحمّل الحياة هناك أبداً. كان السيد هاموند يعمل أحيانا في منشرة الخشب في تلك المنطقة، أمّا السيدة هاموند فكانت لا تكفّ عن إنجاب الأطفال. كان لديها ثمانية منهم، إذ أنجبت توائم ثلاث مرات متتاليات. أنا أحب الأطفال لكن باعتدال، وإنجاب التوائم ثلاث مرات متتاليات هو شئ يفوق الاحتمال. هذا ما قلته للسيدة هاموند بحزم عندما أنجبت الزوجين الأخيرين. ولا يمكنك أن تتصوري كم كان حملهما يسبب لي إرهاقاً مضنياً.

عشت في منطقة ضفّة النهر العليا مع السيدة هاموند ما يزيد عن

السنتين. ثم مات السيد هاموند، فتخلّت السيدة هاموند عن بيتها، ووزعت أطفالها على أنسبائها، وغادرت إلى الولايات. وكان عليّ أن أذهب إلى الملجأ في مدينة هوبتاون، لأن أحداً لم يكن يريدني. لكن الملجأ أيضاً لم يردني، وقال القيّمون عليه إنه مزدحم بما فيه الكفاية ولا ينقصه المزيد من القاصدين، غير أنهم أُجبروا على إيوائي، وبقيت فيه أربعة أشهر إلى أن جاءت السيدة سبنسر."

أنهت آن حكايتها وزفرت هذه المرّة زفرة ارتياح. كان واضحاً أنها لم تكن تحب التحدّث عن تجربتها في عالم لم يرغب بوجودها.

"أسبق لك الذهاب إلى المدرسة من قبل؟" سألتها ماريلا، وهي تميل بالفرس البُنّيّة نزولاً نحو طريق الشاطئ.

"ليس كثيراً. ذهبت قليلاً خلال السنة الأخيرة التي قضيتها مع السيدة توماس. وعندما غادرت إلى منطقة النهر العليا، كان المكان بعيداً عن المدرسة التي ما كنت أستطيع المشي إليها في الشتاء، وكانت تغلق أبوابها في الصيف. لذلك ما كنت أقصدها إلاّ في الربيع والخريف. لكن طبعاً ذهبت إلى المدرسة أثناء إقامتي في الملجأ. ويمكنني القراءة بشكل جيد وأعرف العديد من المقطوعات الشعرية عن ظهر غيب مثل: معركة هوهَنْلِنْدن و أَدِنبره بعد الطوفان و بنجين على نهر الراين، والعديد من مقطوعات: سيدة البحيرة، ومعظم مقطوعات كتاب: الفصول الذي كتبه جيمس تومسون. ألا تحبين الشعر الذي يسبب لك دغدغة في ظهرك؟ هناك قطعة في كتاب الصفّ الخامس عنوانها: سقوط بولندا، مليئة بالإثارة، طبعاً أنا لم أكن في الصفّ الخامس، بل في الرابع، لكن البنات الكبيرات كن يعرنني كتبهن لأقرأها."

"أكانت المرأتان، أعني السيدة توماس والسيدة هاموند طيبتين معك؟" سألت ماريلا آن وهي ترمقها من زاوية عينها.

"أوه.." تلعثمت آن واصطبغ وجهها الصغير فجأة بالحمرة

الداكنة، وأفصحت تعابير وجهها عن شعورها بالحرج. "أوه.. كانتا تقصدان معاملتي معاملة حسنة، أعرف أنهما كانتا تقصدان أن تكونا طيبتين ولطيفتين قدر المستطاع. وعندما ينوي الناس معاملتك بطيبة، فإنك لن تهتمي كثيراً إذا لم يتصرفوا دائماً حسب نواياهم. كانت لديهما متاعبهما التي تكفيهما كما أخبرتك. لا شكّ أنه من المرهق أن يكون لديك زوج سكير، ولا بدّ أنه مرهق أيضاً أن تنجبي ثلاثة توائم ثلاث مرات متتاليات، ألا تظنين هذا؟ ولكني متأكدة أنهما كانتا تقصدان معاملتي معاملة طيبة."

لم تطرح ماريلا مزيداً من الأسئلة. فأخلدت آن إلى الصمت بحبور وديع، وراحت تتأمل طريق الشاطئ. وتابعت ماريلا قيادة الفرس كأنّ شيئاً لم يكن، بينما استغرقت متفكّرة بعمق وقد اعتلج صدرها بالشفقة على الطفلة. كانت ماريلا امرأة محنّكة تملك القدرة على قراءة ما هو متوارٍ بين السطور في حكاية آن بحيث تستطيع استشفاف الحقيقة منها. يالحياة الشظف والحرمان التي عاشتها تلك الطفلة، حياة مشقّة وفقر وإهمال. ولا عجب حقاً في سرورها عندما لاحت لها بارقة الأمل ببيت حقيقي يؤويها. ومن المؤسف حقاً أن تكون مضطرّة إلى إعادتها إلى الملجأ. لكن ماذا لو تساهلت وتجاوبت مع نزوة ماثيو الطارئة وأبقتها معهما؟ بدا ماثيو مصمّماً على ذلك، كما أن هذه الطفلة تبدو لطيفة جداً وقابلة للتوجيه.

"لديها الكثير لتقوله،" فكّرت ماريلا، "مع ذلك، يمكن توجيهها لتقلع عن هذه العادة، بالإضافة إلى أن أقوالها ليس فيها أي شئ ناب أو سوقي، إنها تبدو ابنة عائلة كريمة ويظهر أن ذويها كانوا أناساً لطفاء."

كان طريق الشاطئ طريقاً غابيّاً مقفراً وموحشاً. تقوم على يمينه أشجار التنوب الواطئة، المتراصّة بكثافة، والمنتصبة بروح أبيّة رغم طول سنين الصراع مع رياح الخليج. وتمتدّ على شماله منحدرات الجرف ذي الصخر الرملي الذي كان يدنو كثيراً في بعض المناطق من

الطريق، بحيث أن فرساً أقلّ مهارة من الفرس البُنيّة كانت سترهق أعصاب الناس الذين تجرّ عربتهم خلفها. كانت قاعدة الجرف تتشكل من التلال الصخرية التي كسرتها الأمواج أو من الخلجان الرملية الصغيرة المرصعة بالحصى، كما لو أنها كانت محيطاً مفعماً بالدرر. ومن عند تلك القاعدة يمتدّ البحر شاسعاً، مشيعاً في الكون وميض زرقته، وقد حلّقت فوقه النوارس التي لمعت أجنحتها كالفضة تحت ضوء الشمس.

أليس البحر بديعاً؟" تساءلت آن مستفيقة من سكينتها الطويلة الواعية. "ذات مرة، عندما كنت أعيش في ماريسفيل، استأجر السيد توماس حافلة سريعة وأخذنا جميعاً لتمضية النهار على شاطئ يبعد عنّا مسافة عشرة أميال. استمتعت بكل لحظة من لحظات ذلك اليوم، رغم اضطراري إلى رعاية الأطفال طيلة الوقت. وظللت لعدّة سنوات تاليات أعيشه في أحلامي مراراً وتكراراً. لكن هذا الشاطئ أكثر جمالاً من شاطئ ماريسفيل. أليست تلك النوارس رائعة؟ أتحبين أن تكوني نوْرساً؟ أنا أعتقد أني أحب ذلك، هذا لو لم يقدّر لي أن أكون فتاة. ألا ترين أنه من اللطيف أن تستيقظي مع بزوغ الشمس، ثم تنقضّي على الماء، ثم تحلّقي بعيداً في فضاء تلك السماء الزرقاء الجميلة طيلة النهار ثم تعودي ليلاً إلى عشك؟ آه، إني لأستطيع تخيُّل نفسي أقوم بذلك. من فضلك.. ما ذاك البيت الكبير الذي يلوح أمامنا؟"

"ذاك فندق وايت ساندس، الذي يديره السيد كيرك، لكن موسم الصيف لم يبدأ بعد. وعندما يحين الموسم يكتظّ الفندق بالأميركيين الذين يقصدون هذا الشاطئ مرتأين أنه أفضل الشواطئ."

"خشيت أن يكون منزل السيدة سبنسر" قالت آن بلوعة. "لا أريد أن نصل إلى هناك. إن وصولنا يعني نهاية كل شئ بالنسبة لي."

٦
قرار ماريلا

رغم مخاوف آن، وصلت العربة إلى منزل السيدة سبنسر في الوقت المقدّر لوصولها. كانت السيدة سبنسر تعيش في منزل كبير مدهون بالطلاء الأصفر، يقع عند جُون بلدة وايت ساندس. وما كادت ترى الزائرتين حتّى توجهت نحو الباب وقد ظهرت علائم الدهشة المختلطة بالترحيب على محيّاها السمح.

"عجباً، عجباً،" هتفت، "أنت آخر من كنت أتوقّع رؤيته اليوم، لكني مسرورة جداً بزيارتك. أترغبين في إراحة الحصان بالحظيرة؟ وكيف حالك ياآن؟"

"أنا على أحسن ما يمكن أن أكون عليه، شكراً لسؤالك،" ردّت آن بانقباض، وكأنّ داءاً ما قد أصابها.

"أظننا سنبقى إلى أن تستريح الفرس،" قالت ماريلا، "لأني وعدت ماثيو بالعودة إلى البيت باكراً. في الحقيقة ياسيدة سبنسر، لقد وقع بيننا خطأ غريب من نوعه، وجئتك مستوضحة لعلي أعرف ما الذي سبّب هذا الخطأ. إن ما حدث هو أننا عندما بعثنا لك أنا وماثيو رسالتنا الشفوية مع شقيقك روبرت رجوناك أن تحضري لنا من الملجأ صبيّاً، طلبنا من روبرت إعلامك عن رغبتنا في تبني صبي يبلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر."

"لا.. لا تقولي هذا ياماريلا كُثْبيرت!" قالت السيدة سبنسر بانزعاج. "كيف حدث هذا، وصلتني رسالتكما عن طريق نانسي ابنة أخي روبرت، وهي التي أخبرتني أنكما تريدان بنتاً، أليس هذا ما قالته لي يافلورا جين؟" استنجدت السيدة سبنسر بابنتها التي كانت قد وصلت إلى عتبة الدرج حيث تقف المرأتان.

"هذا ما قالته على وجه التحديد، ياآنسة كُثْبيرت،" أيّدت فلورا جين حديث أمها بجدّية.

"كم يؤسفني هذا،" قالت السيدة سبنسر. "إنه خطأ مشين، ولكنه بالتأكيد لم يكن خطأي ياآنسة كُثْبيرت. لقد بذلت أقصى جهدي وظننت أني أتّبع تعليماتك. إن نانسي فتاة طائشة، وهي تضطرني دائماً إلى توبيخها على إهمالها."

"كان الخطأ خطأنا،" ردّت ماريلا متراجعة. "كان يجب علينا المجيء إليك بأنفسنا، فرسالة على مثل هذا القدر من الأهمية ما كان ينبغي إرسالها شفهياً، كما فعلنا. على كل حال، وقع الخطأ، وما نستطيع عمله الآن هو محاولة تصحيحه. تُرى، هل نستطيع إعادة الطفلة إلى الملجأ؟ أظن أنهم لن يرفضوا استعادتها، أليس كذلك؟"

"أعتقد هذا،" أجابت السيدة سبنسر بعد تفكير، "لكني لا أظن أن إعادتها إلى الملجأ ضرورية، فقد جاءت السيدة بيتر بلويت لزيارتي أمس، وأبدت لي أسفها لأنها لم تطلب مني أن أحضر لها فتاة صغيرة لتساعدها. إن عائلة السيدة بيتر عائلة كبيرة، كما تعلمين، وهي تعاني كثيراً في العثور على من يساعدها، وستكون آن البنت المناسبة لها، بل إني أعتبر ما حدث تدبيراً إلهياً."

لم يظهر على ماريلا أنها تؤيد السيدة سبنسر فيما قالته ولم تعتقد أن للتدبير الإلهي يداً فيما حدث. ورغم أنها وجدت أمامها فرصة كبيرة لتتخلص من تلك اليتيمة المنبوذة، لم تشعر في قرارة نفسها بالامتنان لهذه الفرصة السانحة.

لم تكن ماريلا تعرف السيدة بيتر بلويت إلاّ من مظهرها الخارجي، الذي يفصح عن وجه خبيث صغير، لا تكسو عظامه أونصة واحدة من اللحم الزائد. لكنها كثيراً ما سمعت عنها من قبل، وممّا كان يُقال عنها إنها عاملة وحُوذية فظيعة. وكانت الخادمات اللواتي تقيلهن من خدمتها يروين روايات مخيفة عن طباعها السيئة وشُحّها

وعن أطفالها المشاكسين وألسنتهم السليطة. وسرعان ما وقعت ماريلا فريسة تأنيب الضمير من مجرّد تفكيرها بتسليم آن لرحمة السيدة بلويت.

"حسناً، سأدخل لنتحدث عن الموضوع بإسهاب،" قالت ماريلا.

"ولكن.. ربّاه.. أكاد لا أصدّق عينيّ، هاهي السيدة بيتر عند نهاية الدرب في طريقها إلينا في هذه اللحظة المباركة!" هتفت السيدة سبنسر بحماس وهي ترشد ضيفتيها عبر الردهة نحو قاعة الاستقبال التي نفثت على الضيوف موجة برد قارصة، كما لو أن الهواء كان قد كمن أمداً طويلاً خلف الستائر الخضراء السميكة المسدلة بإحكام، بحيث تغربل وتصفّى حتى فقد أدنى ذرّة دفء يمكن أن يحتويها.

"هذا من حسن حظ الجميع، لأننا سنتمكّن من تصفية هذه المشكلة حالاً. تفضلي واجلسي على الأريكة ياآنسة كُثْبيرت. أمّا أنت ياآن فاجلسي على ذلك المتكأ العثماني ولا تتشيطني. اسمحا لي بأخذ قبعتيكما. وأنت يافلورا جين اذهبي وضعي غلاية الماء على النار. أهلا وسهلاً ياسيدة بلويت، كنا نقول الآن إن قدومك الساعة هو من حسن حظ الجميع. اسمحا لي بأن أعرفكما على بعضكما أيتها السيدتان: السيدة بلويت، الآنسة كُثْبيرت. أرجوكما اعذراني لدقيقة. نسيت أن أطلب من فلورا جين إخراج الكعك من التنّوُر."

اندفعت السيدة سبنسر خارج القاعة، بعد أن أزاحت الستائر. وجلست آن على المتكأ العثماني بلا حراك، مشابكة يديها بإحكام في حضنها ومتفرّسة في السيدة بلويت بذهول. تُرى، هل سينتهي بها المآل إلى عهدة هذه المرأة ذات الوجه الصارم والعينين المخادعتين؟

وسرعان ما شعرت بغصّة في حلقها، وسرعان ما أعتم الأسى بريق عينيها. وكان خوفها من عجزها عن حبس دموعها قد بدأ يعتريها عندما عادت السيدة سبنسر من المطبخ، متوردّة ومتألقة، وقديرة كعادتها دائماً على معالجة أية مشكلة وتسويتها بشطارة سواء

كانت مشكلة جسدية أو فكرية أو معنوية.

"يبدو أنه حدث سوء تفاهم بين الآنسة كُثْبيرت وبيني فيما يتعلق بهذه البنت الصغيرة ياسيدة بلويت،" قالت السيدة سبنسر. "كنت أحسب أن السيد والآنسة كُثْبيرت أرادا تبني بنت صغيرة. لقد أُعلمت هذا بالحرف الواحد. ولكن اتضح أنهما يريدان صبياً. لذلك إذا كنت ما زلت على نفس الرأي الذي صارحتني به أمس، أعتقد أنها ستكون الفتاة المناسبة لك."

صوّبت السيدة بلويت عينيها نحو آن وتفحّصتها من الرأس حتى القدمين.

"كم تبلغين من العمر، و ما اسمك؟" سألتها بلهجة آمرة.

"آن شيرلي،" أجابت الطفلة المنكمشة متلعثمة، بدون أن تجرؤ حتى على اشتراط نطق اسمها كما تحب، "وأنا في الحادية عشرة من العمر."

"هـــــــه! لا يبدو عليك هذا، لكنك نحيلة، ولا أعرف لماذا تكون الفتيات النحيلات أفضل من غيرهن دائماً. حسناً، إذا أخذتك يجب أن تكوني فتاة مطيعة، أعني مطيعة وفهيمة ومحترمة. وسأتوقّع منك أن تكسبي معيشتك بعرق جبينك، وأنا أعني ما أقوله. حسناً، أعتقد ياآنسة كُثْبيرت أني سأخلّصك منها. لدي طفل نكد جداً، وانشغالي الدائم به صار يسبب لي الكثير من الإرهاق. وإذا شئت يمكنني أخذها معي إلى البيت منذ الآن."

نظرت ماريلا إلى آن، ورقّت مشاعرها عندما رأت وجه الطفلة الشاحب ونظرات التعاسة البكماء: تعاسة مخلوق صغير بلا حول ولا قوّة وجد نفسه عالقاً من جديد في فخّ سبق له أن هرب منه. أحست ماريلا بالإدانة، وشعرت أنها إذا تنكّرت لتلك النظرة المستعطِفة، فإنها ستلاحقها إلى يوم مماتها. كما أنها لم تستلطف السيدة بلويت، ولم تشعر أنه من العدل تسليم طفلة حساسة جداً لإمرأة مثل تلك

المرأة! لا.. لا يمكننا أن تأخذ هذه المسؤولية على عاتقها!

"في الحقيقة لا أعرف،" أجابت ماريلا بتروٍ. "لم أقل لماثيو بعد، وأنا لم أقرّر بشكل قاطع أننا لا نريد الاحتفاظ بها، كما أن ماثيو يميل إلى إبقائها عندنا. وما جئت إلاّ لأعرف كيف وقع هذا الخطأ، وأنا أفضّل الآن أن تعود معي ريثما نتباحث في أمرها أنا وماثيو. فليس من حقّي حسم الموضوع قبل استشارته. وإذا قرّرنا التخلص منها سنحضرها إلى هنا أو نرسلها لك غداً ليلاً. وإذا لم نفعل ستعرفين حينها أننا قرّرنا الاحتفاظ بها. أيناسبك هذا ياسيدة بلويت؟"

"ليس لدي أي خيار آخر،" ردّت السيدة بلويت بجلافة.

أثناء حديث ماريلا، أخذت شمسٌ ما تتسلل خِفية لتشرق في وجه آن. في البدء خبت نظرة اليأس من العينين، ثم حلّ محلّها إشعاع باهت من ومضة أمل، ثم سطعت العينان وومضتا كنجوم الفجر. وهكذا انقلب حال الطفلة رأساً على عقب. وعندما غادرت السيدة سبنسر والسيدة بلويت الصالة لتأخذ الأخيرة وصفة طعام كانت قد جاءت لتستعيرها من السيدة سبنسر، وثبت آن من مكانها وطارت نحو ماريلا.

"أحـــــقاً ياآنسة كُتْبيرت، أحقاً قلت إنك ربما تقررين إبقائي في المرتفعات الخضراء؟" قالت هامسة متسارعة الأنفاس، كما لو أن التحدّث بصوت عالٍ سيلاشي الأمل بإمكانية تحقق ذلك الاحتمال المبارك. "أحقاً قلت هذا؟ أم أني تخيلّت أنك فعلت؟"

"أرى أنه عليك السيطرة على خيالك ياآن، ما دُمت لا تستطيعين التميز بين ما هو واقع وما هو خيال." قالت ماريلا بنبرة غاضبة. "نعم سمعتني أقول هذا، ولا شئ أكثر من هذا. لم يُتّخذ القرار بعد وربما سنسلّمك في النهاية إلى السيدة بلويت، فهي بكل تأكيد بحاجة إليك أكثر منّا."

"أفضّل العودة إلى الملجأ على الحياة معها،" قالت آن بانفعال. "إنها.. إنها تشبه المثقاب."

جاهدت ماريلا لتخمد رغبتها في الابتسام تحت وطأة إحساسها بأن الواجب يقتضيها توبيخ آن على ما تفوّهت به.

"يجب أن تتورع بنت صغيرة مثلك عن التعرّض إلى سيدة غريبة بمثل هذا الكلام،" قالت ماريلا بصعوبة. "اذهبي واجلسي في مكانك بهدوء وأمسكي لسانك، وتصرّفي كما ينبغي أن تتصرف البنت المؤدبة."

"سأحاول أن أفعل أي شئ تطلبينه مني، تلطّفي فقط وأبقيني عندك،" قالت آن بلهجة كسيرة وهي تعود لتجلس على المتكأ العثماني.

في ذلك المساء، وعندما عادت العربة بماريلا وآن إلى المرتفعات الخضراء، لاقاهما ماثيو عند الدرب. لمحته ماريلا من بعيد وهو يتسكع في الجوار، وحدست السبب الذي دفعه إلى ذلك. بل وكانت تتوقع رؤية ما رأته من تعابير ارتياح على وجهه عندما رأى أنها أعادت آن معها، لكنها لم تتطرق إلى ذكر أي شئ يتعلّق بالمشكلة إلى أن أصبحا وحدهما في فناء الدارة يحلبان الأبقار خلف الحظيرة. حينها روت له حكاية آن باختصار، وحكت له عمّا أسفر عنه لقاؤها مع السيدة سبنسر.

"أني لأبخل بكلب أستلطفه على تلك المدعوة بلويت،" قال ماثيو بحيوية غير عادية.

"أنا أيضاً لا أستسيغ هذا النوع من الناس،" وافقته ماريلا، ثم أردفت: "ولكن إمّا هي وإمّا أن نحتفظ بالطفلة لأنفسنا ياماثيو. وبما أنك تريدها، أظنني أنا أيضاً سأرغب في هذا، أو سأُجبر على القبول بالأمر الواقع. وما فتئت أقلّب هذه الفكرة في رأسي إلى أن بدأت أعتادها شيئاً فشيئاً. والأمر يبدو أشبه بالواجب. أنا لم يسبق لي أن

ربيّت طفلاً، فما بالك إذا كان الطفل بنتاً. ولا أخفيك سرّاً إذا صارحتك بأني قد أرتكب الكثير من الأخطاء أثناء محاولتي تربيتها، ولكني سأبذل جهدي. وبقدر ما يخصّني الأمر ياماثيو أنا موافقة على بقائها معنا."

تحوّل وجه ماثيو الخجول إلى شعلة من الفرح. "حسناً، لقد قدّرت فيما بيني وبين نفسي أنك سترينْ الأمر من هذه الزاوية ياماريلا،" قال. "إنها لمخلوق صغير مشوّق للغاية."

"يمكنني أن أكون أكثر تفهّماً لو قلت لي إنها مخلوق صغير نافع لنا،" ردّت ماريلا بلهجة صارمة، "لكني سأعمل على أن تكون كذلك. و.. حذار ياماثيو من التدخّل في الأساليب التي سأتبعها في تربيتها. قد تقول إن عانساً مثلي لا تعرف الشئ الكثير عن تربية الأطفال، لكني أعتقد أنها تعرف أكثر بكثير من أعزب عجوز مثلك، لذلك دعني أتدبّر أمر الطفلة وحدي، وعندما أفشل يحقّ لك أن تستخدم مجذافك لإدارة القارب."

"هـيا.. هيا ياماريلا، يمكنك فعل ما يحلو لك،" قال ماثيو مؤكداً. "فقط كوني طيبة ولطيفة معها بقدر ما تستطيعين من غير أن تفسديها بالدلال. وأنا واثق بأنها من النوع الذي يمكنك توجيهه كما تشائين إذا جعلتها تُحبك."

أطلقت ماريلا نفخة من منخريها، معبّرة بها عن ازدرائها لرأي ماثيو فيما يتعلق بهذا الموضوع الخاصّ بالنساء، ومشت نحو الملبنة وهي تحمل دِلاء الحليب.

"لن أخبرها الليلة أنها ستبقى،" فكّرت ماريلا متبصّرة، بينما كانت تصفّي الحليب في المقشدة. "ستنفعل كثيراً، ولن يغمض لها جفن ولو للحظة واحدة. آه ياماريلا كُثْبيرت، إنك غارقة في هذا الأمر حتى رؤوس أطرافك. هل تكهّنت من قبل أنك ستعيشين لتري اليوم الذي ستتبنين فيه بنتاً يتيمة؟ يا لأمرك العجيب، مع ذلك هو ليس

أعجب من أمر ماثيو الذي كان المحرّض الأساسي على كل ما نحن فيه الآن. ماثيو هذا المخلوق الذي ينتابه جزع عقيم من مجرّد رؤيته للفتيات الصغيرات. على كل حال، ها نحن قد قرّرنا خوض هذه التجربة، والله وحده يعرف عمّا ستتمخّض عنه فيما بعد."

٧
آن تتلو صلاتها

تلك الليلة، عندما صحبت ماريلا آن لتضعها في السرير قالت لها بصرامة:

"اسمعي ياآن، لاحظت ليلة أمس أنك عندما خلعت ملابسك رميتها أرضاً وتركتها مكوّمة هناك، وهذه قلّة ترتيب وعادة مُستَهجنة لا أسمح بتكرارها ثانية. يجب عليك ما إن تخلعي أية قطعة من ملابسك أن تضعيها على الكرسي بعد طيّها بعناية، فأنا لست بحاجة إلى بنت غير مرتبة."

"كنت ليلة أمس مسلوبة العقل تماماً لدرجة أني غفلت عن التفكير بملابسي،" أجابتها آن. "لكني اليوم سأطويها بعناية. إنهم يجبروننا في الملجأ على طَيّ ملابسنا دائماً، رغم أني كنت أنسى طَيَّها معظم الأحيان، إذ أكون على عجلة من أمري كي آوي إلى سريري طلباً للسكينة وهدوء البال والتحليق في عالم الخيال."

"يجب أن تكون ذاكرتك أحسن ممّا دَرَجت عليه إذا قُدِّر لك وبقيت هنا،" قالت ماريلا بلهجة رادعة، ثم أردفت: "نعم، هذا ترتيب لا بأس به، والآن رتّلي صلاتك ثم أخلدي إلى النوم."

"لم يسبق لي أن صليت في حياتي أبداً،" أعلنت آن لماريلا التي عاينتها بذهول مخيف.

"ماذا؟ ما الذي تقصدينه بقولك هذا ياآن؟ ألم يُعلّمك أحد من قبل كيف تُصلّين؟ إن الله يطلب من البنات الصغيرات أن يُصلّين له. ألا تعرفين من هو الله، ياآن؟"

"الله هو الروح، المطلق، الأبدي، الكامل الذي لا يتغير، الحكيم، القوي، القدّوس، العدل، اللطيف، الحَقّ،" أجابت آن على الفور بلسان طليق، فظهرت بعض علائم الارتياح على مُحيّا ماريلا.

"إذن أنت تعرفين شيئاً ما، الحمد لله! إنك على الأقل لست وثنية.أين تعلّمت ما قلته الآن؟"

"أوه.. في مدرسة الأحد التابعة للملجأ. جعلونا ندرس كتاب الأسئلة والأجوبة المشتمل على خُلاصة العقيدة الدينية. أحببت ذلك الكتاب كثيراً، ففي كلماته شئ مميز، مثل المطلق والأبدي والكامل الذي لا يتغير. أليست هذه الكلمات عظيمة؟ إن فيها تَموّجات خاصة بها، كما لو أنها ألحان صادرة من أورغ كبير. ورغم أننا، على ما أظن، لا نستطيع تسميتها شعراً، ألا توافقيني على أنّ وَقعها يشبه وَقع الشعر؟"

"لسنا نتحدث عن الشعر الآن ياآن، نحن نتحدث عن تلاوتك للصلاة. ألا تعرفين أنه من السئ ألاّ تصلّي كل ليلة؟ أظن أنك بنت صغيرة غير صالحة."

"لو كنت مكاني لوجدت أنه من الأسهل لك أن تكوني سيئة على أن تكوني حسنة الخلق، إذا كنت حمراء الشعر،" قالت آن معاتبة. "ولا يعرف الناس الذين ليسوا ذوي شعر أحمر أية مصيبة هو هذا الشعر. أخبرتني السيدة توماس ذات مرة أن الله خلقني حمراء الشعر من أجل غاية معينة. منذ ذلك الوقت كففت عن الاكتراث به. وعلى العموم كنت دائماً آوي إلى فراشي وأنا خائرة القوى لدرجة لا تسمح لي بتلاوة صلاتي. ولا أظن أن الناس الذين عليهم الاهتمام بالتوائم طيلة النهار يُتوَقّع منهم تلاوة أية صلاة. بِربّك هل تعتقدين حقاً أنهم يستطيعون ذلك؟"

حزمت ماريلا أمرها مُرتأية أنّ توجيه آن الديني يجب الشروع به فوراً، بل حتماً ليس هناك أي وقت يمكن تبديده.

"يجب عليك أن تُصلّي ياآن ما دمت تحت سقف بيتي."

"طبعاً سأصلي إذا كنت تريدين مني هذا،" وافقت آن بوداعة. "سأفعل أي شئ لأرضيك. لكن عليك تعليمي ما ينبغي لي قَوْله، لهذه المرة فقط. بعد أن آوي إلى الفراش سأتخيَّل صلاة رائعة لأتلوها دائماً. وإذ أفكر بهذا الأمر الآن، أعتقد أنها ستكون صلاة مشوِّقة للغاية."

"عليك أن تركعي على ركبتيك،" قالت ماريلا بارتباك.

ركعت آن بحيث أصبح وجهها مقابلاً لركبتيّ ماريلا، وتطلعت نحو الأعلى بخشوع، وقالت متسائلة: "لماذا يتوجب على الناس الركوع أثناء الصلاة؟ أتَرَيْن، عندما أرغب في الصلاة فعلاً فإن ما سأفعله هو الخروج وحدي إلى حقل كبير شاسع أو المُضيّ إلى أعماق.. أعماق الغابة، وسأتطلع عالياً.. عالياً.. عالياً نحو السماء؛ السماء الزرقاء الخلابة التي لا نهاية لزرقتها، وحينها سأترك مشاعري على سجيّتها لتستنبط الصلاة. حسناً، أنا الآن جاهزة، ما الذي ينبغي لي قوله؟"

لم تشعر ماريلا في حياتها بمثل الحرج الذي شعرت به في تلك اللحظة. كانت قد نَوَت تلقين آن بعض الصلوات الكلاسيكية الخاصة بالأطفال، مثل: "الآن أستلقي لأنام". لكنها كما قلت سابقاً كانت صاحبة حس مرحٍ غير متبلورٍ، وهو بكل بساطة ليس إلاّ اسماً مختلفاً لحسّ سرعة البديهة في مطابقة الأسماء على المُسَميات. إذ خطر لها فجأة أن تلك الصلاة السلسة البسيطة، المُكرّسة للأطفال الذين يرفلون بأروابهم البيضاء، ويلثغون على حجور أمهاتهم، لم تكن بالصلاة المناسبة لهذه الساحرة المنمشة التي لم تعرف شيئاً عن محبة الله ولم تهتم لتعرف، ما دامت هذه العاطفة لم تَعبُر إليها أبداً بوساطة أية محبة بشرية.

"أنت كبيرة بما يكفي كي تُصلّي وحدك ياآن،" قالت ماريلا أخيراً. "ما عليك إلاّ أن تحمدي الله على نِعمه وتسأليه بتواضع

ليمنحك الأشياء التي تريدينها."

"حسناً، سأبذل جهدي،" أجابت آن بلهجة واعدة وهي تدفن وجهها في حضن ماريلا.

"أبانا الذي في السموات.. هكذا يستهلّ القساوسة صلاتهم في الكنيسة، ولذلك أفترض أنها بداية نافعة أيضاً لاستهلال هذه الصلاة الخصوصية، أليس كذلك؟" تساءلت آن رافعة رأسها للحظة. "أبانا الذي في السموات، أحمدك على درب البهجة الأبيض وعلى بحيرة المياه البراقة وعلى بوني وعلى ملكة الثلج. أنا ممتنة لك من كل قلبي عليهم. وهذه هي كل النعم التي أستطيع تذكرها الآن والتي أحمدك عليها. أمّا الأشياء التي أريدها، فهي لا تُحصى لدرجة أنها ستستغرق وقتاً طويلاً جداً لأعددها لك، لذا لن أذكر سوى شيئين منها، وهُما الأكثر أهمية؛ من فضلك دعني أبقى في المرتفعات الخضراء، ومن فضلك اجعلني جميلة عندما أكبر. ودُمتَ لي.

مع خالص احترامي،
آن شيرلي."

"والآن، هل صلّيتُ بشكل لائق،" تساءلت آن بحماس، وهي تنهض. "كان يمكن أن أُضفي عليها المزيد من الرونق لو تسنّى لي الوقت الكافي للتفكير بها."

لا شئ حالَ دون انهيار ماريلا المسكينة إلاّ يقينها من أن ما قالته الطفلة لم يكن من قبيل الاستهتار، وأن لا شئ جعلها تتلو تلك الصلاة المستهجنة إلاّ عفويتها الناجمة عن جهلها بالشأن الديني. وهكذا آوت الطفلة إلى سريرها وهي تعاهد نفسها على تعليمها الصلاة في اليوم التالي. وكانت على وشك مغادرة الغرفة حاملة الشمعة عندما نادتها آن.

"لقد فكرت بها الآن. أما كان يجب عليَ أن أقول آمين كما يقول القساوسة، بدلاً من قولي مع فائق احترامي؟ لقد غابت هذه الكلمة عن

ذهني تماماً، لكني شعرت أن الصلاة يجب أن تُختتم بطريقة ما، ولذلك أضفت ما أضفته، أتظنين أن هذا سيُشَكِّل أي فرق؟"

"لا.. لا أظن أن هذا سيشكّل أي فرق،" قالت ماريلا. "نامي الآن كما ينبغي على بنت مطيعة أن تفعل، تصبحين على خير."

"يمكنني الليلة أن أقول لك تصبحين على خير أنت أيضاً بروح صافية،" قالت آن وهي تُمرِّغ رأسها بِتَرف في أحضان مخداتها.

عادت ماريلا إلى المطبخ، وثبتت الشمعة بحزم على الطاولة، ثم حدّقت بماثيو.

"ماثيو كُثْبيرت، حان الوقت حقاً ليتبنى شخص تلك الطفلة، وليعمل على تعليمها شيئاً ما، فهي على قابِ قوسين من الوثنية. أتصدق أنها قبل هذه الليلة لم تُصَلِّ مطلقاً؟ سأقصد منزل القسّ غداً لأستعير مجموعة القصص الدينية، هذا ماينبغي أن أفعله. وسوف تذهب إلى مدرسة الأحد حالما أُفَصِّل لها بعض الفساتين اللائقة. وإني لأتنبأ بأني سأكون في الأيام المقبلة غارقة في العمل حتى أذنيّ. عجباً، عجباً، هانحن لا نستطيع مغادرة هذا العالم قبل أن ننال نصيبنا من المتاعب فيه. لقد حَظيتُ بحياة ناعمة حتى الآن، لكن لحظة امتحاني حانت أخيراً، وأعتقد أن عليَ بذل الجهد لأُحْسِنِ الاستفادة منها."

٨
الشروع في تربية آن

كانت لماريلا أسبابها الوجيهة التي جعلتها تُحْجِم عن إعلام آن أنها ستبقى في المرتفعات الخضراء. ولم تعرف الطفلة بهذا القرار إلاّ مساء اليوم التالي. وخلال فترة الصباح والظهيرة شغلتها ماريلا بواجبات مختلفة وراقبتها بعين حصيفة أثناء أدائها لتلك الواجبات. ومع انقضاء الظهيرة استنتجت أنّ الطفلة مطيعة وذكية، مستعدّة للتجاوب في أداء المهمات وسريعة البديهة في التَعَلُّم. وكان أشدّ عيوبها خطورة هو الشرود والنزوع إلى الاستغراق في أحلام اليقظة أثناء أدائها لما هو مطلوب منها، بحيث كانت تسهو بين فينة وأخرى عمّا بين يديها إلى أن يعيدها لدنيا الواقع توبيخ ماريلا أو حلول كارثة.

أنهت آن غسل أواني وجبة الغداء وقصدت ماريلا وقد ارتسمت علائم التحدي على مُحيّاها، مفصحة عن مكنونات شخصٍ بلغ به التصميم حدَّ الاستماتة لمعرفة أسوأ ما سيحدث له. وقفت وقد ارتجف جسمها الهزيل من الرأس حتى أخمص القدمين، واصطبغ وجهها بحمرة الانفعال، واتسعت حدقتاها حتى غلب عليهما السواد، وتشابكت يداها بإحكام، وقالت مُتضرِّعة:

"أوه.. أرجوك ياآنسة كُثْبيرت، ألن تخبريني إذا كنت ستتخلين عني؟ حاولت التذرع بالصبر طيلة الصباح، ولكني أشعر الآن أني ما عدت بقادرة على الاحتمال مدة أطول. إنه لإحساس رهيب هذا الذي يتملكني، فأرجــــوك أخبريني."

"إنك لم تسفحي الماء الساخن على فوطة تجفيف الأواني كما طلبت منك،" قالت ماريلا بحزم. "اذهبي الآن، وأنجزي هذه المهمة قبل أن تسألي مزيداً من الأسئلة ياآن."

ذهبت آن واهتمّت بأمر فوطة تجفيف الأواني. ثم عادت إلى ماريلا وسمّرت عينين متوسلتين على وجه الأخيرة.

"حسناً،" قالت ماريلا، بعد أن عجزت عن اختلاق عذر جديد لتؤَجِل جوابها مدة أطول. "أظنني أستطيع إعلامك الآن. نعم، قررنا أنا وماثيو الاحتفاظ بك، هذا إذا بذلت جهدك لتكوني بنتاً مؤدبة وأظهرت لنا امتنانك. لـــكن ما بك أيتها الطفلة، ما القضية الآن؟"

"أنا أبكي،" أجابت آن بارتباك. "لا أستطيع معرفة السبب. أنا مسرورة بكل معنى الكلمة. آه، مسرورة لا تبدو كلمة مناسبة على الإطلاق. كنت مسرورة عندما رأيت درب البهجة الأبيض وبراعم الكرز.. لكن هذا الحدث! آه، إنه إحساس يفوق السرور. أنا.. أنا سعيدة. أعدك أني سأبذل جهدي لأكون بنتاً صالحة. وستكون محاولة شاقة كما أتوقّع منذ الآن، لأن السيدة توماس كانت تقول لي باستمرار إني بنت رديئة جداً، مع ذلك، سأبذل جهدي. لكن هل يمكنك أن توضحي لي سبب بكائي الآن؟"

"ربما لأنك تشعرين بكثير من الحماس والإثارة،" أجابت ماريلا بلهجة مُستنكِرة. "اجلسي على ذلك الكرسي وحاولي تهدئة نفسك. إنك أيتها الفتاة من النوع الذي يبكي ويضحك بسهولة. نعم، ستبقين هنا وسنحاول أن نربيك تربية صالحة. من الضروري أن تذهبي إلى المدرسة، ولكن بما أنه لم يبق على العطلة سوى أسبوعين، لا يستحق الأمر أن تباشري الذهاب قبل أن تعيد المدرسة فتح أبوابها من جديد في شهر أيلول القادم."

"كيف ينبغي لي مناداتك؟" سألتها آن. "أأدعوك ياآنسة كُثْبيرت؟ أيمكنني مناداتك خالتي ماريلا؟"

"لا؛ نادِني ماريلا فقط. لست معتادة على لقب الآنسة كُثْبيرت، وهذا سيجعلني عصبية المزاج."

"ولكن قَولي ماريلا فقط، يبدو ذا وقع خالٍ من الاحترام،" اعترضت آن.

"لا أظن أن فيه أي شئ غير محترم إذا كنت حذرة بما فيه الكفاية لتتكلمي باحترام. جميع الناس في أفونليا كبارهم وصغارهم ينادونني ماريلا، ما عدا القس الذي يقول ياآنسة كُثْبيرت، عندما يفكّر قبل مخاطبتي."

"بودّي مناداتك خالتي ماريلا،" قالت آن بلهفة. "ما حظيت بخالة في حياتي أبداً، أو أي نسيب أو حتّى جدّة. وسيشعرني هذا النداء وكأني أنتمي إليك بالفعل. ألا يمكنني مناداتك خالتي ماريلا؟"

"لا.. أنا لست خالتك ولا أؤمن بمناداة الناس بألقاب لا تنطبق عليهم."

"ولكن يمكننا أن نتخيَّل أنك خالتي."

"أنا لا أقدر،" قالت ماريلا متجهمة.

"ألا تتخيَّلي الأشياء على غير ما هي عليه أبداً؟" سألتها آن وقد فتحت عينيها على وسعهما.

"لا."

"ياالله!" سحبت آن نفساً طويلاً. "ياالله ياآنسة كُثْبيرت، إنك تُفوِّتين على نفسك الكثير!"

"أنا لا أؤمن بفائدة تَخَيُّل الحقائق على غير ما هي عليه" ردّت ماريلا. "لأن الله عندما يضعنا في ظروف معينة، لا يفعل ذلك من أجل أن نتخيَّل عدم وجود تلك الظروف. وهذا يذكّرني بما أريده منك الساعة. اقصدي غرفة الجلوس ياآن، وتأكدي أن قدميك نظيفتان، واحرصي على ألاّ يدخل الذباب إلى تلك الغرفة، وأحضري لي من على

الرفّ البطاقة المزخرفة. تحتوي تلك البطاقة على نَصٍّ صلاة، وعليك أن تكرّسي وقت فراغك هذه الأمسية لتحفظيها عن ظهر قلب. لا أريد سماع المزيد من الصلوات كالصلاة التي سمعتها ليلة أمس."

"أظنني تصرّفت بحمق،" قالت آن معتذرة، "لكن أمس، كما تعلمين، لم تكن لدي أية خبرة سابقة. ولا أظن أنك كنت تتوقعين حقاً من فتاة مثلي أن تصلّي بإتقان منذ محاولتها الأولى. لكني وكما وعدتك، فكّرت بصلاة رائعة بعد أن أويت إلى الفراش. كانت تقريباً طويلة بطول صلاة القس وشاعرية جداً. ولكن صدّقي أو لا تصدّقي، أنا لم أستطع تذكّر كلمة واحدة منها عندما نهضت هذا الصباح. وأخشى أني لن أستطيع التفكير مرّة أخرى بصلاة تضاهيها جمالاً. تُرى، هل لاحظت من قبل أن الأشياء التي يفكّر بها الإنسان لأول مرة لا تكون على نفس الدرجة من الكمال عندما يسترجعها بفكره مرة أخرى؟"

"إليك ما يتوجب عليك ملاحظته ياآن: عندما أطلب منك القيام بعمل ما، أريدك أن تطيعيني في الحال لا أن تتيبسي في مكانك وتحاضري عنه. والآن اذهبي وقومي بما أمرتك به."

غادرت آن المكان حالاً، وأسرعت إلى غرفة الجلوس عبر الردهة، لكنها تقاعست عن العودة. وبعد انتظار دام عشر دقائق وضعت ماريلا أدوات الحياكة جانباً، وذهبت باحثة عنها وهي مقطّبة الجبين. وفي غرفة الجلوس وجدت آن تقف بلا حراك أمام لوحة ملوّنة معلّقة على الحائط بين النافذتين، وقد شبكت يديها خلف ظهرها ورفعت رأسها وأطلقت العنان لعينيها فسافرتا إلى دنيا الأحلام، بينما أغار النور الأبيض المتسلّل من الخارج على جسمها الصغير المستكين إغارة شبه خارقة للطبيعة وهو يتماوج بالخضرة التي عكستها أشجار التفاح وعناقيد الكروم.

"آن، بماذا تفكرين بحقّ السماء؟" سألتها ماريلا محتدّة.

عادت آن إلى أرض الواقع مُجفلة.

"تلك،" قالت مشيرة نحو اللوحة التي كانت تشعّ بالألوان الحيّة، والتي تجسّد صورة المسيح وهو يبارك الأطفال. "كنت أتخيَّل الآن أني واحدة من هذا الجمع؛ أني تلك البنت ذات الثوب الأزرق التي تقف وحدها في الزاوية وكأنها لم تستطع الانتماء لأحد، مثلي. ألا تظنينها تبدو وحيدة وحزينة؟ أنا أعتقد أنها كانت بلا أب أو أم، لكنها أرادت نَيْلَ مباركة المسيح أسوة بغيرها. لذلك تسللت خلف الحشد بحياء آملة ألاّ يلاحظها أحد غيره. أنا واثقة أني أعرف شعورها في تلك اللحظة. لا بدّ أن قلبها كان يخفق وأن يديها كانتا باردتين، مثلما كانت يداي عندما سألتك إذا كنت سأبقى هنا. خَشيتْ ألاّ يلاحظها، لكن ألا يبدو أنه لاحظها؟ كنت أحاول تخيُّل القصة كلها، زحفها الخفيّ المتواصل نحوه إلى أن تدنو منه، ثم رؤيته لها، ووضع يده على رأسها.. و.. أوه سريان رعشة السعادة في جسمها! لكني كنت أتمنى لو أن الفنان الذي رسم هذه اللوحة لم يرسمه بهذا الحزن. ولاحظي أن جميع الرسوم التي تُصوِّره، تُصوِّره بهذا الحزن أيضاً. مع ذلك أنا لا أصدق أنه كان حزيناً إلى هذه الدرجة أو أن الأطفال كانوا يخافونه."

"آن،" قالت ماريلا، متعجّبة من نفسها لعدم مقاطعتها تلك الخطبة الطويلة قبل ذلك، "لا يجب عليك أن تتكلمي بهذه الطريقة. هذه قلّة احترام، بل منتهى قلّة الاحترام."

اتسعت عينا آن دهشة.

"لِمه؟ لقد شعرت الآن أني أتكلم بخشوع لم يسبق لي الإحساس به من قبل، أنا واثقة بأني لم أكن أقصد التكلم بقلّة احترام."

"حسناً، لا أظن أنا أيضاً أنك كنت تقصدين هذا، ولكن ما قلته لا يبدو مستساغ الوقع، إذ لا يجوز التحدث بدون تحفّظ عن مثل هذه الأمور. وشيء آخر يا آن، عندما أرسلك لتحضري شيئاً، يجب عليك إحضار ما أطلبه منك فوراً، لا أن تقفي سابحة وحالمة أمام اللوحات. تذكّري هذا. خذي البطاقة وتعالي إلى المطبخ. والآن اجلسي عند الزاوية واحفظي تلك الصلاة عن ظهر قلب."

ركزت آن البطاقة على إبريق كانت قد وضعت فيه أزهار تفاح جلبتها من الخارج لتزين بها طاولة الأكل. وكانت ماريلا قد راقبت عملية التزيين بارتياب، لكنها لم تقل شيئاً. أسندت الطفلة ذقنها بيديها وانكبّت على البطاقة تحفظ الصلاة بدأب استغرق عدة دقائق من الصمت.

"تعجبني هذه الصلاة،" أعلنت بعد فترة من الوقت. "إنها جميلة، وقد سمعتها من قبل. سمعت ناظر مدرسة الأحد في الملجأ يتلوها ذات مرة، لكني لم أحبها في ذلك الوقت. كان صوته كئيباً، وكان يرتّلها بتفجّع جعلني أشعر أنه يعتبر الصلاة واجباً قسرياً. أعرف أن هذا الكلام ليس شعراً، لكنه مع ذلك يثير داخلي نفس الشعور الذي يغمرني عندما أقرأ الشعر.. أبانا الذي في السموات، ليتقدّس اسمك.. هذا مثل سطر من الموسيقى. أوه أنا سعيدة جداً لأنك فكّرت في تعليمي هذه الصلاة يا.. آنسة.. ماريلا."

" هيا إذن تعلّميها، والجمي لسانك،" قالت ماريلا مُنهية الحديث.

أمالت آن إبريق الأزهار قليلاً لتطبع قبلة على برعم وردي اللون، ثم عكفت لعدّة لحظات تاليات على حفظ الصلاة باجتهاد، لكنها سرعان ما وجّهت الحديث إلى ماريلا من جديد.

"ماريلا، أتظنين أني سأحظى يوماً برفيقة حميمة في أفونليا؟"

"بمـــــــاذا؟ رفيقة ماذا؟"

"رفيقة حميمة، أي صديقة مقرّبة مني، توأم روح حقيقية لي، أستطيع البوح لها بأعمق أسرار دخيلتي. حلمت بمقابلة هذه الرفيقة طيلة عمري. وما توقعت أبداً لقاءها، لكن بما أن الكثير من أحلامي الجميلة قد تحقّق دفعة واحدة ألا تظنين أن هذا الحلم قد يتحقق أيضاً؟"

"هناك فتاة تدعى ديانا باري تسكن في دارة منحدر البستان، وهي تقاربك عمراً. هي فتاة لطيفة جداً، ومن المحتمل أن تصبح

رفيقتك عندما تعود إلى بيتها، لأنها الآن تزور عمّتها في بلدة كارمودي. وإذا حدث وتعرّفت عليها يجب أن تتصرفي بلياقة، فالسيدة باري إمرأة حازمة جداً، ولن تسمح لديانا باللعب مع بنت ليست دمثة ومؤدبة."

نظرت آن إلى ماريلا من خلال أزهار التفاح التي أمامها، ولمعت عيناها ببريق الاهتمام.

"كيف هو شكل ديانا؟ شعرها ليس أحمر على ما أظن؟ أتمنى ألاّ يكون كذلك، فمن المزعج بما فيه الكفاية أن أكون أنا حمراء الشعر، ولكني بالتأكيد لا أستطيع احتماله لدى رفيقة حميمة."

"ديانا طفلة جميلة، سوداء الشعر والعينين، متورّدة الوجنتين. وهي مؤدبة وذكية وهذا أفضل من الجمال."

كانت ماريلا مولعة بالفضائل مثل الدوقة في أرض العجائب، وكانت جازمة الاقتناع بأنه ينبغي على المرء غرس الفضيلة في نفس الطفل الذي يشرف على تربيته كلّما توجّه إليه بالحديث.

لكن آن مرّت مرور الكرام على موعظة ماريلا، كأن الأمر لا يعنيها، وركّزت على متابعة التحدّث عن الأمل المفرِح الذي سبق تلك العِظة.

"يسرّني أنها جميلة. فبالإضافة إلى أن يكون الإنسان هو نفسه جميلاً، ليس هناك أفضل من الحصول على رفيقة حميمة جميلة. طبعاً أعرف أنّ هذا مستحيل في حالتي لأني لست جميلة. عندما عشت مع السيدة توماس كان لديها في غرفة الجلوس خزانة كتب ذات بابين زجاجيين. لم يكن في تلك الخزانة كتب، لكن السيدة توماس اعتادت على أن تحفظ فيها أفضل ما تملكه من أواني الخزف الصيني والمعلّبات، وذلك عندما يكون لديها معلّبات لتحفظها. كان أحد البابين محطماً، حطمه السيد توماس ذات ليلة عندما كان ثملاً، لكن الآخر بقي سليماً، واعتدتُ على التظاهر بأن انعكاس صورتي عليه إنما هو

فتاة أخرى تعيش في تلك الخزانة. سميتها كيتي موريس، وكنّا حميمتين جداً. كنت أحكي معها لساعات، خصوصاً يوم الأحد، وكنت أخبرها كل شئ عني. كانت كيتي عزاء حياتي وسلواها. وكنا أنا وإياها نتخيل بأن المكتبة مسحورة، وأني لو استطعت يوماً معرفة التعويذة التي تفكّ ذلك السحر لفتحت الباب ولدخلت إلى الغرفة التي تعيش فيها كيتي، لا إلى حيث توجد أواني الصيني ومحفوظات السيدة توماس. وحينها تتمكّن كيتي موريس من أخذ يدي لتقودني إلى عالمها الفاتن حيث نعيش هناك بسعادة إلى الأبد. عالم مليء بالأزهارِ والشمس الساطعة والجنيات. عندما ذهبت لأعيش مع السيدة هاموند انفطر قلبي لأني تركت كيتي موريس. وهي أيضاً انفطر قلبها لفراقي. أعرف أن هذا ما حدث لها، لأنها كانت تبكي عندما قبلتني قبلة الوداع من خلال باب المكتبة الخارجي. لم يكن هناك مكتبة في منزل السيدة هاموند، ولكن عند أقصى النهر، بعيداً شيئاً ما عن المنزل، كان هناك وادٍ صغير أخضر يتردد فيه أروع رَجْعٍ للصدى. كان الصدى يردّ على كل كلمة يمكن أن تقوليها، حتى لو لم تتكلمي بصوت عالٍ. وهكذا تخيلت أن ذلك الصدى هو بنت صغيرة تدعى فيوليتا وأصبحنا صديقتين عظيمتين. أحببتها كما أحببت كيتي موريس تقريباً، أعني ليس مثلها تماماً. وفي الليلة التي سبقت ذهابي إلى الملجأ ودّعت فيوليتا، وجاءني صوت وداعها حزيناً.. حزيناً جداً. كنت قد تعلقت بها كثيراً لدرجة أني لم أجرؤ على تخيُّل رفيقة حميمة أخرى في الملجأ، حتى لو وجدت فيه أية فسحة للخيال."

"من حسن الحظ إذن أنه لم يكن فيه فسحة للخيال،" قالت ماريلا بنبرة جافة. "أنا لا أوافق على مثل هذه الأمور. ويبدو عليك وكأنك على وشك تصديق خيالاتك هذه. سيكون من الأفضل لك أن تحظي برفيقة حيّة حقيقية لتنزعي هذا الهراء من رأسك. لكن لا تدعي السيدة باري تسمعك تتحدثين عن هذه الكيتي والفيوليتا اللتين ذكرتهما، وإلاّ ستعتقد أنك ممّن يختلقون القصص."

"لا، لن أفعل، لا يمكنني إخبار أي شخص عنهما، فذكراهما مقدّسة جداً بالنسبة لي. لكنني شعرت بالرغبة في إطلاعك على هذه الذكرى. ياللروعة.. انظري، لقد طارت هذه النحلة الكبيرة خارجة من قلب زهرة التفاح. أليس هذا مكاناً جميلاً للسكن؟ قلب زهرة تفاح! تخيّلي نفسك نائمة فيه بينما يؤرجحه النسيم. لو لم أكن فتاة من الإنس أظنني أحب أن أكون نحلة تعيش بين الأزهار."

"أمس أردت أن تكوني نَوْرسا،" نفخت ماريلا من منخريها. "يالك من بنت متقلبة المزاج. ألم أطلب منك العكوف على حفظ تلك الصلاة من غير الاسترسال في الثرثرة. لكن يبدو أنه من المستحيل عليك التوقف عن الكلام إذا وجدت من يستمع إليك. لذلك اصعدي إلى غرفتك واحفظيها هناك."

"أوه، أوشكت على الانتهاء من حفظها كلها.. كلها ما عدا السطر الأخير."

"هيا، دعك من هذا الآن وافعلي ما طلبته منك، اصعدي إلى غرفتك، واعكفي على حفظها كما يجب، وامكثي هناك إلى أن أناديك لتساعديني في إعداد الشاي."

"أيمكنني أن آخذ أزهار التفاح معي لتؤنسني؟" توسّلت آن.

"لا، لا أظن أنك ترغبين في إحلال الفوضى بغرفتك. وكان عليك في المقام الأول أن تتركي هذه الأزهار على أغصانها."

"أنا أيضاً شعرت بهذا،" أجابت آن. "شعرت أني لا يجدر بي تقصير عمرها الوديع باقتطافها، فأنا لن أحب أن يقطفني أحد لو كنت زهرة تفاح. لكني لم أستطع مقاومة الإغراء. ما الذي تفعلينه أنت عندما تواجهين إغراءً لا يُقاوم؟"

"آن، أسَمِعتني أطلب منك الصعود إلى غرفتك؟"

تنهّدت آن، وغادرت المطبخ إلى الغرفة الشرقية، وجلست على

كرسي إلى جانب النافذة.

"أنهيت حفظ هذه الصلاة. حفظت السطر الأخير عندما كنت أصعد الدرج. لذلك سأنصرف الآن إلى تخيُّل وجود أشياء في هذه الغرفة بحيث تبقى فيها دائماً. سأغطي هذه الأرض بسجادة مخملية بيضاء مزدانة بأزهار وردية اللون وسأجلّل النوافذ بستائر حريرية وردية اللون أيضاً. أمّا الجدران فسأعلّق عليها بسطاً مزركشة. وسأجعل الأثاث من خشب الماهوغاني. أنا لم أر من قبل هذا النوع من الخشب، لكن وقعه على الأذن يدلّ على أنه فاخر جداً. هاهي أريكة عليها أكوام من الوسائد الحريرية البديعة، وردية وزرقاء وذهبية وقرمزية، وأنا أتكئ عليها برشاقة. أستطيع رؤية انعكاسي في تلك المرآة الرائعة الكبيرة على الحائط، أنا فارعة الطول وذات إطلالة ملكية، أرتدي ثوباً له شرائط بيضاء طويلة، مع صليب من اللؤلؤ يزين صدري ولآلئ تجمّل شعري. لون شعري فاحم كالليل وبشرتي صافية كالعاج النقيّ. اسمي السيدة كورديليا فيتزجيرالد. لا، إنه ليس كذلك، لا أستطيع الاقتناع بأن هذه هي الحقيقة."

رقصت آن أمام المرآة الصغيرة وأمعنت النظر فيها. فردّت عليها المرآة بالمثل عاكسة نظرات عينيها الرماديتين الحزينتين ووجهها الدقيق المنمش.

"أنت آن فقط، آن المرتفعات الخضراء،" قالت بجدّية، "وكلما حاولتُ أن أتخيل نفسي السيدة كورديليا أراك كما أنت عليه الآن. أفلا تَريْن أنه من الأفضل لي مليون مرة أن أكون آن المرتفعات الخضراء على أن أكون آن التي ليس لها أي مكان تنتمي إليه؟"

انحنت إلى الأمام، وقبلَت انعكاس صورتها بحرارة، واتجهت نحو النافذة.

"غاليتي ملكة الثلج، مساء الخير. ومساء الخير أيتها البتولا العزيزة هناك عند الغَور. ومساء الخير أيها المنزل الرمادي الحبيب

على تلك التلة. تُرى هل ستصبح ديانا رفيقتي الحميمة. هذا ما أرجوه، لأني سأحبها من كل قلبي، لكن لا ينبغي لي نسيان كيتي موريس وفيوليتا، لأن نسياني لهما سيجرح مشاعرهما، وأنا أكره جرح مشاعر أحد، حتى لو كانت مشاعر فتاة تعيش في خزانة كتب أو فتاة تعيش في الصدى. يجب أن أحرص على تذكّرهما دوماً، وأن أبعث القُبل لهما كل يوم."

طبعت آن على رؤوس أناملها عدة قُبل، ثم نفختها في الهواء نحو أزهار الكرز، ثم أسندت ذقنها على يديها وحلّقت بعيداً فوق بحر من أحلام اليقظة.

٩

هلع السيدة ريتشيل ليند

كان قد مضى على وجود آن في المرتفعات الخضراء أسبوعان قبل مجيء السيدة ريتشيل ليند لتفحّصها. وما كانت السيدة ريتشيل، والحق يُقال، مَلُومة على توانيها في الحضور. إذ داهمت تلك المرأة الطيّبة أنفلونزا حادّة في غير موسمها، أدّت إلى احتجازها في منزلها منذ زيارتها الأخيرة للمرتفعات الخضراء.

لم تكن السيدة ريتشيل من الأشخاص الذين يغلب عليهم التعرض للمرض، بل وكانت ذات رأي واضح في استهجانها للناس الذين يمرضون. لكن الأنفلونزا، كما أكّدت السيدة ليند، لم تكن تشبه أي مرض آخر على وجه البسيطة، ولا يمكن تفسيرها إلاّ أنها واحدة من تلك الزيارات المميزة التي يتمخّض عنها التدبير الإلهي. وما إن سمح لها طبيبها بوضع قدمها خارج عتبة بيتها حتى أسرعت قاصدة المرتفعات الخضراء، مثقلة بأحمال رغبة فضولية مُلحّة للتفرّج على يتيمة ماثيو وماريلا، التي أشاعت عنها أفونليا شتّى أنواع الأقاصيص والحكايات.

سعت آن خلال الأسبوعين اللذين مرّا عليها في المرتفعات الخضراء إلى الاستفادة من كل لحظة من لحظات صحوها. تصاحبت مع كل شجرة وشجيرة في ذلك المكان، وعثرت على درب يبدأ من عند نهاية بستان التفاح ويمتدّ صعوداً نحو حزام من الأراضي الحرجية، واستكشفته إلى نهايته القصوى وتعرّفت على جميع تضاريسه المشوِّقة ابتداء من الجدول إلى الجسر، مروراً بأيائك التنوب وقناطر

الكرز البري، وانتهاءاً بالزوايا المكتظّة بالسراخس والمزدحمة بأغصان أشجار القيقب والدردار البري المتدلّية.

وطّدت أواصر الصداقة مع النبع عند الغَور، ذلك النبع الذي كان عميقاً، رقراقاً، ورائعاً بمائه ذي البرودة اللذيذة، تحدّه الحجارة الرملية الحمراء الملساء، وتحفّه شتول سراخس الماء الرائعة التي تشبه راحة الكف، وينتهي عند الجدول الذي يقطعه جسر بدائي مؤلف من جذع شجرة.

أرشد ذلك الجسر قدميّ آن الراقصتين إلى تلّة حرجية نائية، يهيمن عليها الشفق الأبدي تحت ظلال أشجار الراتينج والتنوب الغزير ذي الجذوع المنتصبة. كانت أزهار أجراس حزيران الهشّة هي الأزهار الوحيدة التي عجّ بها ذلك المكان، وكانت تفوق برقّتها وحيائها، رِقّة وحياء جميع أزهار الغابة. وبين بقعة وأخرى طَلعت إلى جانبها بضعة فروخ من الأزهار النجمية التي بدت وكأنها أرواح براعم السنة السابقة. وفي ذلك الجوّ المظلل لمعت أنسجة العناكب بين الأشجار كخيوط من الفضة، وتدلّت الشراريب من فروع أغصان التنوب وكأنها على وشك إلقاء خطبة وديّة.

كانت هذه النزهات الاستكشافية الممتعة تجري في أنصاف الساعات القلائل التي سُمح فيها لآن باللعب. وكانت آن تقصّ على ماثيو الصامت وماريلا المتظاهرة بالصمم أخبار اكتشافاتها. ولم يحدث قَط أن تذمّر ماثيو من أحاديثها، بل كان في الحقيقة يستمع إليها وقد أشرق وجهه بابتسامة وديعة. أمّا ماريلا فكانت تدع الثرثرة تأخذ مجراها إلى أن تلمس في نفسها اهتماماً لسماع المزيد، حينها تقمع آن على الفور بأمر مُقتضب لتلجم الأخيرة لسانها.

عندما وصلت السيدة ريتشيل إلى المرتفعات الخضراء كانت آن في البستان تتسكع فيه على هواها بين الحشائش الغضّة المتمايلة التي تناثرت عليها أشعة شمس المساء الحمراء. وهكذا، وجدت تلك السيدة الطيبة فرصة عظيمة لتتحدث بإسهاب عن مرضها. وعندما

شرعت تصف باستمتاع واضح كل وجع انتابها وكل خفقة نبض شعرت بها، تبادر إلى ذهن ماريلا أن الأنفلونزا كانت مرضاً يجلب مع أوجاعه تعويضاته عن هذه الأوجاع. وما كادت السيدة ريتشيل تستنزف جميع تفاصيل مرضها حتى أوضحت السبب الرئيسي لزيارتها.

"بلغتني عنك وعن ماثيو أخبار أثارت دهشتي."

"لا أظنك أكثر دهشة مني أنا نفسي،" أجابت ماريلا. "رغم أني بدأت الآن أتجاوز هذا الشعور."

"إن وقوع مثل هذا الخطأ هو من سوء حظكما،" قالت السيدة ريتشيل بلهجة متعاطفة مواسية. "أما كان بإمكانك إعادتها إلى الملجأ؟"

"بلى، كان بإمكاننا إعادتها، لكننا قرّرنا الاحتفاظ بها. لقد شعر ماثيو بالميل إليها، ولا أخفيك سراً إن صارحتك أني أنا أيضاً أستلطفها، رغم عيوبها الكثيرة. لكن البيت أصبح يبدو مختلفاً عمّا كان عليه منذ مقدمها إليه. إنها مخلوقة صغيرة مميزة."

شعرت ماريلا أنها قالت أكثر ممّا كانت تنوي قوله عندما شرعت في الحديث، وذلك عندما قرأت تعابير الاستنكار على وجه السيدة ريتشيل.

"إنها مسؤولية لا يُستهان بها هذه التي أخذتها على عاتقك،" قالت تلك السيدة بوجه متجهم، "لأنك على وجه الخصوص لست خبيرة بتربية الأطفال، بالإضافة إلى أنك لا تعرفين الشئ الكثير عنها أو عن عريكتها الحقيقية، ولا يمكنك أن تتكهّني إلى أي شئ ستؤول إليه طفلة مثلها. أقول هذا ياماريلا رغم أني لا أقصد التثبيط من عزيمتك."

"لا شئ يمكن أن يُثبط عزيمتي،" جاء جواب ماريلا الحادّ. "عندما أعقد العزم على القيام بعمل ما، فلا شئ يحطّ من همّتي، على كل حال أظن أنك ترغبين في رؤية آن، سوف أناديها لتأتي."

أسرعت آن مُلَبّية النداء، وقد تلألأ وجهها حبوراً بعد جولتها البستانية، لكنه سرعان ما خبا عندما وجدت نفسها أمام ذلك الحضور غير المتوقّع لتلك الزائرة الغريبة.

وقفت بارتباك عند دفتيّ الباب. وبدت مخلوقاً مُنَفِّراً بذلك الثوب القُطني القصير الضيق الذي أتت به من الملجأ، والذي أظهر ساقيها الطويلتين النحيلتين بمظهر قبيح. كان النمش قد تكاثر وكسى وجهها أكثر من أي وقت مضى، وكان شعرها الذي لم تستره أية قبعة قد تحوّل ألعوبة للريح التي عبثت به بعشوائية وطايرته في جميع الاتجاهات، ولم يَبد أكثر حمرة ممّا بدا عليه في تلك اللحظة.

"هه، إنهم في النهاية لم يختاروك من أجل جمالك، هذا مؤكَّد وحتمي،" علّقت السيدة ليند بنبرة حاسمة.

كانت السيدة ريتشيل من أولئك الأشخاص المرحين الشعبيين الذين يتباهون بأنفسهم لأن لايتورعون أبداً عن كشف مكنونات صدورهم، بدون أن يشعروا بالخوف من أحد أو يأخذوا مشاعره بعين الاعتبار. "إن هزالها مخيف ياماريلا كما أنها ليست جميلة أبداً. تعالي إلى هنا يابنت ودعيني أنظر إليك ملياً. ياوَيلاه، هل رأى أحد من قبل مثل هذا النمش؟ وهذا الشعر الذي تبدو حمرته كحمرة الجزر! اسمعي الكلام وتعالي إلى هنا يابنت."

ذهبت آن إلى هناك، ولكن ليس كما كانت تتوقع السيدة ريتشيل. فبِفشخة واحدة تجاوزت أرضيّة المطبخ ووقفت أمام السيدة ريتشيل، وقد اصطبغ وجهها بحمرة الغضب القرمزية وارتعدت شفتاها وارتجف جسمها من الرأس إلى أخمص القدمين.

"أنا أكرهك،" صاحت الطفلة بصوت متحشرج، وهي تركل الأرض بقدمها. "أكرهك، أكرهك، أكرهك،" ومع كل توكيد جديد على الكراهية كانت قدمها تركل الأرض بمزيد من القوة. "كيف تجرؤين على نعتي بالهزال والبشاعة؟ كيف تجرؤين على القول أني منمشة

وحمراء الشعر؟ أنت امرأة جلفة، قليلة التهذيب، وعديمة الحس!"

"آن!" صاحت ماريلا مذعورة.

لكن آن استمرّت في مهاجمة السيدة ريتشيل بدون أن يثني عزمها شيء، وقد انتصب رأسها عالياً وقدحت عيناها بالشرر وأحكمت يداها قبضتيهما بينما تصاعد زفير انفعالها الساخط كهالة من غلاف جوي.

"كيف تجرؤين على نعتي بهذه الصفات؟" كرّرت بشراسة. "ما رأيك أن تُنعتي بصفات مثل هذه الصفات؟ ما رأيك إذا قيل لك إنك بدينة وخرقاء ولا تملكين ولو شرارة من الخيال؟ لا يهمني إذا كنت قد جرحت مشاعرك بما قلته لك الآن! بل أتمنى أن أكون قد فعلت. لقد آذيت مشاعري كما لم يسبق لأحد أن فعل ولا حتّى زوج السيدة توماس السكير. واعلمي أني لن أسامحك أبداً على تصرفك هذا، أبداً، أبداً!"

طاخ! طاخ!

أخذت آن تركل الأرض من جديد، بينما هتفت المرأة المذعورة بهلع: "هل سبق لأحد أن رأى مثل هذا الطبع الحادّ في حياته!"

"آن اصعدي إلى غرفتك وامكثي فيها حتى آتي إليك،" أمرتها ماريلا التي جاهدت لتستعيد قدرتها على النطق.

انفجرت آن بالبكاء وهرعت نحو باب الردهة، وصفقته خلفها بعنفٍ جعل أوعية التنك المعلقة على جدار الرواق الخارجي تقعقع تعاطفاً مع الموقف. ثم تابعت اندفاعها عبر الردهة فالسلالم كالزوبعة. وعندما تعالى صوت انصفاق آخر أبعد مسافة، كان هذا دليلاً على أن باب غرفة السقيفة الشرقية في الطابق العلوي قد أُغلق بسَوْرة غضب مماثلة.

"في الحقيقة إني لا أحسدك على مهمتك التي ستضطلعين بها لتربية ذاك المخلوق ياماريلا،" قالت السيدة ريتشيل بوقار مهيب.

فتحت ماريلا فمها لتقول إنها عاجزة عن إيجاد عذر أو تبرير يمكن أن يَفِيَ الموقف حقّه، لكن ما نطقه لسانها كان مفاجأة لها هي نفسها في ذلك الوقت وفيما تلاه من أوقات.

"ما كان عليك أن تسخري من شكلها ياريتشيل."

"ماريلا كُثْبيرت، أتقصدين القول إنك تدعمينها في هذا الاستعراض الشائن الذي رأيناه الآن؟" تساءلت السيدة ريتشيل بغضب.

"لا،" قالت ماريلا ببطء، "أنا لا أحاول خلق الأعذار لها. كانت قليلة الأدب، وسوف تنال نصيبها من التوبيخ، ولكن علينا أن نبرّر لها تصرفها، فهي لم تُلقّن من قبل أي شئ عن الأصول التي يجب مراعاتها. كما أنك كنت شديدة القسوة عليها ياريتشيل."

لم تستطع ماريلا منع نفسها من دقّ ذلك المسمار في جملتها الأخيرة، رغم أنها دُهشت من نفسها مرة ثانية لتفوّهها بما فاهت به. عندئذ نهضت السيدة ريتشيل وقد دلّت تعابيرها على إحساسها بأن كرامتها قد تعرّضت للانتهاك.

"حسناً، ما دام الأمر كذلك، أرى أنه يُفترض بي توخي الحذر فيما ينبغي لي قوله من الآن فصاعداً ياماريلا، بما أنه صار من المحتم عليَ أن آخذ بعين الاعتبار مشاعر الأيتام الرقيقة والذين لا يعلم أصلهم وفصلهم إلاّ الله. أوه، لا، أنا لست متكدّرة، ولا داعي لأن تزعجي نفسك بالتفكير بما حدث. إن إحساسي بالشفقة عليك يفوق ما يمكن أن يعتمل به صدري من غضب. ولديك على ما أرى ما يكفيك من المتاعب لتنجحي في التعامل مع تلك الطفلة. ولكني أرغب في توجيه نصيحة لك، رغم أني أفترض مسبقاً أنك سترمين بها عرض الحائط. لقد ربيّتُ ياماريلا عشرة أطفال وواريت اثنين منهم التراب، وأنا أنصحك بإضافة قضيب من الخيزران إلى كلمات التوبيخ التي ستؤدبين بها تلك الطفلة، فهذه اللغة حسب ما تُمليه عليَّ خبرتي

هي أكثر فعالية مع هذا النوع من الأطفال. حقاً، إن طبعها يماثل لون شعرها، كما رأيت. والآن إلى اللقاء ياماريلا. آمل ألاّ تقطعي زياراتك عني، لكن لا تتوقعي زيارتي لك هنا على المدى القريب. فالتعرّض للتهجم والإهانة كما حدث لي الساعة، أمر لم يسبق لي أن جربته من قبل."

بينما هرولت السيدة ريتشيل خارج البيت، هذا إذا كان يمكن استعمال كلمة الهرولة لوصف مشية امرأة بدينة ذات خطوات متبخترة متهادية، تحاملت ماريلا على نفسها ويممت متجهمة الأسارير صوب السقيفة الشرقية. وفكرت مَلِيّاً أثناء ارتقائها درج السلم عمّا ينبغي لها فعله. كانت تشعر بحنق عظيم من ذلك الاستعراض الذي أخذ مجراه قبل قليل، وشعرت أن سوء طالعها هو ما جعل آن تسلك سلوكاً مثل ذلك السلوك أمام السيدة ريتشيل؛ السيدة ريتشيل من بين جميع الناس!

فجأة، تملّكها الارتباك والقلق عندما اكتشفت أنها تعلّق أهمية بالغة على شعورها بالإذلال خوف ذيوع الأمر، أكثر من أسفها لاكتشافها هذا العيب في طباع آن. ولكن كيف يجدر بها معاقبتها؟ إن ذلك الاقتراح الوديّ بقضيب الخيزران الذي يدين لفعاليته، كما هو واضح، جميع أبناء السيدة ريتشيل، لم يجد قبولاً في نفس ماريلا. ولم تشعر أنها تملك القدرة على تأديب طفلة بقضيب خيزران. لا، لا بدّ من العثور على وسيلة عقاب أخرى بحيث تكون ناجِعة في جعل آن تدرك فداحة جنحتها.

وجدت ماريلا آن تبكي بمرارة وقد انبطحت على السرير دافنة وجهها فيه. غافلة كلية عن جزمتها المُعفّرة بالوحل والمستقرّة على اللحاف النظيف.

"آن،" قالت ماريلا بصوت لم يكن خالياً من الرقة.

لا جواب.

"آن،" قالت وهي تبذل المزيد من الجهد لتبدو أكثر حزماً. "انهضي عن ذلك السرير حالاً، واستمعي إلى ما سوف أقوله لك."

تلَوَّت آن وغادرت السرير وجلست متصلّبة على كرسي قربه. وقد تورّم وجهها وتبقّع بالدموع وتسمّرت عيناها على الأرض بعناد.

"يالهذا التصرف المهذب الذي بدر منك ياآن! ألست خَجِلة من نفسك؟"

"لا حقّ لها بوصفي بشعة وحمراء الشعر،" اعترضت آن في محاولة منها للتملّص من ماريلا.

"ولا حقّ لك في التهجم عليها كما فعلت، والتفوه بما تفوهت به ياآن. أخزيتني، أخزيتني تماماً. لقد أردتك أن تتصرفي بدماثة مع السيدة ليند، ولكنك بدلاً من ذلك جعلتني أخجل منك. ولست أدري ما الذي جعلك تفقدين السيطرة على نفسك. إن وصفها لك بأنك حمراء الشعر وغير جميلة ليس بالكلام الجديد عليك، أنت غالباً ما تقولين هذه الأشياء عن نفسك."

"ولكن.. هناك اختلاف كبير بين ما يقوله المرء عن نفسه وبين سماعه للناس يقولون عنه ذلك" أجابت آن باكية. "أنت تعرفين فيما بينك وبين نفسك أن الأمر هو على ما هو عليه، غير أنك في نفس الوقت تتمنين سراً ألاّ يلاحظ الآخرون ما تعرفينه عن نفسك. أعلم أنك تعتبرينني الآن سيئة الطباع، لكني لم استطع كبح جُماح غضبي. وعندما قالت عني ما قالته انتفض شئ ما في أعماقي وخنقني. وما كان أمامي إلاّ أن أنفجر في وجهها."

"هه، لا بدّ لي من القول إنك قمت باستعراض لا يُستهان به. سيكون لدى السيدة ليند قصة جميلة لترويها عنك في كل مكان، وتأكدي أنها سترويها. كان تصرّفاً أحمقاً منك ياآن أن تفقدي سيطرتك على نفسك بهذه السهولة."

دافعت آن عن نفسها دامعة العينين، "تخيّلي فقط ماهيّة شعورك لو أن شخصاً واجهك بقوله إنك هزيلة وبشعة."

فجأة، استفاقت في نفس ماريلا ذكرى قديمة. كانت طفلة صغيرة عندما سمعت ذات مرة إحدى عمّاتها تتحدث مع عمّة أخرى قائلة لها عن ماريلا: "من المؤسف أن تلك الصغيرة سمراء وبشعة." ومنذ ذلك الوقت عاشت ماريلا كل يوم من أيام سنين عمرها الخمسيني وهي تعاني من لدغة تلك الذكرى.

"لا أقول إني أقرّ السيدة ليند فيما قالته عنك ياآن،" أجابتها ماريلا بنبرة أكثر رقّة. "ريتشيل امرأة تتميز بصراحتها الجارحة، لكن هذا ليس عذراً يبرّر لك تصرفك المعيب. كانت ريتشيل امرأة غريبة بالنسبة إليك وامرأة طاعنة في السن وضَيفتي، وهذه الأسباب الثلاثة كافية لتستوجب معاملتك لها باحترام. لقد كنتِ وقحة و.. فظّة و..."

فجأة، استلهمت ماريلا نوع العقاب الذي سينقذ الموقف. "و.. يجب عليك أن تذهبي إليها لتعربي لها عن ندمك على تصرفك الطائش، وتطلبي منها السماح."

"لا يمكنني أبداً القيام بما تطلبينه مني،" قالت آن بوجه عابس ولهجة مصممة. "وفيما عدا ذلك يمكنك ياماريلا معاقبتي بالطريقة التي تحلو لك. يمكنك حبسي في قبوٍ معتم رطب مسكون بالأفاعي والضفادع من غير أن تطعميني إلاّ كِسر الخبز والماء، ولن أتذمر. لكني لا أقدر على طلب السماح من السيدة ليند."

"ليس من عادتنا حبس الناس في أقبية مظلمة رطبة،" قالت ماريلا بجفاء، "كما أنها نادرة الوجود في أفونليا. إن ما ستفعلينه هو الاعتذار للسيدة ليند، ولسوف تعتذرين. وإلى أن تبدي رغبتك في الانصياع لهذا الأمر لن تبارحي غرفتك."

"إذن، سيكون عليَ البقاء هنا إلى الأبد،" قالت آن بلوعة. "فأنا لن أقدر على الاعتذار من السيدة ليند، وكيف لي أن أفعل هذا؟ أنا لست نادمة على ما قلته لها. أنا حزينة لأني كدّرتك، لكني مسرورة لأني قلت لها ما قلته، بل أشعر بارتياح عظيم من جرّاء ذلك. أيمكنني أن أقول

لها إني آسفة وأنا لست آسفة؟ بل إني لأعجز عن الإحساس بالأسف حتى في خيالي."

"ربما سيعمل خيالك بطريقة أفضل عند الصباح،" قالت ماريلا وهي تنهض استعداداً لمغادرة المكان. "لديك الليل بطوله لتفكّرِي بهذا الموضوع ولتتدبّري أمرك حتى يتوصل ذهنك إلى حلّ أفضل. وَعَدتني سابقاً بأنك ستبذلين جهدك لتكوني بنتاً مطيعة إذا احتفظنا بك في المرتفعات الخضراء، ولكني هذا المساء أرى أن الحال ليس كما وَعَدتِ."

غادرت ماريلا الغرفة بعد أن رشقت آن بذلك السهم الأخير ليعتمل في صدرها العاصف. ونزلت إلى المطبخ وقد استنزفها الانزعاج الفكري والكدر النفسي. بل كانت غاضبة من نفسها أكثر ممّا شعرت به من غضب على آن، لأنها كلّما تذكّرت سيماء السيدة ريتشيل المصعوقة غالبت شفتيها لتمنعهما من الابتسام، وشعرت بالخزي من رغبتها الجامحة بالضحك.

١٠
اعتذار آن

في ذلك المساء، لم تذكر ماريلا لماثيو شيئاً عن الحادثة التي جرت. ولكن في صباح اليوم التالي وعندما أبدت آن إصرارها على عنادها، كان لا بدّ من تعليل سبب غيابها عن مائدة الإفطار. وهكذا روَت ماريلا الحكاية كلها لماثيو، واستعملت في حديثها جميع وسائل التأثير الممكنة لتترك في نفسه انطباعاً عميقاً عن الشناعة التي كان عليها سلوك آن.

"حسناً، من الجيد أن تنال ريتشيل ليند ما نالته؛ تلك العجوز الفضولية الثرثارة،" كان هذا هو الردّ الذي واسى به ماثيو ماريلا.

"ماثيو كُثْبيرت، يا لدهشتي منك. لقد كان سلوك آن رهيباً، ومع ذلك ها أنت تؤيدها! وأفترض أنك ستقول بعد ذلك إنه لا يجدر بنا معاقبتها على الإطلاق."

"هه، لـ... لا.. ليس تماماً،" أجاب ماثيو بصعوبة. "لا بدّ أن تنال شيئاً من العقاب، لكن لا تكوني قاسية معها ياماريلا. تذكّري أنها لم تجد في حياتها من يوجهها توجيهاً صحيحاً. و.. أ.. ألن تطعميها شيئاً؟"

"وهل بلغك عني أني أترك الناس يتضوّرون جوعاً حتى تتحسّن أخلاقهم؟" تساءلت ماريلا بنبرة غاضبة. "ستتناول وجباتها بانتظام، وسأحملها لها بنفسي. لكنها ستبقى في غرفتها إلى أن تقرّر الاعتذار للسيدة ليند، وهذا قرار نهائي لا نقاش فيه ياماثيو."

بقيت آن مصرّة على عنادها. وهكذا تتالت وجبات الإفطار والغداء والعشاء في المطبخ بصمت. كانت ماريلا تحمل بعد كل وجبة، صينية

ملآنة بالطعام إلى السقيفة الشرقية، ثم تعيدها فيما بعد بدون أن ينقص منها إلاّ النزر اليسير من الطعام. وكان ماثيو يعاين الصينية المُسترجَعة بعين قلقة. أأكلت آن أي شئ على الإطلاق؟

في مساء ذلك اليوم، وعندما خرجت ماريلا من البيت لِتسوق الأبقار من المرعى الخلفي، كان ماثيو يحوم حول مخزن الحبوب ويراقب المكان. وما إن رأى ماريلا تبتعد حتى انسلّ إلى البيت كاللّص، وزحف إلى الطابق العلوي. كانت تنقّلات ماثيو في البيت تقتصر عادة على غرفة نومه الصغيرة عند نهاية الردهة وعلى المطبخ. إلاّ في تلك الأويقات التي كان يزورهم فيها القسّ من أجل تناول الشاي، حيث يضطر ماثيو مرغماً إلى دخول قاعة الاستقبال أو غرفة الجلوس. لكنه لم يصعد أبداً إلى طابق منزله العلوي منذ ذلك الربيع الذي ساعد فيه ماريلا على توريق غرفة الضيوف الاحتياطية، وكان ذلك قبل أربع سنوات.

تجاوز ماثيو ردهة الطابق العلوي على رؤوس أصابعه، وتريّث قليلاً عند باب السقيفة الشرقية، مستجمعاً شجاعته لينقر على الباب بأصبعه قبل أن يفتحه مختلساً النظر إلى الداخل.

كانت آن تجلس على الكرسي الأصفر إلى جانب النافذة، وهي تحملق بأسى في اتجاه الحديقة. وما كادت عينا ماثيو تقعان عليها حتى أنّ قلبه وجعاً عندما رأى انكماشها وحزنها، فأغلق الباب خلفه بهدوء وتوجّه نحوها على رؤوس أصابعه.

"آن،" ناداها همساً وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، "كيف تواجهين هذه المحنة ياآن؟"

لاحت على وجه آن ابتسامة باهتة.

"لا بأس بحالي. أنا أحلّق مع خيالي كثيراً، وهذا يساعدني على تمضية الوقت. طبعاً، أنا أشعر بشئ من الوحشة، لكني سأعتاد الوضع."

ابتسمت آن مرة ثانية، وهي تتخيّل بشجاعة سنين السجن الانعزالي الطويلة التي ما زالت تنتظرها.

تذكّر ماثيو أنه يجب عليه البوح بما يريد قوله لها، بدون تبديد أي وقت، لئلا تداهمه ماريلا على حين غِرّة.

"والآن ياآن، ألا تعتقدين أنه من الأفضل لك إنهاء هذه المسألة؟" قال ماثيو هامساً. "ستقومين بهذا عاجلاً أو آجلاً، فأنت تعرفين أنّ ماريلا امرأة عنيدة جداً. بل هي رهيبة في عنادها ياآن. لذلك أقترح عليك وضع حدّ لهذه المسألة والانتهاء منها بأسرع ما يمكن."

"أتعني الاعتذار للسيدة ليند؟"

"نعم، نعم، الاعتذار. هذه هي الكلمة الصائبة،" قال ماثيو بلهجة متحمّسة. "أريدك أن تُلطّفي الأجواء، كما يُقال. هذا ما كنت أحاول قوله لك."

"أظن أني أستطيع الاعتذار لها لأرضيك،" قالت آن بعد تفكير. "وسيكون اعتذاري صادقاً، لأني أشعر بالأسف الآن. لم أكن الليلة الماضية أشعر بأي أسف. بل كنت حانقة إلى أقصى درجات الحنق. وبقيت حانقة الليل بطوله. أعرف هذا لأني استيقظت ثلاث مرات أثناء الليل، وأنا أغلي غيظاً. لكن في الصباح انتهى كل شيء، إذ لم يعد مزاجي سيئاً على الإطلاق، بل إن زوال الغضب مني ترك في نفسي فراغاً كبيراً، سرعان ما ملأه شعوري بالخجل من تصرفي. غير أني لم أستطع تقبُّل فكرة ذهابي إلى السيدة ليند والإعراب لها عن أسفي على ما بدر مني، فهذا أمر مذلّ للغاية. ولذلك فضلت البقاء محبوسة هنا إلى الأبد على الذهاب إليها. لكني على استعداد للقيام بأي شيء من أجلك، إذا كنت حقاً تريد مني الاعتذار."

"نعم، بالتأكيد أريدك أن تعتذري لها. إن الطابق الأرضي موحش جداً بدونك. كل ما عليك فعله هو الذهاب وتلطيف الأجواء. ها هي صغيرتي الطيبة."

"كما تشاء،" قالت آن باستسلام. "ما إن تأتي ماريلا سأخبرها أني قد أعلنت توبتي."

"عظيم، عظيم جداً ياآن. لكن لا تخبري ماريلا عمّا جرى بيننا من حديث. ستظن أني أحاول إدارة القارب بمجذافي، وقد وعدتها ألاّ أفعل."

"لن أبوح بهذا السر حتى لو أرغمتني على ذلك الأحصنة المتوحشة،" وعدته آن بلهجة شعائرية، ثم أردفت: "بالمناسبة، أتعرف كيف يمكن للأحصنة المتوحشة أن تستخلص سراً من شخص ما؟"

لكن ماثيو كان قد ذهب، وهو لا يكاد يصدّق ما أحرزه من نجاح. وأسرع خارج البيت قاصداً أقصى بقعة من مرعى الحصان، خوفاً من ارتياب ماريلا بما أنجزه. أمّا ماريلا فقد دُهشت جداً عندما عادت إلى البيت وسمعت صوتاً كئيباً، ينادي "ماريلا،" من فوق أعمدة درابزين الدرج.

"ماذا هناك؟" أجابت وهي تتجه نحو الردهة.

"أنا آسفة لأني فقدت سيطرتي على نفسي وتفوّهت بكلمات وقحة. وأنا على استعداد للذهاب وإخبار السيدة ليند بذلك."

"عظيم." قالت ماريلا بدون أن تشي تعابيرها بما اعتلج في صدرها من مشاعر ارتياح، إذ كانت تُعْمِل فكرها جاهدة، بحثاً عن واحد من تلك الحلول البديلة المتوفرة تحت قبّة السماء، إن حدث ورفضت آن الاستسلام. "سآخذك إليها بعد حلب الأبقار."

وهكذا، وبعد الانتهاء من حلب الأبقار، شوهدت ماريلا وآن وهما تسلكان الدرب نزولاً نحو الغَور، وقد مشت الأولى منتصبة القامة منتصرة، بينما مشت الثانية مطأطئة الرأس مخذولة. فجأة، عند منتصف الطريق تلاشى تخاذلُ آن بقوّة سحريّة. شمخ رأسها، وخفّ وطء قدميها على الدرب، وحلّقت عيناها ترمقان سماء الغروب، بينما جلّلت محياها هالة من الحبور الوضّاء. لم تعاين ماريلا هذا التغيّر

بعين الرضى، لأن ما شاهدته لم يكن يمتّ بأية صلّة إلى الندم الخانع الذي ينبغي إظهاره في محضر السيدة ليند المجروحة الكرامة.

"بماذا تفكرين ياآن؟" سألتها ماريلا محتدّة.

"أنا أتخيَّل الكلام الذي سأقوله للسيدة ليند،" أجابت آن بصوت حالم.

كان هذا الجواب مقنعاً، أو كان يجب أن يكون مقنعاً. لكن ماريلا لم تستطع التخلّص من هاجسٍ لجوجٍ بأن نتائج ذلك العقاب الذي أنزلته بآن لم تكن تسير وفق مخططاتها، إذ ليس من المفترض أن تبدو آن بعد كل ما جرى جَذِلة ومتألقة.

حافظت آن على جذلها وتألقها إلى أن أصبحت هي وماريلا في حضور السيدة ليند التي كانت جالسة أمام نافذتها تحيك. حينها تلاشى تألق آن، واكتست كل قسمة من قسماتها بتعابير الأسف العميق، وقبل أن تنبس ببنت شفة، ركعت على ركبتيها أمام السيدة ريتشيل المذهولة، وفتحت يديها بطريقة تَوسّلية.

"آه ياسيدة ليند، أنا آسفة جداً،" قالت بصوت متحشرج. "ولن أستطيع أبداً الإفصاح عن فداحة ندمي. لا.. حتى وإن استعملت جميع ما في المعجم من كلمات، ولكن يمكنك أن تتخيَّلي هذا. لقد تصرّفت معك بوقاحة، وسبّبت الخزي للأحباء الغوالي ماثيو وماريلا اللذيْن سمحا لي بالبقاء في المرتفعات الخضراء رغم أني لست صبياً. أنا بنت عاقّة وسيئة وأستحقّ العقاب والنفي بعيداً عن الناس المحترمين إلى الأبد. كان سوء أدب مني أن أواجهك بمثل ذلك السلوك لأنك قلت لي الحقيقة. نعم كان ما قلتِه لي حقيقة، كل كلمة قُلتِها عبّرت عن الحقيقة، فأنا حمراء الشعر ومنمشة وهزيلة وبشعة. ما قلتُه لك كان حقيقة أيضاً، لكن ما كان ينبغي لي قوله. آه ياسيدة ليند أرجوك، أرجوك سامحيني. وإذا رفضت مسامحتي ستسببين لي حزناً أبدياً. أيرضيك أن تسببي لبنت مسكينة يتيمة مثلي حزناً أبدياً، أيرضيك

هذا حتى لو كانت هذه البنت سيئة الطباع؟ أنا متأكدة من أنك لا ترغبين في هذا. أرجوك قولي إنك تسامحيني ياسيدة ليند."

شبكت آن يديها، حنت رأسها، وانتظرت صدور كلمة الحكم النهائي.

ما كان هناك من شكّ في صدقها، لأن رنين الصدق كان يخرج مع كل نبرة من نبراتها كما لاحظت ماريلا والسيدة ليند. وكان صوتها يوحي بأن تضرّعها صادر من أعماق أعماقها. إلاّ أن ماريلا انتابها الهلع إزاء إحساسها أن آن كانت تستمتع بعرضها المُذل. فأين هو العقاب الصحيّ الذي تباهت به؟ لقد حوّلته آن بغمضة عين إلى صنف من أصناف المسرّات الإيجابية.

أمّا السيدة ليند الطيبة، التي لم تكن لتثقل كاهل نفسها بأعباء نفاذ البصيرة، فلم تر ما رأته ماريلا. وشعرت أن اعتذار آن كان جذرياً، وسرعان ما تلاشت جميع مشاعر الاستياء من قلبها الذي يتميز بِرقّته حتى وإن كان قلباً حُشرياً.

"هيا.. هيا، انهضي ياطفلتي،" قالت بحنان. "طبعاً أسامحك، في جميع الأحوال أظنني كنت جلفة قليلاً معك. لكني شخص يفصح عمّا في قلبه. عليك ألاّ تهتمي بكلامي، هذا ما عليك فعله. طبعاً، لا نستطيع الإنكار أن شعرك فاقع الحمرة، لكني عرفت ذات مرة بنتاً، كانت في الحقيقة رفيقتي في المدرسة، وكانت في صغرها ذات شعر أحمر مثل شعرك تماماً، غير أنها عندما كبرت تحولت حمرة شعرها إلى لون كستنائي جميل. ولن أشعر بمثقال ذرّة من الدهشة إذا اكتسب شعرك ذلك اللون أيضاً.. ولا بمثقال ذرة."

"أوه ياسيدة ليند!" قالت آن بعد أن أخذت نفساً طويلاً، ونهضت على قدميها. "أعطيتني أملاً. ولن أنسى ما حييت أنك محسنة وكريمة وفاعلة خير. آه، يمكنني احتمال أي شئ إذا عرفت أن شعري سيغدو ذا لون كستنائي جميل عندما أكبر. ألا تظنين أنه سيصبح من السهل

على المرء أن يكون إنساناً طيباً إذا كان شعره كستنائي اللون؟ والآن، أتسمحين لي بالخروج إلى حديقتك والجلوس على ذلك المقعد تحت شجرة التفاح بينما تتجاذبان أطراف الحديث أنت وماريلا؟ ففي الخارج فسحة كبيرة لانطلاق الخيال."

"ربّاه، طبعاً ياطفلتي اذهبي في حال سبيلك، ويمكنك إذا شئت قطف باقة من الزنابق البيضاء التي عند زاوية الحديقة."

بينما أغلقت آن الباب خلفها، نهضت السيدة ليند بنشاط لتضيء مصباحاً.

"إنها مخلوقة صغيرة غريبة الأطوار فعلاً. خذي هذا الكرسي ياماريلا؛ إنه أفضل من الكرسي الذي تجلسين عليه، فأنا أضع هذا الأخير للفتى الذي أستأجِر خدماته ليجلس عليه. نعم، إنها بالتأكيد طفلة غريبة الأطوار، لكن لا شكّ أن هناك شيئاً مثيراً في عملية تربيتها. وما عدت أشعر بالتعجب منك ومن ماثيو لأنكما قررتما الاحتفاظ بها، ولست حزينة من أجلك أيضاً. ومن المرجح أنها ستصبح فتاة جيدة. لا أنكر أن لديها طريقة عجيبة في التعبير عن نفسها، طريقة هي أفضل ممّا ينبغي أن تكون عليه بالنسبة إلى طفلة مثلها، بالإضافة إلى أنها طريقة انفعالية أكثر من اللازم. لكني أتوقّع أن تتخطى هذه الأمور الآن، وقد تسنّت لها فرصة الحياة مع أناس مثقفين. ومع أنها ذات طبع حادّ إلاّ أن العزاء الوحيد هنا هو أن الطفل الانفعالي ما إن يقدح بالشرر حتى يخمد فوراً، وهذا أفضل بكثير من النوع الخبيث أو الماكر. وصدّقيني ياماريلا يمكن تحمّل كل شئ إلاّ الطفل الخبيث. وبالإجمال أشعر أني أستلطف هذه الطفلة."

عندما غادرت ماريلا لتعود إلى بيتها، أسرعت إليها آن، خارجة من شفق البستان المُعطّر وهي تحمل باقة من النرجس الأبيض بيدها.

"لقد اعتذرت بطريقة لائقة، أليس كذلك؟" قالت مفاخرة بنفسها بينما تتبعتا الدرب. "فكّرت أني ما دمت أنوي الاعتذار، يجب أن

أعتذر بأسلوب جذري."

"كان اعتذاراً جذرياً بما يكفي ويزيد،" علّقت ماريلا التي كانت تتنازعها الحيرة بين رغبتها في الضحك من جرّاء تذكّرها لما جرى، وبين قلقها من ذلك الشعور الذي يلحّ عليها بضرورة توبيخ آن لأنها بالغت كثيراً في اعتذارها.

ولكن أليس هذا الشعور سخيفاً!

وهكذا، عملت على تسوية الخلاف الناشب في صدرها وقالت بعد جهد:

"أتمنى ألاّ تكون مناسباتك الموجبة لمثل هذه الاعتذارات كثيرة، وأرجو أن تحاولي ضبط مشاعرك من الآن فصاعداً ياآن."

"لن يكون هذا صعباً إذا لم يسخر الناس من شكلي،" أجابت آن ثم تنهّدت. "أنا لا أغضب من أي شئ آخر، ولكني مللت استهزاء الناس بلون شعري، وهذا يجعلني أغلي غلياناً. أتظنين حقاً أن شعري سيصبح ذا لون كستنائي جميل عندما أكبر؟"

"لا يجب أن تفكري كثيراً بمظهرك ياآن. يالك من بنت صغيرة مختالة بنفسها."

"كيف يمكن أن أكون مختالة بنفسي وأنا أعرف أني لست جميلة؟" اعترضت آن. "أنا أحب الأشياء الجميلة وأكره أن أنظر إلى المرآة وأرى فيها شيئاً قبيحاً. هذا الأمر يجعلني أشعر بالحزن العميق، وهو نفس الحزن الذي أشعر به عندما أرى شيئاً قبيحاً فتنتابني مشاعر الشفقة عليه لأنه خالٍ من الجمال."

"الجمال هو جمال الأفعال،" ردّت ماريلا مُقتبسة إحدى الحكم.

"قيل لي هذا القول من قبل، ولكن لديَ شكوكي الخاصة التي تساورني بشأنه،" علّقت آن، وهي تشمّ نرجساتها. "أليست هذه الأزهار جميلة! كان لطيفاً من السيدة ليند أن تعطيني هذه الأزهار.

وأنا الآن لا أشعر نحوها بأية ضغينة. ألا يجعلك قبول الاعتذار تشعرين بشعور جيد ومريح؟ أليست النجوم وضاءة هذه الليلة؟ لو تسنّى لك العيش على نجمة أية واحدة تختارين؟ أنا سأختار تلك النجمة الكبيرة الصافية، التي تسطع فوق تلك التلّة المظلمة."

"آن، الجمي لسانك،" قالت ماريلا بعد أن استنزفت قواها وهي تحاول متابعة تدفقات أفكار آن.

توقّفت آن عن الكلام إلى أن وصلتا درب المرتفعات الخضراء. حيث هبّت لاستقبالهما نسمة غجرية عطرة، مضمخة بعبق السراخس التي تساقطت عليها قطرات الندى النقيّة. بينما وَمَض عند المرتفع بين ظلال الأشجار المتراقصة، ضوء مطبخ المرتفعات الخضراء. فجأة دنت آن من ماريلا والتصقت بها، ودسّت يدها في راحتها القاسية الكبيرة.

"من الرائع أن يعود المرء إلى البيت وهو يعرف أنه بيته،" قالت آن. "أنا أحب المرتفعات الخضراء كثيراً، ولم يسبق لي أن أحببت أي مكان من قبل. إذ لم يُشعرني أي مكان أنه بيتي. آه ياماريلا أنا مسرورة جداً لدرجة أني أستطيع الصلاة الآن بدون أن أجدها مهمة صعبة البتة."

تدفق إحساس دافئ عذب في قلب ماريلا عندما تلامست يدها مع تلك اليد الصغيرة النحيلة، شئ أشبه بنبضة الأمومة التي ما خَبِرتها. وشعرت بالحرج من لطف ذلك الإحساس وغرابته، فجاهدت لتعيد إلى مشاعرها رزانتها المعتادة، ووجدت مخرجاً لها في ترديد واحدة من عبرها الأخلاقية:

"إذا حرصت على أن تكوني فتاة طيبة ياآن، فستشعرين بالسعادة دوماً. ولا ينبغي عليك مطلقاً أن تستصعبي تلاوة الصلاة."

"تلاوة الصلاة ليست مثل الصلاة تماماً،" قالت آن وهي تتأمل. "أمّا الآن فسأتخيَّل أني الريح التي تهبّ هناك على رؤوس الأشجار.

وعندما أَمَلّ من الأشجار سأتخيَّل أني أتهادى هنا بوداعة بين السراخس، ثم سأطير إلى حديقة السيدة ليند وأجعل الأزهار ترقص فيها، ثم سأتوجّه بوثبة واحدة صغيرة نحو حقل البرسيم، ثم سأنفخ على بحيرة المياه البراقة لأجعلها تترقرق بالأمواج المتلألئة. ياالله.. إن في الريح صوراً خيالية لا تحصى! ولذلك سأصمت الآن ياماريلا."

"الحمد لله على هذا،" قالت ماريلا، وتنفست الصعداء بارتياح عميق.

١١
انطباع آن عن مدرسة الأحد

"والآن، ما رأيك بها؟" قالت ماريلا.

كانت آن تقف في غرفتها، ترنو باكتئاب إلى ثلاثة فساتين جديدة وضعتها ماريلا على السرير. كان أحدها بُنيّ اللون قطني النسيج، أُغريتْ ماريلا على شرائه من بائع متجوّل في الصيف الماضي، وآخر كان ذا مربعات سوداء وبيضاء من قماش الساتان، وُفقّتْ به ماريلا في الشتاء أثناء تنزيلات قام بها أحد المتاجر، أمّا الثالث فكان من القماش الخشن الملوّن بظلال قبيحة الزرقة، ابتاعته في ذلك الأسبوع من أحد مخازن كارمودي.

خاطت ماريلا الفساتين بنفسها، وصمّمتها كلها على هيئة واحدة؛ تنورة واسعة عادية يفصلها عن صديرية الفستان تحديد طفيف للخصر، مع أكمام بسيطة كبساطة تنورة الفستان وخصره، وضيّقة بقدر ما يمكن أن يكون عليه الكُمّ من ضيق.

"سأتخيّل أن هذه الفساتين تروق لي،" أجابت آن باستسلام.

"لا أريدك أن تتخيلي هذا،" قالت ماريلا مجروحة المشاعر. "يبدو لي بوضوح أن هذه الفساتين لم تعجبك! ما العيب فيها؟ أليست جميعها مرتبة ونظيفة وجديدة؟"

"بلى."

"إذن ما الذي لم يعجبك فيها؟"

"إنها.. إنها.. ليست.. جميلة،" قالت آن بنفور.

"جـمـيـلـة؟" نفخت ماريلا من منخريها. "أنا لن أجعل كل همّي ينصبُّ على التفكير بتوفير فساتين جميلة لك، ولا أحبّذ مطلقاً الخُيلاء المتعطشة للارتواء ياآن. وعليك أن تستمعي جيداً لما سأقوله لك: هذه الفساتين جيدة ومعقولة وعملية كما هي عليه الآن بدون تزويقها بأية زخارف أو كشاكش، وهي كل ما ستحصلين عليه هذا الصيف. الفستان البُنيّ والفستان الأزرق سيخدمانك في المدرسة عندما تباشرين الذهاب إليها. أمّا فستان الساتان فسترتدينه للكنيسة ولمدرسة يوم الأحد. طبعاً أتوقّع منك المحافظة عليها مرتّبة ونظيفة وغير ممزقة. وسأقنع نفسي بأنك ممتنة لحصولك على أي شئ بعد تلك الأسمال البالية التي كنت تلبسينها."

"أوه، أنا ممتنة حقاً،" اعترضت آن. "ولكني كنت سأكون أكثر امتناناً لو.. لو أنك صمّمت واحداً منها فقط بأكمام منفوخة. الأكمام المنفوخة دارجة جداً هذه الأيام، ومطابقة لزيّ العصر. وكان مجرّد ارتدائي لفستان بأكمام منفوخة سيجعل دغدغة السرور تسري في جسمي ياماريلا."

"هه، عليك أن تعيشي بدون دغدغة سرورك هذه. فلست أملك قماشاً أبدّده على الأكمام المنفوخة، بل وأراها سخيفة المنظر، وأنا أفضّل عليها الأكمام البسيطة والعملية والمنطقية."

"لكني أفضّل أن أبدو سخيفة المنظر عندما يبدو جميع الناس كذلك، على أن أبدو بسيطة ومنطقية وحدي،" أصرّت آن وهي تنوح.

"لا أشكّ أبداً أن هذا هو رأيك! والآن علّقي هذه الفساتين بعناية في خزانتك، ثم اجلسي وتعلّمي درس مدرسة الأحد. أحضرت لك كتاب هذا الفصل من السيد بيل، وستذهبين إلى مدرسة الأحد غداً،" قالت ماريلا وهي تغادر نازلة السلالم وقد اعتراها حنق عظيم.

شابكت آن يديها ونظرت إلى الفساتين.

"لقد تمنيت أن يكون أحدها أبيض اللون ومنفوخ الأكمام،"

همست بصوت مهموم. "بل إني صلّيت من أجل الحصول عليه، ولكني لم أتوقّع أن تُستجاب صلاتي، فأنا لم أفترض أن لدى الله وقتاً يفرّغه لمعالجة مشكلة فستان بنت يتيمة. وعرفت مُسبقاً أنّ عليَّ الاتّكال على ماريلا بهذا الشأن. مع ذلك أنا محظوظة إذ يمكنني تخيُّل أن أحد هذه الفساتين هو من الموسلين الناصع البياض تزيّنه كشاكش من الشرائط الجميلة وله ثلاثة أكمام منفوخة."

لم تستطع ماريلا مرافقة آن إلى مدرسة الأحد في صباح اليوم التالي وذلك بسبب ما كانت تشعر به من أعراض مُنذرة بالصداع.

"سيكون عليك الذهاب وحدك إلى منزل السيدة ليند لتصحبك معها ولتدلّك على الصفّ المناسب لك. انتبهي وتصرّفي تصرّفاً لائقاً، ابقي لسماع موعظة الأحد بعد الدرس، واطلبي من السيدة ليند إرشادك إلى مقعدنا في الكنيسة. وهذا سنت من أجل جمع التبرعات. لا تحملقي بالناس ولا تتململي في مكانك، وسأتوقّع منك أن تعيدي على مسمعي المقاطع التي سيتلوها القسّ عندما تعودين إلى البيت."

غادرت آن البيت بدون إبطاء، مُرتدية فستان الساتان ذي المربعات السوداء والبيضاء. كان الفستان محتشم الطول، أمّا تصميمه الضيق الذي أبرز كل زاوية وناحية من تفاصيل جسمها النحيل، فلم يكن بكل تأكيد عُرضة لوصمه بعيب التقتير بالقماش عليه. كانت تعتمر قبعة بحارة جديدة، صغيرة ومسطّحة وصقيلة. لكن بساطتها التي بلغت أقصى الحدود خيّبت آمال آن كثيراً، وجعلتها تبيح لنفسها بعض الرؤى الخفية التي زوّدت تلك القبعة بشرائط وأزهار وهمية. وسرعان ما تحولّت تلك الأزهار الوهمية إلى حقيقة بعد أن تمَّ فعلاً تزيين القبعة بها قبل وصول آن إلى الطريق الرئيسي. ففي منتصف الدرب أباحت آن لنفسها الحرية المطلقة لتتوّج قبعتها بإكليل ثخين من الورود البرية الزاهية وحشائش أزرار الذهب التي داعبها النسيم ونوّر بريقها الذهبي. ورغم أنه قد يكون للناس رأي آخر بما فعلته، إلاّ أنها أحسّت بالرضى.

وهكذا، تابعت طريقها قريرة العين خفيفة الخطى وقد انتصب رأسها الأحمر مفاخراً بزينته الوردية والصفّراء.

لم تجد آن السيدة ليند في بيتها عندما وصلت، لكن شيئاً لم يُعِقها، إذ تابعت طريقها نحو الكنيسة وحدها. وفي الرواق التقت بحشد من الفتيات الصغيرات اللاتي كنّ كلهن، على اختلاف مشاربهن، يرفلن بالفساتين البيضاء والوردية والزرقاء، ويحملقن بعيون فضولية بالغريبة التي كانت تتوسطهن وقد ازدان رأسها بتلك الزينة الاستثنائية.

كان قد سبق لبنات أفونليا أن سمعن حكايات عجيبة عن آن. روت عنها السيدة ليند أنها ذات طبع مخيف؛ وقال جيري بوت الصبي الأجير الذي يعمل في المرتفعات الخضراء إنها تتكلم طيلة الوقت مع نفسها أو مع الأشجار والأزهار كالمجانين. وهكذا أخذن يتفحّصنها ويتهامسن عنها سرّاً من وراء كتبهن الفَصْلية. ولم تقم إحداهن بأية بادرة وديّة في ذلك الحين، أو فيما بعد عندما انتهت طقوس قدّاس الافتتاح ووجدت آن نفسها في صفّ الآنسة روجرسن.

كانت الآنسة روجرسن امرأة في منتصف العمر. واظبت على التعليم في مدرسة الأحد لمدّة عشرين سنة. وكان أسلوبها التعليمي يقتصر على طرح الأسئلة الموجودة في الكتاب الفصلي، ثم النظر بصرامة من فوق حافّته نحو الفتاة التي تنتقيها للإجابة على ذلك السؤال. وفي ذلك اليوم نظرت كثيراً نحو آن، التي كانت تجيبها على الفور. وكان الفضل في ذلك يعود إلى ماريلا وتدريباتها، رغم أن استيعاب آن للأسئلة أو للأجوبة كان مدعاة للشكّ.

لم تستلطف آن الآنسة روجرسن، وغمرتها تعاسة حقيقية لأن جميع البنات في قاعة الصفّ كنّ يرتدين فساتين منفوخة الأكمام. وشعرت أن الحياة لا تستحق أن تُعاش بدون أكمام منفوخة.

"أخبريني الآن، كيف وجدت مدرسة الأحد؟"

أرادت ماريلا أن تعرف عندما عادت آن إلى البيت. وبما أنها كانت قد رمت إكليل قبعتها في الطريق بعد ذبوله، أُعفيت ماريلا من معرفة حكاية ذلك الإكليل لبعض الوقت.

"لم أحبها قَيد أُنملة. كانت بغيضة."

"آن شيرلي!" صاحت ماريلا معنّفة.

جلست آن على الكرسي الهزّاز، وأطلقت زفرة طويلة، ثم قبّلت ورقة من أوراق بوني ولوّحت بيدها لشجيرة فوشية مزهرة.

"لا بدّ أنهم شعروا بالوحشة أثناء غيابي،" فسّرت آن سبب تصرّفها لماريلا.

"والآن عن مدرسة الأحد. تصرّفت كما يجب، مثلما طلبت مني. لم أجد السيدة ليند عندما وصلت، فقصدت الكنيسة وحدي. دخلتها مع العديد من البنات غيري، وجلست على طرف مقعد قرب النافذة أثناء طقوس الافتتاح. أدّى السيد بيل صلاة طويلة جداً.. جداً. ولو لم أوفق في الجلوس إلى جانب النافذة لأعياني الضجر قبل أن ينتهي. كانت تلك النافذة تطلّ على بحيرة المياه البراقة مباشرة، وهكذا حدّقت بها وتخيّلت شتى أنواع الحكايات الرائعة."

"ما كان ينبغي أن تفعلي شيئاً كهذا، كان يجدر بك الانتباه إلى السيد بيل."

"لكنه لم يكن يخاطبني،" احتجّت آن. " كان يوجّه حديثه إلى الله، رغم أنه لم يُظهر اكتراثاً واضحاً بما كان يقوله. بل بدا لي أنه يظن اللهَ بعيداً جداً لدرجة أنه لم يكلّف نفسه عناء بذل أي جهد لجعل صلاته مُشوّقة. على كل حال قُمت أنا نفسي بتلاوة صلاة صغيرة؛ ففي الخارج عند البحيرة كانت أشعة الشمس تخترق رتل أشجار البتولا ثم تهبط.. وتهبط.. وتهبط.. لتستقرّ في أعماق الماء. ياالله ياماريلا، كان ذلك المنظر أشبه بالحلم الجميل! جعلني أشعر برعشة ابتهاج عظيمة، ووجدتني أقول: أشكرك ياربّ على هذا الجمال. كرّرت

ذلك مرتين أو ثلاث مرات."

"ليس بصوت عالٍ، على ما أرجو،" قالت ماريلا بقلق.

"أوه، لا، قلتُ ذلك همساً. أخيراً انتهى السيد بيل، وطلبوا مني الذهاب إلى قاعة الصفّ مع الآنسة روجرسن. كان في قاعة الصفّ تسع بنات غيري، وكنّ كلهن يرتدين فساتين بأكمام منفوخة. وعندما حاولت أن أتخيّل أن لفستاني أنا أيضاً أكماماً منفوخة، لم أقدر. لماذا لم أقدر ياماريلا؟ كان تخيُل ذلك من أسهل الأشياء عليّ أثناء وجودي وحدي في غرفتي، لكنه أصبح بالغ الصعوبة هناك، بين بقية البنات اللاتي يرتدين أكماماً منفوخة حقيقية."

"ما كان يجب عليك التفكير بأكمامك في مدرسة الأحد. كان ينبغي لك الانتباه إلى الدرس وأرجو أن تكوني قد عرفت أجوبة الأسئلة."

"أوه، نعم؛ أجبت على الكثير من الأسئلة. وقد سألتْ الآنسة روجرسن الكثير.. الكثير منها. لكني لا أرى أن انفرادها بطرح الأسئلة كان شيئاً عادلاً. فقد كانت عندي تساؤلات كثيرة رغبت في الاستفسار عنها، غير أني فضّلت ألاّ أفعل لأني لم أشعر أن روح الآنسة روجرسن مُتائِمة لروحي. بعد ذلك سمّعت كل بنت من البنات مقطعاً دينياً كانت قد حفظته. وأخبرتها أني لا أحفظ أي مقطع ديني، ولكني أستطيع إلقاء مقطوعة: كلب عند قبر سيده، إذا شاءت. وهذه المقطوعة موجودة في كتاب القراءة للصفّ الثالث. وهي في الحقيقة ليست دينية، لكنها حزينة جداً وكئيبة ويمكنها أن تفي بالغرض. غير أن الآنسة روجرسن قالت لي إنها غير مناسبة وطلبت مني حفظ المقطع التاسع عشر لأسمّعه يوم الأحد القادم. ولقد قرأته في الكنيسة ووجدته رائعاً، وفيه على وجه الخصوص سطرين يثيرانني كثيراً:

سريعاً، خَرّوا كالسَّرِيَة الذبيحة
في وقعة مَدْيَن المشـــــؤومة

"أنا لا أعرف ما معنى السَّرِيَة أو مَدْيَن، ولكن لهذه الكلمات وقعاً بالغ المأساوية. وإني لأتحرّق شوقاً بانتظار يوم الأحد القادم حتى أسمّع هذه المقطوعة. وسأتدرّب عليها طيلة الأسبوع. بعد انتهاء المدرسة طلبتُ من الآنسة روجرسن أن تدلّني على مقعدكم في الكنيسة لأن السيدة ليند كانت بعيدة عني. جلست هادئة بقدر ما استطعت. والمقاطع التي اختارها القسّ هي: مقاطع الوحي؛ الفصل الثالث، المقطعين الثاني والثالث. كانت المقاطع طويلة جداً، ولو كنت القسّ لاخترت مقاطع صغيرة وحيوية. أمّا الموعظة فكانت أكثر إضجاراً بطولها. وأظن أن القسّ كان مجبراً على إطالتها لتتناسب مع طول المقاطع. لكني لم أشعر أنه كان مقتنعاً بما قاله. وأعتقد أن مشكلته تكمن في افتقاره إلى الخيال. لم أهتمّ كثيراً بالاستماع إليه، وتركت عقلي يحلّق بعيداً، وفكّرت بأمور مثيرة جداً."

شعرت ماريلا البائسة أن عليها إعلان استنكارها الحاسم لجميع ما سمعته، لكن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها منعتها عن التفوّه بأية كلمة.

لقد كانت هناك عدة أمور ممّا ذكرتها آن تعتمل في صدرها لسنوات طويلة، خصوصاً فيما يتعلّق بموعظة القسّ وصلاة السيد بيل، لكنها بقيت دفينة في نفسها من غير أن تجد سبيلها إلى التجسّد في كلمات. وبدا لها فجأة أن تلك الأفكار الانتقادية، الخفيّة، غير المنطوقة، أصبحت أخيراً كلمات مرئية، وأنها اتّخذت صفة اتّهامية شكلاً ومضموناً بوساطة هذه المخلوقة الصغيرة المنبوذة.

١٢
قسم مقدّس وعهد

لم تسمع ماريلا بحكاية القبعة المكلّلة بالأزهار إلاّ في يوم الجمعة التالي. عادت إلى البيت من عند السيدة ليند ونادت آن لتمثُل أمامها.

"آن، تقول السيدة ريتشيل إنك قصدت الكنيسة يوم الأحد الماضي وقبعتك مزدانة بالورود وحشائش أزرار الذهب. بحقّ السماء ما الذي دهاك لتتصرّفي تصرّفاً كهذا؟ لا بدّ أنك كنت شيئاً يستحقّ الفرجة!"

"أوه، أعرف أن اللونين الوردي والأصفر غير ملائميْن لي،" بدأت آن حديثها.

"ملائميْن.. هراء! المشكلة في المقام الأول هي في وضع الأزهار على قبعتك، بغضّ النظر عن لونها. كان هذا تصرّفاً أحمقاً منك. إنك طفلة خطيرة جداً!"

"لا أفهم كيف يكون تزيين قبعتك بالأزهار أكثر حمقاً من تزيين ثوبك بها،" احتجّت آن. "رأيت الكثير من البنات هناك ممّن كانت فساتينهن مزينة بباقات أزهار مشبوكة بالدبابيس، فما الفرق؟"

لم تكن ماريلا على استعداد لأن تنتقل من مناقشة الوقائع الموثوق بها إلى دهاليز الأحاديث التجريدية المشبوهة، لذلك انبرت قائلة:

"لا تردّي عليَ بهذه الطريقة ياآن. كان سخفاً منك أن تقومي بمثل هذا العمل. ولا تدعيني أضبطك مرة ثانية متلبّسة بمثل هذا الاحتيال. تقول السيدة ريتشيل إنها كادت تتهالك على الأرض عندما رأتك تدخلين بتلك الصرعة. ولم تستطع الاقتراب منك لتطلب منك نزع

الورود إلاّ بعد فوات الأوان. وتقول إن الناس قالوا كلاماً مفزعاً عنك. طبعاً سيظنون أنه قد بلغ بي البَلَه حدّ سماحي لك بالذهاب وأنت على ذلك المنظر."

"أنا.. أنا آسفة،" قالت آن، والدموع تترقرق في عينيها. "لم أشكّ أبداً في ممانعتك. كانت تلك الورود والحشائش لطيفة وجميلة، وظننت أنها ستبدو رائعة على قبعتي. وقد كانت هناك ورود اصطناعية على قبعات العديد من البنات اللاتي رأيتهن. أخشى ياماريلا أني لست إلاّ مصيبة وبيلة بالنسبة إليك، وربّما من الأفضل لك إعادتي إلى الملجأ. لا شكّ أن هذا سيكون فظيعاً، ولا أظنني سأتمكّن من احتماله، وعلى الأغلب سأُصاب بالسلّ بما أني، كما ترَيْن، هزيلة جداً. ولكن ذلك أفضل من أن أكون مصيبة بالنسبة إليك."

"كلام فارغ،" قالت ماريلا، التي انزعجت من نفسها لأنها جعلت الطفلة تبكي. "أنا واثقة بأني لا أريد إعادتك إلى الملجأ. كل ما أريده منك هو التصرّف مثل بقية البنات، وألاّ تجعلي من نفسك أضحوكة. هيا الآن كُفّي عن البكاء فعندي أخبار لك. عادت ديانا باري إلى بيتها عصر اليوم. وأنا أنوي زيارة السيدة باري لأرى إذا كان بإمكاني استعارة تصميم تنورة منها. وإذا شئت يمكنك مرافقتي لتتعرفي على ديانا."

كانت الدموع ما تزال تتلألأ على وجنتيّ آن عندما هبّت واقفة على قدميها، مشابكة راحتيها، ومفلتة فوطة تجفيف الأواني التي كانت تعتصرها بيديها، فسقطت أرضاً بدون قصد منها.

"أنا خائفة ياماريلا. الآن وقد حان الوقت أنا خائفة حقاً. ماذا لو لم تستلطفني! سيكون هذا بمثابة الخيبة الأكثر مأساوية في حياتي."

"هيا، لا تهتاجي الآن. ولكم أتمنى لو تمتنعي عن استعمال عبارات كبيرة في حديثك. إنها تبدو ذات وقع مضحك جداً عندما تخرج من فم طفلة صغيرة. ولا تخافي، أظن أن ديانا ستستلطفك بما

يكفي. ما يجب أن تحسبي حسابه حقاً هو رأي أمها. وإذا لم تعجبيها فلن يكون لاستلطاف ديانا لك أية أهمية. وإذا كانت قد سمعت عن حكاية انفجارك في وجه السيدة ليند أو عن ذهابك إلى الكنيسة بقبعة مكلّلة بحشائش أزرار الذهب، فلا أعرف ما الفكرة التي شكّلتها عنك الآن. يجب أن تكوني مؤدبة وخلوقة وحذار من الاسترسال بواحدة من خطبك الرهيبة. ولكن.. بحقّ السماء.. إن الطفلة ترتجف!"

كانت آن ترتجف فعلاً، وكان وجهها شاحباً ومتشنّجاً.

"ياإلهي ياماريلا، لو كنت مكاني فستشعرين أنت أيضاً بالتوتّر إذا كنت على وشك مقابلة بنت حلمت أنها ستكون رفيقتك الحميمة، وفي نفس الوقت تخشين ألاّ تستلطفك أمها،" أجابت آن وهي تسرع لإحضار قبعتها.

ذهبت ماريلا وآن إلى دارة منحدر البستان عن طريق الدرب المختصر؛ عبر الجدول ثم صعوداً نحو تلّة حرش التنوب. وجاءت السيدة باري إلى باب المطبخ لتجيب على قرع ماريلا. كانت امرأة طويلة سوداء الشعر والعينين وذات فم ينمّ عن الحزم. وكانت مشهورة بصرامتها في تربية أطفالها.

"أهلاً بك ياماريلا." قالت بلهجة وديّة. "تفضلي بالدخول. ولا بدّ أن هذه هي الفتاة الصغيرة التي تبنيتها، أليس كذلك؟"

"نعم، هذه آن شيرلي،" أجابت ماريلا.

"مع مدّ الألف وإشباع النون،" قالت آن لاهثة، والتي رغم توتّرها وارتعاد فرائصها، كانت عازمة على ألاّ يكون هناك أي سوء تفاهم بخصوص تلك النقطة المهمة.

لكن السيدة باري التي لم يظهر عليها أنها سمعت أو فهمت، صافحتها وقالت لها بلطف:

"كيف حالك؟"

"أنا بأتمّ عافية، رغم أني الآن مهتاجة الأحاسيس كثيراً، شكراً لسؤالك ياسيدتي،" أجابتها آن بأدب، ثم قالت لماريلا بهمس مسموع: "لم يكن هناك ما يُجفل فيما قلته أليس كذلك ياماريلا؟"

كانت ديانا جالسة على الأريكة تقرأ كتاباً، وسرعان ما نحّته جانباً عندما دخلت الزائرتان. كانت طفلة جميلة جداً، وكانت قد ورثت عن أمها عينيها السوداوين وشعرها الفاحم ووجنتيها المتورّدتين، بينما ورثت عن أبيها سيماءها المرحة.

"هذه ابنتي الصغيرة ديانا،" قالت السيدة باري. "ديانا، يمكنك أن تصحبي آن إلى الحديقة لتريها أزهارك. هذا أحسن من إرهاقك لعينيك." ثم قالت موجّهة الحديث إلى ماريلا بعد مغادرة الطفلتين: "إنها تقرأ بشكل متواصل، وأنا لا أستطيع منعها لأن أباها يشجعها ويؤازرها. ولذلك تبقى دائماً منكبّة على كتاب تطالعه. ويسرّني حقاً أن تحظى برفيقة تلعب معها، ولعل هذا سيشجعها على مغادرة البيت أكثر من قبل."

وقفت آن وديانا تسترقان النظر إلى بعضهما بخجل، من فوق أجمة الزنبق الفتّان في الحديقة والتي اصطبغت بنور الغروب المرح المتدفق من الغرب من بين أشجار التنوب الداكنة العتيدة.

كانت حديقة آل باري روضة برية ظليلة، وكانت لتبهج قلب آن في أي وقت غير ذلك الوقت المشحون بتحديد المصير. كانت الروضة مطوّقة بشجر الصفصاف الضخم العريق، والتنوب الفارع الذي عشق الزهر فيئه فازدهر تحت ظلاله، أمّا ممراتها الأنيقة ذات الزوايا القائمة فقد تحددت بدقّة بالأحواض الصدفية التي قطعتها كأنها أوشحة حمراء نديّة، التي انتشرت فيها عربدة الأزهار المتزمّتة، إذ انبثقت براعم أزهار القلب الدامي الحمراء إلى جانب القرنفل القرمزي ذي الروعة السنية والنرجس الأبيض العَطِر، بينما تبجّح الورد الأسكتلندي الشائك مفاخراً بألوانه اللطيفة الوردية والزرقاء والناصعة البياض والليلكية. واحتشدت أجمات شجيرات القيصوم ولسان الحمل

وشتول النعنع وأغراس آدم وحواء الأرجوانية على مقربة من البرسيم ذي الأغصان البيضاء الهشّة العبقة. وأطلق البرق القرمزي رماحه النارية على أزهار المسك البيضاء المحتشمة. كانت روضة تلكأت عندها الشمس، وهمهم فوقها النحل، وقرقرت فيها الريح وخشخشت وقد أغراها المكان بالتسكع.

"ديانا، ياديانا،" قالت آن أخيراً بعد أن شابكت يديها وتكلّمت بصوت أقرب إلى الهمس. "أتظنين.. آه.. أتظنين أني سأعجبك قليلاً.. قليلاً بما يكفي فقط لتكوني رفيقتي الحميمة؟"

ضحكت ديانا.

كان من عادة ديانا أن تضحك قبل أن تتكلم.

"ولكن لِمَ هذا السؤال؟ نعم أظن أني سأستلطفك،" أجابت ديانا ببساطة. "بل ويسرّني قدومك إلى المرتفعات الخضراء لتعيشي فيها. من المفرح حقاً أن أحظى برفيقة تشاركني اللعب، إذ لا يوجد الكثير من البنات بالقرب منّا لألعب معهن، وليس لدي شقيقات تقارب أعمارهن عمري."

"أَتَنذُرِين على البقاء رفيقتي إلى الأبد ثم الأبد؟" سألتها آن بحماس.

بدت ديانا مصدومة.

"لماذا تقولين هذا؟ إنه من المشين أن أُنْذِرَك،" أجابتها موبخة.

"أوه، لا، أنا لم أقصد كلمة النُذر من الإنذار ولكني قصدت كلمة النَذْر الذي يعني التعهّد وهذا شئ مختلف. صدّقيني إن هذه الكلمة تحتمل معنيين."

" لم أسمع أبداً إلاّ بمعنى واحد لهذه الكلمة،" قالت ديانا بارتياب.

"ثقي أن هناك معنى آخر لها، وليس شريراً أبداً، إنه يعني فقط

أن نُقسِمِ بالالتزام بعهد مقدّس."

"حسناً، لا أمانع القيام بما ذكرته،" وافقت ديانا، وقد ارتاحت أساريرها. "وكيف تفعلين هذا؟"

"يجب علينا أن نمسك أيدي بعضنا.. هذا يجب أن يتمّ فوق ماء جارٍ، لا يهمّ.. سنتخيل هذا الممر ماءاً جارياً. سأحلف اليمين أولاً: أنا أقطعُ على نفسي عهداً مقدّساً بأن أبقى مخلصة لرفيقة قلبي ديانا باري ما دامت الشمس والقمر فوق هذه الأرض. والآن أعيدي ما قلته ولكن اذكري اسمي."

كرّرت ديانا اليمين ضاحكة قبل تكراره وبعده. ثم قالت:

"أنت فتاة غريبة الأطوار يا آن. لقد سمعت من قبل أنك غريبة الأطوار، لكني واثقة بأني سأحبك من صميم قلبي."

عندما عادت ماريلا وآن إلى البيت، رافقتهما ديانا إلى جسر جذع الشجرة. سارت الطفلتان متعانقتين. وعند الجدول افترقتا مع الكثير من الوعود لتمضية عصر اليوم التالي سوية.

"هه، هل وجدت أن روح ديانا مُتائِمة لروحك؟" سألتها ماريلا بينما كانتا تتجاوزان حديقة المرتفعات الخضراء.

"آه، أجل،" تنهّدت آن، غافلة وهي في أوج سعادتها عن لهجة ماريلا المتهكّمة. "آه ياماريلا، أنا في هذه اللحظة أسعد بنت تعيش على أرض جزيرة برنس إدوارد. وأؤكد لك أني الليلة سأتلو صلاتي بإقبال لا مثيل له. غداً، سنبني أنا وديانا مسرحاً لنلعب فيه عند بستان أشجار البتولا الذي يخصّ السيد ويليام بيل. أيمكنني أخذ تلك القطع المكسورة من أطباق الخزف الصيني التي في كوخ الخشب؟ عيد ميلاد ديانا في شهر شباط وعيد ميلادي في شهر آذار، ألا تظنينها مصادفة شديدة الغرابة؟ ستعيرني ديانا كتاباً لأقرأه وتقول إنه رائع ومثير جداً. وستُريني مكاناً في الغابة تنمو فيه أزهار الأرز. ألا تعتقدين أن عينيّ ديانا شاعريتان؟ كم أتمنى لو أنني كنت ذات

عينين شاعريتين. ستعلّمني ديانا أغنية اسمها: نيللي في وادي أشجار البندق. وستعطيني لوحة لأزيّن بها غرفتي، تقول إنها لوحة جميلة جداً، وهي تمثّل امرأة فاتنة ترفل بثوب حريري فاتح الزرقة، أعطاها إياها وكيل آلات الخياطة. أتمنى لو أني أملك ما أعطيه لها. أنا أطوَل من ديانا بمقدار إنش، لكنها أسمن مني بكثير. وتقول إنها تفضّل النحول لأنه أكثر رشاقة، ولكني أظنها قالت هذا حتى لا تجرح مشاعري. سنذهب إلى الشاطئ في يوم ما لنجمع الأصداف. واتفقنا على تسمية النبع عند جسر جذع الشجرة نبع خرير الحورية. أليس هذا بالاسم الرائع؟ قرأت قصة ذات مرة عن نبع له هذا الاسم. والحورية هي نوع من الجنيّات الكبيرات كما أظن."

"إن كل ما أرجوه هو ألاّ تُجفلي ديانا بكثرة ثرثرتك،" قالت ماريلا. "وتذكّري ما سأقوله لك ياآن أثناء إعدادك لمخططاتك: أنت لن تلعبي كل الوقت وليس معظمه، سيكون لديك عملك الذي يجب عليك إنجازه وهذا يأتي في المقام الأول."

وهكذا، امتلأ كأس سعادة آن إلى شفّته، وسرعان ما فاض بفضل ماثيو. كان ماثيو قد وصل في ذلك الوقت إلى البيت عائداً من رحلة قام بها إلى المخزن في بلدة كارمودي، وبارتباك أخرج رزمة صغيرة من جيبه وسلّمها لآن، بعد أن رمق ماريلا بنظرة متمرّدة.

"سمعتك تقولين إنك تحبين الشوكولاتة، لذلك أحضرت لك القليل منها،" قال.

"أفٍ منك،" قالت ماريلا. "إنها ستفسد أسنانها ومعدتها. انتظري.. انتظري ياطفلتي، لا تحزني الآن، يمكنك أكلها ما دام ماثيو قد تكبّد مشقة إحضارها لك. كان من الأفضل لو أنه أحضر لك حلوى النعناع لأنها صحية. انتبهي لئلا تمرضي نفسك بأكل كل هذه الشكولاتة دفعة واحدة."

"لا، طبعاً لن أفعل،" أجابت آن بحماس. " لن آكل إلاّ قطعة

واحدة الليلة ياماريلا. وإذا سمحت لي سأعطي نصف الكميّة لديانا. سيكون طعم النصف المتبقي لي أشهى بكثير إذا أعطيت ديانا النصف الآخر. إنه من الرائع أن يكون لديَ ما أعطيه لها."

"أُقرّ أن هذه الطفلة حميدة الخصال،" قالت ماريلا بعد صعود آن إلى غرفتها. "إنها ليست بخيلة، وهذا يسعدني كثيراً. فأنا لا أمقت عيباً من العيوب التي يتّصف بها الأطفال أكثر من مُقتي لبخلهم. ربّاه، إن وجودها معنا لم يمض عليه إلاّ ثلاثة أسابيع، لكن الحال يبدو كما لو أنها كانت هنا دائماً. بل إني ما عدت أستطيع تصوّر هذا المكان بدونها. هيا ياماثيو، لا تنظر إليَ الآن نظرة: أمّا قلتُ لك. إنه سلوك مزعج بما فيه الكفاية إذا صدر عن امرأة، ولكنه لا يُحتَمل عندما يصدر عن رجل. أنا على استعداد كامل للاعتراف بأني سعيدة لموافقتي على الاحتفاظ بالطفلة وأني غدوت مولعة بها، ولكن ياماثيو كُثْبيرت لا تُلحِف في تذكيري بهذا كلّما وقع نظرك علي."

١٣
مسرّات الترقّب

"حان الوقت الذي يجب أن تعود فيه آن لتتدرب على الخياطة،" قالت ماريلا لنفسها وهي تنظر إلى الساعة ثم إلى الخارج نحو الأصيل الذهبي لشهر آب، حيث غفا كل شئ تحت وطأة وهج القيظ. "بقيتْ تلعب مع ديانا نصف ساعة أكثر ممّا حدّدته لها من وقت، وهاهي الآن جاثمة هناك فوق كومة الخشب تثرثر بلا انقطاع مع ماثيو، بينما تعرف تماماً أنها يجب أن تكون الآن منكبّة على عملها. وطبعاً هو يستمع إليها مسحوراً كالمغفل المثالي. لم أر في حياتي رجلاً بلغ به الافتتان هذا الحدّ. كلّما استرسلت في الكلام وكلّما كانت الأشياء التي تقولها أكثر غرابة، كلّما غمره المزيد من السرور. يا آن شيرلي، تعالي إلى البيت حالاً، هل تسمعيني!"

كانت عدّة نقرات متقطّعة على زجاج النافذة الغربية كفيلة بتنبيه آن، فطارت عبر الفناء ملبّية بعينين لامعتين ووجنتين كستهما حمرة خفيفة وشعر منسدل تطاير خلفها بتموجات مشرقة.

"أوه ياماريلا،" هتفت لاهثة، "ستقوم مدرسة الأحد بنزهة في الأسبوع القادم. ستكون النزهة في حقل السيد هارمون آندروز عند بحيرة المياه البراقة تماماً. وستعدّ كل من الناظرة السيدة بيل والسيدة ليند البوظة. تخيّلي هذا ياماريلا: بوظة.. و..هل ستسمحين لي بالمشاركة في تلك النزهة ياماريلا؟"

"تكرّمي وألقي نظرة على الساعة ياآن. ما الوقت الذي حدّدته لك لتعودي إلى البيت؟"

"طلبتِ مني العودة في الساعة الثانية، لكن ياماريلا أليست هذه

النزهة حدثاً رائعاً؟ أأستطيع الذهاب من فضلك؟ ربّاه، أنا لم أذهب في حياتي إلى نزهة في الهواء الطلق. كثيراً ما حلمت بالنزهات لكني لم يسبق..."

"نعم، طلبت منك العودة في الساعة الثانية. والساعة الآن هي الثالثة إلاّ ربعاً. أحب أن أعرف لماذا لم تطيعيني ياآن."

"كان في نِيّتي أن أطيعك من صميم قلبي ياماريلا، لكن لا يمكنك أن تتخيلي كم هو ساحر: فردوس الأحلام. بالإضافة إلى أنه كان عليَّ إخبار ماثيو عن النزهة. ماثيو مستمع حسن الإصغاء كما تعلمين. من فضلك ياماريلا أيمكنني الذهاب؟"

"عليك أن تتعلمي مقاومة سحر ذاك الفردوس الذي لا أعرف ما هو. عندما أطلب منك الحضور في وقت معين فأنا أعني حضورك في ذلك الوقت وليس بعد نصف ساعة منه. ولا داعي أيضاً لأن تتوقفي في طريقك لإجراء المحادثات مع المستمعين الذين يحسنون الإصغاء. أمّا بالنسبة إلى النزهة، طبعاً يمكنك الذهاب. أنت تلميذة في مدرسة الأحد ولا يُعقل أن أمانع في ذهابك بينما ستذهب بقية البنات."

"لكن.. لكن،" تلعثمت آن. "تقول ديانا إنه يجب على كل شخص أخذ سلة طعام معه. وكما تعلمين ياماريلا أنا لا أعرف شيئاً عن الطبخ. و.. ولا مانع عندي من الذهاب إلى النزهة بدون أكمام منفوخة، لكني سأشعر بإذلال مهين إذا ذهبت بدون سلة طعام. لقد أصبحت فريسة هذا الهاجس منذ أن أخبرتني ديانا."

"حسناً، لست بحاجة لأن تكوني فريسة هذا الهاجس أكثر من ذلك. سأخبز لك ما تأخذينه معك."

"أوه، ياماريلا الغالية. أوه.. أنت لطيفة جداً معي. أوه.. أنا ممتنة لك كثيراً جداً."

بعد أن استنفدت آن كل التأوهات التي عبّرت بها عن سعادتها، رمت نفسها بين ذراعي ماريلا وطبعت على خدّها الشاحب قبلة جذِلة.

كانت هذه هي المرة الأولى في حياة ماريلا كلها التي تلامس وجهها طوعاً شفاه طفولية. ومرة أخرى تدفق داخلها ذلك الإحساس المفاجئ بالعذوبة المُجفلة التي جعلت الرعشة تسري في جسمها. ولعل شعورها الخفي بالسعادة الغامرة من مداعبة آن الطائشة هو ما جعلها تتصنّع الصرامة وتقول:

"هيا، هيا، دعك من التقبيل الذي لا معنى لها. وسأرى كيف سأجعلك تطيعين ما تؤمرين به بدقّة. أمّا بالنسبة إلى أصول الطبخ، فأنا عازمة على إعطائك بعض الدروس في يوم ما من الأيام المقبلة. إنك طائشة وخفيفة العقل ياآن، ولذلك أفضّل التريّث حتى أرى أنك قد هدأت قليلاً، بحيث تكونين أكثر اتّزاناً عندما أبدأ تعليمك أصول الطهي. ففي المطبخ ينبغي لك التزام جانب اليقظة المستمرّة، لا أن تتوقفي وأنت في خضمّ عمل ما لتطلقي العنان لأوهامك الفكرية. والآن أحضري أدوات الخياطة، وقومي بخياطة مربع جديد في المُرقّعة التي تتمرنين عليها، قبل أن يحين موعد تناول الشاي."

"أكره عمل الترقيع هذا،" قالت آن بكآبة، ثم تنهّدت وهي تتناول سلة الخياطة وتجلس أمام كومة من القماش الأحمر والأبيض المَعينيّ الشكل. "أعتقد أن بعض أنواع الخياطة لطيفة، لكن لا يوجد أية فسحة للخيال في خياطة هذه المربعات إلى بعضها. لا شئ سوى غرزة صغيرة تتلوها غرزة صغيرة دون أن يؤدي بك الأمر في النهاية إلى أي شئ. طبعاً أنا أفضّل أن أكون آن المرتفعات الخضراء التي تخيط هذه المُرَقَّعة على أن أكون آن أي مكان آخر ولا شاغل يشغلها إلاّ اللعب. رغم أني أتمنى لو أن سرعة مُضيّ الوقت أثناء خياطتي لهذه المُرَقَّعة تماثل سرعة مُضيّه أثناء لهوي مع ديانا. أوه ياماريلا، لقد قضينا أنا وديانا وقتاً رائعاً اليوم. طبعاً، كان تخيُّل معظم الأمور من مهمتي، لكني على كل حال، بارعة في هذا المضمار. أمّا ديانا فإنها بكل بساطة تكاد تكون كاملة في كل الأمور الأخرى. أتعرفين تلك البقعة الصغيرة من الأرض التي تقع في الجانب الآخر من مجرى

الجدول بين مزرعتنا ومزرعة السيد باري؟ هي في الحقيقة ضمن أملاك السيد ويليام بيل. هناك عند المنعطف تماماً يوجد طوق صغير من أشجار البتولا البيضاء، وهي ياماريلا من أكثر الأماكن شاعرية على الإطلاق. لقد بنينا أنا وديانا مسرح لعبنا هناك، وأطلقنا عليه اسم فردوس الأحلام. أليس هذا الاسم اسماً شاعرياً؟ صدّقيني لقد تطلب مني العثور على هذا الاسم وقتاً طويلاً. بقيت مستيقظة ليلة كاملة تقريباً قبل أن أبدعه. ليلتها، وعندما غلبني النعاس وكنت على وشك الاستغراق في النوم، جاءني مثل الإلهام. ولكم سُرّت به ديانا عندما سمعته. لقد شيّدنا مسرح اللعب تشييداً أنيقاً ياماريلا، ولا بدّ أن تذهبي للتفرّج عليه في يوم ما. تتألف مقاعده من أحجار ضخمة صففناها إلى جانب بعضها وغطيناها بالطحالب، أمّا الرفوف فتتألف من ألواح خشبية ركزناها بين شجرة وأخرى، ووضعنا عليها أدواتنا المنزلية. طبعاً هي كلها أوانٍ مكسورة، ولكن لا شئ في هذا العالم أسهل من تخيُّلها سليمة. ويوجد بينها طبق مميّز الجمال، لأنه مُزيّن برسوم على شكل اللبلاب الأحمر والأصفر. ونحن نحتفظ به في قاعة الاستقبال. ولدينا في قاعة الاستقبال أيضاً بلورة سحرية، وهذه البلورة السحرية جميلة كالحلم. وجدتها ديانا في الغابة وراء قنّ دجاجاتهم. وهي تشعّ بألوان قوس قزح؛ قوس قزح صغير.. لم يكبر بعد. وعرفت ديانا من أمها أنها انكسرت من مصباح متدلٍ، كانوا يملكونه ذات يوم. ولكن يروقنا أكثر تخيُّل أن الجنيات أضعنها أثناء حفلة من حفلاتهن الراقصة، ولذلك أطلقنا عليها اسم البلورة السحرية. وسيصنع لنا ماثيو طاولة. و.. أوه، لقد أسمينا تلك البركة الصغيرة المستديرة في حقل السيد باري بركة الصفصاف. حصلت على هذا الاسم من الكتاب الذي أعارتني إياه ديانا. كان ذاك كتاباً مثيراً ياماريلا. كان لدى بطلته خمسة عشاق. أمّا أنا فإني أكتفي بعاشق واحد، ألا تكتفين أنت بعاشق واحد ياماريلا؟ كانت البطلة جميلة جداً، وصادفتها في حياتها محن جمّة. وكانت تصاب بالإغماء بمنتهى السهولة. أتمنى ياماريلا لو أَني أستطيع أنا أيضاً أن أصاب

بالإغماء، ألا تتمنين هذا؟ فهو شيئ شاعري جداً، لكن يبدو أني معافاة الصحة رغم هزالي الشديد. مع ذلك أظنني غدوت أكثر امتلاء من قبل، ألا تعتقدين هذا؟ ومع مطلع كل يوم جديد أتفحّص مرفقيّ لأرى إذا كان قد أصبح فيهما غمازات. ستحصل ديانا على ثوب جديد له أكمام تصل إلى المرافق، وسترتديه في النزهة. أوه، أرجو أن يكونَ الطقس معتدلاً يوم الأربعاء القادم، إذ لا أظنني سأتمكن من تحمُّل خيبة الأمل إذا حدث شيئ منعني من الذهاب إلى تلك النزهة. طبعاً، من المؤكّد أني سأتجاوز المحنة، لكني واثقة بأنها ستكون حزناً أبدياً لي. ولن يهم حتى لو ذهبت بعدها إلى مئات النزهات في السنين القادمة، لأنها لن تعوّضني عن هذه النزهة. سيكون هناك مراكب في بحيرة المياه البراقة، وبوظة كما أخبرتك. أنا لم أذق البوظة من قبل، ورغم محاولات ديانا لتفسّر لي كنه مذاقها، أعتقد أن البوظة هي واحدة من تلك الأشياء التي تفوق حدود الخيال."

"آن، لقد تكلمت، حسب ما تشير إليه الساعة، لمدّة عشر دقائق،" قالت ماريلا. "والآن، بداعٍ من الفضول ليس إلاّ، دعينا نرى إذا كان بإمكانك لجم لسانك المدّة نفسها."

لجمت آن لسانها كما طُلب منها. ولكنها ظلّت طيلة الأسبوع تتحدث عن النزهة وتفكّر بالنزهة وتحلم بالنزهة. وعندما أمطرت السماء في يوم السبت أصيبت بحالة من الهياج الشديد خوفاً من استمرار هطول المطر إلى يوم الأربعاء. وهذا جعل ماريلا تجبرها على خياطة مربع إضافي في مُرَقَّعتها أملاً بتهدئة أعصابها قليلاً.

وفي يوم الأحد اعترفت آن لماريلا أثناء طريق عودتهما من الكنيسة أنها عندما سمعت القسّ يعلن خبر النزهة من فوق منبر الوعظ، أحست ببرودة الانفعال تسري في جسمها.

"كانت رعشة غريبة تلك التي سرت من أعلى ظهري إلى أسفله ياماريلا! وما كنت من قبل على يقين من أمر النزهة، وما استطعت التخلص من هاجس أني تخيّلت الحكاية برمّتها. لكنك عندما تسمعين

القسّ وهو يعلن خبراً ما أثناء وقوفه على منبر الوعظ، لا يبقى أمامك إلاّ التصديق."

"إنك تبالغين كثيراً ياآن في تعليق آمال قلبك على الأشياء،" قالت ماريلا وهي تتنهّد. "وأخشى أن هناك الكثير من الخيبات التي ما زالت تنتظرك في هذه الحياة."

"أوه ياماريلا، إن ترقُّب الأشياء يعدل نصف الاستمتاع بها،" هتفت آن. "قد لا تحصلين دائماً على الأشياء التي ترغبين فيها، ولكن لا شئ يمنعك من الاستمتاع بالنشوة التي تعتريك وأنت تترقّبين الحصول عليها. تقول السيدة ليند طوبى للذين لا يتوقّعون شيئاً لأنهم لن يتعرّضوا للخيبة. ولكني أرى أن عدم ترقُّب المرء لما يتوق إليه أسوأ من تعرّضه لخيبة الأمل."

في ذلك اليوم عندما ذهبت ماريلا إلى الكنيسة تحلّت كعادتها بمشبك حجر الجمشت الذي تملكه. كانت ماريلا تضع ذلك المشبك كلّما قصدت الكنيسة. وكانت في سريرتها ترى أن عدم تحلّيها به أشبه بفعل غير مقدّس. وأن نسيانه يعادل نسيانها لإنجيلها أو للعشرة سنتات الخاصة بالتبرعات. كان ذلك المشبك فيما مضى هديّة من خالها البحار لأمها، التي أورثته بدورها لماريلا. ولذلك اعتبرته ماريلا واحداً من مقتنياتها الغالية على قلبها. بل وكانت تعتبره مشبكاً جميلاً جداً؛ بشكله البيضوي، وتصميمه القديم، واحتوائه على خصلة من شعر أمها، وإطاره البالغ الدقّة من الجمشت. ولأنها لم تكن صاحبة خبرة بالأحجار الكريمة، لم تميّز أبداً مدى ضآلة حجم الجمشت الذي يؤطّره. وكانت رغم عدم تمكّنها من رؤيته وهو يزيّن صدر فستان الساتان البُنيّ الأنيق الذي ترتديه، لا تَني تشعر بالسعادة عندما تتلألأ انعكاسات وميضه البنفسجي على ذقنها مداعبة إياها.

وعندما رأت آن دبوس الزينة لأول مرة غمرها الإعجاب الشديد به.

"أوه ياماريلا، إنه مشبك أنيق جداً، ولا أعرف كيف تستطيعين الانتباه إلى الموعظة أو الصلاة وأنت تتحلّين به. أنا أعرف أني لن أستطيع ذلك لو كنت مكانك. أعتقد أن الجمشت حجر جميل جداً، وكنت في السابق أظنه الألماس. فمنذ وقت بعيد وقبل أن أرى ماسة، قرأت عن الألماس وحاولت تخيُّله، وظننت أنه حجر جميل لامع أرجواني اللون، وذات يوم عندما رأيت ماسة حقيقية في خاتم إحدى السيدات، أصبت بخيبة أمل كبيرة، أبكتني. طبعاً كان الألماس باهراً، لكنه لم يكن مطابقاً لفكرتي عن الألماس. أيمكنني حمل هذا المشبك لدقيقة واحدة ياماريلا؟ أتظنين أن الجمشت هو روح البنفسج الصالح؟"

١٤
اعتراف آن

نزلت ماريلا من غرفتها بوجه متكدّر، في مساء يوم الاثنين السابق على النزهة.

"آن،" قالت لتلك المخلوقة الصغيرة، التي كانت تقشّر البازلاء على الطاولة النظيفة، وتغني أغنية: نيللي في وادي أشجار البندق، بإقبال وإيماءات يعود فضلها إلى تعاليم ديانا، "هل رأيت مشبك الجمشت؟ ظننت أني قد غرزته بمخدة الدبابيس عندما عدت إلى البيت من الكنيسة مساء أمس، ولكني لم أجده في أي مكان."

"ر.. ر.. رأيته عصر اليوم بعد ذهابك إلى جمعية معونة الكنيسة،" قالت آن، بشئ من التلعثم. "كنت أمرّ من أمام باب غرفتك عندما رأيته على مخدّة الدبابيس، فدخلت وألقيت نظرة عليه."

"هل لمسته؟" سألتها ماريلا متجهّمة.

"نعم،" أقرّت آن. "حملته وعلّقته على صدري لأرى كيف سيبدو."

"ليس من حقّك أن تتصرّفي تصرّفاً كهذا. من الخطأ أن تتطفل بنت صغيرة على خصوصيات غيرها. ما كان يجب عليك في المقام الأول أن تدخلي غرفتي، وما كان يجب عليك في المقام الثاني أن تلمسي مشبكاً ليس ملكك. أين وضعته؟"

"أوه، أعدته إلى المنضدة، ولم أحمله لأكثر من دقيقة. صدّقيني ياماريلا أنا لم أقصد التطفّل، ولم أحسب أني أرتكب أي خطأ بدخولي غرفتك وتجربتي لذلك المشبك؛ لكني الآن أعلم أن تصرّفي لم يكن صائباً، ولن أكرّره ثانية. هذه واحدة من محاسني، أنا لا أكرّر نفس السلوك المعيب مرتين."

"أنت لم تعيديه إلى مكانه،" قالت ماريلا. "ذلك المشبك لا يوجد في أي مكان على المنضدة. لقد أخذتِه خارج الغرفة ياآن أو شيئاً من هذا القبيل."

"لقد أعدته إلى مكانه،" أجابت آن بسرعة، ربّما بشيئ من الوقاحة كما شعرت ماريلا. "أنا لا أذكر على وجه التحديد فيما إذا كنت قد غرزته بمخدة الدبابيس أو وضعته في صينية الخزف الصيني. ولكني متأكدة تماماً أني قد أعدته."

"سأذهب وألقي نظرة أخرى،" قالت ماريلا التي قرّرت أن تكون مُنصفة. "إذا كنت قد أعدت ذلك المشبك فإني سأجده هناك. وإذا لم أجده فسأعرف أنك لم تعيديه، هذا كل ما في الأمر."

ذهبت ماريلا إلى غرفتها وقامت ببحث مسهب، ليس فقط فوق المنضدة ولكن في كل مكان آخر ظنت أن المشبك يمكن أن يكون فيه، ولكنها لم تعثر عليه، فعادت إلى المطبخ.

"آن، لقد اختفى المشبك. وباعترافك، أنت آخر شخص لمسه. والآن ماذا فعلت به؟ أخبريني الحقيقة فوراً. هل أخذته خارج البيت وأضعته؟"

"لا، لم أفعل،" قالت آن بهدوء، وهي تواجه تفرّس ماريلا فيها بعين ثابتة. "لم آخذه خارج غرفتك أبداً. هذه هي الحقيقة، حتى وإن كنت سأُساق إلى المقصلة بسببها، رغم أني لا أعرف بالضبط ما تعنيه كلمة المقصلة. هذا ما لدي لأقوله ياماريلا."

أرادت آن من اختتام حديثها بجملتها الأخيرة تعزيز نَفيِّها، غير أن ماريلا اعتبرت الأمر تحدّياً واضحاً.

"أعتقد أنك تكذبين ياآن،" قالت محتدّة. "بل أعرف أنك تكذبين. والآن، لا تتفوهي بكلمة إلاّ إذا وجدت في نفسك استعداداً لإخباري بالحقيقة. اذهبي إلى غرفتك ولازميها إلى أن تقرري الاعتراف."

"هل آخذ معي البازيلاء؟" سألتها آن بوداعة.

"لا، سأُنهي تقشيرها بنفسي. قومي بما أمرتك به."

تابعت ماريلا أشغالها المسائية بعد صعود آن إلى غرفتها، وهي فريسة حالة فكرية مشوشة جداً. كانت قلقة على دبوس زينتها الذي تُعزّه كثيراً. ماذا لو أضاعته آن؟ من الفظيع حقاً أن تُنكر أخذها له، في الوقت الذي يستطيع فيه أي كائن آخر التأكد من أن المشبك معها! وبوجهٍ بريءٍ مثل تلك البراءة التي أظهرتها!

"لا أدري ما الذي سأكتشفه فيما بعد،" فكّرت ماريلا، وهي تتابع تقشير البازلاء بعصبية. "طبعاً، لست أدّعي أنها قصدت سرقته أو ما يشبه ذلك، أعرف أنها أخذته لتلعب به أو لتستحثّ تلك الخيالات التي تتخيلها. لا بدّ أنها أخذته. هذا واضح لأن أحداً غيرها، بناءاً على روايتها، لم يدخل الغرفة بعدها، إلى أن دخلتها أنا هذا المساء. ولا أثر للمشبك، ولا شئ مؤكّد أكثر من هذه الحقيقة. أظنها أضاعته ولكنها خائفة من الاعتراف خشية العقاب. ومجرّد التفكير بأنها كاذبة هو شئ فظيع، بل وأسوأ بكثير من نوبات مزاجها الحادّة. إن وجود طفل غير أهل للثقة في منزلك هو مسؤولية جسيمة بالفعل. وما برهنتْ عليه الآن هو ميلها إلى الخداع والكذب، وهذا يزعجني أكثر من انزعاجي على فقد المشبك. ولو صَدَقتني القول لما تضايقت إلى هذا الحدّ."

في ذلك المساء، تردّدت ماريلا على غرفتها عدّة مرات أملاً بالعثور على المشبك المفقود. لكن المشبك ظلّ مفقوداً. ولم تؤت زيارتها للسقيفة الشرقية عندما حان وقت النوم أية فائدة مرجوة. ولم يؤد إصرار آن على إنكار معرفة أي شئ عن مصير المشبك إلاّ إلى ازدياد اقتناع ماريلا بأنها تعرف.

وفي صباح اليوم التالي روت ماريلا الحكاية لماثيو الذي أصيب بالحيرة والارتباك. فهو لم يستطع أن يفقد ثقته بآن بمثل تلك

البساطة، لكنه أقرّ أن الظروف لم تكن في صالحها.

"أواثقة أنت أنه لم يسقط خلف المنضدة؟" كان هذا هو الاقتراح الوحيد الذي استطاع عرضه.

"أزحت المنضدة وأخرجت الجوارير وبحثت في كل شقّ وصدع،" جاء ردّ ماريلا الحاسم. "لقد اختفى المشبك، وتلك الطفلة أخذته وكذبت بشأنه. هذه هي الحقيقة الصريحة البشعة ياماثيو كُثْبيرت، وعلينا مواجهتها بأعين مفتوحة."

"حسناً، والآن ما الذي تنوين عمله في هذا الشأن؟" سأل ماثيو بصوت يائس، بينما شعر في سرّه بالامتنان لأن ماريلا هي التي ستعالج هذا الوضع وليس هو. وفي ذلك الوقت كان واثقاً بأنه لا رغبة لديه البتة في إقحام مجذافه.

"ستبقى في غرفتها إلى أن تعترف،" قالت ماريلا مقطّبة، وهي تسترجع نجاح هذه الطريقة في حالة سابقة. "وعندها سنرى. ولربما تمكنّا من العثور على المشبك إذا أخبرتنا إلى أين أخذته. ولكن في جميع الأحوال ياماثيو يجب أن يكون عقابها عسيراً."

"مهما كانت النتيجة فأنت من سيعاقبها،" قال ماثيو وهو يتناول قبعته. "وتذكّري أن لا شأن لي بهذا الأمر. أنت نفسك حذرتني من التدخل."

شعرت ماريلا أن الجميع قد تخلّى عنها، ولم تجرؤ حتى على الاستغاثة بالسيدة ليند لتسألها النصيحة. صعدت إلى السقيفة الشرقية متجهّمة الوجه، وتركتها بوجهٍ أكثر تجهّماً. رفضت آن الاعتراف، وأصرّت بعناد على أنها لم تأخذ المشبك. كان من الواضح أن الطفلة كانت تبكي، وما إن شعرت ماريلا بنبض الإشفاق يعتمل في قلبها حتى سارعت إلى قمعه بحزم. ومع مقدم الليل، وكما عبّرت هي عن الأمر بنفسها، كانت قد غُلبت على أمرها.

"لن تبارحي الغرفة حتى تعترفي ياآن. يمكنك حزم أمرك بهذا

الخصوص،" قالت بتصميم.

"لكن النزهة غداً ياماريلا،" أجابت آن باكية. "لن تمنعيني من الذهاب إليها أليس كذلك؟ ستدعيني أخرج في فترة ما بعد الظهيرة فقط، ألن تفعلي؟ بعد ذلك سأبقى هنا طَوعاً، المدّة التي تشائينها، ولكن لا بدّ من ذهابي إلى تلك النزهة."

"لن تذهبي إلى أية نزهة أو أي مكان آخر حتى تعترفي ياآن."

"أوه ياماريلا،" شهقت آن.

لكن ماريلا كانت قد غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

أطلّ صباح يوم الأربعاء مشرقاً وصافياً وكأنه موصى عليه خصيصاً من أجل النزهة. صدح غناء العصافير حول المرتفعات الخضراء، وأرسلت زنابق العذراء من الحديقة نفحات من العطر تسلّلت مع أجنحة الريح غير المرئية من خلال كل باب ونافذة، وتجوّلت في القاعات والغرف كأنها أرواح مباركة. ولوّحت أشجار البتولا عند الغَور بأيدٍ مرحة وكأنها تترقّب تحيّات آن الصباحية من السقيفة الشرقية، لكن آن لم تكن أمام نافذتها. وعندما صعدت ماريلا وهي تحمل لآن إفطارها، وجدت الطفلة تجلس منكمشة في سريرها، وقد بدا التصميم على قسمات وجهها الشاحب، وشعّ وميض باهت من عينيها وانطبقت شفتاها بقوة.

"ماريلا، أنا جاهزة للاعتراف."

"ها!" وضعت ماريلا الصينية جانباً. مرة أخرى نجحت طريقتها؛ لكن طعم هذا النجاح كان مريراً. "دعيني أسمع ما لديك ياآن."

"أخذت مشبك الجمشت،" قالت آن، وكأنها تكرّر درساً حفظته. "أخذته، كما قلت. لم أكن أقصد أخذه عندما دخلت غرفتك، ولكنه بدا خلاباً ياماريلا. وكنت تحت سيطرة إغراء لا يُقاوم عندما علّقته على صدري. وظننت أن الأمر سيكون مثيراً إذا أخذته إلى فردوس الأحلام

وتخيلت أني السيدة كورديليا فيتزجيرالد، فمن السهل جداً أن أتخيل نفسي كورديليا إذا كنت أضع حِلية من الجمشت. سبق لنا أنا وديانا أن صنعنا عقوداً من زهر التوت، لكن ما هو زهر التوت بالمقارنة مع حجر الجمشت؟ وهكذا أخذت المشبك، وظننت أني سأتمكّن من إعادته قبل عودتك إلى البيت. قصدت الطريق العادية لأطيل الوقت، وعندما كنت أعبر جسر بحيرة المياه البراقة نزعت المشبك لألقي عليه نظرة جديدة. أوه ليتك رأيت كيف لمع تحت نور الشمس! أثناء ذلك وبما أني كنت منحنية على حافة الجسر، انزلق من بين أصابعي.. هكذا.. وأخذ يهوي ويهوي ويهوي وهو يرسل بريقاً ذا وميض أرجواني، ثم غاص إلى الأبد في أعماق بحيرة المياه البراقة. وهذا الاعتراف ياماريلا هو أفضل ما أستطيع الإدلاء به."

شعرت ماريلا بفورة الغضب تجيش في قلبها ثانية. هذه الطفلة أخذت مشبكها الغالي عليها وأضاعته، وهاهي الآن تجلس أمامها تسرد التفاصيل بمنتهى الهدوء وبدون أن يبدو عليها الندم أو الشعور بوخز الضمير.

"هذا شئ رهيب ياآن،" قالت وهي تجاهد نفسها لتتكلم بهدوء. "أنت أسوأ فتاة رأيتها في حياتي."

"نعم، أعتقد أني كذلك،" وافقتها آن باستكانة. "وأنا أعرف أني سأُعاقَب. بل إن واجبك يحتّم عليك معاقبتي ياماريلا. لذلك أرجوك اشرعي في هذا العقاب حالاً، لأني أرغب في الذهاب إلى النزهة بدون أن يعكر صفو خاطري أي شئ."

"نزهة حقاً! لن تذهبي إلى أية نزهة اليوم ياآن شيرلي! هذا هو عقابك. وهو لا يعدل نصف ما تستحقينه من عقاب على ما اقترفته!"

"لن أذهب إلى النزهة!" شبّت آن على قدميها وتشبثت بيديّ ماريلا. "لكنك وعدتني بالسماح لي بالذهاب! أوه ياماريلا، يجب أن أذهب إلى النزهة، وهذا ما جعلني أعترف. عاقبيني بأية طريقة

تشائين، لكن أرجوك أرجوك ياماريلا دعيني أذهب إلى النزهة. تذكّري البوظة فقط! فمن بين جميع الأشياء التي يمكن أن تخطر ببالك قد لا تتاح لي فرصة أخرى لأتذوق البوظة."

تخلّصت ماريلا بنفور من يديّ آن المتعلقتين بها.

"لا حاجة لك للتوسّل ياآن. لن تذهبي إلى تلك النزهة وهذا قرار نهائي. لا، لا أريد سماع كلمة."

أيقنت آن أن ماريلا لن تغيّر موقفها. فما كان منها إلاّ أن شابكت يديها وأطلقت زعقة ثاقبة ثم قذفت نفسها على السرير دافنة وجهها فيه، وأخذت تبكي وتتلوّى بلا قيد أو شرط تعبيراً عن خيبة أملها ويأسها.

"بحقّ السماء!" شهقت ماريلا، وهي تبارح الغرفة مسرعة. "أعتقد أن هذه الطفلة مجنونة. لا طفلة بكامل عقلها تتصرّف هكذا. وإذا لم تكن مجنونة فهي سيئة كلية. ربّاه، إني لأخشى أن ريتشيل كانت على حقّ منذ البداية. لكني ما دمت قد بدأت الحراثة فلن أنظر إلى الوراء."

كان ذاك الصباح صباحاً كئيباً. شغلت فيه ماريلا نفسها بضراوة. وفركت أرض الرواق ورفوف الألبان عندما لم تجد شيئاً آخر تفعله. ولم تكن الرفوف أو الرواق بحاجة إلى التنظيف، لكن ماريلا كانت بحاجة إلى ما يشغلها، ثم خرجت ونظّفت الفناء.

عندما جهز طعام الغداء اتجهت نحو السلالم ونادت آن. فأطلّ عليها من فوق الدرابزين وجه مبقّع بالدموع، ونظر إليها بمأساوية.

"انزلي من أجل الغداء ياآن."

"لا أريد أي غداء ياماريلا" قالت آن بصوت باكٍ. "لا أقدر على أكل شئ وقلبي مكسور. وعندما يؤنّبك ضميرك في يوم ما، كما أتوقّع، ستشعرين بالندامة ياماريلا لأنك كسرته. لكني أسامحك.

وتذكّري عندما يأتي ذلك اليوم أني سامحتك. أمّا الآن فأرجوك لا تطلبي مني تناول أي طعام خصوصاً اللحم بالخضار. اللحم بالخضار طعام غير شاعري أبداً بالنسبة إلى شخص منكوب."

عادت ماريلا الساخطة إلى المطبخ وصبّت بلواها على ماثيو، ماثيو الذي كان رجلاً بائساً لتمزّقه بين شعوره بضرورة تطبيق العدالة وبين تعاطفه غير الشرعي مع آن.

"نعم، أظن أنه ما كان يجب عليها أخذ المشبك ياماريلا، أو الكذب بشأنه،" وافقها على مضض، وهو يعبث بمحتويات صحنه الملآن، كما لو أنه كان يوافق آن على أن اللحم بالخضار لا يتناسب مع المشاعر المنفعلة. "ولكنها مخلوقة صغيرة، مخلوقة صغيرة مميّزة. ألا تعتقدين أنه من القسوة ألاّ تدعيها تذهب إلى النزهة بينما هي تتحرّق شوقاً إليها؟"

"ماثيو كُثْبيرت، إني مندهشة منك. أنا أعتقد أني قد تساهلت معها كثيراً، وبالمقابل لم أشعر أنها تدرك مدى سوء فعلتها. وهذا ما يقلقني أكثر من أي شئ آخر. بالإضافة إلى شعوري بأنك أنت أيضاً لا تدرك مدى سوء ما فعلَتْه، فأنت لا تفتأ تخلق لها المعاذير بينك وبين نفسك، وإني لأستطيع رؤية هذا الأمر بوضوح."

"حسناً، إنها مخلوقة صغيرة مميزة،" كرّر ماثيو بصوت واه. "ويجب أن نخلق لها الأعذار ياماريلا، فأنت تعرفين أن أحداً لم يوجّهها من قبل."

"حسنا إنها تلقى التوجيه الآن،" كالت له ماريلا الصاع بالمثل.

لم يُقنع الجواب ماثيو، لكنه جعله يلتزم بالصمت. وكانت تلك الوجبة وجبة كئيبة جداً. وما كان فيها ما يبهج سوى مرح الصبي الأجير جيري بوت، والذي امتعضت ماريلا منه وكأن في ذلك المرح إهانة شخصية لها.

بعد أن جلت ماريلا أطباقها، وأعدّت عجينة خُبزها وأطعمت

دجاجـاتهـا، تذكّرت أنهـا لاحظت في شـالهـا الأسود المُخـرّم مِزقـاً صغيراً، عندما نزعته في أمسية يوم الاثنين بعد عودتها من الجمعية النسائية، فقرّرت رتقه.

كـان الشـال في علبـة داخل صندوق حـاجيـاتهـا. ومـا إن رفعتـه مـاريلا حتى وقع نور الشمس المنسلّ من بين عرائش الكروم المتكاثفة حول النافذة على شئ عالق بالشال. شئ ومض مـرسلاً إشـعاعـات متكسّرة براقة ذات انعكاسات بنفسجية. انتزعته ماريلا شاهقة من دهشة المفاجأة. كان دبوس مشبك الجمشت عالقاً بخيط من خيوط الشال المُخرّم!

"يارب السماء،" قالت ماريلا بصوت أجوف. "ما معنى هذا؟ هاهو مشبكي بألف خير، وأنا التي ظننت أنه في قعر بركة باري. ما الذي عنته تلك البنت عندما قالت أنها أخذته وأضاعته؟ إني لأعترف أن المرتفعات الخضراء مسحورة. أتذكر الآن أني عندما نزعت الشال عني مساء يوم الاثنين وضعته على المنضدة لدقيقة. وأظن أن دبوس المشبك علق به بطريقة ما. هكذا إذن."

توجّهت ماريلا نحو السقيفة الشرقية، وهي تحمل المشبك بيدها. كانت آن قد استنفدت طاقتهـا على البكاء، وكانت في ذلك الوقت تجلس حزينة عند النافذة.

"آن شيرلي،" قالت ماريلا بهدوء، "عثرت تواً على مشبكي. كان عالقاً بشالي الأسود المُخرّم. والآن أريد أن أعرف ما ذاك الهراء الذي أخبرتني به هذا الصباح."

"لقد قلت إنك ستجعليني ألازم الغرفة إلى أن اعترف،" ردّت آن بإعياء، "فقرّرتُ الاعتراف لأني كنت أتحرّق شوقاً للذهاب إلى النزهة. وهكذا، فكّرت باعتراف مقنِع في الليلة الماضية بعد أن أويت إلى الفراش وجعلته مشوّقاً قدر استطاعتي. وكرّرته مرّة تِلو مرّة حتى لا أنسى منه شيئاً. ولكنك رغم كل شئ لم تسمحي لِي بالذهاب إلى

النزهة، فذهب تعبي هباءاً."

اضطرت ماريلا إلى الضحك غصباً عن إرادتها، ورغم توبيخ ضميرها لها.

"آن، إنك لقادرة على إلحاق الهزيمة بالجميع! لقد كنتُ مخطئة، وأنا أعترف بهذا. ما كان يحقّ لي الشكّ بصدقك وأنا لا أعرف عنك الكذب من قبل. طبعاً ما كان من الصواب أن تعترفي بذنب لم تقترفيه، ومن الخطأ أن تفعلي ذلك، لكني أنا من دفعك إلى مثل هذا التصرّف. إذا سامحتني ياآن سأسامحك أنا أيضاً، وسنبدأ من جديد متعادلتين. والآن، جهّزي نفسك من أجل النزهة."

طارت آن كالصاروخ.

"أوه ياماريلا، ألم يَفُت الأوان؟"

"لا، إنها الساعة الثانية فقط. ولن يكونوا الآن إلاّ في طريقهم إلى التجمُّع، وما زال هناك ساعة قبل أن يتناولوا الشاي. اغسلي وجهك ومشطي شعرك وارتدي الفستان القطني. سأعدّ لك سلة من الطعام فلدينا في البيت الكثير من المعجنات المخبوزة. وسأطلب من جيري أن يربط الفرس إلى العربة ليأخذك إلى موقع النزهة."

"أوه ياماريلا،" هتفت آن، وهي تطير نحو المغسلة. "قبل خمس دقائق كنت بائسة جداً وكنت أتمنى لو أني لم أُولد. أمّا الآن فأنا لن أستبدل مكاني بمكان ملاك!"

تلك الليلة، عادت آن إلى المرتفعات الخضراء منتشية، مرهقة، وفي حالة من الطوباوية التي تستعصي على الوصف.

"أوه ياماريلا، لقد أمضيت وقتاً ميموناً بحق. ميموناً: كلمة جديدة تعلّمتها اليوم. سمعت ماري أليس بيل تقولها. أليست تعبيرية جداً؟ كان كل شئ عظيماً. احتسينا شاياً لذيذاً، ثم أخَذَنا السيد هارمون آندروز على دفعات في نزهة بالقارب في بحيرة المياه البراقة، ستة منّا

كلّ مـرّة. وكـادت جين آندروز تسـقط في الماء. كـانت تنحني لتلتـقط بعض زنابق الماء، ولو لم يمسكها السـيد آندروز من حـزامـهـا في اللحظة الحـاسـمـة لوقـعت، وعلى الأرجح غـرقت. كم تمنيت لو كنت مكانها، لأن التعرّض للغرق تجربة عاطفيـة مثيرة، ورواية مشـوّقة أستطيع قـصّها على الناس. وتناولنا البـوظة ياماريلا، والكلمـات لا تسعفني لوصف مذاقها، لكني أؤكد لك أنها كانت شيئاً سامياً."

ذلك المساء، روت ماريلا لماثيو الحكاية كلها من فوق سلة جواربها.

"أنا مـسـتـعـدّة للاعـتراف بخطأي،" اخـتـتـمت حـديثـهـا بنزاهة، "وأظنني تعلّمت درسـاً مـهـمّاً. ورغم أني لا يجدر بي التـعـامل مع مـا حـدث بسـخـرية لأن ذلك الاعـتراف كـان كـذبة، إلاّ أني كلمـا تذكّرته ضـحكت. لكن الأمـر ليس بمثل سـوء الحكاية الأخرى لو صَحّت. وفي جميع الأحوال أعتقد أني المسؤولة الرئيسة عمّا حدث. إن هذه الطفلة يصعب فـهـمـها من بعض النواحي، ولكني واثقـة بأنها سـتصبـح بنتاً جـيـدة. وهـنـاك شئ واحـد مـؤكّد فـيـمـا يتـعلق بهـا، وذلك أن لا منزل ستدخله الكآبة ما دامت هي فيه."

١٥
زوبعة في أبريق شاي المدرسة

"ياله من يوم بديع!" قالت آن وهي تَعبُّ نفساً طويلاً. "أليس من الرائع أن نكون على قيد الحياة في يوم كهذا اليوم؟ إني لأشفق على الناس الذين لم يُولدوا بعد لحرمانهم منه. طبعاً قد تصادفهم أيام طيبة، لكنهم لن يعيشوا أبداً يوماً مثله. وما يزيد جماله جمالاً هو هذا الدرب اللطيف الذي نسلكه إلى المدرسة. ألا توافقيني الرأي ياديانا؟"

"لا شكّ أنه أفضل بكثير من سلوك الطريق الرئيسي حيث القيظ والغبار." أجابتها ديانا بأسلوب عملي، وهي تسترق النظر إلى سلّة طعامها التي توجد فيها ثلاث كعكات توت شهيات دسمات، وتُجري في ذهنها عملية حسابية لترى كم عدد القضمات التي يمكن أن تحصل عليها كل بنت، عندما تقسّم تلك الكعكات الثلاث على عشر بنات.

اعتادت بنات مدرسة أفونليا الصغيرات على تشاطر الطعام فيما بينهن. وكان أكل بنت واحدة لثلاث كعكات توت، أو تقاسمها مع أعزّ رفيقة لديها فقط، كفيلاً بوصم تلك البنت إلى أبد الآبدين بعار الشُّح، مع ذلك كان من المؤكد أن تقاسم تلك الكعكات مع عشر بنات لن يتيح للمرء إلاّ لذّة التذوق ثم عذاب الحرمان.

كان الطريق الذي سلكته آن وديانا إلى المدرسة طريقاً لطيفاً. واعتبرت آن هذه المسيرات مع ديانا من وإلى المدرسة مسيرات كاملة الجمال، يعجز حتى الخيال عن إبداع ما هو أفضل منها. وكانت ترى أن تتبُّع الطريق الرئيسي خالٍ من الشاعرية، أمّا سلوك طريق درب العشاق وتخوم الصفصاف ووادي البنفسج وممر البتولا فهذا ما

يسمى شاعرياً إذا كان في هذا العالم أي شئ آخر يمكن أن يوصف بالشاعرية.

كان درب العشاق يشقّ بستان المرتفعات الخضراء، ويتابع امتداده صعوداً خلال الأحراج حتى نهاية مزرعة آل كُتْبيرت، وهو في الأساس الطريق الذي تؤخذ عبره الأبقار إلى المراعي الخلفية وإلى حظائرها الخشبية الشتوية. أطلقت عليه آن اسم درب العشاق، قبل أن يمضي شهر على وجودها في المرتفعات الخضراء.

"ليس ذلك لأن العشاق يسلكون هذا الدرب فعلاً،" فسّرت آن لماريلا، "ولكن أنا وديانا نقرأ كتاباً رائعاً ويَرد فيه ذكر درب للعشاق، ونريد أن يكون لدينا درب مثله. ألا تظننيه اسماً جميلاً جداً؟ إنه مفعم بالشاعرية! ويمكننا كما تعلمين تخيُّل العشاق يسلكونه. أنا أحب ذلك الدرب كثيراً، لأنك تستطيعين التفكير فيه بصوت عالٍ بدون أن يتّهمك الناس بالجنون."

غادرت آن البيت وحدها في الصباح، ثم سلكت درب العشاق نزولاً حتى الجدول حيث قابلتها ديانا، ومن ثم سلكت الصغيرتان الدرب صعوداً، ومرّتا تحت قناطر أغصان شجر القيقب المورقة. "إن أشجار القيقب أشجار اجتماعية،" قالت آن، "فهي تهمهم وتهمس لك باستمرار."

وصلت الصغيرتان بعد ذلك إلى الجسر البدائي، حيث تركتا عنده الدرب وتابعتا طريقهما عبر حقل السيد باري مروراً ببركة الصفصاف التي يوجد خلفها وادي البنفسج، ذلك الفجّ الصغير الواقع بين ظلال حرج السيد آندروز بيل الشاسع. "طبعاً لا يوجد فيه بنفسج الآن،" أخبرت آن ماريلا ذات مرة. "لكن ديانا تقول إن هناك الملايين منه في الربيع. أوه ياماريلا، أتستطيعين تخيُّله؟ إنه مشهد يحبس أنفاسي. لقد أطلقتُ عليه اسم وادي البنفسج. وتقول ديانا إنها لم تر في حياتها من يضاهيني في اختراع الأسماء الخيالية للأماكن. أليس من الجيّد أن أكون حاذقة في أمر ما؟ لكن ديانا هي التي

اخترعت اسم ممر البتولا. كانت راغبة في ذلك، فتركتها تفعل. غير أني واثقة بقدرتي على ابتكار اسم أكثر شاعرية من مجرّد اسم ممر البتولا. أي شخص يستطيع التفكير بمثل هذا الاسم. على كل حال أنا أعتقد أن ممر البتولا هو واحد من أجمل الأماكن في العالم ياماريلا."

كان الناس مثل آن أيضاً يعتقدون ذلك عندما يتخطرون فيه. كان ممر البتولا سبيلاً صغيراً ضيقاً ومتعرّجاً، يلتفّ نزولاً على طول تلة السيد بيل، يغمره النور الذي غربلته ظلال زمردية عديدة يشبه كمالها قلب ماسة. تحفّه أشجار البتولا اليافعة الهفهافة، بجذوعها البيضاء وأغصانها اللدنة. وتمتدّ على طوله شتول السراخس والأزهار النجمية والسوسن البري والعناقيد القرمزية والتوت الأبيض. ويفوح فيه عبير منعش ويؤنسه غناء العصافير ونداء الريح ودمدمتها وضحكها فوق رؤوس الأشجار. وبين حين وآخر يمكنك إذا كنت هادئاً رؤية أرنب يثب قاطعاً السبيل. حادثة جرت ذات مرّة من تلك المرّات النادرة مع آن وديانا. وعندما يبلغ الممر أسفل الوادي يصل إلى الطريق الرئيسي ومنه إلى تلّة الصنوبر التي يقع بعدها مبنى المدرسة.

كان مبنى مدرسة أفونليا ذا طلاء كِلسيّ أبيض، واطئ الأفاريز، عريض النوافذ. أُثّث بمقاعد مريحة قديمة الطراز وضخمة، يمكن فتحها وإغلاقها، وكانت أسطحها الخشبية موسومة بالنقوش الهيروغليفية وأحرف الأسماء الأولى لثلاثة أجيال من تلاميذ المدرسة. كان المبنى نائياً عن الطريق الرئيسي، يحدّه من الخلف دغل تنوبٍ ظليل، وغدير يضع فيه الأطفال قوارير اللبن في الصباح لحفظها باردة وطازجة إلى أن تحين ساعة الغداء.

عندما باشرت آن الذهاب إلى المدرسة في اليوم الأول من شهر أيلول، راقبتها ماريلا وصدرها يعتلج بالوساوس الخفية. كانت آن طفلة غريبة الأطوار، فكيف ستتعايش مع بقية الأطفال؟ وكيف بحقّ السماء ستتدبّر أمر لجم لسانها خلال ساعات الدوام المدرسي؟

مع ذلك، جرت الأمور بأفضل ممّا توقعت ماريلا، وفي أمسية ذلك اليوم الأول عادت آن إلى البيت بمزاج حسن.

"أعتقد أني سأحب المدرسة هنا،" أعلنت. "رغم أني لا أتوقع الكثير من المعلّم. فهو طوال الوقت يفتّل شاربيه ويرنو إلى بريسي آندروز رامقاً إياها بنظرات ذات مغزى. بريسي فتاة يافعة كما تعلمين. هي في السادسة عشرة من العمر، وتعدّ نفسها للسنة القادمة من أجل امتحانات الدخول إلى معهد كوين في مدينة تشارلوت تاون. تزعم تيلي بولتر أن المعلّم متيّم بها. لديها بشرة جميلة وشعر بني أجعد، تصفّفه بأناقة. وهي تجلس في المقعد الطويل عند مؤخرة القاعة، وهو يجلس هناك أيضاً معظم الوقت ليشرح لها دروسها كما يزعم. لكن روبي غيليز تقول إنها رأته يكتب لها شيئاً على لوحها وعندما قرأته بريسي تضرّجت بالحمرة مثل الشمندرة وقهقهت؛ وروبي غيليز تقول إنها لا تعتقد أن ما كتبه المعلّم له أية علاقة بالدرس."

"آن شيرلي، لا تدعيني أسمعك تتحدثين عن أستاذك بهذه الطريقة مرة ثانية،" قالت ماريلا محتدّة. "أنت لا تذهبين إلى المدرسة لتنتقدي المعلّم. أظن أنه يستطيع تعليمك شيئاً، ومهمتك هي التعلّم. وأريدك أن تفهمي منذ الآن أنك لن تعودي إلى البيت لتروي الحكايات عنه. هذا شئ لن أشجعه. وما آمله هو أنك كنت بنتاً مهذبة اليوم."

"كنت كذلك بالفعل،" أجابت آن بأسارير مرتاحة. "ما كان الأمر على تلك الدرجة من الصعوبة التي قد تكوني تصورتها. أنا أجلس بجوار ديانا، ومقعدنا يحاذي النافذة، ويمكننا رؤية بحيرة المياه البراقة منها. يوجد الكثير من البنات اللطيفات في المدرسة، وقد أمضينا معاً وقتاً مسلياً ونحن نلهو أثناء ساعة الغداء. لا شئ أجمل من أن يكون هناك وفرة من البنات لألعب معهن، لكني حتماً أحب ديانا أكثر من أي بنت أخرى وسأظلّ أحبها إلى الأبد، بل إني أعبدها. ما يخجلني كثيراً هو أني متأخرة في المستوى العِلمي عن البقية. فمعظمهم يدرسون كتاب الصفّ الخامس، وأنا ما زلت أدرس

في كتاب الصفّ الرابع. ما يعزّيني هو أن أحداً لا يتمتع بما أتمتع به من خيال. وكان من السهل عليَ اكتشاف هذا. درست اليوم جغرافيا وتاريخ كندا وإملاء. قال السيد فيلبس إن تهجئتي مزرية، وحمل لوحي الذي كان مليئاً بالتصويبات ورفعه عالياً حتى يتمكّن الجميع من رؤيته. شعرت بالخزي ياماريلا؛ ووددت لو أنه كان أكثر تهذيباً مع غريبة مثلي. أعطتني روبي غيليز تفاحة، وأعارتني صوفيا سلون بطاقة وردية جميلة مكتوب فيها: أيمكن أن أراك في البيت؟، وعليَّ أن أعيدها لها غداً. وسمحت لي تيلي بولتر بوضع خاتم الخرز الذي لديها طيلة ما بعد الظهيرة. أيمكنني ياماريلا أن آخذ بعضاً من تلك الخرزات اللؤلؤية من مخدّة الدبابيس القديمة التي في العليّة، لأصنع لنفسي خاتماً؟ و.. أوه ياماريلا، أخبرتني جين آندروز أن ميني ماكفرسون قالت لها أنها سمعت بريسي آندروز تخبر سارة غيليز أن أنفي جميل جداً. هذا هو الإطراء الوحيد ياماريلا الذي يوجّه لي في حياتي، ولا يمكنك تصوّر غرابة الشعور الذي انتابني. ماريلا، أأنفي جميل حقاً؟ أنا واثقة بأنك ستخبرينني الحقيقة."

"لا بأس بأنفك،" قالت ماريلا باقتضاب، والتي رغم اعتقادها أن أنف آن ذو جمال مميّز لم تكن عندها أدنى نيّة في إخبارها بهذه الحقيقة.

جرت هذه الأحداث قبل ثلاثة أسابيع، واستمرّ كل شئ يسير بسلاسة إلى ذلك اليوم النضر من شهر أيلول، الذي تهادت فيه آن وديانا بمرح على طول ممر البتولا.. طفلتان من أسعد البنات في أفونليا.

"أظن أن غيلبرت بلايث سيأتي إلى المدرسة اليوم،" قالت ديانا. "كان يزور أولاد عمومته في بلدة نيوبرنسويك طيلة فصل الصيف ولم يعد إلاّ ليلة السبت. إنه وسيم جداً ياآن. وهو يسبب العذاب الرهيب للبنات، بل إنه يمزّق حياتنا تمزيقاً."

أفصحت لهجة ديانا عن استساغتها لأن تُمزّق حياتها على أن تظلّ غير ممزقة.

"غيلبرت بلايث؟" قالت آن، "أليس هذا هو الاسم المكتوب على جدار رواق المدرسة إلى جانب اسم جوليا بيل مع عبارة: خذوا علماً، فوقهما؟

"بلى،" أجابت ديانا وهي تهزّ رأسها. "لكني واثقة أنه لا يستلطف جوليا بيل كثيراً. سمعته يقول مرّة أنه حفظ جدول الضرب بوساطة نمش وجهها."

"أوه، لا تحدّثيني عن النمش،" توسّلت آن. "ليس هذا بالشئ اللائق عندما أكون أنا أيضاً منمشة. أمّا بالنسبة إلى عبارة: خذوا علماً التي تُكتب على جدار الرواق بخصوص الصبيان والبنات، فأنا أراها من أكثر الأمور سخفاً. وإني لأتحدّى أي شخص يجرؤ على كتابة اسمي هناك إلى جانب اسم صبي،" ثم أردفت بسرعة: "طبعاً لا أعني أن أحداً سيفعل هذا."

سكتت آن وتنهّدت. هي بالطبع لم تكن ترغب في رؤية اسمها مكتوباً، لكن تأكدها بأن لا خطر عليها من حدوث هذا، كان مُذلاً قليلاً.

"كلام فارغ،" قالت ديانا، التي كثيراً ما حطمت عيناها السوداوان وضفائرها اللامعة قلوب صبية مدرسة أفونليا، والتي كُتب اسمها على جدار الرواق مع نصف دزينة من عبارة: خذوا علماً. "لا يُقصد من هذه الكتابة إلاّ الدُعابة. ولا تكوني بالغة الثقة بأن اسمك لن يُكتب هناك أبداً، فالصبي تشارلي سلون متيّم بك، ولقد أخبر أمه.. انتبهي إلى كلمة أمه.. أنك أذكى بنت في المدرسة، وهذا أفضل من الملاحة."

"لا، ليس أفضل،" قالت آن، بلهجة أنثوية خالصة. "أفضّل أن أكون جميلة على أن أكون ذكية. وأنا أكره تشارلي سلون، ولا يمكنني احتمال صبيّ جاحظ العينين. وإذا كُتب اسمي مع اسمه لن أستطيع تجاوز هذه الحادثة أبداً ياديانا باري. لكن من الجيّد أن تكوني الأولى على صفّك."

"اعلمي إذن أن غيلبرت بلايث سيكون في نفس صفّك منذ الآن،" قالت ديانا، "وهو دائماً الأول على صفّه. ورغم أنه يكاد يبلغ الرابعة عشرة من العمر إلاّ أنه ما يزال في الصفّ الرابع، لأن والده عانى من مرض شديد قبل أربع سنوات، وكان عليه الذهاب إلى مقاطعة ألبرتا للاستشفاء، فرافقه غيلبرت. بقيا هناك ثلاث سنوات، لم يُحصّل فيها غيلبرت شيئاً يُذكر من العلم إلى أن عادا. ومنذ الآن ياآن لن يكون من السهل عليك البقاء الأولى على صفّك."

"يسرّني هذا،" قالت آن بسرعة. "ما كنت أشعر بالفخر حقاً وأنا لا أحرز التفوق إلاّ على مجموعة من الصبية والبنات لا يتجاوزون التاسعة أو العاشرة من العمر. أمس عندما قمت لأهجئ كلمة: غليان، رأيت جوزي باي، انتبهي جوزي باي التي كانت الأولى على الصفّ، وهي تسترق النظر إلى كتابها. لم يرها السيد فيلبس، لكن أنا رأيتها، وشزرتها بنظرة ازدراء حتى غدت حمراء كالشمندرة، وفي النهاية لم تحسن تهجئة الكلمة."

"بنات عائلة باي غشاشات في كل شئ،" قالت ديانا بغضب، بينما تسلقتا السياج المؤدي إلى الطريق الرئيسي. "تصوّري أن جيرتي باي وضعت أمس قارورة لبنها مكان قارورتي في الغدير. أيمكنك تصديق هذا؟ والآن، أنا لا أتكلم معها."

كان السيد فيلبس في مؤخرة قاعة الصفّ، يستمع إلى محفوظات بريسي آندروز من اللاتينية، عندما اغتنمت ديانا الفرصة وهمست لآن:

"ذاك هو غيلبرت بلايث يجلس تماماً على طرفك الثاني في المقعد الموازي ياآن. انظري إليه وأخبريني إذا لم يكن وسيماً حقاً."

التفتت آن بناءاً على رغبة ديانا. واستطاعت التطلع مليّاً إلى غيلبرت لأنه كان منهمكاً في تثبيت ضفيرة روبي غيليز الذهبية الطويلة بظهر مقعدها الواقع أمام مقعده بوساطة دبّوس. كان صبيا طويلاً،

ذا شعر بني أجعد، وعينين عسليتين لعوبتين، وفم يفصح عن ابتسامة ماكرة. في تلك اللحظة نهضت روبي غيليز، لتعرض على المعلّم مسألتها الحسابية، لكنها تهاوت في مقعدها وهي تطلق زعقة مكبوتة، معتقدة أن شعرها قد اقتُلع من جذوره. نظر إليها جميع التلاميذ، واجتلاها السيد فيلبس ممتعضاً، فشرعت بالبكاء. أمّا غيلبرت فكان في تلك الأثناء قد انتزع الدبوس وأخفاه، وانكبّ يطالع في كتاب التاريخ، بوجه بدا من أكثر الوجوه وداعة في العالم. لكنه عندما خمدت الفوضى، رمق آن وغمزها بطريقة هزلية تفوق الوصف.

"أرى أن هذا الغيلبرت بلايث وسيم،" أقرّت آن لديانا، "لكني أظنه وقحاً جداً، فليس من حسن الخلق غمز فتاة غريبة."

غير أن الأمور لم تبدأ بالتأزّم فعلاً إلاّ بعد ظهر ذلك اليوم.

كان السيد فيلبس في مؤخرة القاعة يشرح مسألة جبرية لبريسي آندروز، فاغتنم التلاميذ الفرصة وانغمسوا في الكثير من الأفعال التي تروقهم. أكلوا التفاح الأخضر، تهامسوا، رسموا رسوماً على ألواحهم، وأرجحوا الكرات الموصولة بالخيطان صعوداً وهبوطاً فوق أسطح مقاعدهم. في تلك الأثناء، حاول غيلبرت بلايث جذب انتباه آن إليه، لكنه فشل فشلاً ذريعاً. كانت آن غافلة ليس فقط عن وجود غيلبرت بلايث، بل عن وجود أي تلميذ آخر في أفونليا، بل عن مدرسة أفونليا نفسها. كانت غائبة عمّا حولها تجول أرض الأحلام الخلابة، لا تسمع ولا ترى شيئاً إلاّ رؤاها العجيبة، وقد ارتكزت ذقنها على يديها، وحطّت عيناها على وميض بحيرة المياه البراقة الأزرق، التي أطلّت عليها النافذة الغربية.

لم يكن غيلبرت بلايث معتاداً على مواجهة الصدود من فتاة يحاول استعراض نفسه أمامها ليجذب اهتمامها. وتلك الفتاة يجب أن ترنو إليه. تلك المدعوة شيرلي، البنت ذات الشعر الأحمر والذقن الدقيقة والعينين النجلاوين اللتين لا تشبهان عينيّ أية فتاة أخرى في مدرسة أفونليا.

تمطّى غيلبرت من مقعده بحيث استطاع تجاوز المسافة التي بين مقعده ومقعد آن، والتقط طرف جديلتها الطويلة الحمراء وحملها على طول ذراعه، وقال بصوت خفيض حادّ:

"جزر! جزر!"

عندها شزرته آن بنظرة حاقدة!

بل قامت بما هو أكثر من النظر. هبّت على قدميها، وقد انهارت أحلامها الوضاءة انهياراً غير قابل للترميم، حدجت غيلبرت بسُخط من عينين سرعان ما تحول الغضب المتأجج فيهما إلى دموع يماثل سُخطها سُخط العينين.

"أيها الصبي اللئيم الكريه!" صاحت بانفعال. "كيف تجرؤ!"

ثم.. طاخ!

رفعت آن لوحها وهوت به على رأس غيلبرت وصدعته، صدعت اللوح وليس الرأس، من منتصفه.

كانت مدرسة أفونليا تستمتع دائماً بالمشاهد الانفعالية. وكان لهذا المشهد نكهة خاصة. هتف الجميع "أوه،" بابتهاج لا يعدله ابتهاج، وشهقت ديانا، بينما انفجرت روبي غيليز المشهورة بنوباتها العصبية بالبكاء. أمّا تومي سلون فقد أفلت كراته كلها وحدّق فاغر الفم بالمشهد الحيّ.

سار السيد فيلبس قُدماً، وتوجّه نحو آن ثم حطّ يداً ثقيلة على كتفها.

"آن شيرلي، ما معنى هذا؟" قال بصوت ممتعض.

لم تردّ آن بأي جواب. فقد كان أمراً يفوق احتمال طاقتها البشرية أن تُرغم على البوح أمام جميع تلاميذ المدرسة بأنها دُعيت جزراً. وكان غيلبرت هو من ردّ بجرأة.

"الخطأ خطأي، ياسيد فيلبس. لقد ضايقتها."

لم يُعر السيد فيلبس أي انتباه لغيلبرت.

"يؤسفني أن أرى تلميذاً من تلاميذي بمثل هذا الطبع وبمثل هذه الروح الحقودة،" قال بنبرة خطابية، وكأن مجرد كَون المرء تلميذاً من تلاميذه، يحتّم عليه اجتزاز جميع النزعات الشريرة من نفسه، تلك النزعات التي تعتمل في قلوب البشر الصغار غير الكاملين والمعرّضين للفناء. "آن، اذهبي وقفي عند المنصّة أمام السبورة لبقية اليوم."

كانت آن تفضّل حتماً الجلد بالسوط على هذا العقاب، الذي ارتعدت منه فرائصها كما لو أنها كانت فعلاً تحت تأثير الجلد بالسياط. غير أنها أطاعت الأمر بوجه ممتقع متشنّج، بينما تناول السيد فيلبس طبشورة وكتب على السبورة فوق رأسها:

"آن شيرلي بنت سيئة الطباع جداً. يجب أن تتعلم آن شيرلي كيف تضبط نفسها،" ثم قرأ ما كتبه بصوت عالٍ، حتى يتمكّن تلاميذ الصفّ الأول الذين لا يستطيعون القراءة من فهم ما كُتب.

بقيت آن واقفة في مكانها بقية اليوم، وقد انتصبت فوق رأسها تلك الحكمة المكتوبة. لم تبكِ ولم تحنِ رأسها. كان الغضب الذي ما يزال جياشاً في قلبها، يساعدها على الصمود وسط كل عذابات إحساسها بالمهانة. وواجهت بعينين ممتعضتين ووجنة ورّدها الانفعال نظرات ديانا المواسية، وإيماءات تشارلي سلون المعبّرة عن سخطه، وابتسامات جوزي باي الكيدية. أمّا غيلبرت بلايث فلم تنظر إليه أبداً، ولن تنظر إليه بعد اليوم أبداً، ولن تتكلم معه بعد اليوم أبداً!!

عندما انتهت المدرسة غادرتها آن شامخة برأسها الأحمر. وحاول غيلبرت بلايث أن يعترضها عند باب الرواق.

"أنا متأسف جداً لأني سخرت من شعرك ياآن،" همس مُعرباً عن ندمه. "صدِقاً، أنا آسف. فلا تظلّي غاضبة إلى الأبد الآن."

تجاوزته آن بازدراء، بدون نظرة أو دليل على سماعها له.

"أوه كيف يمكنك فعل هذا ياآن؟" قالت ديانا لاهثة عندما وصلتا

إلى الطريق، نصف لائمة ونصف معجبة، إذ شعرت أنها لا تملك القدرة أبداً على مقاومة استعطاف غيلبرت.

"لن أسامح غيلبرت بلايث ماحييت،" قالت آن بحزم. "كما أن السيد فيلبس كتب اسمي على السبورة بدون مدّة على الألف. لقد أصبح قلبي صلداً كالحديد يادايانا."

لم يكن لدى ديانا أدنى فكرة عمّا قصدته آن، لكنها فهمت أنه كان شيئاً رهيباً.

"لا ينبغي لك أن تنزعجي من سخرية غيلبرت من شعرك،" قالت ديانا محاولة تطرية الأجواء. "لأنه بكل بساطة يسخر من جميع البنات. بل ويسخر من شعري لأنه فاحم السواد. دعاني غراباً عدّة مرات، ولم أسمعه مطلقاً وهو يعتذر عن أي شئ قبل اليوم."

"هناك فرق شاسع بين أن تُنعتي بالغراب وبين أن تُنعتي بالجزر." قالت آن بكبرياء. "غيلبرت بلايث آلم مشاعري ألماً مبرّحاً يادايانا."

كان من الممكن أن تخمد القضية بدون مزيد من الآلام المبرّحة، لو لم يحدث شئ آخر. لكن الأحداث ما إن تبدأ بالحصول حتى تتابع جراراً.

كان تلاميذ أفونليا غالباً ما يقضون ساعة فرصة الغداء وهم يلتقطون الصمغ من بستان صنوبر السيد بيل الكائن على التلة بعد المرج الشاسع. ومن هناك كانوا يستطيعون مراقبة منزل إبين رايت، حيث يقيم السيد فيلبس. وما إن يروه خارجاً من المنزل حتى يباشروا العدو باتجاه مبنى المدرسة. ونظراً لأن المسافة بينهم وبين المدرسة كانت تزيد ثلاثة أضعاف عن المسافة التي بين منزل السيد رايت وبين المدرسة، كانوا يبذلون جهوداً خارقة للوصول بسرعة. وكانوا في العادة يصلون بعد وصول السيد فيلبس بثلاث دقائق لاهثين متسارعي الأنفاس.

كان السيد فيلبس في اليوم التالي يعيش حالة من حالات نوباته

الإصلاحية، ولذلك أعلن قبل الذهاب إلى الغداء، أنه يتوقّع عند عودته رؤية جميع التلاميذ في أماكنهم، ومن يتأخر منهم سيكون عُرضة للعقاب.

مع ذلك قصد جميع الصبية وبعض البنات بستان الصنوبر كالعادة، وفي نيّتهم ألاّ يتجاوز بقاؤهم هناك مدة قصيرة تكفل لهم الحصول على مضغة من الصمغ. لكن بستان الصنوبر كان مغرياً، وكان الجوز الأصفر الصمغي مضللاً. فالتقط الأطفال ما التقطوه وتسكّعوا في المكان وشردوا. وكالعادة لم يُعِدهم إلى عالم الواقع إلاّ صوت جيمي غلوفر الذي كان قابعاً عند قمة شجرة صنوبر قديمة ومهيبة، وهو يصيح: "المعلّم قادم."

لم تكن الفتيات فوق الأشجار، وهذا ما أتاح لهن مباشرة العدو، بدون هدر لحظة واحدة، فبلغن المدرسة في الوقت المناسب تماماً. بينما أبطأ عنهن الصبية الذين كان عليهم النزول من على الأشجار أولاً. أمّا آن فقد كانت آخر من باشر العدو رغم أنها لم تكن تلتقط الصمغ، بل كانت تتجول بسعادة عند نهاية حدود البستان، غارقة إلى وسطها بين شتول السراخس، تغني لنفسها بعذوبة، وقد توّجت شعرها بإكليل من أزهار الأرز، فبدت وكأنها إلهة برية من إلهات العوالم الخفية. رغم ذلك، كان بإمكان آن أن تعدو كالغزال، وهكذا جرت وكأن عفريتا يستحثّها حتى تمكّنت من اللحاق بالصبية عند الباب ودخلت المدرسة معهم، تماماً عندما كان السيد فيلبس يعلّق قبعته.

كان نوبة السيد فيلبس الإصلاحية الموجزة قد همدت. ولم يكن يريد إزعاج نفسه بمعاقبة دزينات من التلاميذ، لكنه أحس بضرورة القيام بعمل ما، لتنفيذ كلمته. فنظر حوله باحثاً عن كبش فداء، ووجده في شخص آن التي تهالكت على مقعدها لاهثة، بينما انحرف إكليل الأزهار الذي نسيت أمره، وعلق على إحدى أذنيها، مضفياً عليها مظهراً أشعثاً لامبالياً.

"آن شيرلي، بما أنك مولعة برفقة الصبيان سوف نشبع لك هذه الرغبة اليوم،" قال متهكّماً. "انزعي هذه الأزهار من على شعرك، واجلسي إلى جانب غيلبرت بلايث."

ضحك بقية الصبية ضحكات مكبوتة، بينما شحب وجه ديانا شفقة على رفيقتها، فأسرعت ونزعت ذلك الأكليل من على شعر آن، وضغطت على يدها مواسية. أمّا آن فبقيت جامدة تحملق بالمعلّم وكأنها تحولت إلى حجر.

"أسمعتِ ما قلته ياآن؟" سألها السيد فيلبس بحدّة.

"نعم ياأستاذ،" أجابت آن ببطء، "لكني لم أفترض أنك تقصد ما قلته حقاً."

"أؤكد لك أني أقصد ما قلته" أجابها بلهجة ساخرة، استفزت لدى الأطفال موضعاً حساساً في نفوسهم، فكرهوها جميعهم خصوصاً آن.

"نفّذي ما أمرتك به حالاً."

بدت آن للحظة وكأنها تنوي العصيان، لكنها شعرت أن لا فائدة من ذلك. فنهضت بغطرسة، وخطت من مقعدها إلى مقعد غيلبرت بلايث، وجلست إلى جانبه، ودفنت وجهها بين ذراعيها فوق سطح المقعد. روبي غيليز؛ التي استطاعت لمح ذلك الوجه بينما كان ينحني، أخبرت الآخرين أثناء طريق العودة من المدرسة إلى البيت أنها:

"لم يسبق لي في حياتي أن رأيت شيئاً مشابهاً له، كان ممتقع اللون وملطّخاً ببقع حمراء صغيرة ومخيفة."

كانت هذه هي نهاية كل شئ بالنسبة إلى آن.

كان مؤلماً أن تُستثنى وحدها بالعقاب من بين دزينات من التلاميذ يماثل ذنبهم ذنبها. وكان إرغامها على الجلوس إلى جانب صبيٍ أكثر إيلاماً؛ لكن أن يكون ذلك الصبي غيلبرت بلايث، فهذه إهانة لا تُغتفر،

وأذى لا يمكن احتماله على الإطلاق. كان كيان وجودها كله يستعر بمشاعر العار والغضب والمهانة، وشعرت أنها لا تستطيع تقبُّل ما حدث وأن لا جدوى من محاولة النسيان.

في البداية نظر التلاميذ صوبها وتهامسوا وقهقهوا وتواكزوا. لكن آن لم ترفع رأسها أبداً. وعندما انكبّ غيلبرت على حلّ كسوره الحسابية، وكأن روحه كلها منهمكة بالكسور والكسور وحدها، التفت التلاميذ إلى واجباتهم ونسوا أمر آن. وعندما نادى السيد فيلبيس على صفّ التاريخ، كان يجب أن تنهض آن، لكنها لم تتحرك. ولم يفتقدها السيد فيلبس الذي كان قبل مناداته على صفّ التاريخ يكتب بعض الأبيات الشعرية إلى بريسيلا، ثم استمرّ بعد ذلك يفكّر بقافية استعصت عليه. في وقت من الأوقات، وعندما لم يكن هناك من ينظر، أخرج غيلبرت من درج مقعده حبّة حلوى صغيرة، وردية اللون، قلبية الشكل، مكتوب عليها: أنت لطيفة، وأسقطها تحت ذراع آن الملتفّة حول رأسها. عندها، رفعت آن رأسها، التقطت القلب الوردي بحذر بين رؤوس أصابعها، ورمته أرضاً، ثم سحقته سحقاً تحت كعبها، وعادت لتستأنف وضعيتها السابقة بدون أن تتلطف على غيلبرت بنظرة واحدة.

اتجهت آن بكبرياء نحو مقعدها بعد انتهاء دوام المدرسة، وأفرغته ممّا كان فيه؛ الكتب ولوح الكتابة، القلم والحبر والحاسبة والإنجيل، وحزمت كل شئ بترتيب فوق لوحها المصدوع.

"لماذا تأخذين هذه الأغراض إلى البيت ياآن؟" أرادت ديانا أن تعرف، حالما وصلتا إلى الطريق، إذ لم تجرؤ على طرح هذا السؤال قبل ذلك.

"لن أعود إلى المدرسة بعد اليوم،" قالت آن.

شهقت ديانا وحدّقت بآن لترى إذا كانت تعني ما تقوله.

"هل ستدعك ماريلا تبقين في البيت؟" سألتها.

"ستفعل هذا،" أجابت آن. "لن أعود إلى المدرسة بعد اليوم لأواجه ذلك الرجل من جديد."

"أوه ياآن!" بدت ديانا وكأنها على وشك البكاء. "أعتقد أنك لئيمة. ماذا سأفعل بدونك؟ سيجعلني السيد فيلبس أجلس مع تلك البنت الرهيبة جيرتي باي، أعلم أنه سيفعل، لأنها تجلس وحدها. أرجوك غيّري رأيك ياآن."

"أنا على استعداد للقيام بأي شئ في هذا العالم من أجلك ياديانا،" قالت آن بحزن. "سأقبل أن تُمزّق أوصالي عضواً عضواً إذا كان ذلك يسعدك، لكني لا أستطيع تلبية ما تطلبينه مني الآن، لذلك أرجوك لا تفعلي. إنك تخنقين روحي."

"فكّري فقط باللهو الذي ستفوتينه عليك،" قالت ديانا منتحبة. "سنبني أجمل بيت رأته العين عند الغدير، وسنلعب الكرة في الأسبوع القادم وأنت لم تلعبي الكرة من قبل، صدّقيني هي لعبة مثيرة جداً. وسوف نتعلّم أغنية جديدة تتدرب عليها جين آندروز الآن. وأليس آندروز ستُحضِر في الأسبوع القادم كتاباً جديداً، وسنقرأه بصوت عالٍ، سنقرأ ما يقارب الفصل هناك عند الجدول. وأنت تعرفين مدى ولعك بالقراءة بصوت عالٍ ياآن."

ما كان يمكن أن يؤثر أي شئ بآن. كانت قد وطدت عزمها. لن تعود إلى المدرسة لتواجه السيد فيلبس مرّة ثانية. وهذا ما قالته لماريلا عندما عادت إلى البيت.

"كلام فارغ،" قالت ماريلا.

"ليس كلاماً فارغاً على الإطلاق،" قالت آن وهي تطالع ماريلا بعينين عاتبتين لكن ثابتتين. "ألا تفهمين ما حدث ياماريلا؟ لقد تعرّضت للإهانة."

"إهانة.. هراء! ستذهبين إلى المدرسة غداً كالعادة."

"لا، لن أفعل." هزّت آن رأسها بهدوء. "لن أعود إلى المدرسة

ياماريلا. سأدرس دروسي في البيت وسأكون خلوقة وسأمسك لساني قدر استطاعتي، إذا كان هذا ممكناً. لكني لن أعود إلى المدرسة. تأكّدي من هذا ياماريلا."

لاحظت ماريلا ذلك الجموح العنيد وهو يطلّ عليها من وجه آن الصغير. وعرفت أنها ستعاني من الصعوبات قبل أن تسيطر على الوضع، لكنها قرّرت التزام الصمت في ذلك الوقت.

"سأذهب لأرى ريتشيل بشأن هذا الموضوع بعد الظهر،" فكّرت. "لا فائدة من التجادل مع آن الآن، فهي هائجة جداً، ويتملكني الشعور أنها إذا صمّمت على رأيها فبإمكانها أن تكون عنيدة إلى أبعد حدود العناد. وممّا استطعت استنباطه من روايتها أعتقد أن السيد فيلبس كان مستبدّاً في طريقة معالجته للأمور، لكن إخبارها بهذا لن يساعد على حلّ الأزمة. سأناقش الأمر مع ريتشيل التي لا بدّ وأن تكون الآن قد سمعت بما حدث."

وجدت ماريلا السيدة ليند تحيك اللحف بإقبال وحبور كالعادة.

"لعلك تعرفين سبب قدومي إليك،" قالت بوجه عراه شئ من الخجل.

أومأت السيدة ريتشيل.

"بشأن الجلبة التي أحدثتها آن في المدرسة، على ما أظن،" أجابت. "مرّت تيلي بولتر من هنا أثناء عودتها إلى البيت من المدرسة، وروت لي الحكاية كلها."

"لا أدري كيف ينبغي لي التصرّف معها،" قالت ماريلا. "فهي تصرّح بأنها لن تعود إلى المدرسة. لم أر في حياتي طفلة بلغ بها الانفعال هذا المبلغ. لقد كنت أتوقّع حدوث المشاكل منذ أن بدأت بالذهاب إلى المدرسة، وشعرت أن الأمور تجري بسلاسة أفضل من أن تدوم. وهي الآن ثائرة جداً، فبِمَ تنصحيني ياريتشيل؟"

"حسناً ياماريلا، ما دمت تسألِيني النصيحة،" قالت السيدة ليند

بلطافة لأن شيئاً ما كان يروقها بقدر ما يروقها طلب النصيحة منها. "سأتراخى معها في البداية لو كنت مكانك. أنا على يقين من أن السيد فيلبس مخطئ، لكن، وكما تعلمين طبعاً، لا نفع من اعترافنا للأطفال بهذه الحقيقة. كما أنه كان أمس مُحقّاً في معاقبتها لأنها لم تستطع ضبط أعصابها، أمّا اليوم فالوضع مختلف تماماً. إذ كان يجب أن يُعاقَب جميع التلاميذ الذين تأخروا كما عوقبت آن. هذا ما كان يجب أن يحدث. ولست أحبّذ العقاب الذي يتضمن جلوس البنات إلى جانب الصبيان، فهذا ليس محتشماً. كانت تيلي بولتر ساخطة جداً، وهي تناصر آن وتقول إن جميع التلاميذ يناصرون آن أيضاً. يبدو أنها استطاعت أن تكون ذات شعبية بينهم، بينما كنت أظن أنها لن تتأقلم معهم كثيراً."

"إذن فأنت ترين أنه من المستحسن الآن السماح لها بالبقاء في البيت،" قالت ماريلا بذهول.

"نعم هذا ما ينبغي عمله الآن. ولن أقول أمامها كلمة مدرسة مرّة ثانية إلى أن تقولها هي بنفسها. اعتمدي على هذا ياماريلا. ستهدأ خلال أسبوع أو ما يقارب وستكون مستعدّة للعودة بناءً على رغبتها هي، ثقي بما أقوله لك. أمّا إذا أرغمتها الآن على الذهاب، فالله وحده يعلم أية بليّة أو مصيبة ستختلق فيما بعد مسبّبة مشكلة لم يسبق لها مثيل. كلّما قلّتْ الجلبة المُثارة حول هذه القضية، كلّما كانت النتائج أفضل. وصدّقيني هي لن تفوّت على نفسها الكثير بعدم ذهابها إلى المدرسة، إذا كان هذا ما تخشينه. فالسيد فيلبس ليس بذاك المعلّم الجيد، وسيرته طافحة بالفضائح المخزية، هذه هي الحقيقة ياماريلا. وهو يهمل هؤلاء الفروخ الصغار ويكرّس كل وقته لأولئك البالغين الذين يستعدّون لدخول معهد كوين. وبصراحة ما كان ليحصل على المدرسة لسنة جديدة لو لم يكن عمّه وصياً، أو بالأحرى الوصي، لأنه يسيطر على الوصيين الآخريْن الموجوديْن في المنطقة سيطرة تامة. ولا أخفيك سراً إذا قلت إني لا أعرف إلى أي مآل سيؤول إليه التعليم في هذه الجزيرة."

هزت السيدة ريتشيل رأسها عدة مرات، وكأنها تقول أنها لو كانت على رأس النظام التعليمي في المقاطعة فإن طريقة تدبّرها للأمور ستكون أفضل بكثير.

عملت ماريلا بنصيحة السيدة ريتشيل ولم تقل كلمة واحدة لآن بخصوص العودة إلى المدرسة. تعلّمت آن دروسها في البيت، وأدّت مهماتها الروتينية، ولعبت مع ديانا في شفق الخريف الأرجواني البارد، ولكنها عندما كانت تلتقي غيلبرت بلايث في الطريق أو تصادفه في مدرسة الأحد كانت تتجاوزه بازدراء صقيعيّ، لم يستطع رجاؤه الحارّ بمصالحتها أن يصهر منه ذرّة واحدة. حتى جهود ديانا كرسول سلام لم تكن بذات نفع. لقد حسمت آن رأيها وعزمت على المضيّ في كراهية غيلبرت بلايث إلى نهاية الحياة.

وبقدر ما كرهت غيلبرت، تولّعت بديانا، وأحبتها من صميم قلبها الشغوف الصغير، المبالِغ في محبته وكراهيته على حدّ سواء. وذات مساء، بينما كانت ماريلا عائدة من البستان وهي تحمل سلة من التفاح، وجدت آن جالسة وحدها في ظل الشفق عند النافذة الغربية وهي تبكي بحرقة.

"ما الحكاية الآن بحق السماء ياآن؟" سألتها.

"يتعلق الأمر بديانا،" أجابت آن وهي تنشج بسخاء. "أنا أحب ديانا كثيراً ياماريلا. ولا أستطيع العيش بدونها. ولكني أعلم تمام العلم أننا عندما ننضج، ستتزوج ديانا وسترحل وستتركني وحيدة. و.. أوه ياماريلا، ماذا سأفعل حينها؟ أكره زوجها، أكرهه كرهاً جمّاً. كنت أتخيل كل شئ الآن، العرس وكل شئ. ديانا ترتدي ثوباً ناصع البياض وتضع وشاحاً، وتشعّ جمالاً وفخامة كملكة. وأنا أشبينة العروس أرتدي ثوباً جميلاً أيضاً، منفوخ الأكمام، وأخفي تحت وجهي المبتسم قلبي المكسور. ثم أقول لديانا إلى اللقـــ..........اء.."

هنا انهارت آن كلية وبكت بحرقة لامتناهية.

استدارت ماريلا حالاً لتخفي وجهها المتقلّص الذي كان يحاول مقاومة رغبتها بالضحك، ولكن محاولتها لم تنفع. فانهارت على أقرب كرسي وانفجرت في نوبة من الضحك المجلجل المنبعث من صميم قلبها، بحيث أن ماثيو الذي كان يتجاوز الفناء في تلك اللحظة وقف متعجباً.

متى سمع ماريلا تضحك بهذه الطريقة من قبل؟

"حسناً ياآن شيرلي،" قالت ماريلا حالما استطاعت التفوّه بكلمة. " إذا كان لا بدّ لك أن تختلقي المصائب لتبكي عليها، بحقّ السماء اختلقي مصيبة يمكن أن نعالجها في البيت. أنا أقرّ أنك صاحبة خيال خصب لا مثيل له."

١٦
دعوة ديانا إلى الشاي، ونتائج تراجيدية

كان شهر تشرين الأول شهراً لطيفاً في المرتفعات الخضراء، حيث غدت فيه أشجار البتولا عند الغَور ذهبية كأشعة الشمس، واكتست أشجار القيقب وراء البستان بلون قرمزيّ ملكيّ، واصطبغت أشجار الكرز البري المنتصبة على طول الدرب بألوان رائعة من الحمرة الداكنة والخضرة البرونزية، بينما استرخت الحقول تشمّس نفسها بعد الجزّة الثانية.

وهكذا، مرحت آن وسط عالم الألوان الذي يحيط بها.

"أوه ياماريلا،" هتفت في صباح يوم سبت. وهي تدخل البيت راقصة وذراعاها تضمّان حزمة من الأغصان، "يسرّني أني أعيش في عالم يوجد فيه شهور مثل شهر تشرين الأول. ألا توافقيني الرأي أن الأمر سيكون رهيباً حقاً لو أننا أغفلنا شهر تشرين الأول وقفزنا من شهر أيلول إلى شهر تشرين الثاني مباشرة. انظري إلى أغصان شجر القيقب هذه، ألا تجعلك تشعرين بنشوة السعادة، بل بالعديد من نشوات السعادة؟ سأقوم بتزيين غرفتي بها."

"قاذورات،" قالت ماريلا التي لم يكن حسّها الجمالي قد تطوّر أي تطوّر ملحوظ. "إنك تجعلين الفوضى تعمّ غرفتك بجلبك لهذه الأشياء ياآن. غرف النوم مخصصة لينام فيها المرء."

"أوه، وهي أيضاً ليحلم فيها المرء ياماريلا. والأحلام تغدو عادة أكثر روعة عندما يكون المرء مُحاطاً بالأشياء الجميلة. سأضع هذه الأغصان في الدورق الأزرق وسأزيّن بها طاولتي."

"انتبهي حتى لا تسقطي أوراق الشجر على طول السلالم إذن. وبما أني سأذهب بعد الظهر إلى اجتماع جمعية معونة الكنيسة في بلدة كارمودي، ولا أتوقّع العودة إلى البيت قبل حلول الظلام، سيكون عليك الاضطلاع بمهمة إعداد العشاء لماثيو وجيري، لذلك انتبهي حتى لا تنسي إعداد الشاي قبل أن تجلسي إلى الطاولة، كما فعلت في مرة سابقة."

"كان فظيعاً مني أن أنسى،" قالت آن معتذرة، "ولكن هذا حدث مساء اليوم الذي كنت أحاول فيه ابتكار اسم لوادي البنفسج، وطغت هذه الفكرة على كل شئ سواها. لكن ماثيو كان طيباً معي. ولم يوبّخني أبداً. وقام بإعداد الشاي بنفسه، وقال إنه لا بأس علينا من الانتظار قليلاً، كأن شيئاً لم يكن. ورويت له أثناء انتظارنا حكاية خرافية جميلة. ولذلك لم يشعر بثقل الوقت مطلقاً. كانت تلك الحكاية حكاية جميلة بالفعل ياماريلا. وكنت قد نسيت نهايتها، فاخترعت لها نهاية من بنات أفكاري، وقال ماثيو إنه لم يستطع اكتشاف المقطع الذي بدأت عنده الوصلة."

"إن ماثيو سيرى الأمر طبيعياً حتى إذا عرف أنك عزمت على النهوض في منتصف الليل لتأكلي ياآن. افتحي عينيك جيداً هذه المرة و.. لا أدري إذا كان ما أنوي قوله الآن هو شئ صائب.. وإني لأخشى أن يزيد تشويش فكرك.. ولكني سأجازف وأسمح لك بدعوة ديانا لتمضي الأمسية معك ولتتناول الشاي هنا."

"أوه ياماريلا،" شابكت آن يديها. "ياللروعة! إنك قادرة على التَخَيُّل رغم كل شئ، وإلا لما استطعت معرفة مدى تلهّفي على حدوث هذا الأمر بالذات. سيكون حدثاً رائعاً يماثل ما يفعله الراشدون. ولا خوف الآن من نسياني إعداد الشاي ما دمت أنعم بوجود رِفقة معي. أوه ياماريلا، أيمكنني استعمال طقم الشاي المزخرف برسوم براعم الورد؟"

"طبعاً لا! طقم شاي براعم الورد!! ما الذي ينتظرني بعد؟ أنت تعرفين أني لا أستعمله إلاّ من أجل القسّ أو جمعية المعونة.

ستستعملين طقم الشاي القديم البُنيّ، لكن يمكنك فتح الجرّة الصغيرة الصفراء التي تحتوي على مربّى الكرز، فقد حان الوقت لاستهلاكه. وإني لأظنه على وشك الفساد. ويمكنك قطع بعض كعك الفاكهة وتناول البسكويت والرقائق."

"أستطيع بكل وضوح تصوّر نفسي جالسة على رأس الطاولة وأنا أصبّ الشاي،" قالت آن، مغمضة عينيها بوَجْد. "ثم أسأل ديانا إذا كانت تريد سُكّراً مع الشاي! أعرف أنها لا تفعل، ولكني سأسألها وكأني لا أعرف. ثم ألحّ عليها لتأخذ قطعة أخرى من كعك الفاكهة ومزيداً من المربّى. أوه ياماريلا، إن مجرّد التفكير بالأمر يشيع في نفسي إحساساً مدهشاً. أيمكنني اصطحابها إلى غرفة الضيوف الاحتياطية لتضع قبعتها عندما تأتي؟ ثم إلى الصالة لتجلس فيها؟"

"لا، تكفيك أنت وضيفتك غرفة الجلوس. ولكن هناك قنينة نصف ملآنة من شراب التوت، بقيت من اجتماع الكنيسة في ليلة سابقة، وهي على الرّف الثاني في خزانة غرفة الجلوس. تستطيعان أنت وديانا الحصول عليها إذا شئت. ويمكنكما أكل بعض البسكويت مع الشراب خلال الأمسية، فقد يتأخر ماثيو عن موعد العشاء لأنه ينوي نقل البطاطا إلى الأوعية."

هرولت آن نحو الغَور، تجاوزت نبع خرير الحورية وعبرت بستان الراتينج باتّجاه دارة منحدر البستان، لتدعو ديانا إلى تناول الشاي. وهكذا، وبعد مغادرة ماريلا إلى كارمودي جاءت ديانا وهي ترتدي ثاني أفضل فستان لديها، وتبدو كما يجدر بها أن تبدو عندما تُدعى إلى تناول الشاي. كانت معتادة في الحالات الطبيعية على دخول البيت من باب المطبخ بدون أن تقرع الباب، ولكنها في ذلك اليوم قرعت الباب الرئيسي باحتشام. وعندما فتحت لها آن الباب باحتشام مماثل، كانت هي أيضاً تلبس ثاني أفضل فستان لديها. تصافحت الصغيرتان بوقار وكأنهما لم يسبق لهما الالتقاء من قبل. ودامت هذه الاحتفالية غير العادية حتى بعد أن صحبت آن رفيقتها إلى السقيفة الشرقية

لتخلع قبعتها، ثم إلى غرفة الجلوس حيث جلستا عشر دقائق وأقدامهما تتخذ وضعية محتشمة.

"كيف حال أمك؟" استفهمت آن بأدب، كما لو أنها لم تكن قد رأت السيدة باري في الصباح بأتمّ عافية وهي تقطف التفاح.

"إنها بخير، أشكرك لسؤالك. أظن أن السيد كُثْبيرت سينقل البطاطا هذه الأمسية أليس كذلك؟" قالت ديانا، التي ذهبت في ذلك الصباح إلى منزل السيد هارمون آندروز بعربة ماثيو.

"نعم، محصولنا من البطاطا وافر جداً هذه السنة. أرجو أن يكون محصول والدك من البطاطا جيداً أيضاً."

"نعم هو جيد، أشكر لك اهتمامك. هل قطفتم الكثير من تفاحكم إلى حدّ الآن؟"

"أوه، أكثر ممّا تتصوري،" قفزت آن ناهضة من مكانها بسرعة، بعد أن ردّت على ديانا بلهجة تخلّت فيها عن كل وقارها. "دعينا نذهب إلى البستان ونحصل على شئ من تلك الفاكهة الحمراء اللذيذة ياديانا، فقد سمحت لنا ماريلا باقتطاف كل ما تبقى على الشجرة. ماريلا كما تعلمين إمرأة سخيّة. قالت إنه يمكننا أن نأكل كعك الفاكهة ومربّى الكرز مع الشاي. ولكن لا أظن أنه من اللائق أن تخبري ضيفتك ماذا تنوين تضييفها، لذلك لن أخبرك بما سمحت لنا بشربه. أستطيع التلميح لك فقط بأنه يبدأ بحرف: ش، وحرف: ت، ولونه فاقع الحمرة. ألا تحبين مثلي السوائل الفاقعة الحمرة؟ أنا أرى أن مذاقها أشهى من مذاق أي لون آخر بمرتين."

كان البستان آسر الفتنة بأغصان أشجاره المتدلية التي انحنت نحو الأرض مُثقلة بالفاكهة، بحيث قضت فيه الفتاتان معظم الأمسية وهما تفترشان زاوية مكسوة بالحشيش الأخضر الذي استثناه الصقيع من برودته، وتلكأت عنده أشعة شمس الخريف الدافئة. أكلت الطفلتان التفاح وجاش قلباهما بالأحاديث التي لا نهاية لها. وكانت

جعبة ديانا مليئة بالكثير ممّا تريد إخباره لآن عمّا كان يجري في المدرسة.

أُجْبِرتْ على الجلوس إلى جانب جيرتي باي، وكرهتْ هذا؛ جيرتي تصرصر بقلمها طيلة الوقت وهذا يجعل الدم يجمد في عروقها، أي في عروق ديانا. روبي غيليز تخلصت من جميع ثآليلها بطريقة سحرية، بعد أن أعطتها العجوز ماري جو التي تعيش في المنطقة الساحلية، حصاةً مسحورة. عليكِ أن تفركي الثآليل بالحصاة ثم ترميها من فوق كتفك الأيسر في وقت بزوغ القمر الجديد وستزول الثآليل. تشارلي سلون كُتب اسمه على جدار الرواق مع اسم إيم وايت وكانت إيم منزعجة جداً من الأمر. سام بولتر تواقح على السيد فيلبس في الصفّ والسيد فيلبس جلده، وجاء والد سام إلى المدرسة وحذّر السيد فيلبس من أن يضع يده على واحد من أطفاله مرة ثانية. وماتي أندروز حصلت على قلنسوة حمراء جديدة مع بُرنس أزرق له شراريب، وطريقة استعراضها لنفسها مقززة. وليزي رايت لا تتكلم مع مامي ويلسون، لأن أخت مامي ويلسون الراشدة خلّفت بين أخت ليزي رايت الراشدة وبين حبيبها، والجميع مشتاق لآن كثيراً ويتمنون أن تعود إلى المدرسة. وغيلبيرت بلايث...

لكن آن لم تكن تريد أن تسمع شيئاً عن غيلبيرت بلايث. فنهضت من مكانها بسرعة وعرضت على ديانا أن تدخلا البيت لتناول شئ من شراب التوت.

بحثت آن عن قنينة شراب التوت على الرّف الثاني من خزانة المؤن ولم تجد شيئاً. ثم أسفر بحثها عن وجود تلك القنينة في مؤخرة الرّف الأعلى. حملتها آن على صينية ووضعتها على الطاولة مع قدح كبير للسكب.

"أرجوك تفضلي ياديانا،" قالت بأدب. "لا أظنني سأشرب شيئاً الآن. لا أحس أني راغبة في أي شئ بعد كل ما أكلته من تفاح."

صبّت ديانا لنفسها قدحا ملآناً، ونظرت إلى لون الشراب الأحمر

الصافي بإعجاب، ثم رشفت رشفة من كأسها بأناقة.

"هذا شراب توت لذيذ جداً ياآن،" قالت. "لم أكن أعلم أن لشراب التوت هذا المذاق الطيب."

"أنا مسرورة لأنك أحببته. اشربي قدر ما تريدين. سأذهب لأؤجج النار. عندما يكون المرء مسؤولاً عن إدارة المنزل فإن ذهنه يكون منشغلاً بالكثير من المسؤوليات، أليس كذلك؟"

عندما عادت آن من المطبخ كانت ديانا ترشف كأسها الثاني من الشراب. وبعد أن رجتها آن لتشرب المزيد، لم تُبدِ مانعاً في احتساء كأس ثالث. كان قدح السكب كبيراً وسخياً، وكان شراب التوت لذيذاً حقاً.

"ألذّ شراب توت ذقته في حياتي،" قالت ديانا. "بل هو أفضل بكثير من شراب السيدة ليند التي رغم تبجحها كثيراً بالشراب الذي تصنعه، لا يضاهي مذاقه مذاق هذا الشراب بتاتاً."

"لا أشكّ أبداً أن شراب التوت الذي تعدّه ماريلا أفضل بكثير من الشراب الذي تعدّه السيدة ليند،" قالت آن بلهجة صادقة. "ماريلا طاهية مشهورة. وهي الآن تحاول تعليمي الطبخ، ولكني أؤكد لك ياديانا أنه عمل شاق، ولا يوجد فيه إلاّ فسحة صغيرة جداً لاستعمال الخيال. كل ما عليك فعله هو اتباع التعليمات. وآخر مرة صنعت فيها قالب كعك نسيت إضافة الطحين له. كنت حينها ياديانا أفكّر بأجمل قصة يمكنك تخيُّلها عنك وعني. تخيلت أنك أصبت بالجدري، وأن الجميع تخلّوا عنك أثناء مرضك، لكني ذهبت إليك رابطة الجأش ولازمت فراش مرضك، واعتنيت بك إلى أن استعدتِ عافيتك. ثم انتقلت إليَ عدوى الجدري ومتّ ودُفنت تحت شجر الحور في المقبرة، فزرعتِ على قبري أجمة ورد، وسقيتها بدموعك، وما نسيتِ أبداً.. أبداً رفيقة طفولتك التي ضحّت بحياتها من أجلك. أوه ياديانا، كانت حكاية شجية للغاية. انهمرت الدموع على خديَ انهماراً وأنا أتخيلها بينما

كنت أمزج مقادير الكعك، فنسيت إضافة الطحين، وفشل ذلك القالب فشلاً ذريعاً، إذ لا يخفى عليك أن الطحين مادة أساسية جداً لصنع الكعك. ولا عجب من غضب ماريلا عليَّ كثيراً يومها. أنا كارثة وبيلة بالنسبة إليها ياديانا. أمّا الأفظع من هذا، فكان حادثة شراب الفطائر المعقود التي سببت لها حرجاً رهيباً. ففي عشية الثلاثاء كان لدينا فطيرة تفاح، لم نأكل إلاّ نصفها، وبقي نصفها الآخر مع دورق ملآن من المعقود. ورأت ماريلا أن هناك ما يكفي من أجل عشاء آخر، فطلبت مني وضع دورق المعقود على رفّ خزانة المؤن بعد تغطيته. كنت أنوي تغطيته ياديانا، ولكني أثناء حمله إلى خزانة المؤن، تخيّلت أني راهبة تؤدي طقوس الانخراط في سلك الرهبنة لتدفن قلبها المكلوم في عزلتها الانفرادية، طبعاً أنا بروتستانتية ولكني حينها تخيّلت أني كاثوليكية. وهكذا نسيت كل ما يتعلّق بأمر تغطية دورق المعقود. وما تذكّرته إلاّ في الصباح التالي، فهرعت إلى خزانة المؤن، وحاولي ياديانا أن تتخيلي الرعب الذي أصابني عندما وجدت فأرة غارقة في ذلك الدورق. أخرجت الفأرة بملعقة ورميتها في الفناء ثم غسلت الملعقة بثلاثة أدوار من الماء. كانت ماريلا خارج البيت تحلب الأبقار. وكنت أنوي حال عودتها سؤالها عن إمكانية إطعام ذلك المعقود للخنازير، لكني عندما عادت ماريلا إلى البيت كنت أتخيّل نفسي جنية ثلج، أجول الغابة، وأحوّل ألوان الأشجار إلى صفراء وحمراء، حسب اللون الذي تختاره الشجرة، فنسيت كل شئ عن أمر معقود الفطيرة مرة أخرى. بعد ذلك أرسلتني ماريلا لأقطف بعض التفاح، وفي تلك الأثناء جاء لزيارتنا السيد والسيدة تشستر روس من سبنسرفيل. وهما من الأشخاص المتأنقين جداً، خصوصاً السيدة تشستر روس. وعندما نادتني ماريلا، كان الطعام جاهزاً، وكان الجميع يجلسون إلى الطاولة. بذلت جهدي لأتصرّف بأدب واحتشام، لأني أردت أن تأخذ عني السيدة تشستر روس انطباعاً جيداً حتى وإن لم أكن جميلة. وسار كل شئ على ما يرام إلى أن رأيت ماريلا تحمل فطيرة التفاح بيد، ودورق المعقود الذي سخنته بيد اخرى. كانت تلك لحظة رهيبة

ياديانا. تذكّرت كل شيء، وانتفضت من مكاني زاعقة: ماريلا، لا يمكنك استعمال ذلك المعقود، لقد غرقت فيه فأرة، ونسيت إخبارك من قبل. أوه ياديانا لن أنسى في حياتي تلك اللحظة الرهيبة حتى لو عشت إلى أن أبلغ المائة من العمر. اكتفت السيدة تشستر روس بالحملقة بي، وشعرتُ أن الأرض على وشك ابتلاعي ممّا عراني من إحساس بالمهانة. تخيّلي الظنون التي ظنّتها بنا، وهي المعروفة ببراعتها في تدبير المنزل. غدت ماريلا حمراء كالنار، لكنها لم تفه بكلمة في ذلك الوقت، اكتفت بالتخلّص من دورق المعقود والفطيرة، وجلبت بدلاً من ذلك مربّى الفراولة، بل إنها قدّمت لي بعضاً منه، لكني لم أستطع ابتلاع لقمة واحدة. كنت أحسّ أن هناك كومة من الجمر المشتعل تتأجج في رأسي. ولم توبّخني ماريلا إلاّ بعد رحيل السيد والسيدة تشستر روس، وكان توبيخها عنيفاً.. لكن.. ما بـك يا ديانا؟"

وقفت ديانا مترنّحة ثم جلست ووضعت يديها على رأسها.

"أ..أنا مريضة جداً،" قالت، بصوت متراخٍ. "أنا.. أنا.. يجب أن أذهب إلى البيت حالاً."

"أوه، لا تحلمي بالذهاب إلى البيت قبل تناول العشاء،" صاحت آن بانفعال. "سأحضّره في الحال.. سأذهب وأعدّ الشاي فوراً."

"يجب أن أذهب إلى البيت،" كرّرت ديانا، بنبرة بلهاء لكن حاسمة.

"دعيني على الأقل أحضر لك ما تأكلينه،" توسّلت آن. "دعيني أقدّم لك بعضاً من كعك الفاكهة ومربّى الكرز. استلقي على الأريكة لفترة وجيزة وستكونين على ما يرام. أين تشعرين بالوجع؟"

"يجب أن أذهب إلى البيت،" رددت ديانا. كان هذا كل ما لديها لتقوله. ولم تُجدِ توسّلات آن نفعاً.

"لم أسمع من قبل عن ضيوف يغادرون قبل تناول الشاي،" قالت آن بلوعة. "أوه ياديانا، أيُعقل أنك قد أصبت بالجدري فعلاً؟ إذا صحّ

هذا فيمكنك الاعتماد عليَّ، لأني سأتفانى في رعايتك، ولن أتخلّى عنك مطلقاً. ولكني أرجو أن تبقي إلى ما بعد تناول الشاي. أين تشعرين بالوجع؟"

"أنا أشعر بدوار ثقيل،" دمدمت ديانا.

وبالفعل، مشت وهي تترنح.

أحضرت آن بعينين اغرورقتا بدموع الخيبة قبعة ديانا، وصحبتها إلى أن أوصلتها حدود سياج فناء السيد باري. وبكت على طول طريق عودتها إلى المرتفعات الخضراء. ثم أعادت قنينة شراب التوت إلى رفّ خزانة المؤونة والحزن يتآكلها. وعندما أعدّت الشاي لماثيو وجيري كان أداؤها للمهمة خالياً من حيوية الحياة.

كان اليوم التالي يوم الأحد، وهطل المطر سيولاً من الفجر إلى الغسق. فلم تغادر آن المرتفعات الخضراء. وفي مساء يوم الاثنين أرسلتها ماريلا بمأمورية إلى منزل السيدة ليند. وسرعان ما عادت وهي تثب على الدرب وثباً والدموع تتدحرج على خديّها. ثم اقتحمت المطبخ وقذفت نفسها على الأريكة وهي تبكي بحسرة.

"ما الذي حدث الآن بحقّ السماء ياآن؟" تساءلت ماريلا وقد اعتراها الشكّ والحيرة. "أرجو ألاّ تكوني قد تواقحت على السيدة ليند مرة أخرى."

لم يأت جواب من آن إلاّ المزيد من الدموع والنشيج الهائج!

"آن شيرلي، عندما أسألك سؤالاً، أريد جواباً فورياً عليه. اعتدلي في جلستك حالاً واخبريني ما الذي يبكيك."

اعتدلت آن، وبدت كأنها التراجيديا المُجسّدة.

"كانت السيدة ليند تزور السيدة باري اليوم، وأخبرتني أن السيدة باري ساخطة جداً،" قالت آن وهي تنتحب. "تقول إني أثملتُ ديانا يوم السبت وأرسلتها إلى البيت بحالة مُخجلة. وتقول إني لا بدّ وأن

أكون بنتاً خبيثة الطوّية وشريرة جداً، ولن تسمح لديانا باللعب معي بعد اليوم أبداً. أوه ياماريلا، أنا مغلوبة على أمري من هذه المصيبة التي حلّت علي."

تفرّست ماريلا فيها بذهول أخرس.

"أثملتِ ديانا!" قالت عندما استطاعت العثور على صوت تنطق به. "آن، إما أنِ تكوني مجنونة وإما أن تكون السيدة باري مجنونة. ماذا سقيت ديانا بحق السماء؟"

"لا شئ سوى شراب التوت،" أجابت آن وهي تنشج. "لم أظن أبداً أن شراب التوت يمكن أن يسبب حالة سُكْر للناس ياماريلا. حتى وإن شربوا منه ثلاثة أقداح ملآنة كما فعلت ديانا. أوه إن هذا يذكرني بزوج السيدة توماس! لكني لم أقصد إسكارها."

"سفاسِف!" قالت ماريلا، وهي تتجه نحو خزانة مؤونة غرفة الجلوس، حيث وجدت على الرّف قنينة عرفتها فوراً. كانت تلك القنينة تحتوي على نبيذ العنب البيتيّ الصنع، الذي سبق أن صنعته ماريلا قبل ثلاث سنوات ونالت عليه شهرة واسعة في أفونليا. لكن بعضاً من أهالي أفونليا المتعصبين، ومن بينهم السيدة باري، اعترضوا على هذا النبيذ بحدّة. وسرعان ما تذكّرت ماريلا أنها كانت قد وضعت قنينة شراب التوت في القبو، وليس في خزانة المؤونة، كما أخبرت آن.

عادت ماريلا إلى المطبخ حاملة قنينة النبيذ في يدها، وعضلات وجهها ترتعش رغماً عنها.

"آن، لا شكّ أنك موهوبة في اختلاق المصائب. لقد سقيت ديانا نبيذ العنب بدلاً من شراب التوت. ألم تستطيعي التمييز بين الاثنين؟"

"أنا لم أذقه أبداً،" أجابت آن. "ظننته شراب التوت، وأردت أن أكون مضيفة سخية، فكانت النتيجة أن شعرت ديانا بالتوعك وغادرتني إلى بيتها. وقالت السيدة باري للسيدة ليند إن ديانا كانت بكل بساطة سكرى حتى الثُمالة، ولم تفعل شيئاً سوى الضحك

ببلاهة، ثم نامت لعدّة ساعات. وعرفت أمها أنها كانت ثملة عندما شمّت رائحة نفَسها. وظلّت ديانا تعاني من صداع مؤلم طيلة اليوم. إن السيدة باري ساخطة أشدّ السخط، ولن تصدّق مطلقاً إلاّ أنني فعلت ما فعلته عن نية مُبيّتة."

"أعتقد أنه من الأفضل لها معاقبة ديانا على جشعها الذي يجعلها تشرب ثلاثة كؤوس من أي شئ." قالت ماريلا. "رباه، إن ثلاثة كؤوس من هذه الكؤوس الكبيرة لا بدّ أن تسبب لها التوعك حتى وإن كانت شراب توت. هه، ستكون هذه الحكاية ألعوبة سهلة بأيدي أولئك الناس الذين انتقدوني على صنع نبيذ العنب، رغم أني لم أصنع المزيد منه منذ ثلاث سنوات، وذلك عندما عرفت أن القسّ لم يحبّذ صنعي له. واحتفظت بهذه القنينة لحالات المرض الطارئة. هيا ياطفلتي كفّي عن البكاء الآن فأنت لست ملومة وأنا آسفة لأن ما حدث قد حدث."

"يجب أن أبكي،" قالت آن. "قلبي مكسور. وحتّى النجوم في أفلاكها تحاربني ياماريلا. لقد كُتب عليَ وعلى ديانا الفراق الأبدي. أوه ياماريلا، قليلاً ما فكّرت بهذا الأمر عندما عقدتُ وديانا نذر الإخلاص لصداقتنا."

"لا تكوني سخيفة ياآن. ستغيّر السيدة باري رأيها عندما تكتشف أنك لست ملَومة. ولا بدّ أنها تظنك قمت بما قمت به على سبيل الدُعابة السخيفة أو أي شئ من هذا القبيل. يُستحسن أن تذهبي إليها هذا المساء وتخبريها الحكاية كلها."

"ستخذلني جرأتي أثناء مواجهتي لوالدة ديانا الغاضبة." أجابت آن وهي تتنهّد. "أتمنى لو تذهبي أنت ياماريلا. فأنت أكثر وقاراً مني، ولا شكّ أنها ستصغي إليك أكثر ممّا يمكن أن تصغي لي."

"حسناً، سأفعل،" قالت ماريلا، التي رأت أن هذا التصرّف سيكون أكثر حكمة. " هيا، لا تسترسلي في المزيد من البكاء ياآن، سيكون كل شئ على ما يرام."

غيّرت ماريلا رأيها بخصوص أن كل شئ سيسير على ما يرام، عندما عادت من دارة منحدر البستان. كانت آن تترقّب حضورها واندفعت نحو باب الرواق لملاقاتها.

"أوه ياماريلا، أعرف من وجهك أنه لم يكن هناك جدوى من المحاولة،" قالت بصوت تعيس. "ألن تصفح عني السيدة باري؟"

"السيدة باري حقاً!" قالت ماريلا بنزق. "من بين جميع النساء غير المنطقيات اللواتي رأيتهن في حياتي هي الأسوأ. أخبرتها أن الأمر كان غلطة وأنك لست مَلومة، لكنها لم تصدّقني. واغتنمت الفرصة لتنتقد نبيذي وكيف أني قلت دائماً إن تأثيره على الناس ليس بالتأثير الذي يستحقّ الذكر. فأجبتها بصراحة أن ذلك النبيذ لم يُصنع لتشرب منه ثلاثة كؤوس ملآنة في جلسة واحدة، وأني لو كنت وليّة أمر طفلة شرهة إلى هذه الدرجة، لعاجلتها بصفعةٍ تأديبية مناسبة."

أسرعت ماريلا نحو المطبخ وهي في حالة شديدة من التوتّر، مُخلّفة وراءها في الرواق تلك الروح الصغيرة الحائرة بأمرها. وفي الحال حسمت آن أمرها وغادرت البيت في ذلك الغسق الخريفي البارد ومضت سالكة طريق حقل البرسيم الذاوي ثم جسر جذع الشجرة ثم حرش الراتينج، بينما شعّ قمر صغير دانٍ من ناحية الغابة الغربية.

جاءت السيدة باري إلى الباب مستجيبةً لنقرٍ خجول عليه، ووجدت أمام عتبة بيتها سائلة شاحبة الوجه متوسّلة العينين، فتصلّبت تعابير وجهها في الحال.

كانت السيدة باري من أولئك الأشخاص ذوي الأحكام المتعنتة المُسبَقة. وكان غضبها من النوع الموغر الحقود الذي يصعب تجاوزه. ولكن ما ينصفها في هذه الحادثة هو إيمانها الجازم أن آن أسكرت ديانا بدافع من طَوِيّة مطلقة الخبث. وكانت حريصة على حماية ابنتها الصغيرة لئلا تنتقل إليها عدوى سوء الخُلق نتيجة تزايد علاقتها

الحميمة مع طفلة خطرة المعشر مثل آن.

"ماذا تريدين؟" قالت بجلافة

شابكت آن يديها.

"أوه ياسيدة باري، أرجوك سامحيني، أنا لم.. لم أقصد تسميم ديانا. وكيف يمكنني ذلك؟ فقط لو تتخيلي نفسك أنك تلك البنت الصغيرة المسكينة اليتيمة التي تبنّاها أولئك الناس الطيبون، وأنك التقيت أخيراً رفيقة عمرك الوحيدة في هذا العالم، أتعتقدين أنك قد تسممينها عمداً؟ حسبت أن ذلك الشراب هو شراب التوت، بل كنت على يقين قاطع أنه شراب التوت. أوه، من فضلك لا تقولي إنك لن تسمحي لديانا بمرافقتي بعد اليوم، لأنك إذا فعلت هذا، ستحوّلين حياتي إلى غيمة حزن سوداء."

هذه الخطبة، التي كان يمكن أن تلين قلب السيدة ليند الطيبة بغمضة عين، لم يكن لها من تأثير على السيدة باري سوى مفاقمة غيظها. رابتها عبارات آن الكبيرة وحركاتها الدرامية وتصوّرت أن الطفلة كانت تسخر منها، ولذلك قالت ببرود وقسوة:

"لا أعتقد أنك بنت مناسبة لصحبة ديانا. يُستحسن أن تعودي إلى البيت وتحسّني أخلاقك."

ارتعدت شفة آن.

"ألن تجعليني على الأقل، ولو لمرّة واحدة، أرى ديانا لأودعها؟" التمست.

"ذهبت ديانا مع والدها إلى كارمودي،" قالت السيدة باري، ثم دخلت البيت مغلقة الباب خلفها.

وهكذا، عادت آن إلى المرتفعات الخضراء يائسة، بائسة.

"راحت آمالي أدراج الرياح،" قالت لماريلا، "ذهبت ورأيت السيدة باري لكنها عاملتني باحتقار. وأنا لا أعتقد ياماريلا أنها امرأة أصيلة

المعدن. ما عاد بيدي حيلة إلاّ الصلاة، ولست أعلّق عليها الكثير من الآمال ياماريلا، ولا أظن أن الله نفسه يمكنه فعل الكثير مع شخص عنيد مثل السيدة باري."

"آن، لا يجب عليك أن تقولي مثل هذه الأمور،" عنّفتها ماريلا، وهي تناضل لتتغلب على ميلها الآثم للضحك، والذي صار يربكها نتيجة تزايده عندها. مع ذلك، وعندما روت الحكاية كلها لماثيو تلك الليلة، ضحكت من صميم قلبها على وقائع تلك البليّة التي حلّت بآن.

لكنها عندما عرجت على السقيفة الشرقية قبل إخلادها إلى النوم، ووجدت أن آن قد بكت حتى غلبها النوم، تسللت إلى وجهها تعابير رقّة غير مألوفة.

"ياللروح الصغيرة المسكينة،" همهمت، وهي تزيح خصلة من الشعر عن وجه الطفلة المبقّع بالدموع. ثم انحنت وقبّلت خدّ الوجه المتورّد المسترخي على المخدة.

١٧
اهتمام جديد في الحياة

كانت آن عاكفة على خياطة مُرَقَّعتها في مساء اليوم التالي بالقرب من نافذة المطبخ، عندما صدف أن ألقت نظرة خارجها ولمحت ديانا عند نبع خرير الحورية تلوِّح لها بطريقة غامضة. وفي لمح البصر غادرت آن البيت واندفعت تشقّ دربها نحو الغور، يتماوج في عينيها المعبّرتين خليط من الدهشة والأمل. أمل سرعان ما خاب عندما رأت قسمات ديانا الحزينة.

"ألم يرقّ قلب أمك بعد؟" قالت لاهثة.

هزّت ديانا رأسها بلوعة.

"كلا؛ وتقول ياآن إنه ليس لي أن ألعب معك أبداً. بكيت.. وبكيت ياآن وأخبرتها أن الذنب لم يكن ذنبك، لكن شيئاً لم ينفع. وأمضيت اليوم وقتاً طويلاً وأنا أستعطفها لتسمح لي بالمجيء إلى هنا لوداعك، فقبلت شرط ألاّ أبقى سوى عشر دقائق، وهي الآن تحسب لي الوقت بالساعة."

"عشر دقائق ليست بالوقت الكافي لنودّع بعضنا وداعاً سرمدياً،" قالت آن بعينين دامعتين. "أوه ياديانا، أتعدينني وعداً صادقاً أن لا تنسيني مطلقاً، أن لا تنسي رفيقة طفولتك، مهما التقيت في حياتك برفاق يدخلون البهجة إلى قلب حضرتك؟"

"من المؤكد أني سأفعل،" أجابت ديانا وهي تنتحب، "بل ولن يكون لي بعدك رفيقة حميمة. لا أريد أحداً بعدك، ولا يمكن أن أحب أحداً كما أحبك."

"أوه ياديانا،" هتفت آن وهي تشابك يديها، "أتحبينني حقاً؟"

"لماذا تقولين هذا، طبعاً أحبك. أمّا كنت تعرفين هذه الحقيقة؟"

"لا،" أخذت آن نفساً عميقاً. "كنت أعرف طبعاً أنك تستلطفينني، لكني ما أملْت يوماً أن تحببيني. أترين ياديانا، أنا لم أعتقد أن أحداً يمكن أن يحبني. لا أحد، كما أذكر، أحبني من قبل. أوه ياديانا، هذا شئ رائع! إنه إشعاع نور سيظلّ يشعّ إلى الأبد في عتمة درب فراقنا. أوه ياديانا، كرّري على مسمعي ما قلته لي."

"أحبك حباً خالصاً ياآن،" قالت ديانا بصدق، وسأظل أحبك ما حييت، يمكنك التأكّد من هذا."

"وسأظلّ أنا أيضاً أحب حضرتك ياديانا،" قالت آن بلهجة خطابية وهي تبسط يدها. "وخلال السنين المقبلة ستضيء ذكرى حضرتك فوق حياتي المقفرة كنجمة، وهذا مثلما ورد في تلك القصة الأخيرة التي قرأناها معاً. ديانا أتتفضلين عليّ بمنحي خصلة من خصل ضفائر حضرتك الفاحمة في لحظة وداعنا لأكتنزها إلى الأبد؟"

"ألديك شئ لتقصّيها به؟" سألتها ديانا بلهجة عملية بعد أن جففت دموعها التي جعلها أسلوب آن الاحتفالي تنهمر مجدداً.

"نعم، لحسن الحظ أنا أحمل في جيب مئزري مقصّ الخياطة." أجابت آن، وباستعراض شعائري قصّت خصلة من شعر ديانا، ثم قالت:

"وداعاً ياحضرة الحبيبة، يارفيقتي الغالية. منذ الآن فصاعداً علينا أن نصبح غريبتين رغم أننا نعيش قريبتين من بعضنا، لكن قلبي سيظلّ دائماً وأبداً مخلصاً لحبكم."

وقفت آن وراقبت ديانا تبتعد عن مدى نظرها، ولوّحت لها بحزن كلما استدارت الأخيرة لتنظر خلفها. ثم عادت إلى البيت، من غير أن يفرّج ذلك الفراق الشاعري شيئاً من كربها.

"انتهى كل شئ،" أعلمت آن ماريلا. "لن أتّخذ لنفسي رفيقة أخرى ما حييت. لا شئ يماثل التعاسة التي أنا عليها الآن، لأني هذه

المرة بدون كيتي موريس أو فيوليتا. وحتى لو كانتا معي لم يعد الحال مشابهاً للماضي. فرفيقات الخيال يصبحن بطريقة ما غير مقنعات بعد الحصول على رفيقة حقيقية. ودّعنا بعضنا أنا وديانا وداعاً مؤثّراً عند النبع. وسيظل هذا الوداع مقدّساً في ذاكرتي إلى الأبد. واستعملتُ أشجى أسلوب استطعت التفكير بها، وقلت لها: حضرتك وحبكم بالجمع. إذ يبدو لي أن هذا الأسلوب أكثر شاعرية من مجرّد أنت وحبك. أعطتني ديانا خصلة من شعرها، وسأخيط لها كيساً صغيراً، وسأقلّد بها رقبتي طيلة حياتي. أرجوك ياماريلا لا تنسي التأكّد من أنها ستُدفن معي، إذ لا أظنني سأعيش طويلاً. وربما عندما تراني السيدة باري مسجاة وباردة وميتة، ستشعر بالندامة وستسمح لديانا بحضور جنازتي."

"لا أظن ياآن أن هناك أي خوف عليك من الموت حزناً، ما دمت تستطيعين الثرثرة." ردّت ماريلا بلهجة خالية من التعاطف مع الموقف.

فوجئت ماريلا في صباح يوم الاثنين التالي بآن وهي تنزل من غرفتها متأبطة حقيبة كتبها وقد ارتسمت على فمها تعابير التصميم الحاسم.

"سأعود إلى المدرسة،" أعلنت. "هذا كل ما تبقّى لي في الحياة الآن، بعد أن سُلخت عني رفيقتي بلا رحمة. وفي المدرسة أستطيع رؤيتها والتفكّر في الأيام الخوالي."

"يُستحسن أن تتفكّري بدروسك وحساباتك،" قالت ماريلا وهي تكتم ابتهاجها بالتطوّر الذي أدّى إليه الوضع. "وإذا كنت ستعودين إلى المدرسة أرجو ألاّ نسمع المزيد عن كسر الألواح على رؤوس الناس وما يشبه ذلك. كوني خلوقة وتجاوبي مع أوامر المعلّم."

"سأحاول أن أكون تلميذة نموذجية،" قالت آن باكتئاب. "ولن يكون هذا ممتعاً كما أتوقّع. كان السيد فيلبس يقول إن ميني آندروز

تلميذة مثالية، مع ذلك فليس لديها أية ومضة خيال أو حيوية. بل هي بليدة ومُضجرة، ولا يشعر المرء أنها تستمتع بوقتها أبداً. ولكن بما أني الآن يائسة جداً، لا أظن أن الأمر سيكون صعباً عليَ. سأسلك الطريق العادي نحو المدرسة، لأني لن أحتمل الذهاب وحدي عن طريق ممر البتولا، ولا شكّ أني سأذرف دموعاً حارقة إذا فعلت."

استُقبلت آن في المدرسة بأذرع الترحاب. فقد افتُقد خيالها في اللعب، وصوتها في الغناء، وأسلوبها الدرامي أثناء القراءة بصوت عالٍ في فرصة الغداء.

هرّبت لها روبي غيليز ثلاث خوخات زرقاوات خلال حصة قراءة الإنجيل. وأعطتها إيلا ماي ماكفرسن قصاصة من الورق الأصفر اللون عليها صورة لزهرة الثالوث، نزعتها من كتاب فهرس خاص بالأزهار. وكانت هذه الهدية تعتبر من أدوات تزيين المقاعد المقدّرة جداً في مدرسة أفونليا. وعرضت صوفيا سلون خدماتها لتعلّمها تصميماً أنيقاً لحياكة شرائط الزينة، قالت إنه تصميم جميل لزخرفة المآزر. ووهبتها كيتي بولتر زجاجة عطر فارغة لتضع فيها ماء مسح لوحها، أمّا جوليا بيل فنسخت بعناية على ورقة ذات لون وردي فاتح، مخرّمة الحواف، المقطع العاطفي التالي:

إلى آن
كلّما أسدل الشفق ستائره
ورصّعها بالنجوم
تذكري أني لك صديقة
وإن غيّبتني التخوم

"من اللطيف حقاً أن تُقدّر قيمة الإنسان،" تنهّدت آن جذلاً وهي تسامر ماريلا تلك الليلة.

لكن تقدير قيمة آن لم يقتصر على البنات فقط. فعندما عادت بعد فرصة الغداء إلى مقعدها الذي تجالس فيه التلميذة النموذجية ميني

ماكفرسن حسب أوامر السيد فيلبس، وجدت عليه إجاصة كبيرة شهية. فتناولتها وكانت على وشك قضمها عندما تذكّرت أن المكان الوحيد الذي ينمو فيه هذا النوع من الإجاص في أفونليا، هو بستان آل بلايث القديم الذي يقع عند الضفة الأخرى من بحيرة المياه البراقة. وسرعان ما أسقطت آن الإجاصة من يدها وكأنها قطعة جمر ملتهبة، وبشموخ مسحت أصابعها بمنديلها. قبعت الإجاصة في مكانها على المقعد حتى صباح اليوم التالي، حيث عثر عليها الصغير تيموثي آندروز الذي كان يتولّى كنس المدرسة وإضرام النار، فأخذها معتبراً إياها مدخولاً إضافياً. أمّا هدية تشارلي سلون فقوبلت بترحاب أكثر. إذ أرسل لآن بعد فرصة الغداء قلماً للّوح، من تلك الأقلام التي تتميز بجمال زخرفة غلافها الورقي المقلّم باللونين الأحمر والأصفر، والتي يبلغ ثمن الواحد منها سِنْتَين بينما يبلغ ثمن القلم العادي سِنتاً واحداً. تلطّفت آن على الواهب بقبول هديته ومنحته ابتسامة جعلت ذلك المفتون الصغير يرتقي رأساً إلى سماء المجد السابعة، وجعلته يقترف أخطاءً مشينة في الإملاء، بحيث أخّره السيد فيلبس بعد انتهاء دوام المدرسة ليعيد كتابتها.

ولكن كما أن:

اجتزاز محفل بروتس من موكب القيصر
مازاد إلا في تذكير روما بابنها البارّ، أكثر

كذلك كانت لوعة افتقاد أي ترحاب أو تقدير من ديانا باري، التي كانت تجالس جيرتي باي. وهذا ما نغّص على آن استمتاعها بمجدها المتواضع.

"كان بإمكان ديانا أن تبتسم لي ولو مرة واحدة على أقل تقدير." ناحت آن شاكية همّها لماريلا تلك الليلة. غير أنها في صباح اليوم التالي سلِّمت ورقة طُويت ولُفّت بخوف وحرص لا مثيل لهما مع هدية صغيرة. وجاء في الورقة:

آن العزيزة،

تقول أمي إنه علي ألاّ ألعب معك أو أحادثك حتى في المدرسة. لا تغضبي مني فالذنب ليس ذنبي. ما زلت أحبك كما كنت وأكثر. أفتقدك كثيراً، وأفتقد مساررتي لك بجميع أسراري. لا أحب جيرتي باي ولو قليلاً. صنعت لك مؤشِّرة كتب من الورق الأحمر الناعم. إنها دارجة جداً هذه الأيام، ولا يعرف كيفية صنعها إلاّ ثلاث بنات في المدرسة. وعندما تنظرين إليها تذكّري

رفيقتك المخلصة

ديانا باري

قرأت آن الورقة، قبلّت مؤشِّرة الكتب، وبعثت رداً عاجلاً إلى الناحية الأخرى من المدرسة.

ياغاليتي الحبيبة ديانا،

طبعاً أنا لست غاضبة منك، فواجبك إطاعة أمك، لكن أرواحنا ستظل على تواصل. سأحتفظ بهديتك اللطيفة الى الأبد. ميني أندروز فتاة لطيفة جداً مع أنها بدون خيال، ولكن بعد أن كنت رفيكة ديانا الحميمة لا يمكن ان أكون رفيكة ميني. أرجوك اعذري أخطائي الإملائية لأن تهجئتي ليست جيدة بعد، مع أنها تحسنت كثيراً.

الوفية لك إلى أن يفرقنا الموت

آن أو كورديليا شيرلي

ملاحظة: سأنام الليلة ورسالتك تحت مخدتي.

آ. أو ك.ش.

منذ أن استأنفت آن العودة إلى المدرسة، توقّعت ماريلا بحسٍّ متشائم المزيد من المشاكل، لكن شيئاً لم يحدث. ولعل آن استطاعت في تلك الفترة اقتباس شيء من روح التلميذة النموذجية ميني آندروز،

لكنها على أقل تقدير اتفقت مع السيد فيلبس. وهكذا كرّست قلبها وروحها لدروسها، وصممت على ألاّ يهزمها غيلبرت بلايث في أي صفّ من الصفوف. وسرعان ما أصبح تنافسهما واضحاً. كان هذا التنافس صادراً عن روح رياضية خالصة من جهة غيلبرت. ولكن من المؤسف أنه لا يمكن تطبيق هذا القول على آن. فممّا لا شكّ فيه أن إصرار آن العنيد على إضمار العداوة كان غير جدير بالإطراء، رغم أن ذلك عائد إلى طبيعة مشاعرها المكثّفة سواء في المحبة أو الكراهية. ولم تكن لتعترف أو لتقرّ بمنافستها لغيلبرت في المدرسة، لأن هذا يعني الاعتراف بوجود غيلبرت الذي صممت على المضيّ في تجاهله. مع ذلك كانت المنافسة قائمة، ولطالما تأرجح الفوز بينهما. فتارة يتفوّق غيلبرت في درس التهجئة، وتارة تتفوّق عليه آن مع نفضة من ضفيرتها الحمراء المتدلية. وذات يوم أنجز غيلبرت فرض الحساب بدون أخطاء، فكُتب اسمه على السبورة ضمن لائحة الشرف. وفي اليوم التالي تفوّقت عليه آن، بعد أن قضت أمسيتها السابقة وهي تتصارع بشراسة مع الكسور. أمّا اليوم الرهيب فكان ذلك اليوم الذي تعادلا فيه فكُتب اسماهما على السبورة إلى جانب بعضهما. كان هذا بالنسبة إلى آن يعادل في رداعته رداءة عبارة: خذوا علماً. وبقدر ما بدا عليها الإحساس بالمهانة، بقدر ما ظهرت علائم الارتياح على سيماء غيلبرت. وعندما كانت تجري الامتحانات الخطية في نهاية كل شهر، كان الجو يغدو مشحوناً بالقلق والإثارة. وفي الشهر الأول تفوّق غيلبرت وهزم آن بثلاث علامات. أمّا في الشهر الثاني فتفوّقت آن وهزمت غيلبرت بخمس علامات. ولكنها شعرت أن هذا الانتصار قد تشوّه، عندما هنأها غيلبرت من صميم قلبه أمام المدرسة كلها. كان من الأروع ألف مرة بالنسبة إليها لو أنه عانى مرارة الهزيمة.

ربّما لم يكن السيد فيلبس ذلك المعلّم القدير حقاً، بيد أن أي تلميذ يتميّز بتصميم آن العنيد، ما كان إلاّ ليحرز النجاح مهما كان نوع المعلّم الذي يشرف عليه. وهكذا ترفّع كل من آن وغيلبرت في نهاية

الفصل الدراسي إلى الصفّ الخامس، وبات عليهما أن يدرسا مبادئ فروع العلم، التي يُقصد بها اللغة اللاتينية والهندسة واللغة الفرنسية والجبر. وكانت الهندسة المادة التي واجهت فيها آن معركتها الحربية، أو معركة واترلو كما يُقال.

"إنها مادة سقيمة جداً ياماريلا." قالت آن وهي تئن. "أنا واثقة بأني لن أتمكن أبداً من التفرقة بين رأسها وذيلها. هي مادة لا يوجد فيها أية فسحة للخيال. ويقول السيد فيلبس أني أغبى تلميذة رآها في هذا المجال. وغيلـ... أعني بعض التلاميذ بارعون كثيراً فيها. إنه أمر مذلّ للغاية ياماريلا. حتى ديانا تتدبّر أمرها أفضل مني. طبعاً أنا لا أمانع أن تتفوق عليَ ديانا، ورغم أننا أصبحنا الآن نلتقي كالغرباء إلاّ أنني ما زلت أحبها حبّاً يتعذر إخماد ناره. وعندما أفكّر بها يجتاحني حزن مبرح. ولكن ألا تعتقدين ياماريلا أنه ليس بإمكان المرء الاستغراق في الحزن لمدة طويلة في عالم رائع مثل هذا العالم؟"

١٨
الاستنجاد بآن

يُقال إن جميع الأمور العظيمة وثيقة الصلة بالأمور البسيطة. وقد لا يبدو للوهلة الأولى أن قرار رئيس الوزراء الكندي بضمّ زيارة جزيرة برنس إدوارد إلى برنامج جولته السياسية، يمكن أن يكون له تأثير كبير أو صغير على قَدَر آن شيرلي، تلك الطفلة الصغيرة التي تعيش في المرتفعات الخضراء. لكن هذا ما حصل.

قصد رئيس الوزراء في شهر كانون الثاني مدينة تشارلوت تاون، ليجتمع بأتباعه الخُلّص، وبغير أتباعه من الذين قرروا الانضمام إلى اجتماع الحشود الهائلة. وكان معظم أهالي أفونليا من المؤيدين سياسياً لرئيس الوزراء؛ ولذلك قام معظم رجالها تقريباً، وعدد لا بأس به من النساء بالتوجّه إلى المدينة ليلة الاجتماع، وباتوا على بعد ثلاثين ميلاً من منازلهم. وكانت السيدة ريتشيل ليند من ضمنهم، لأنها وهي صاحبة الميول السياسية الحماسية، ما كانت لتظن أنه يمكن للشمل الالتئام بدونها، رغم أنها على الطرف النقيض من حيث المبدأ السياسي. وهكذا قصدت المدينة مصطحبة زوجها، فلا شكّ أن توماس سيكون مفيداً للاهتمام بالحصان. ورافقتها في هذه الرحلة ماريلا كُثْبيرت، التي كانت هي نفسها لا تخلو من ولع خفيّ بالسياسة، بالإضافة إلى تفكيرها بأن هذه الفرصة قد تكون فرصتها الوحيدة لرؤية رئيس وزراء حقيقي وحَيّ. وهكذا غادرت البيت مخلّفة أمر إدارته لكل من آن وماثيو إلى أن تعود في اليوم التالي.

بينما حرصت ماريلا والسيدة ريتشيل على الاستمتاع استمتاعاً بيّناً بحضورهما اجتماع الحشود، كان ماثيو وآن يتنعّمان بمطبخ

المرتفعات الخضراء على طريقتهما الخاصة. كانت النار في ذلك المطبخ تتأجج مستعرة في الموقد القديم الطراز. وكان الجليد يغلّف نوافذه بطبقات بلورية لامعة. وهناك اتكأ ماثيو على الأريكة، منكّس الرأس مستسلماً لإغفاءة صغيرة، وجلست آن إلى الطاولة تدرس دروسها بتصميم عَبوس، رغم نظراتها التواقة إلى رفّ الساعة الذي يوجد عليه كتاب جديد أعارتها إياه جين آندروز ذلك اليوم، بعد أن أكدّت لها أنه كتاب مكفول باحتوائه على ما لا يُحصى من أحداث مثيرة أو من كلمات ذات وقع فعّال. كانت أصابعها تلجّ عليها لتتناول ذلك الكتاب، ولكنها كانت تعرف أن هذا يعني تفوّق غيلبرت بلايث عليها في اليوم التالي. وهكذا أدارت ظهرها لرفّ الساعة، وحاولت التخيُّل أن الكتاب ليس هناك.

"ماثيو، أسبق لك يوماً أن درست الهندسة عندما كنت تذهب إلى المدرسة؟"

"ها، كلاّ، لم أفعل،" أجاب ماثيو الذي استفاق من غفوته مُجفلاً.

"أتمنى لو أنك درستها،" تنهّدت آن، "لأنك عندها ستكون أكثر قدرة على التعاطف معي. إنك لا تستطيع التعاطف معي كما ينبغي إذا لم تكن قد درستها من قبل. إنها تسبب لي غيمة في سماء حياتي. أنا جدُّ خرقاء فيها ياماثيو."

"هه، لا أدري حقاً،" قال ماثيو ملاطفاً. "أعتقد أنك شاطرة في كل شئ. أخبرني السيد فيلبس عندما التقيته الأسبوع الماضي في مخزن بلير في كارمودي أنك أذكى تلميذة عنده، وأنك تحرزين تفوّقاً مميزاً. وعبارة: تفوقاً مميزاً، هي نفس العبارة التي استعملها. ورغم ما يُشاع عن تيدي فيلبس، وما يُقال عن عدم كفاءته التعليمية، أظن أنه لا غبار عليه."

كان ماثيو يرى أن أي شخص يمدح آن هو شخص لا غبار عليه.

"أنا واثقة بأنه يمكنني التحسّن في الهندسة، لو لم يكن يغيّر

الرموز،" تذمّرت آن. "أدرس المسألة عن ظهر قلب، ثم يرسم الشكل على السبورة ويضع رموزاً مغايرة لتلك التي في الكتاب، فيختلط الأمر عليَ اختلاطاً كاملاً. ألا تظن أنه لا يجدر بالمعلّم أن يشرِّع لنفسه حقّ التصرف بمثل هذا التصرف اللئيم؟ إننا ندرس الآن عن الزراعة، ولقد اكتشفت ما الذي يجعل الطرقات حمراء، ولكم أشعرني هذا بالراحة. ترى كيف تقضي ماريلا والسيدة ليند وقتهما الآن. تقول السيدة ليند إن نهاية كندا ستكون أسوأ من نهاية الكلاب حسب ما تجري عليه الأمور في العاصمة أوتاوا، وأن هذا نذير واضح للناخبين. وتقول إذا سُمح للنساء بالتصويت فإننا سرعان ما سنرى تغيّراً مباركاً. وبالمناسبة ياماثيو لصالح مَن تُصوّت؟"

"أنا مع المحافظين،" أجاب ماثيو بسرعة، فقد كان التصويت لصالح المحافظين جزءاً لا يتجزأ من عقيدة ماثيو.

"إذن، أنا مع المحافظين أيضاً،" قالت آن مؤكّدة. "وهذا يسرّني، لأن غيلـ... لأن بعض الصبية في المدرسة مع الإصلاحيين. أظن أن السيد فيلبس مع الإصلاحيين أيضاً، لأن والد بريسي آندروز معهم، وتقول روبي غيليز أنه عندما يتودّد الرجل للفتاة يجب عليه دائماً الاتفاق مع مذهب والدة الفتاة ومع سياسة والدها. هل هذا صحيح ياماثيو؟"

"ها، أنا في الحقيقة لا أعرف،" أجاب ماثيو.

"هل تودّدت في حياتك لأية فتاة ياماثيو؟"

"حسناً الآن، لا، لا أذكر أني فعلت هذا أبداً،" ردّ ماثيو، الذي لم يكن بكل تأكيد قد سبق له خلال حياته كلها أن فكّر بمثل هذا الموضوع على الإطلاق.

تفكّرت آن وذقنها ترتكز على يديها.

"لا بدّ أنه شئ مشوّق، ألا تظن ذلك ياماثيو؟ تقول روبي غيليز أنها عندما تنضج ستتخذ لنفسها عديداً من العشاق، وأنها ستفتنهم إلى

حدّ الجنون وستجعلهم طوع بنانها. لكني أرى هذا شيئاً مُفرط الإثارة، وأنا أفضّل الحصول على شخص واحد بكامل عقله. مع ذلك أظن أن روبي غيليز وافرة الاطّلاع على مثل هذه الأمور، لأن لديها العديد من الشقيقات الكبيرات. وتقول السيدة ليند إن بنات آل غيليز قد نضجن مثل قوالب الكعك الساخن. يذهب السيد فيلبس لرؤية بريسي آندروز كل مساء تقريباً، ويقول إنه يفعل هذا ليساعدها في دروسها، لكن ميرندا سلون تستعدّ أيضاً للالتحاق بمعهد كوين، وأظنها بحاجة إلى المساعدة أكثر من بريسي لأنها أغبى منها، فلماذا لا يساعدها في المساء. إن في هذا العالم أشياءاً كثيرة تستعصي على فهمي ياماثيو."

"حسناً الآن، أظن أني أنا أيضاً لا أعرف، وذلك حسب استيعابي للأمور،" اعترف ماثيو.

"على كل حال، يجدر بي الآن إنهاء دروسي. ولن أسمح لنفسي بفتح ذلك الكتاب الجديد الذي أعارتني إياه جين حتى أفرغ من جميع فروضي. لكن هذا الإغراء لا يُقاوم ياماثيو. حتى عندما أدير ظهري له أستطيع رؤيته هناك بوضوح. قالت جين أنها أعيت نفسها بكاءاً عندما قرأته. وأنا أحب الكتب التي تبكيني. أظنني سآخذ ذلك الكتاب إلى غرفة الجلوس وأقفل عليه في خزانة المؤن وأسلّمك المفتاح.وليس عليك ياماثيو أن تعطيني إياه قبل إنجازي لفروضي، وإن رجوتك وأنا راكعة على ركبتيّ. ليس أجود من قولنا إنه يتوجب علينا مقاومة الإغراء، لكن أسهل طريقة لمقاومته هي عدم تمكُّن المرء من الحصول على المفتاح. والآن ياماثيو ما رأيك لو نزلتُ إلى القبو لجلب بعض الفاكهة المجففة؟ ألا تشعر بالرغبة في أكل شئ منها ياماثيو؟"

"هه، حسناً، لا أعرف شيئاً بقدر ما أعرف أني أرغب في هذا." أجاب ماثيو الذي لم يكن يأكل الفاكهة المجففة أبداً، ولكنه كان يعرف شغف آن بها.

ما كادت آن تبرز من القبو، حاملةً بفرح طبقها الملآن بالتفاح

المجفف، حتى تعالى صوت وقع أقدام تهرول على الألواح الخشبية في الخارج، وبعد لحظة دُفع باب المطبخ بعنف وانبثقت منه ديانا باري، شاحبة الوجه لاهجة، ملتحفة شالها كيفما اتفق.

أفلتت آن طبقها وشمعتها مذهولة بذلك المشهد. تدحرج الطبق والشمعة والتفاح المجفف على طول سلالم القبو، وظلت هذه الأشياء على أرضية القبو إلى أن وجدتها ماريلا في اليوم التالي، ممرّغة بالشحم الذائب، فجمعتها وهي تشكر السماء لأن المنزل لم يشتعل بالنيران.

"ما القضيّة ياديانا؟" صاحت آن. "هل رقّ قلب أمك أخيراً؟"

"آن اسعفيني، وتعالي معي حالاً،" توسّلت ديانا بحرقة، "أختي ميني ماي مريضة جداً، وتقول الشابة ماري جو إنها مصابة بالخُنَّاق. وأمي وأبي في المدينة، ولايوجد حولنا شخص يستطيع استدعاء الطبيب. حالة ميني ماي متدهورة، وماري جو لا تعرف ما الذي يجب عمله. ربّاه.. أنا خائفة خوفاً عظيماً ياآن!"

تناول ماثيو من غير أن يتفوه بكلمة قبعته ومعطفه، وتجاوز ديانا، وغاب في عتمة الفناء.

"ذهب ليسرج الفرس ليذهب إلى كارمودي من أجل إحضار طبيب،" قالت آن، وهي تهرع لجلب قبعتها وسترتها. "أعرف هذا كما لو أنه قاله لي. إن روح ماثيو مُتَائِمة لروحي، وأنا أستطيع قراءة أفكاره من غير أن نضطر إلى استعمال لغة الكلام أبداً."

"لا أظن أنه سيعثر على الطبيب في كارمودي،" قالت ديانا باكية. "أعرف أن الطبيب بلير ذهب إلى المدينة ولا بدّ أن الطبيب سبنسر قد ذهب أيضاً. آه يا آن، لم يسبق لماري جو أن رأت أحداً مُصاباً بالخُنَّاق من قبل، والسيدة ليند ليست هنا!"

"لا تبكِ ياغاليتي دي،" قالت آن محاولة التخفيف عنها. "أعرف تماماً ما الذي يجب عمله لمعالجة الخُنَّاق. أنسيتِ أن السيدة هاموند

أنجبت التوائم ثلاث مرات؟ ومن الطبيعي أن تحصلي على خبرة واسعة عندما تعتنين بثلاثة أزواج من التوائم الذين أصيبوا بالخُنَّاق على التوالي. انتظري برهة ريثما أحضر زجاجة سائل عرق الذهب، فقد لا يكون لديكم أي شئ منه في البيت. هيا، تعالي الآن لنذهب."

أغذّت الصغيرتان السير خارج البيت يداً بيد. سلكتا درب العشاق، ثم انعطفتا نحو الحقل الممتد وراءه لأن الثلج كان أكثف من أن تستطيعا قصد طريق الغابة الأقصر. ورغم قلق آن على ميني ماي، فإن هذا القلق لم يغيب عنها الإحساس بشاعرية الموقف، وعذوبة مشاركة تلك الشاعرية مع رفيقتها الحميمة.

كانت الليلة صافية وصقيعية، اكتست فيها المنحدرات الثلجية بظلال أبنوسية وفضية، ولمعت النجوم العظيمة فوق الحقول الصامتة؛ وانتصبت هنا وهناك أشجار التنوب الداكنة بأشكالها الدقيقة التي تناثرت على فروعها نُدَف الثلج وصفّرت الريح من خلالها. وفكّرت آن أن لا شئ أروع من استقراء كل ذلك الغموض والجمال مع رفيقة حميمة غُرّبت عنها طويلاً.

كانت ميني ماي ابنة السنوات الثلاث مريضة جداً بالفعل. كانت منطرحة على أريكة المطبخ، محمومة ومتوتّرة، يتصاعد شخير نفَسها الأجشّ في جميع أرجاء البيت. أمّا الشابة ماري جو، تلك الحسناء الفرنسية من سكان المنطقة الساحلية، التي اتفقت معها السيدة باري لتعتني بالأطفال أثناء غيابها، فكانت تقف مذهولة بلا حول أو قوة، غير قادرة البتة على التفكير بما ينبغي عمله، أو حتى عمل أي شئ إذا استطاعت التفكير به.

وهكذا باشرت آن إسعافاتها بمهارة ودقّة.

"ميني ماي مصابة بالخُنَّاق هذا صحيح؛ وحالتها متدهورة فعلاً، ولكني رأيت حالات أسوأ. علينا أولاً تسخين الكثير من الماء. ديانا، لا يوجد هنا أكثر من فنجان ماء في الإبريق! ها قد ملأته، وأنت ياماري

جو، يمكنك وضع بعض الحطب في الموقد. لا أريد جرح مشاعرك، ولكني أرى أنه كان يمكنك التفكير بهذا من قبل لو كان لديك خيال! والآن، سأنزع عن ميني جو ثيابها وسأضعها في الفراش، وأنت ياديانا حاولي العثور على بعض القماش من الفانيلا الناعمة. وقبل كل شئ سأعطيها جرعة من سائل عرق الذهب."

لم تتقبل ميني ماي الجرعة برضى، لكن آن لم تكن قد ربّت ثلاثة أزواج من التوائم من أجل لا شئ. وهكذا مرق عرق الذهب، ليس مرّة واحدة ولكن عدّة مرات خلال تلك الليلة الطويلة المقلقة التي دأبت فيها الصغيرتان على رعاية مينيماي المتوعكة. أمّا الشابة ماري جو، التي كانت لهفتها صادقة للقيام بما في وسعها، فقد حافظت على النار مستعرة، وسخّنت ماءاً يزيد عن حاجة مستشفى مكتظّة بالأطفال المصابين بالخُنَّاق.

كانت الساعة تشارف الثالثة عندما وصل ماثيو مصطحباً الطبيب، لأنه اضطر إلى متابعة طريقه نحو سبنسرفيل من أجل إحضاره، لكن الحاجة الملحّة إلى وجود الطبيب كانت قد ولّت، لأن حالة ميني ماي كانت قد تحسنت كثيراً، وكانت تغطّ في نوم عميق.

"كنت قد بدأت أفقد الأمل يادكتور،" شرعت آن تشرح ما جرى. "أخذت حالتها تسوء وتسوء حتى أصبحت أسوأ ممّا سبق لي أن رأيت توائم السيدة هاموند عليه، حتى الزوج الأخير منهم. وظننت فعلاً أنها كانت ستختنق حتى الموت. أعطيتها كل قطرة كانت موجودة في زجاجة سائل عرق الذهب، وعندما سقيتها الجرعة الأخيرة قلت، ليس لديانا أو لماري جو، لأني لم أشأ إقلاقهما أكثر ممّا هما عليه من قلق، بل قلت لنفسي لأني كنت بحاجة إلى التنفيس عن مشاعري: هذا هو الأمل الأخير المتبقي وأخشى أن يكون أملاً واهياً. ثم وبعد ثلاث دقائق بدأت تسعل وتُخرج ما في صدرها من بلغم، وسرعان ما تحسّنت حالتها. يمكنك أن تتخيل ارتياحي يادكتور لأني عاجزة عن وصفه بالكلمات. ولا يخفى عليك طبعاً أن هناك أشياء يستعصي

التعبير عنها بالكلمات."

"نعم أعرف،" أومأ الطبيب إيجاباً، وهو يتأمل آن وكأنه يفكّر أنها هي أيضاً تتصف بصفات لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. لكنه استطاع فيما بعد التعبير عما جال بفكره للسيد و السيدة باري.

"تلك الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي عند آل كُثْبيرت، ذكية بكل معنى الكلمة. واعلما أنها أنقذت طفلتكما من الموت، فلولاها لكان الأوان قد فات عندما وصلتُ إلى هنا. من الواضح أنها حاذقة وحاضرة الذهن وسريعة البديهة أكثر من أية طفلة في عمرها. ولم أر في حياتي شيئاً يشبه تلك العينين اللتين صوبتهما نحوي، وهي تحاول إطلاعي على الحالة."

عادت آن إلى البيت في ألق ذلك الصباح الشتوي الأبيض البارد، مثقلة العينين من النعاس، لكن ذلك لم يحل بينها وبين متابعة التحدّث بدون كلل مع ماثيو، بينما عبرا الحقل الشاسع المجلّل بالبياض، وتجاوزا درب العشاق وقنطرة أشجار القيقب بفخامتها البديعة.

"أوه ياماثيو أليس هذا الصباح صباحاً خلاباً؟ ألا ترى معي أن العالم يبدو وكأن الله قد تخيله في هذه اللحظة ليضفي السرور على قلبه؟ تبدو هذه الأشجار وكأنها قابلة لأن تتطاير من جراء نفخة واحدة مني.. بف.. يسرّني أني أحيا في عالم يجلّله أحياناً ثلج أبيض، ألا توافقني الرأي ياماثيو؟ ورغم كل شئ يسرّني أيضاً أن السيدة هاموند أنجبت ثلاثة أزواج من التوائم. ولو لم تفعل لما عرفت كيفية التصرف مع ميني ماي. ويؤسفني أني غضبت يوماً على السيدة هاموند لإنجابها التوائم. أوه ياماثيو، أنا أشعر بنعاس ثقيل، ولا أظنني سأتمكّن من الذهاب إلى المدرسة. أعرف تماماً أني لن أستطيع إبقاء عينيّ مفتوحتين وسأبدو كالبلهاء، لكني أكره البقاء في البيت، لأن غيل... بعض التلاميذ سيتفوّقون عليَ في الصفّ. وهذا سيجعل النهوض من كبوة الفشل عسيراً، لكن ألا تعتقد أنه كلما كانت محاولة النهوض أكثر صعوبة، كلما كان الرضى النفسي الناجم

عن النهوض ثانية أكثر حلاوة؟"

"حسناً الآن، أظن أنك ستتدبرين أمرك بطريقة جيدة." قال ماثيو وهو ينظر إلى وجه آن الصغير الشاحب وإلى الظلال الداكنة تحت عينيها. "عليك الذهاب إلى السرير حالما نصل، لتحصلي على قدر كافٍ من النوم، وسأقوم بجميع الواجبات المنزلية."

وهكذا أوت آن إلى فراشها وغطّت في نوم عميق مدة طويلة. ولم تستفق إلاّ بعد أن أمست الدنيا واصطبغ بياضها بالحمرة. وعندما نزلت إلى المطبخ وجدت ماريلا التي كانت قد عادت إلى البيت، جالسة هناك تحيك.

"أوه، هل رأيت رئيس الوزراء؟" هتفت آن حالما رأتها. "كيف هو شكله ياماريلا؟"

"هه، ما كان ليكون رئيس وزراء إذا أخذنا شكله بعين الاعتبار،" أجابت ماريلا. "ياللأنف الذي لدى ذلك الرجل! ولكنه خطيب بارع، وقد جعلني أشعر بالفخر لأني من أنصار حزب المحافظين. طبعاً، لم يكن بذي نفع لريتشيل ليند التي تناصر حزب الأحرار. طعامك في الفرن ياآن، ويمكنك الحصول على بعض مربّى الخوخ الأزرق من حجرة المؤن. لا بدّ أنك جائعة. أخبرني ماثيو عن أحداث الليلة الفائتة. وأعترف أن معرفتك ما ينبغي عمله كانت من حسن حظ الجميع، ولو كنت هنا لما استطعت تدبُّر الأمر مطلقاً، لأني لم أر من قبل حالة خُنَّاق. هيا الآن لا تقولي شيئاً قبل انتهائك من الأكل. وإني لأجزم من مجرّد النظر إلى وجهك أنك محشوّة بالكثير من الخطب، ولكن يمكن تأجيلها كلها."

كان لدى ماريلا ما تخبره لآن، لكنها لم تلمّح لها بشئ في تلك الأثناء، لأنها أيقنت أنها لو فعلت فإن الإثارة التي ستنتج عن ذلك الخبر، ستصرف آن في الحال عن الأجواء المادّية بما فيها الرغبة في تناول الطعام. ولم تقل ماريلا شيئاً إلاّ بعد أن أتت آن على آخر ما

كان في طبقها من مربّى الخوخ.

"كانت السيدة باري هنا هذه الظهيرة ياآن، ورغبت في رؤيتك لكني لم أشأ إيقاظك. تقول إنك أنقذت حياة ميني ماي، وأنها آسفة جداً لأنها تصرّفت معك ذلك التصرّف المتعلّق بحادثة نبيذ العنب. قالت إنها تدرك الآن أنك لم تقصدي إسكار ديانا. وهي تتمنى أن تسامحيها وأن تعودي رفيقة ديانا المقرّبة. ويمكنك زيارتهم هذا المساء إذا شئت، لأن ديانا ليست بقادرة حتّى على وطء عتبة بيتها نتيجة زكام أصابها من ليلة أمس. والآن ياآن شيرلي، بحقّ السماء لا تفقدي رشدك وتقفزي كالمجانين."

لم يكن للإنذار أية فائدة، إذ كانت آن قد حلّقت وانتشت قلباً وقالباً، وهبّت واثبة على قدميها وقد شعّ وجهها بشعلة الحياة التي أُضْرِمت في روحها.

"أوه ياماريلا، أأستطيع الذهاب الآن قبل أن أجلي أطباقي؟ سأجليها بعد عودتي ولكني لا أستطيع الآن في هذه اللحظة الحساسة إلزام نفسي بأي عمل غير عاطفي مثل جلي الأطباق."

"نعم، نعم، اذهبي،" قالت ماريلا بلهجة متسامحة. "آن شيرلي أأنت مجنونة؟ ارجعي فوراً وضعي شيئاً عليك، يبدو وكأني أنادي على الريح، لقد انطلقت بدون قلنسوة أو شال. انظروا إليها تعدو في البستان بشعرها المتطاير. ستكون رحمة من السماء إذا لم يصبها زكام حادّ."

عادت آن إلى البيت راقصة تحت شفق الشتاء الأرجواني الذي غمر البقاع الثلجية. وبعيداً، في الجنوب الغربي لمعت نجمة مسائية، مرسلةً وميضاً عظيماً يشبه بريق اللآلئ. وبدت السماء المطلّة على الفضاء الأبيض اللامع وعلى أيائك الراتينج الداكنة، ذات شحوب ذهبي وحمرة أثيرية، وتصاعد رنين أجراس عربات الثلج وسط التلال الثلجية وكأنه إيقاعات سحرية تتخلّل الهواء الصقيعي. لكن تلك

الإيقاعات لم تكن أحلى من الأغنية التي في قلب آن وعلى شفتيها.

"ترين أمامك شخصاً مكتمل السعادة ياماريلا،" أعلنت. "أنا مكتملة السعادة، نعم، رغم شعري الأحمر. في الوقت الحاضر معنوياتي تتجاوز الشعر الأحمر. قبّلتني السيدة باري وبكت وقالت إنها آسفة، وأنها لن تستطيع أبداً مكافأتي. شعرت بارتباك مخجل ياماريلا، لكني مع ذلك قلت بمنتهى الأدب: لا أضمر لك أي شعور بالكراهية ياسيدة باري. أؤكد لك للمرة الأخيرة أني لم أقصد تسميم ديانا، ومنذ الآن سأجلّل الماضي بغلالة النسيان. ألم يكن هذا أسلوباً محترماً في الكلام ياماريلا؟ شعرت وكأني أكدّس أكواماً من الجمر المشتعل في رأس السيدة باري. قضيت مع ديانا أمسية رائعة. علّمتني خلالها غرزة كروشيه فاخرة، علّمتها إياها عمتها في كارمودي. ولا يوجد مخلوق آخر في أفونليا يعرفها غيرنا، وأقسمنا بإخلاص على ألاّ نعلمها لأحد. وأعطتني بطاقة جميلة مزينة بإكليل من الورود وفيها بيت من الشعر:

إذا كنت تحبيني كما أحـــبك
فلن يفصلني سوى الموت عنك

وهذا صحيح ياماريلا. سنطلب من السيد فيلبس أن يدعنا نجلس معاً في المدرسة من جديد. ويمكن لجيرتي باي الجلوس مع ميني آندروز. كان الشاي الذي احتسيناه لذيذاً. واستعملت السيدة باري أفضل طقم شاي عندها من الخزف الصيني، كما لو أني كنت ضيفة حقيقية. لا أستطيع وصف الإثارة التي تملكتني ياماريلا. لا أحد من قبل استعمل أفضل طقم شاي عنده من أجلي. وأكلنا كعك الفاكهة، وكعك الزبدة بالسكّر، والكعك المقلي، ونوعين من المربّيات ياماريلا. وسألتني السيدة إذا كنت أرغب في المزيد من الشاي، وقالت لزوجها: بابا ألا تُدني طبق البسكويت من آن؟ لا بدّ أنه من اللطيف أن يكون المرء راشداً ياماريلا، ولا شئ أروع من معاملتك رغم صغر سنك وكأنك راشدة."

"لا أعرف شيئاً عن هذا،" قالت ماريلا، وهي تطلق زفرة صغيرة.

"على كل حال، عندما أكبر،" قالت آن بلهجة حاسمة، "سأخاطب البنات الصغيرات كما لو أنهن كن راشدات مثلي، ولن أسخر منهن على الإطلاق إذا استعملن عبارات كبيرة. فأنا أعرف نتيجة خبرتي المريرة كم أن هذا جارح للمشاعر. بعد تناول الشاي صنعنا أنا وديانا حلوى التوفي. لا أظن أن ذلك التوفي كان ناجحاً، فأنا وديانا لم يسبق لنا أن جرّبنا صنعه من قبل. وعندما أوكلتني ديانا بمهمة تحريكه ريثما تدهن الأوعية بالزبدة، نسيته وتركته يحترق. وبعد ذلك، عندما وضعناه على حافّة السياج في الخارج ليبرد، ولَغت الهِرَّة في أحد الأوعية وكان علينا رمي ما في ذلك الوعاء. مع ذلك لهونا كثيراً أثناء إعدادنا له. وعندما قررتُ العودة إلى البيت، دعتني السيدة باري إلى زيارتهم كلما سنحت لي الفرصة، ووقفت ديانا عند النافذة وبعثت لي قُبَلاً على طول درب العشاق. أؤكد لك ياماريلا أني الليلة أشعر بالرغبة في الصلاة تعتمل في قلبي، وسوف أبتكر صلاة مميزة لم يسبق لها مثيل، على شرف هذه المناسبة."

١٩

حفل موسيقي، كارثة، واعتراف

"ماريلا، أيمكنني الذهاب كي أرى ديانا لدقيقة؟" سألت آن ماريلا، وهي تنزل لاهثة من غرفة السقيفة الشرقية في ذات أمسية من أمسيات شهر شباط.

"لا أرى موجباً لتجوالك في الأرجاء بعد حلول الظلام،" أجابتها ماريلا معارضة. "عدتّما أنت وديانا من المدرسة إلى المنزل معاً، ثم وقفتما هناك فوق الثلج لنصف ساعة، بينما لم يكفّ لساناكما عن اللغو طيلة الوقت.. طق..طق..، ولا أظنك مضطرة فعلاً إلى رؤيتها من جديد."

"لكنها تريد رؤيتي،" توسّلت آن. "لديها شئ مهم جداً تودّ إطلاعي عليه."

"وكيف تعرفين هذا؟"

"أرسلت لي الآن إشارة من نافذتها، فقد تدبّرنا طريقة نتبادل بها الإشارات بوساطة الشموع وبطاقات الكرتون؛ نضع الشمعة عند حافة النافذة ونصدِر عدداً مُعيّناً من الوميض عن طريق تمرير الكرتونة إلى الأمام والوراء. عدّة ومضات تعني أن هناك شيئاً مُلحّاً. كانت هذه الفكرة فكرتي ياماريلا."

"إني لأضمن لك هذا،" أقرّت ماريلا بنبرة مؤكِّدة. "والشئ التالي الذي ستفعلانه هو إضرام النار بالستائر، بهذه الإشارات الهراء."

"أوه، نحن حذرتان جداً ياماريلا، كما أنها وسيلة بالغة الإثارة.

تعني الومضتان: هل أنت هناك؟ وتعني ثلاث ومضات: نعم، وأربع ومضات تعني: لا، أمّا خمس ومضات فتعني: تعالي بأسرع ما يمكنك، فلدي خبر مهم أودّ إطلاعك عليه. لقد بعثت لي ديانا خمس ومضات الآن، وأنا أكابد عذاب التشوّق لمعرفة ما تريد إخباري به."

"هه، لا داعي إذن لأن تكابدي أكثر ممّا كابدت،" قالت ماريلا ساخرة. "يمكنك الذهاب، ولكن عليك العودة بعد عشر دقائق تماماً، تذكّري هذا."

تذكّرت آن ما طلبته منها ماريلا وعادت ضمن الوقت المشروط، رغم أنه لا يمكن لأي مخلوق فانٍ أن يعرف مطلقاً كم كلّفها الأمر لتختتم نقاشها المهم مع ديانا في حدود تلك الدقائق العشر، مع العلم أنها أحسنت استغلالها.

"أوه ياماريلا، أودّ سؤالك شيئاً ما. حسناً، إن عيد ميلاد ديانا غداً. وأخبرتها أمها أنه بإمكانها دعوتي إلى بيتهم بعد المدرسة، وقضاء الليلة معها. ستأتي نسيباتها من نيوبريدج في مركبة ثلج ضخمة وسيذهب الجميع إلى الحفل الموسيقي الذي سيقيمه نادي المناظرات في قاعة الاحتفالات ليلة غد. وسيصحبننا معهن أنا وديانا إلى الحفل الموسيقي، هذا إذا سمحت لي بالذهاب. ستسمحين لي بذلك، ألن تفعلي ياماريلا؟ أوه، إني أشعر بالكثير من الإثارة."

"يمكنك أن تهدأي إذن، لأنك لن تذهبي، فأنت أحسن حالاً في بيتك وسريرك. أمّا بالنسبة إلى حفل النادي ذاك، فهو هراء، والبنات الصغيرات لا يجب السماح لهن بالذهاب إلى مثل تلك الأماكن بتاتاً."

"أنا متأكدة أن نادي المناظرات نادٍ محترم جداً،" قالت آن مستعطفة.

"أنا لا أقول إنه ليس محترماً. لكنك لن تبدأي منذ الآن بارتياد الحفلات الموسيقية والبقاء خارج البيت حتى ساعة متأخرة من الليل. يالها من أمور مناسبة للأطفال. ولكم تفاجئني السيدة باري بسماحها لديانا بالذهاب."

"ولكنها مناسبة خاصة جداً." أنّت آن، وهي على وشك الشروع بالبكاء. "ليس لديانا إلاّ عيد ميلاد واحد في السنة. وليس الأمر كما لو أن أعياد الميلاد هي من الأشياء العادية ياماريلا. ستُلقي بريسي آندروز مقطوعة :حظر التجول لن يُعلن الليلة. وهذه قطعة أخلاقية جيدة ياماريلا، وأنا متأكدة أنها ستفيدني كثيراً إذا سمعتها. وستغني الجوقة أغانٍ شَجيّة جميلة تكاد تكون مشابهة للترانيم الدينية. و.. وسيكون للقسّ دور أيضاً ياماريلا، أجل، صدّقيني، إنه.. إنه سيلقي كلمة، وهذا سيكون نفس الشيء كما لو أنه يتلو موعظة. أرجوك ياماريلا ألا يمكنني الذهاب؟"

"أسمعتِ ما قلته لك ياآن؟ انزعي جزمتك الآن واذهبي إلى النوم. لقد تجاوز الوقت الساعة الثامنة."

"هناك أمر آخر ياماريلا،" قالت آن بأسلوب شخص يحاول إصابة الهدف بطلقة أخيرة. "قالت السيدة باري لديانا أنه يمكننا النوم في غرفة الضيوف الاحتياطية. فكّري بالشرف الذي ستحصل عليه صغيرتك آن عندما توضع في سرير غرفة الضيوف الاحتياطية."

"هذا شرف عليك أن تعيشي بدونه. اذهبي إلى النوم، ولا تدعيني أسمع كلمة واحدة أخرى تخرج من فمك."

ما كادت آن ترتقي الدرج حزينة، وقد أخذت الدموع تتدحرج على خديّها، حتى فتح ماثيو عينيه، رغم أنه بدا خلال فترة الحوار كلها مستغرقاً في نوم عميق على الأريكة، وقال بلهجة حاسمة: "ماريلا، أرى أنه عليك السماح لآن بالذهاب."

"أمّا أنا فلا أرى هذا،" كالت له ماريلا الصاع بالمثل. "من الذي يُشرف على تربية هذه الطفلة ياماثيو؟ أنت أم أنا؟"

"هه، أنت،" وافقها ماثيو.

"لا تتدخل إذن."

"ولكني لا أتدخل. ليس إبداء الرأي تدخُّلاً. ورأيي هو أن تسمحي لآن بالذهاب."

"سترى أنه يجب عليّ السماح لها بالذهاب إلى القمر إذا رغبتْ في هذا ياماثيو. لا شكّ عندي في ذلك،" جاء جواب ماريلا اللطيف. "كان يمكن أن أسمح لها بقضاء الليلة مع ديانا لو اقتصر الأمر على هذا. أمّا ذلك المخطط لحضور الحفل الموسيقي فلا أوافق عليه. ستذهب إلى هناك وستُصاب بزكام حادّ، وستملأ رأسها بالهراء والإثارة. وستبقى مهتاجة لأسبوع. أنا أفهم مزاج هذه الطفلة وما الذي يعود عليها بالفائدة أكثر منك ياماثيو."

"أرى أنه عليك السماح لآن بالذهاب،" كرّر ماثيو بعناد.

لم يكن الجدال مزيّة من مزايا ماثيو البارزة، ولكن لا شكّ أن تشبثه برأيه كان واحداً من خصاله الفريدة. وهكذا لاذت ماريلا بالصمت لتحتمي به، وهي تزفر يائسة.

كانت آن في صباح اليوم التالي تجلي أطباق الإفطار في حجرة المُؤن. وفي تلك الأثناء، وقبل أن يغادر ماثيو البيت إلى البيدر، تريّث وقال لماريلا من جديد:

"أرى أنه عليك السماح لآن بالذهاب ياماريلا."

بدت ماريلا للحظة وكأنها على وشك التلفظ بكلمات لا يجوز التفوه بها، ثم عدلت عن ذلك مذعنة للموقف الحتمي الذي واجهها، وقالت بنبرة لاذعة:

"جيد جداً، يمكنها الذهاب، ما دمتَ لن تَقَرّ نفساً بأي شئ آخر."

انبثقت آن من حجرة المؤن واثبة وهي ما تزال تمسك بيدها خرقة الجلي التي أخذت تقطر على الأرض.

"أوه ياماريلا.. ياماريلا، كرري هذه الكلمات المباركة مرة ثانية."

"لا أرى داعياً لتكرار ما قلته مرة ثانية. هذا قرار ماثيو وأنا أنفض يدي منه. إذا أصابك التهاب رئوي من جرّاء نومك في سرير غريب، أو بعد مغارتك قاعة الاحتفال في منتصف الليل، لا تلوميني،

عليك لوم ماثيو. ياآن شيرلي أنت تقطرين الدهن على الأرض. أنا لم أر في حياتي طفلة بهذا الطيش."

"أوه، أعرف ياماريلا أني مصيبة كبيرة بالنسبة إليك،" قالت آن معتذرة. "فأنا أرتكب الكثير من الأخطاء. مع ذلك فكّري بالأخطاء التي لا أرتكبها، رغم أني قد أرتكبها فيما بعد. سأُحضِر بعض الرمل وأفرك البقع من على الأرض قبل مغادرتي إلى المدرسة. أوه ياماريلا، كان قلبي معقوداً على الذهاب إلى ذلك الحفل الموسيقي. أنا لم أذهب إلى أي حفل موسيقي في حياتي، وعندما تتحدث البنات الأخريات في المدرسة عن الحفلات الموسيقية أشعر أني غريبة عن هذا العالم. أنت لم تعرفي كُنه شعوري الحقيقي حيال هذه المناسبة، ولكن ماثيو استطاع سبر أغوار نفسي. ماثيو يفهمني ياماريلا، وليس ألطف من أن يجد الإنسان من يفهمه."

بلغ حماس آن درجة تفوق وعيها بضرورة تقدير الأمور كما ينبغي، مثل وجوب الانتباه إلى دروسها في المدرسة. ولذلك تفوّق عليها غيلبرت بلايث في ذلك اليوم وتخطاها بمراحل في مادّة الحساب. على كل حال، كان شعور آن بالمذلة أقل من المعتاد، بالمقارنة مع أهمية الحفل الموسيقي وغرفة الضيوف الاحتياطية. وظلت تثرثر هي وديانا عن المناسبة طيلة النهار. ولو كانت ورفيقتها تحت إِمْرة معلّم أكثر صرامة من السيد فيلبس، لاستحقتا التوبيخ اللاذع على ما بدر منهما.

في ذلك اليوم لم يجر في المدرسة أي حديث إلاّ عن الحفل. وشعرت آن أنها ما كانت ستتمكّن من احتمال الوضع لو لم يُسمح لها بالذهاب إليه. كان من عادة نادي مناظرات أفونليا أن يلتقي مرة كل أسبوعين طيلة موسم الشتاء، ليقيم العديد من النشاطات الصغيرة. لكن ذلك الحفل كان حدثاً عظيماً، وبلغت تعرفة دخوله، التي سيعود ريعها إلى المكتبة، عشرة سنتات. وظلّ شبّان أفونليا يتدربون على أدوارهم لأسابيع. وكان جميع التلاميذ في المدرسة مهتمين به نظراً لمساهمة

إخوتهم أو أخواتهم فيه. وتوقّع كل فرد فيهم تجاوز التاسعة من العمر ارتياد ذلك الحفل، باستثناء كاري سلون التي كان رأي والدها مماثلاً لرأي ماريلا بخصوص ذهاب البنات الصغيرات إلى حفل موسيقي ليلي. ولكم بكت كاري سلون فوق كتاب الصرف والنحو طيلة فترة ما بعد الظهيرة، ولكم شعرت بأن الحياة لا تستحق أن تُعاش.

بدأت الإثارة الفعلية بالنسبة إلى آن بعد انتهاء دوام المدرسة، وأخذت تتزايد بتصاعد مستمر حتى وصلت إلى لحظةٍ من التداعي الإيجابي الجَذِل في الحفل الموسيقي.

تناولت هي وديانا شاياً لذيذاً. ثم، وفي غرفة ديانا الصغيرة بالطابق العلوي، انهمكتا انهماكاً كُلّياً في تلك المهمة المُستساغة المتعلقة بارتداء الملابس. صفّفت ديانا غُرّة آن وفق أحدث صرعة، وعقدت آن الشرائط على شعر ديانا بطريقة خاصة كانت تتفرّد بها. وجرّبت الصغيرتان على الأقل ستة نماذج مختلفة لتصفيف شعرهن من الخلف. وفي النهاية أصبحتا على أتمّ استعداد وقد تضرّجت وجنتاهما بحمرة قرمزية وشعّت أعينهما ببريق الحماس.

في الحقيقة، لم تستطع آن إلاّ أن تعاني من حسرة مفاجئة عابرة عندما قارنت معطفها الرمادي العادي بأكمامه الضيقة وتصميمه البسيط وقلنسوته السوداء القبيحة مع سترة ديانا الأنيقة وقلنسوتها الفرائية الجميلة. لكنها سرعان ما تجاوزت تلك الحسرة عندما تذكّرت أن لديها خيالاً يمكنها الاستفادة منه.

جاءت نسيبات ديانا؛ بنات آل موراي، من بلدة نيوبريدج. واحتشد الجميع داخل مركبة الثلج الفخمة وسط الأغطية الفرائية الناعمة. وحرصت آن على التمتع بكل لحظة من لحظات وقتها أثناء توجّه المركبة نحو موقع صالة الحفل. كانت المركبة تنزلق فوق الطرقات الطريّة الملساء، مُغضّنة تحت مزلاجها أديم الأرض الثلجي. وكان الغروب بديعاً وهو يكتنف التلال الثلجية ومياه خليج سانت لورانس العميقة الزرقاء، مؤطراً تناغمهما الأخّاذ الذي بدا كطاسةٍ هائلة

تحتوي اللؤلؤ والزفير بإطارٍ من النبيذ والنار. وكان تصاعُد قرع أجراس عربات الثلج وصدى الضحكات البعيدة يشبه طرب جانّ الغابة وقد تناهى من كل حدب وصوب.

"أوه ياديانا،" قالت آن وهي تسحب نفساً عميقاً، وتضغط على يد ديانا من فوق قفازها تحت غطاء الفراء، "أليس كل هذا أشبه بالحلم الجميل؟ أأبدو مثلما أبدو في العادة؟ أشعر أني مختلفة جداً، لدرجةٍ أعتقد معها أن لا بدّ من ظهور هذا الاختلاف على مُحياي."

"تبدين كاملة الروعة،" أجابت ديانا، التي كانت قد تلقّت على التوّ مديحاً من إحدى قريباتها، وشعرت أنه عليها تعميم هذا المديح. "إن بشرتك تبدو ذات ألق لا مثيل له."

كان برنامج الحفل في تلك الليلة، سلسلة متتابعة من الإثارات، بالنسبة إلى مشاهد واحد من الحضور على الأقل. فقد أكّدت آن لديانا أن كل إثارة جديدة، كانت أروع من سابقتها.

عندما تقدّمت بريسي آندروز، وشرعت ترتقي السلم الصغير المؤدي إلى المنصّة، وقد شاع حولها العتم الخالي من أي بصيص ضوء، ارتجفت آن تعاطفاً معها. كانت بريسي آندروز ترفل بثوب مخصور من الحرير الوردي اللون، وتتقلّد عقداً من اللؤلؤ حول رقبتها البيضاء الفتيّة، وتزيّن شعرها بالقرنفل. وسرت إشاعة بأن المعلّم تدبّر أمر جلب هذه الأشياء من المدينة، خصيصاً لها. وعندما أنشدت الجوقة: هناك عند الأقحوان الوديع، حملقت آن بسقف الصالة كما لو أنه كان مزداناً بصور الملائكة. وعندما أخذ سام سلون يقدّم وصلته الفكاهية شارحاً ومفسراً: كيف وضع سوكري دجاجة، ضحكت آن ملء شدقيها حتى جعلت الحاضرين القريبين منها يضحكون أيضاً، تجاوباً معها أكثر من استمتاعهم بالمجموعة المختارة من النكات التي تعتبر مبتذلة حتى في أفونليا. وعندما ألقى السيد فيلبس: خطبة مارك أنطونيو فوق جثمان القيصر المسجّى، باللهجة الأكثر نفاذاً إلى القلب، وهو يرمق بريسي آندروز بعد نهاية كل جملة، شعرت آن أنها تملك

الجرأة على النهوض من مكانها لتعلن التمرّد على العار، لو أن مواطناً رومانياً واحداً فقط قاد الحملة.

ولم تفقد الاهتمام إلاّ بفقرة واحدة من البرنامج. وذلك عندما ألقى غيلبرت بلايث مقطوعة: قلعة بنجين عند نهر الراين. إذ تناولت كتاباً كان مع رودا موراي وأخذت تقرأ فيه إلى أن انتهى غيلبرت. وبينما جلست آن متشنجة بلا حراك، كانت ديانا تضغط على يديها حتى استشعرت فيهما وخزاً.

عادت الصغيرتان إلى البيت عند الساعة الحادية عشرة ليلاً. ورغم سرورهما المُشبع، كان لا بدّ لهما من تصعيد ابتهاجهما باسترجاع أحداث المناسبة من جديد. كان البيت ساكناً ومظلماً، ممّا دلّ على إخلاد جميع قاطنيه إلى النوم. ولذلك استرقت آن وديانا الخطى على رؤوس أصابعهما حتى وصلتا إلى الصالة الطويلة الضيقة التي تنفتح على غرفة الضيوف الاحتياطية. كان المكان دافئ الحرارة لطيف الجو، ينبعث فيه بصيص نور من جمار الموقد.

"دعينا نخلع ملابسنا هنا،" قالت ديانا. "فالجو دافئ ولطيف."

"ألم نقضِ وقتاً ممتعاً؟" قالت آن وهي تتنهّد بجذل. "لا بدّ أنه شئ رائع أن يقف المرء هناك ويلقي الشعر. أتظنيننا سنُدعى يوماً لنقوم بذلك ياديانا؟"

"نعم بالتأكيد، سنقوم بهذا في يوم ما. فهم يرغبون دوماً في أن يساهم التلاميذ الراشدون معهم. وغيلبرت بلايث يقوم بهذا في أغلب الأحيان وهو لا يكبرنا إلاّ بسنتين. أوه ياآن، كيف أمكنك التظاهر بعدم الاستماع إليه؟ عندما وصل إلى السطر الذي يقول:

وهناك أخرى، وليست بأخت لي.

نظر إليك مباشرة."

"ديانا،" صاحت آن غاضبة، "أنت رفيقتي الحميمة، لكن هذا

لا يعني سماحي لك بمحادثتي عن ذلك الشخص. والآن هل أصبحت جاهزة للنوم؟ دعينا نجري ونتسابق لنرى أيّنا تصل إلى السرير أولاً."

راق الاقتراح لديانا. وسرعان ما طارت طفلتان ترفلان بأرواب النوم البيضاء على طول الصالة ثم الغرفة الاحتياطية وقفزتا على السرير في اللحظة عينها. حينها، تحرك شئ ما تحتهما، ثم أطلق ذلك الشئ شهقة تلتها صرخة، تلاها صوت مخلوقٍ ما يقول بصوت مخنوق:

"يارحمة الســــــماء!"

ما تمكّنت آن أو ديانا أن تعرفا أبداً كيف استطاعتا مغادرة ذلك السرير وتلك الغرفة. كل ما عرفتاه هو أنهما وجدتا نفسيهما تسترقان الخطى على رؤوس أصابعهما صعوداً إلى الطابق العلوي، وهما مرتعدتيّ الفرائص، بعد هرولتهما المسعورة فراراً من ذلك المكان.

"أوه، من كان هذا .. ما كان هذا؟" همست آن، وأسنانها تصطك برداً ورعباً.

"إنها العمة جوزفين،" أجابت ديانا، وهي تشهق ضاحكة. "أوه ياآن، إنها العمة جوزفين، مهما كان السبب الذي جعلها تكون هناك. وأعرف أنها ستستشيط غضباً من جرّاء ما حدث. إنه شئ رهيب، هو حقاً رهيب، ولكن بالله عليك ياآن أواجهتِ من قبل حادثاً أكثر هزلاً ممّا جرى؟"

"من هي العمة جوزفين؟"

"إنها عمة أبي وتعيش في مدينة تشارلوت تاون. هي امرأة مُسنّة جداً، في السبعين من العمر. ولا أصدّق أنها كانت في يومٍ ما طفلة صغيرة. كنّا نتوقّع مجيئها لزيارتنا ولكن ليس الآن. هي من الأشخاص المتزمتين المتعنتين، ولسوف توبّخنا أيّما توبيخ على ما جرى، أنا متأكدة من هذا. أمّا الآن فقد أصبح لِزاماً علينا أن ننام مع

مـيني مـاي، ولا يمكنك أن تتـصـوري ياآن كيف ترفس برجليـهـا وهـي نائمة."

لم تظهر الآنسة جوزفين عندما حان وقت الإفطار في صباح اليوم التالي. ولاطفت السيدة باري الطفلتين بابتسامة ودودة.

"هل قضيتما وقتاً طيباً ليلة أمس؟ حاولت انتظاركما إلى أن تعودا إلى البيت، لأني أردت إعلامكما أن العـمـة جـوزفين هنا، وأن عليكما النوم في الطابق العلوي، لكني كنت مرهقة جداً فغلبني النعاس. آمل ألاّ تكوني قد أزعجت عمتك ياديانا."

التزمت ديانا جانب الصمت الحكيم، لكنها تبادلت مع آن نظرات ماكرة متشبّعة بذكرى المهزلة الشائنة التي أخذت مجراها في الليلة الماضـيـة. ومـا إن انتـهـت وجبـة الإفطار حـتى غـادرت آن إلى بيـتـهـا ولازمته طيلة النهار، غافلة عن الجلبة التي قعقعت بعد ذلك في منزل آل باري. وظلّت كذلك إلى أن أرسلتـهـا ماريلا، في ساعة متـأخـرة من ذلك اليوم، إلى بيت السيدة ليند.

"إذن، كادت الآنسة باري المسكينة تموت فزعاً ليلة أمس بسببكما أنت وديانا؟" قـالت لهـا السـيـدة ليند بلهـجـة صـارمـة لكنـهـا مـصـحـوبة بغمزة من عينها. "مرّت بيَ اليوم السيدة باري لبضع دقائق وهـي في طريقها إلى كارمودي، وكانت متوتّرة جداً بسبب ما جرى، لأن الآنسة باري استيقظت هذا الصباح متعكّرة المزاج، وصدّقيني إن تعكّر مزاج الآنسة باري ليس مجرّد مزحة. وهـي تصرّ أصراراً قـاطعـاً على عدم مخاطبة ديانا."

"لم يكن الخطأ خطأ ديانا،" قـالت آن بصـوت نادم، "أنا السـبب، لأني كنت مَن اقترح فكرة التسابق إلى السرير لنرى من يبلغه أولاً."

"هـهـا، عـرفت هذا!" قـالت السـيـدة ليند بنشـوة مُتكَهِّن صـدق استشرافه للأمور. "عرفت أن الفكرة وليدة بنات أفكارك أنت. حسناً، لقد تسببت بحدوث مشكلة عويصة، هذا ما تسببت بـه فـعـلاً. كانت

الآنسة باري العجوز تنوي المكوث لمدة شهر هنا، ولكنها تُصرّح الآن أنها ستعود إلى المدينة غداً، علماً بأن الغد هو يوم أحد وما إلى ذلك. ولو عثرت على من يُقلّها اليوم لغادرت في الحال. وعلى الرغم من تعهّدها بدفع أقساط دروس الموسيقى لديانا، ترفض الآن رفضاً قاطعاً القيام بأي شئ من هذا لبنت غُلامية. هه، لا بدّ أنهم مرّوا بوقت عصيب هذا الصباح، ولا بدّ أن آل باري يشعرون أن ما حدث سيحرمهم من الميراث، فالآنسة باري العجوز امرأة ثرية، وهذا ما يدفعهم إلى توطيد علاقتهم بها. طبعاً، لم تقل لي السيدة باري ذلك، لكن معرفتي بخبايا النفوس البشرية تجعلني صاحبة أحكام لا تشوبها شائبة."

"يالي من بنت سيئة الطالع،" قالت آن مُتشكّية. "أنا لا أنفكّ أقحم نفسي في المشاكل، وأقحم فيها أيضاً رفاقي المُقرّبين مني؛ أناس أبذل من أجلهم دم قلبي. بالله عليك ياسيدة ليند أيمكنك إخباري لماذا تجري الأمور معي على هذا المنوال دائماً؟"

"هذا لأنك مندفعة كثيراً ومتهورة ياطفلتي، هذه هي الحقيقة. أنت لا تتريثي بتاتاً لتفكّري. ومهما كان الشئ الذي يخطر لك قوله أو عمله، تقولينه أو تعملينه بدون لحظة تفكير واحدة."

"أوه، ولكن هذا أجمل ما في الأمر،" اعترضت آن. "شئ ما يُومِض في ذهنك، ويكون مثيراً جداً، بحيث لا يكون أمامك إلاّ التجاوب معه. وإذا تريثت لتفكّري به، تفسدين متعته كلها. ألم يسبق لك الشعور بنفس هذه الحالة ياسيدة ليند؟"

لا، لم يسبق للسيدة ليند أن شعرت بهذا، ولذلك اكتفت بهزّ رأسها الحكيم نافية.

"يجب عليك أن تتعودي على التفكير قليلاً ياآن، هذا ما يجب عليك فعله. والمَثل الذي ينبغي أن يكون شعارك في الحياة هو: انظر قبل أن تقفز، خصوصاً قبل أن تقفز فوق أسِرّة غرف الضيوف الاحتياطية."

أغربتالسيدة ليند في الضحك على نكتتها الدمثة، لكن آن بقيت مستغرقة في أفكارها، ولم تر ما يستحقّ الضحك على ذلك الوضع الذي بدا لها وضعاً جدّياً للغاية. وما كادت تغادر بيت السيدة ليند، حتى أسرعت عبر الحقل الأجرد باتجاه دارة منحدر البستان. ولاقتها ديانا عند باب المطبخ.

"عمتك جوزفين ممتعضة كثيراً ممّا حدث، أليس كذلك؟" همست آن.

"نعم،" أجابت ديانا، وهي تكتم كركرتها وتنظر من وراء كتفها بقلق نحو باب غرفة الجلوس المغلق. "كانت مُستشيطة غضباً ياآن. وليتك سمعت توبيخها لي. قالت إنها لم تر في حياتها بنتاً سيئة الخُلق مثلي. وأنه على والديَّ أن يخجلا من طريقة تربيتهما لي. وتقول إنها لا تريد البقاء عندنا. أنا واثقة بأن هذا لا يهمني أبداً، لكن أبي وأمي منزعجان كثيراً."

"لماذا حدث هذا؟ ألم تخبريهم أن الخطأ خطأي أنا؟" سألتها آن.

"وكأن هذا من طبعي، أليس كذلك؟" قالت ديانا بتعالٍ. "أنا لست واشية نمّامة ياآن شيرلي، وعلى كل حال أنا ملومة بقدر ما أنت ملومة."

"إذن، سأخبرها أنا بنفسي،" قالت آن بتصميم.

تفرّست فيها ديانا.

"آن شيرلي، لن تفعلي شيئاً من هذا أبداً، إنها ستأكلك وأنت على قيد الحياة!"

"لا تسببي لي خوفاً أكثر ممّا أنا فيه من خوف،" توسّلت آن. "إني لأفضِّل التقدم نحو فوهة مدفع على مواجهتها. ولكن يتحتم عليَّ القيام بهذا ياديانا. الخطأ كان خطأي ويجب أن أعترف. ولحسن الحظ أصبحت خبيرة في مجال الاعتراف."

"حسناً، إنها في غرفة الجلوس،" قالت ديانا. "يمكنك الدخول

إليها إذا شئت. أمّا أنا فلا أجرؤ. ولا أظنك ستُصلحين شيئاً ممّا سبق إفساده."

بهذا التشجيع تحدّت آن الأسد في عرينه، كما يقول المثل. مشت بثبات نحو غرفة الجلوس، ونقرت على الباب نقراً خفيفاً، وردّت على ذلك النقر "ادخل" حادّة.

كانت الآنسة باري، تلك العجوز النحيلة المتزمتة التي تعوزها حرارة العاطفة، جالسة قرب الموقد تحيك بعصبية. لم تكن نار غضبها قد بردت، وكانت عيناها ما تزالان تقدحان بالشرر من خلال نظارتها الذهبية الإطار. استدارت وهي جالسة على كرسيها، متوقّعة رؤية ديانا، ففوجئت برؤية بنت ذات وجه شاحب تطلّ منه عينان واسعتان مفعمتان بخليط من الشجاعة الجسورة والرعب المتقهقر.

"من أنت؟" سألتها الآنسة جوزفين باري بدون تكلّف.

"أنا آن المرتفعات الخضراء،" أجابت الزائرة الصغيرة وهي ترتجف، وتُشابك يديها بتلك الطريقة التي تتميز بها، "وجئت لأعترف، إذا سمحت لي."

"لتعترفي بماذا؟"

"بأن الخطأ كان خطأي فيما يتعلق بقضية القفز على السرير الليلة الماضية. أنا اقترحت هذا، ولا مجال على الإطلاق لأن تفكّر ديانا بعمل من هذا النوع. أنا متأكدة ممّا أقوله لك، فديانا بنت خلوقة وراقية ياآنسة باري. وما ينبغي لك معرفته هو أنه من الظلم لومها."

"هه، ينبغي لي، ها؟ أظن أن ديانا شاركت بنصيبها من القفز على أقلّ تقدير. ياللتصرفات الغريبة في البيوت المحترمة!"

"لكننا كنا نلهو،" أصرّت آن. "أرجو أن تسامحينا الآن ياآنسة باري، بعد أن اعتذرنا. أو على الأقل سامحي ديانا من فضلك، وامنحيها فرصة أخذ دروس الموسيقى. إن قلب ديانا معقود الآمال

على تلك الدروس الموسيقية ياآنسة باري. وأنا أعلم علم اليقين ما معنى أن تتعلق آمال قلب الإنسان بشئ ما، ثم لا يحصل عليه. إذا كان لا بدّ وأن تغضبي على أحد، اغضبي عليَ أنا، لأني معتادة على امتعاض الناس مني، ويمكنني احتمال ذلك أكثر من ديانا."

كان معظم الغيظ قد انقشع من عينيّ المرأة المُسنّة في ذلك الوقت، وأخذ يحلّ محلّه بريق اهتمام، رغم ذلك قالت بصرامة:

"لا أرى التذرع بحجّة اللهو عذراً مقنعاً. ما كانت البنات الصغيرات في أيام طفولتي، لينغمسن في هذا النوع من اللهو على الإطلاق. إنك لا تعرفين ما معنى أن تكوني مستغرقة في نومك العميق بعد رحلة سفر طويلة وشاقة، ثم توقظك على حين غِرّة بنتان جسيمتان وهما تثبان فوقك."

"نعم، لا أعرف، ولكني أستطيع التَخيُّل،" قالت آن بحماس. "أنا متأكدة أن ما حدث سبّب لك إزعاجاً لا يعدله إزعاج، ولكن هناك وجهة نظرنا أيضاً. ألديك أي خيال ياآنسة باري؟ إذا كنت تملكين القدرة على التَخَيُّل ضعي نفسك مكاننا، نحن لم نعرف أن السرير لم يكن شاغراً، ولقد أفزعتِنا حتى الموت، وكان الشعور الذي تملّكنا رهيباً. وفي النهاية لم نتمكنَ من النوم في غرفة الضيوف الاحتياطية بعد أن منّينا أنفسنا بذلك. أظنك ياآنسة باري معتادة على النوم في مثل هذه الغرف، لكن تخيلي كُنْه شعورك لو كنت طفلة يتيمة، لم يسبق لها في حياتها الحصول على مثل هذا الشرف."

في ذلك الوقت كان الغيظ قد فارق الآنسة باري نهائياً، بل إنها في الواقع أرسلت ضحكة جعلت ديانا تتنفس الصعداء بارتياح عظيم عندما سمعتها، بعد انتظارها العصيب الصامت في المطبخ.

"أخشى أن تكون مُخيلّتي صَدِئة قليلاً، فقد مضى وقت طويل منذ أن استعملتها آخر مرة،" قالت. "وإني لأقرّ أن دعواك للتعاطف معك، تعادل دعواي. يتوقف الأمر كله على الطريقة التي نرى بها الأشياء.

تعالي واجلسي هنا، وحدّثيني عن نفسك."

"يؤسفني أني لا أستطيع،" قالت آن بنبرة حاسمة. "كنت أتمنى هذا، لأنك تبدين لي سيدة مهمة، وربما كانت روحك مُتائِمة لروحي أيضاً، رغم أن مظهرك لا يوحي لي بهذا. إن واجبي يدعوني الساعة للذهاب إلى البيت حيث الآنسة ماريلا كُثْبيرت. الآنسة ماريلا كُثْبيرت إمرأة لطيفة جداً، احتفظت بي عندها، وهي تُشرف على تربيتي لتجعل مني إنسانة محترمة. إنها تبذل ما في وسعها رغم أن الإشراف على تربيتي ليس بالأمر المشجِّع، ولذلك لا يمكن لومها بشأن قفزي على السرير. وقبل ذهابي أرجو أن تخبريني عمّا إذا قررت مسامحة ديانا، وعمّاً إذا كنت ستمكثين في أفونليا المدة التي كنت تنوينها."

"لعلي سأفعل هذا، شرط أن تجيئي للدردشة معي بين حين وآخر،" أجابت الآنسة باري.

في ذلك المساء، قدّمت الآنسة باري لديانا سواراً فضياً، وأخبرت الأفراد الراشدين أنها قد أفرغت حقيبتها.

"بكل بساطة، قررتُ البقاء من أجل توطيد معرفتي بتلك المدعوّة آن شيرلي،" قالت بصراحة. "إنها تسلّيني، وإنه من النادر أن ألتقي في هذه الحِقبة من حياتي بأناس ممتعين."

كان تعليق ماريلا الوحيد عندما سمعت القصة: "قلتُ لك هذا." وكان التعليق لصالح ماثيو.

قضت الآنسة باري شهرها بتمامه وكماله. وكانت على غير المعتاد ضيفة غير مزعجة، لأن صحبة آن جعلتها رائقة المزاج. وسرعان ما أصبحتا صديقتين مقرّبتين.

وعندما همّت الآنسة باري بالرحيل قالت:

"تذكّري أيتها البنت آن، أنه يجب عليك زيارتي عندما تقصدين المدينة، ولسوف أستضيفك في أفضل غرفة ضيوف احتياطية عندي،

لتنامي فيها."

"لقد كانت روح الآنسة باري مُتائِمة لروحي رغم كل شئ،" أفضت آن بسرّها لماريلا. "ولا يمكنك اكتشاف هذا من مجرّد النظر إليها، ولكنها كانت كذلك بالفعل. كان من الصعب اكتناه هذه الحقيقة منذ الوهلة الأولى، كما جرى الأمر مع ماثيو، غير أنك بعد فترة من الوقت تستطيعين استشراف جوهر تلك الروح. يبدو ياماريلا أن الأرواح التي ترتبط بأواصر القرابة ليست نادرة جداً كما كنت أعتقد. ولا شئ أروع من اكتشافي لوجود الكثير منها في هذا العالم."

٢٠

خيال خصب يَحيد عن الصواب

عاد الربيع الكندي الجميل من جديد. ذلك الربيع المِزاجي المُتمنِّع الذي تلكأ عند المرتفعات الخضراء طيلة شهري آذار ونيسان. وتتالى في تعاقب من الأيام المنعشة والباردة، بغروبه الوردي ومعجزات البعث والنماء. فاكتست أشجار القيقب في درب العشاق بالبراعم الحمراء، وتدافعت أوراق السراخس الصغيرة المتغضِّنة حول نبع خرير الحورية. وفي الامتداد القاحل، وراء منطقة السيد سيلاس سلون، أزهر النَوّار، وطلع بين الأوراق السمراء نجوماً حلوة، حمراء وبيضاء اللون. والتأم شَمْل جميع تلاميذ وتلميذات أفونليا في كنف أمسيات ذهبية واحدة، أثناء مسيرات عودتهم إلى بيوتهم على تنغيمات الشفق المتألق، وقد عَمِرت سلالهم وأيديهم بما غنموه من أزهار.

"كم أشعر بالحزن على أولئك الناس الذين يعيشون في بقاع لا يوجد فيها نَوّار،" قالت آن لماريلا. "تقول ديانا ربما كان لديهم شئ أفضل. لكن، أيمكن أن يوجد في هذه الدنيا ما هو أفضل من النَوّار ياماريلا؟ وتقول ديانا إذا لم يعرفوا ما هو النَوّار فلن يفتقدوه. ولكني أظن هذا أسوأ من افتقادهم له، بل أعتقد ياماريلا أن جهلهم النَوّار سيكون أمراً مأساوياً. أتعرفين ما هي فكرتي عن النَوّار ياماريلا؟ أنا أظن أنه أرواح الأزهار التي ماتت في الصيف الماضي، وأن هذا الربيع جنّتها. أوه ياماريلا، ليتك تعرفين كم كان يومنا رائعاً. لقد تناولنا الغداء في غور شاسع قرب بئر قديم. ويالها من بقعة شاعرية. وهناك قام تشارلي سلون بتحدّي آرتي غيليز في القفز من فوق البئر. وبالفعل قفز آرتي لأنه لم يشأ رفض التحدّي. لا أحد يفعل هذا في

المدرسة، فالتحدّي صار شيئاً دارجاً جداً الآن. قدّم السيد فيلبس كلّ ما جمعه من نوّار إلى بريسي آندروز، وسمعته يقول لها: الجميل للأجمل. أعرف أنه اقتبس هذه الجملة من أحد الكتب، مع ذلك فهي تدلّ على تمتعه ببعض الخيال. لقد قُدّمت لي أنا أيضاً أزهار النوّار، ولكني رفضتها بتعالٍ، ولا أستطيع إخبارك اسم الشخص الذي قدّمها لي لأني أقسمت ألاّ أجعل اسمه يعترض شفتيّ. بعد الغداء صنعنا أكاليلَ من النوّار وزيّنا بها قبعاتنا. وعندما حان وقت العودة إلى البيت، مشينا في موكب زوجيّ طويل، اثنين اثنين على طول الطريق، مع باقاتنا وأكاليلنا ونحن نغني: بيتي فوق التلة. كان مشهداً لا مثيل له ياماريلا، لدرجة أنه جعل أنسباء السيد سيلاس سلون يهرعون ليتفرجوا علينا، كما أن كل من صادفنا في الطريق وقف متمعّناً فينا. لقد أشعنا حماساً حقيقياً."

"لا عجب في هذا! أنتم وأفعالكم السخيفة!" أجابت ماريلا.

بعد النوّار جاء البنفسج، الذي توشّى به وادي البنفسج. وكانت آن تعبره وهي في طريقها إلى المدرسة بخطوات وقورة وعينين خاشعتين وكأنها تطأ أرضاً مقدسة.

"بطريقة ما،" قالت لديانا، "عندما أمشي هنا لا أهتمّ بالفعل فيما إذا كان غيل... إذا كان أي تلميذ سيتفوّق عليَ في الصفّ. ولكن عندما أكون في المدرسة يختلف كل شئ وأهتم كثيراً جداً. يبدو أنه يوجد داخلي أكثر من آن واحدة. وأحيانا أفكّر أن هذا هو السبب الذي يجعلني شخصاً مُعرّضاً للمشاكل. ولو كنت آن واحدة فقط لربما عشت بطمأنينة أكثر. ولكن حينها لن يصل التشويق إلى نصف ما هو عليه الآن."

في ذات أمسية من أمسيات شهر حزيران جلست آن تتأمل عند نافذة الغرفة الشرقية. كانت البساتين قد اكتست بالبراعم الوردية من جديد، وكانت الضفادع تغني بعذوبة فضيّة في المستنقعات عند رأس

بحيرة المياه البراقة، بينما فاح في الجو عبق نكهة حقول البرسيم وعبير أحراج التنوب ذي العُصارة البلسمية. كانت آن تراجع دروسها، وعندما أعتم ضوء الغرفة حتى تعذّرت عليها القراءة، أبحرت في سباتها اليَقِظ، وهي تتطلع إلى الأفق فيما وراء فروع ملكة الثلج التي تخايلت من جديد بعناقيدها المزهرة.

لم تكن الغرفة الشرقية الصغيرة قد تغيّرت في أي شئ جوهري عمّا كانت عليه. ما زالت الجدران تلك الجدران البيضاء، وما زالت الكراسي تلك الكراسي ذات الخشونة والصُفرة الأبدية، وما زالت مخدّة الدبابيس في مكانها وقد ازدادت صلابتها عن أي وقت مضى. مع ذلك كانت ماهيّة الغرفة قد تبدلت، بعد أن احتلّتها ماهيّة جديدة حيّة ونابضة. ماهيّة عمّت المكان، وميزته باستقلالية خاصة، ظهرت على شكل كتب تلميذة مدرسة وفساتينها وشرائطها، بل وحتّى على شكل دورق أزرق مشعور ومملوء بأزهار التفاح فوق الطاولة. وبدا الأمر وكأن جميع الأحلام؛ أحلام نوم وصحو صاحبة المكان، قد أخذت شكلاً مرئياً ولكن غير مادّي، جلّل تلك الغرفة الجرداء بغلالات شفافة رقيقة منسوجة من أقواس قزح ومن إشعاعات القمر.

دخلت ماريلا الغرفة بخطى خفيفة، وهي تحمل بعض مرابيل آن المدرسية المكويّة حديثاً. علّقتها على ظهر كرسي وجلست وهي تتنهد. كانت في تلك الأمسية تعاني واحداً من صداعات رأسها المعتادة. ومع أن آلامها كانت قد سكنت قليلاً، إلاّ أنها بقيت تشعر بالإعياء والإنهاك، كما عبّرت هي عن ذلك. وكانت آن ترنو إليها بعينين مفعمتين بالتعاطف.

"أتمنى ياماريلا لو أن باستطاعتي معاناة هذا الصداع مكانك، لكنت تحمّلته طوعاً، فداءاً لك."

"أعتقد أنك أدّيت قسطّك من المساعدة وتركت لي المجال لأرتاح،" أجابت ماريلا. "يبدو لي أنك قد تحسّنت كثيراً الآن، وأصبحت أخطاؤك أقل ممّا جرت عليه عادتك. طبعاً، لم يكن من الضروري تنشية مناديل ماثيو، على وجه التحديد! كما أن معظم الناس عندما

يضعون فطيرة في الفرن لتسخينها من أجل العشاء، يخرجونها حالما تصبح ساخنة، بدلاً من تركها في الفرن إلى أن تصبح رقاقة محترقة. لكن يبدو لي بوضوح أن هذا ليس أسلوبك في العمل."

كان الصداع، على نحوٍ ما، يجعل ماريلا صاحبة مزاج ساخر.

"أوه أنا آسفة جداً،" قالت آن مُبدية ندمها. "نسيت أمر تلك الفطيرة منذ لحظة وضعها في الفرن إلى الآن، مع أني أحسست غريزياً أن هناك شيئاً ناقصاً على مائدة العشاء. عندما حمّلتني المسؤولية هذه الأمسية، كنت عازمة عزماً أكيداً على ألاّ أتخيّل أي شئ يصرفني عن واجباتي. ونجحت فعلاً فيما عزمت عليه إلى أن وضعت تلك الفطيرة داخل الفرن، حينها تلبّسني إغراء لا يُقاوَم لأن أتخيل نفسي أميرة مسحورة محبوسة في برج ناء، بانتظار مجيء فارس وسيم ليخلّصني من الأسر، وهو يمتطي جواداً أسود كالفحم.. وكذا سهوت عن الفطيرة ونسيتها. ولم أعرف أني كنت أُنشّي مناديل ماثيو وأنا أكويها، إذ كنت طيلة الوقت أحاول ابتكار اسم لجزيرة جديدة اكتشفناها أنا وديانا عند الجدول. ويالها من بقعة تسلب الألباب ياماريلا، فهي محاطة بماء الجدول المتدفق من جميع جوانبها، ويوجد عليها شجرتان من أشجار القيقب. أخيراً ارتأيت أنه سيكون من الرائع تسميتها جزيرة فكتوريا، لأننا اكتشفناها يوم عيد ميلاد الملكة. فأنا وديانا وطنيتان مخلصتان كما تعلمين. أنا آسفة من صميم قلبي بشأن الفطيرة والمناديل ياماريلا. لقد أردت أن أكون اليوم أكثر شطارة من أي يوم آخر، لأنه يوافق ذكرى سنوية خاصة. أتذكرين ياماريلا ماذا حدث في مثل هذا اليوم من السنة الماضية؟"

"لا، لا أستطيع التفكير بأي شئ خاص."

"أوه ياماريلا، إنه اليوم الذي جئت فيه إلى المرتفعات الخضراء. ولن أنسى ذكرى ذلك اليوم مطلقاً. كان نقطة التحوّل في حياتي. طبعاً قد لا يكون على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة إليك. لقد مضى الآن على وجودي هنا سنة كاملة، وكنت سعيدة جداً أثناءها. من المؤكد أنه

كانت لي مشاكلي، ولكن الإنسان يستطيع غضّ النظر عن المشاكل. هل تشعرين بالأسف لأنك احتفظت بي ياماريلا؟"

"لا، لا يمكنني القول إني أشعر بالأسف،" أجابت ماريلا، التي كانت في بعض الأحيان تتساءل بعجب كيف تمكّنت من تحمل مجرى حياتها قبل مجيء آن الى المرتفعات الخضراء. "على وجه التحديد، لا لست آسفه وإذا كنت قد انتهيت من مراجعة دروسك يا آن أريد منك الذهاب الى السيدة باري لسؤالها أن تعيرني تصميم واحد من مراييل ديانا المدرسية."

"أوه.. إن.. إن الدنيا غارقة في الظلمة،" صاحت آن.

"غارقة في الظلمة؟ ما معنى هذا؟ ما زال الوقت غسقاً. والله وحده يعلم عدد المرات التي غادرتِ فيها البيت بعد حلول العتمة."

"سأذهب في الصباح الباكر،" قالت آن بحماس. "سأنهض مع شروق الشمس، وأقصد بيت آل باري ياماريلا."

"ما الذي يتمخّض في رأسك الآن ياآن شيرلي؟ أريد ذلك التصميم لأفصّل لك مريلة جديدة هذه الليلة. كوني عاقلة، واذهبي فوراً."

"إذن سأضطر إلى سلوك الطريق الرئيسي،" قالت آن، وهي تتناول قبعتها مُكرهة.

"تسلكين الطريق الرئيسي وتهدرين نصف ساعة! دعيني أراك تفعلين هذا!"

"لا يمكنني عبور الغابة المسكونة ياماريلا،" صاحت آن بصوت يائس.

حملقت بها ماريلا.

"الغابة المسكونة! هل أنت مجنونة؟ أي شئ تحت قبّة هذه السماء يُدعى بالغابة المسكونة؟"

"حرش أشجار الراتينج عند الجدول،" أجابت آن همساً.

"هـــــــراء! لا يوجـد أي شئ من هذا الذي تُسـمّينه الغـابة المسكونة في أي مكان. من الذي كان يحشو رأسك بهذه الترهات؟"

"لا أحد،" اعترفت آن. "لقد تخيّلنا أنا وديانا أن الغابة مسكونة، لأن جميع الأماكن حولنا هنا.. هي..هي.. أماكن.. عادية. واعتقدنا أن وجود غابة مسكونة سيكون شيئاً شاعرياً جداً ياماريلا. لذلك اخترعنا هذه الحكاية من أجل إشاعة جو من الإثارة حولنا. اخترعناها في شهر نيسان، واخترنا حرش الراتينج لأنه كئيب، وتخيّلنا فيه أكثر الأشياء إثارة للفزع ياماريلا. فعند الجدول توجد إمرأة تتمشى على ضفّته في مثل هذا الوقت من الليل تقريباً، وهي تفرك يديها وتصيح مولولة، وتظهر عندما يكون هناك موت وشيك الوقوع في المنطقة. ويوجد أيضاً شبح طفل صغير مقتول، يحتلّ ذلك المنعطف عند فردوس الأحلام، وهو يزحف خلفك ويلامس يدك بأصابعه الباردة. ربّاه، إن مجرّد التفكير بكل هذه الأشياء ياماريلا يجعل الرِعدة تسري في أوصالي. ويوجد كذلك رجل مقطوع الرأس يجوب الدرب جيئة وذهاباً، وهياكل عظمية تتفرّس فيك من بين أغصان الأشجار. أوه ياماريلا، لا أريد الذهاب إلى الغابة المسكونة بعد حلول الليل من أجل أي شئ في هذا العالم، أنا متأكّدة أن تلك الأشياء البيضاء ستترصّدني من وراء الأشجار وستتمطى لتتشبث بي."

"هل سمع أحد من قبل شيئاً مماثلاً لما تقوله!" هتفت ماريلا. التي كانت تُنصت بدهشة خرساء. "آن شيرلي، أتعنين القول إنك تصدّقين كل ذلك الهراء الشرير الذي اخترعه خيالك؟"

"لا أصدّق بالضبط،" تلعثمت آن. "أنا على الأقل، لا أصدّق هذا في وضح النهار. ولكن الوضع يختلف بعد حلول العتمة ياماريلا، وذلك عندما تبدأ تلك الأشياء في مزاولة نشاطها."

"لا يوجد ما يسمى بالأشباح ياآن."

"بلى، الأشباح موجودة،" صاحت آن بحماس. "أعرف أناساً رأوهم. وهم أناس محترمون. أخبرنا تشارلي سلون أن جدّته رأت جدّه وهو يسوق الأبقار إلى المنزل ذات ليلة، وذلك بعد دفنه بسنة. تعرفين أن جدّة تشارلي سلون ليست ممّن يختلقون الحكايات، فهي امرأة متدينة جداً. ووالد السيدة توماس لحقه ذات ليلة حَمل من نار، وكان رأس الحمل مقطوعاً وعالقاً بجلده. قال إن ذلك الحَمل هو روح أخيه الميت، وأن في هذا نذير له بحلول أجله بعد تسعة أيام. في الواقع لم يمت بعد تسعة أيام إلاّ أنه مات بالفعل بعد سنتين. أي أن الإنذار كان، في جميع الأحوال، إنذاراً حقيقياً. وتقول روبي غيليز ..."

"آن شيرلي،" قاطعتها ماريلا بحزم. "لا أريد أبداً سماعك تخوضين في مثل هذه الأحاديث مرّة ثانية. كانت لديَ شكوكي فيما يتعلق بخيالك، وإذا كانت هذه هي نتيجته فلن أؤيده مطلقاً. ستذهبين فوراً إلى منزل آل باري، وستسلكين طريق حرش الراتينج، ليكون درساً لك وإنذاراً. وإياك أن أسمعك بعد اليوم تبتكرين المزيد من حكاياتك عن الغابات المسكونة."

كان ذعر آن صادقاً وحقيقياً، لأن خيالها الذي حاد بها فعلاً عن جادّة الصواب جعل فزعها من حرش الراتينج بعد هبوط الليل فزعاً جسيماً. كان بإمكانها البكاء والتوسّل كما يحلو لها، وكما فعلت بالطبع، لكن ذلك لم يكن ليستعطف ماريلا العنيدة، التي اصطحبت عرّافة الأشباح المذعورة إلى الجدول، وأمرتها بتجاوز الجسر، ثم بالتقدم نحو الغيهب الغسقي حيث ترتع النساء المولولات والأشباح الذين بلا رؤوس.

"أوه ياماريلا، كيف يمكنك أن تكوني قاسية إلى هذه الدرجة؟" قالت آن باكية. "بل بِمَ ستشعرين إذا تشبث بي شئ أبيض واختطفني؟"

"سأغامر،" قالت ماريلا ببرود، "تعرفين أني دائماً أعني ما أقوله. سأشفيك من تَخيُّلك للأشباح في الأماكن. هيا، سيري الآن."

سارت آن. بل بالأحرى تخبّطت في خطاها وهي تجتاز الجسر، وتوغل هلِعة في موئل المهالك بعده. ولا شكّ أنها لم تنس أبداً تلك الليلة التي أعلنت فيها ندمها المرير على الحرية المفرطة التي كانت قد أباحتها لخيالها.

كَمَنَ لها العفاريت الذين اخترعتهم في خبايا الظلال حولها. ومدّوا أيديهم الباردة، غير المكسوّة باللحم، ليقبضوا على الطفلة المذعورة التي استدعتهم إلى هذا الوجود.

عندما طايرت الريح من ناحية الغَور قشرة بيضاء من لِحاء شجرة بتولا، وحطّتها على الأديم الترابي البُنّيّ كاد قلبها يَتوقف عن الخفقان. وعندما أطلق غصنا شجرة وَلوَلتهما الثكلى بعد احتكاكهما ببعضهما تساقطت حُبيبات العرق بغزارة على جبهتها. وعندما حلّقت الخفافيش في العتم فوقها تراءت لها أشبه بأجنحة مخلوقات غير أرضية. وعندما وصلت إلى حقل السيد ويليام بيل تجاوزته طائرة كأنها كانت ملاحَقةً بجيش من الأطياف البيضاء. وصلت أخيراً إلى باب مطبخ آل باري مقطوعة الأنفاس، وطلبت تصميم المريلة لاهثة. لم تكن ديانا هناك، ولذلك لم تجد آن عذراً يبرر لها التلكؤ. وكانت رحلة العودة المرعبة ما تزال بانتظارها. فخاضتها بعينين مغمضتين، مُؤثِرة الاصطدام بفروع الأشجار على رؤية تلك الأشباح البيضاء. وما إن تعثرت في النهاية بجسر جذع الشجرة حتى تنفست الصعداء بارتياح عميق.

"هه، يبدو أن شيئاً لم يُصبك؟" قالت ماريلا بلهجة خالية من التعاطف.

"أوه، يا.. مار.. يا.. ماريلا،" هَذَرت آن، "سأ.. سأ.. سأقنع.. بالـ.. بالـ.. بالأماكن العادية.. بعد هذه التجربة."

٢١
تنويع جديد في النكهات

"ربّاه، حقاً لا يوجد في هذا العالم إلاّ لقاء وفراق، كما تقول السيدة ليند،" علّقت آن محتجّة، وهي تضع لوحها وكتبها على طاولة المطبخ في آخر يوم من أيام شهر حزيران، وتجفف عينيها المُحْمرّتين بمنديل رطب جداً. "ألم يكن من حسن حظي ياماريلا أني أخذت معي اليوم إلى المدرسة منديلاً إضافياً؟ لقد تملّكني شعور مُسبق أنه سيكون لازماً."

"ما حسبتك يوماً مولعة إلى هذه الدرجة بالسيد فيلبس، كي تحتاجي منديلين من أجل تجفيف دموعك لمجرد أنه راحل،" قالت ماريلا.

"لا أظنني بكيت لأني كنت مولعة به حقاً،" أجابت آن متفكّرة. "بكيت لأن الآخرين بكوا. روبي غيليز هي مَن استهلّ كل شئ. ولطالما زعمت روبي أنها تكره السيد فيلبس، ومع ذلك ما إن نهض ليلقي خطبته الوداعية، حتى انفجرت باكية، وسرعان ما تبعتها بقية البنات، واحدة تلو الأخرى. أمّا أنا فحاولت ضبط نفسي ياماريلا. حاولت أن أستحضر في ذاكرتي ذلك اليوم الذي أجبرني فيه على الجلوس إلى جانب غيل... إلى جانب صبي، واليوم الذي لفظ فيه اسمي خطأ، وكتبه على السبورة بدون مدّة على الألف، وكم كان يقول إنه لم يعرف مطلقاً مخلوقاً أغبى مني في مادة الهندسة، وكم سخر من تهجئتي، وكم كان لئيماً وجلفاً معي. لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، وما كان أمامي إلاّ أن أبكي مع من بكى. وما بالك بجين آندروز التي ظلت تردّد أمامنا لشهر كامل أنها ستبلغ قمّة السعادة عندما يغادرنا السيد

فيلبس، بل وادّعت أنها لن تذرف دمعة واحدة عليه، ومع ذلك، كانت أسوأنا، واضطرت إلى استعارة منديل أخيها. طبعاً، لا يعني هذا أن الصبية بكوا، ولكنها لم تكن قد أحضرت منديلها معها، لأنها لم تتوقع احتياجها له. أوه ياماريلا، كان ما حدث مفطِّراً للفؤاد. ألقى السيد فيلبس خطبة وداعية جميلة استهلّها بقوله: ها قد حان الوقت لنفترق. كانت مؤثِّرة جداً، بالإضافة إلى أنه كان يتكلم وهو دامع العينين ياماريلا. ليتك تعرفين كم أحسست بالندم والأسف على جميع تلك الأوقات التي ثرثرت فيها أثناء الدرس، ورسمت له صوراً مضحكة على لوحي، وتهكّمت عليه وعلى بريسي. صدّقيني لقد تمنيت لو أني كنت تلميذة نموذجية مثل ميني آندروز. إذ لا أعتقد أن لديها ما يُثقل كاهل ضميرها. بكت البنات طيلة طريق العودة من المدرسة إلى البيت. وما فتئت كاري سلون تردّد كل بضع دقائق: ها قد حان الوقت لنفترق، وكان ذلك يستحثنا على البكاء مجدداً، كلما حدّق بنا خطر الابتهاج. أنا حزينة جداً ياماريلا. مع ذلك ألا توافقيني الرأي أنه لا يمكن للمرء الانحدار في حزنه إلى أعماق اليأس وهو على أبواب شهرين من العطلة المدرسية؟ بالإضافة إلى أننا صادفنا في طريقنا القسّ الجديد وزوجه وهما قادمان من المحطة. ورغم حزني على فراق السيد فيلبس، لم أستطع منع نفسي من الاهتمام قليلاً بمقدم قسّ جديد. أكان بإمكاني ألاّ أهتم ياماريلا؟ إن زوج القسّ ياماريلا جذابة جداً، ليست ذات إطلالة ملكية بالطبع، لكني لا أظن أنه من المناسب أن يكون للقسّ زوج ذات إطلالة ملكية وإلاّ كان ذلك قُدوة سيئة. تقول السيدة ليند إن زوج القسّ في نيوبريدج هي قُدوة سيئة لأنها تتهندم وفق أحدث الأزياء الدارجة. كانت زوج القسّ الجديد الذي جاءنا تلبس ثوباً من الموسلين الأزرق، له أكمام منفوخة جميلة، وتعتمر قبعة تحيطها الورود. قالت جين آندروز إن الأكمام المنفوخة دنيوية كثيراً بالنسبة إلى زوج قسّ، أمّا أنا فلم أعلّق بأي كلام نابٍ ياماريلا، لأني أعرف ما معنى تشوّق الإنسان إلى الأكمام المنفوخة، كما أنها لم

يمض على كونها زوجاً للقسّ سوى مدة قصيرة. ألا يستدعي هذا ضرورة خلق الأعذار لها؟ علمت أنهما سيقيمان عند السيدة ليند إلى أن يجهز منزل القسّ."

إذا كان هناك أي سبب آخر استحثّ ماريلا على الذهاب في ذلك المساء إلى منزل السيدة ليند، عدا تحجحها بإعادة مضارب اللحف التي سبق لها أن استعارتها في الشتاء الماضي، فقد كان ضعفاً مُحبباً تشاركه معظم أهالي أفونليا. كانت الأشياء التي رُدّت إلى السيدة ليند في تلك الليلة كثيرة جداً. أشياء سبق أن أعارتها للناس، بدون أن تتوقّع استرجاعها ثانية في بعض الأحيان. لكنها تلك الليلة رُدّت إليها من قِبل الذين استعاروها بأنفسهم. فقد كان موضوع القسّ الجديد، بل وأكثر من ذلك، قسّ جديد مع زوجه، موضوعاً مثيراً للفضول في مستوطنة صغيرة هادئة حيث الأنباء المشوّقة فيها نادرة ومتباعدة زمنياً.

بقي السيد بنتلي العجوز، ذلك القسّ الذي اعتبرته آن يفتقر إلى الخيال، راعياً لأبرشية أفونليا لمدة ثماني عشرة سنة. جاء إلى أفونليا أرملاً، وبقي أرملاً، رغم أن الإشاعات ظلّت تزوجه إلى هذه وتلك وغيرها على امتداد سنين إقامته في أفونليا. وأخيراً استقال من منصبه في شهر شباط الماضي، وتنحّى وسط لوعة أتباعه الذين كانوا يضمرون له المَودّة الناجمة عن طول تآلفهم مع قسّهم العجوز الطيب، رغم عدم براعته في الخطابة. منذ ذلك الحين، تنعّمت كنيسة أفونليا باستقبال تنويعات من مختلف الفرق الدينية، واستمعت إلى نخبة وافرة من المرشحين والإرساليين الذين وفدوا إليها أحداً تلو أحدٍ على سبيل التجربة. وكان هؤلاء يصمدون أو يتراجعون وفق حكم أهالي أفونليا عليهم. أمّا تلك الطفلة الصغيرة ذات الشعر الأحمر، التي كانت تجلس بوداعة عند طرف مقعد آل كُثبيرت القديم في الكنيسة، فقد كانت لها هي أيضاً آراؤها الخاصة بهم. ولطالما ناقشت هذه الآراء بإسهاب مع ماثيو، رغم معارضة ماريلا الدائمة، انطلاقاً من حُرمة

التعرض للقساوسة بالنقد شكلاً أو مضموناً.

"لا أعتقد أن السيد سميث كان سيفي بالغرض ياماثيو." أعلنت آن حكمها النهائي عليهم. "تقول السيدة ليند إن أداءه كان ركيكاً جداً. ولكني أظن عيبه الأسوأ هو افتقاره للخيال، مثل السيد بنتلي تماماً، وبعكس السيد تيري الذي كان صاحب خيال مُفرط الخصوبة، كثيراً ما جنح به، مثلما جنح بي خيالي في حكاية الغابة المسكونة. بالإضافة إلى أن السيدة ليند تعتبره غير راسخ العقيدة. أمّا السيد غريشام فقد كان رجلاً طيباً جداً ومتديناً، لكن مداومته على قصّ الروايات المضحكة التي كانت تجعل الناس يضحكون في الكنيسة، أفقدته الكثير من وقاره، ولا بدّ للقسّ من أن يكون محترماً، أليس كذلك ياماثيو؟ وكنت أرى السيد مارشال جذاباً بحقّ لكن السيدة ليند تقول إنه غير متزوج، أو حتى مرتبط برباط الخطوبة، لأنها قامت ببعض التحرّيات الخاصة عنه. وتقول إن الأمر لن ينفع أبداً في أفونليا مع قسّ شاب غير متزوج، لأنه قد يتزوج في الأبرشية ممّا سيسبب المشاكل. أليست السيدة ليند إمرأة بعيدة النظر ياماثيو؟ أنا مسرورة جداً لأنهم استدعوا السيد آلن. ولقد أحببته لأن موعظته كانت مثيرة للاهتمام وعندما صلّى كان يصلّي بصدق وليس من قبيل التعوّد على الصلاة فقط. تقول السيدة ليند إنه ليس مثالياً، ولكنها ترى أنه لا يجدر بنا توقّع الحصول على قسّ مثالي بأجرٍ لا يتجاوز سبعمائة وخمسين دولاراً في السنة. وعلى كل حال، تعتبره السيدة ليند صادق الإيمان، لأنها امتحنته بدقّة في جميع أسس العقيدة، كما أنها تعرف أهل زوجه وتقول إنهم أناس محترمون، وجميع نسائهم ربات بيوت حاذقات. وتقول السيدة ليند إن الرجل ذا العقيدة الراسخة، والمرأة التي تحسن إدارة البيت يُشكّلان تركيبة مثالية بالنسبة إلى عائلة القسّ."

كان القسّ الجديد وزوجه شابين لطيفين بشوشين، ما يزالان في شهر العسل. وكانا مفعمين بالحماس النبيل التقيّ تجاه المهمة التي

اختاراها معاً لحياتهما. ومنذ البداية فتحت أفونليا قلبها لهما. وأحب كبارها وصغارها ذلك الشاب المرح البشوش وتلك السيدة الدمثة المتألقة التي أخذت على عاتقها مهمة التعليم في مدرسة الأحد. أمّا آن التي أحبت السيدة آلن من كل قلبها، فقد اكتشفت في هذا العالم روحاً أخرى مُتائِمة لروحها.

"السيدة آلن قريبة جداً من القلب،" أعلنت في أمسية يوم الأحد. "إنها تقوم الآن بتعليم صفّنا، وهي معلّمة عظيمة. ومنذ البداية صرّحت أنه لا يجوز للمعلم وحده الاضطلاع بمهمة طرح الأسئلة كلها. وكما تعلمين ياماريلا هذا ما كنت أعتقده دائماً. وطلبت منّا توجيه ما نشاء من الأسئلة لها. ولقد سألتها الكثير.. الكثير من الأسئلة ياماريلا، فأنا ماهرة في طرح الأسئلة."

"لا أشكّ في صدق كلامك،" كان تعليق ماريلا الجازم.

"لا أحد غيري سأل شيئاً عدا روبي غيليز، وسألتها عمّا إذا كانت مدرسة الأحد ستُعدّ نزهة في هذا الصيف. لم أشعر أنه كان سؤالاً لائقاً، إذ لا علاقة له بالدرس. كان الدرس عن النبي دانيال في عرين الأسد. غير أن السيدة آلن ابتسمت لها، وقالت إنها تعتقد هذا. ابتسامة السيدة آلن جذابة جداً، ولديها غمّازتان ساحرتان في خدّيها. أتمنى ياماريلا لو أنه كان لدي غمّازات في خدي. ومع أني ما عدت الآن هزيلة جداً كما كنت عندما جئت إلى هنا، لم أكتسب بعد أية غمّازات. ولو كان لدي غمّازات لربما استطعت التأثير على الناس تأثيراً صالحاً، فقد قالت السيدة آلن إنه علينا التأثير على الناس في سبيل توجيههم نحو الخير. تكلمت كلاماً لطيفاً جداً عن كل شئ ياماريلا. والعجيب في الأمر أني ما كنت أعرف من قبل أن الدين مصدر بهجة، ولطالما اعتبرته موضوعاً سوداوياً، ولكن السيدة آلن ليست كذلك. وهذا ما يُرَغِّبني في أن أكون مؤمنة إذا استطعت الاقتداء بها. فأنا لا أريد أن يكون الناظر بيل الموقّر قدوتي في الإيمان."

"إنه سوء خلق منك أن تتحدثي عن السيد بيل هكذا،" قالت ماريلا موبّخة. "السيد بيل رجل صالح بحقّ."

"أوه، طبعاً هو رجل صالح،" وافقت آن، "ولكن لا يبدو أنه يفيد نفسه بهذا الصلاح. لو قُدّر لي وكنت صالحة، لرقصت وغنيت طيلة اليوم ابتهاجاً بصلاحي. طبعاً، أظن أن السيدة آلن كبيرة قليلاً على الرقص والغناء، ولن يكون ذلك لائقاً بالنسبة إلى زوج قسّ، ولكني أشعر أنها سعيدة بإيمانها، وأنها ستُعتبر مؤمنة حتى لو صعدت إلى السماء من غير إعلانها عن هذا الأيمان."

"أرى أنه ينبغي لنا دعوة السيد والسيدة آلن إلى تناول العشاء في القريب العاجل،" قالت ماريلا متفكّرة. "لقد دُعيا إلى معظم البيوت عدا بيتنا. دعيني أفكر.. نعم، أعتقد أن يوم الأربعاء القادم سيكون وقتاً مناسباً. ولكن لا تخبري ماثيو بأي شئ، لأنه إذا علم بقدومهما سيختلق عذراً ليتغيب عن البيت في ذلك اليوم. لقد أَلف ماثيو صحبة السيد بنتلي كثيراً، ولم يكن يتضايق من وجوده، أمّا الآن فسيكون من الصعب عليه التعرّف على قسّ جديد، وستفزعه زوج القسّ حتى الموت."

"سأكون كتومة كالموتى،" أكّدت آن. "ولكن، أيمكنني خبز كعكة عندما تحين تلك المناسبة ياماريلا؟ تعرفين أني أصبحت أُجيد صنع الكعك الآن، وأنا أودّ القيام بعمل شئ ما من أجل السيدة آلن."

"يمكنك صنع قالب كعكة مُطَبَّقة،" وعدتها ماريلا.

جرت التحضيرات الكبيرة في دارة المرتفعات الخضراء يوميّ الاثنين والثلاثاء. كانت دعوة القسّ وزوجه إلى العشاء مسؤولية جدّية وخطيرة، وكانت ماريلا عازمة على ألاّ تهزمها أية ربّة بيت أخرى في أفونليا. أمّا آن التي كانت تعتمل بالحماس والابتهاج، فقد أسهبت في مساء يوم الثلاثاء بالتحدّث عن المناسبة مع ديانا، وهما تجلسان ساعة الشفق على الحجارة الكبيرة الحمراء عند نبع خرير الحورية، وتُشكّلان أقواس قزح صغيرة في الماء بوساطة الأماليد الصغيرة

المغمّسة ببلسم شجر التنوب.

"أصبح كل شئ جاهزاً ياديانا عدا كعكتي التي سأصنعها في الصباح، وبسكويت الخميرة الذي ستصنعه ماريلا قبل تناول الشاي مباشرة. أؤكد لك ياديانا أنني وماريلا قضينا يومين حافلين بالعمل، فدعوة عائلة القسّ إلى العشاء مسؤولية كبيرة حقاً، ولم يسبق لي مطلقاً أن مررت بتجربة مماثلة. عليك فقط رؤية حجرة مؤونتنا، ياله من منظر يستحقّ التفرّج عليه. سنأكل دجاجاً ولسانات باردة، وسنقدّم نوعين من الهُلام: أحمر وأصفر، وقشدة مخفوقة، وفطيرة ليمون، وفطيرة كرز، وثلاثة أنواع من الرقائق، وكعكة الفاكهة، ومربّى ماريلا الشهير من الخوخ الأصفر الذي تحفظه خصيصاً للقساوسة، وكعكة الزبدة بالسكّر، وكعكة مُطبَّقة، وبسكويت كما سبق أن قلت، وخبز طازج، وخبز بائت في حال كان القسّ يعاني من عسر الهضم، ولا يستطيع أكل الخبز الطازج. تقول السيدة ليند إن معظم القساوسة يعانون من عسر الهضم، ولكني لا أظن أنه قد مضى على السيد آلن وقت طويل مع القساوسة ليكون مصاباً بأية علّة. وكلما فكّرت بكعكتي المُطبَّقة التي سأخبزها أحس أني أشيخ. أوه يا ديانا، ماذا لو لم تنجح! حلمت ليلة أمس أني كنت مطاردة من جميع الاتجاهات بغول مخيف له رأس على شكل كعكة مُطبَّقة كبيرة."

"لا تخافي،ستنجح،" أكدّت لها ديانا التي كانت من الأصدقاء الإيجابيين المُريحين. "ثقي أن الكعكة التي خبزتِها منذ أسبوعين لنأكلها ساعة الغداء في فردوس الأحلام، كانت لذيذة وجيدة."

"هذا صحيح، ولكن للكعك عادة سيئة جداً، فهو غالباً ما يخذلك عندما تتحرقين شوقاً لنجاحه،" أجابت آن وهي تتنهد وتلقي في الماء فرعاً غمسته جيداً بالبلسم. "على كل حال ليس أمامي إلاّ الاتّكال على الله، وعلى التزام جانب اليقظة طبعاً، حتى لا أنسى إضافة الطحين. أوه، انظري ياديانا ياله من قوس قزح رائع! أتظنين أن الحورية ستظهر بعد مغادرتنا، وتلتقطه لتتخذه وشاحاً؟"

"تعلمين أنه لا يوجد شئ اسمه حوريات،" أجابت ديانا.

كانت والدة ديانا قد اكتشفت قصة الغابة المسكونة، وغضبت من ذلك كثيراً. ولذلك توقفت ديانا عن مجاراة آن في تحليقات خيالها، وما عادت ترى أنه من الحصافة في أي شئ تعزيز اقتناعها حتى بوجود حورية مُسالمة.

"ولكن ليس أسهل من تخيّل وجودها،" قالت آن. "كل ليلة، قبل إخلادي إلى النوم، أنظر من نافذتي وأتساءل عمّا إذا كانت الحورية تجلس هنا حقاً، وهي تسرّح خصلات شعرها متّخذة من الربيع مرآة لها. وفي بعض الأحيان أبحث عن آثار أقدامها في ندى الصباح. أرجوك ياديانا لا تفقدي إيمانك بالحورية!"

أخيراً، أطلّ يوم الأربعاء. ونهضت آن مع شروق الشمس لأن حماسها طغى حتى على سلطان النوم. كانت في ذلك الصباح تعاني من زكام حادّ نتيجة عبثها بالماء عند النبع في الأمسية السابقة. لكنها اعتبرت هذا العَرض المرضي عَرضاً تافهاً، وما كان بمقدور أي شئ أقل خطورة من الالتهاب الرئوي المزمن أن يحوّل اهتمامها عن مهمتها في ذلك اليوم. وهكذا، أقبلت على صنع كعكتها بعد وجبة الإفطار، وما تنفست الصعداء إلاّ عندما أغلقت باب الفرن عليها.

"أنا متأكدة أني لم أنس شيئاً هذه المرة ياماريلا. لكن أتظنينها ستنتفخ؟ ماذا لو لم تكن الخميرة صالحة؟ لقد استعملت الخميرة الجديدة، وتقول السيدة ليند إنك هذه الأيام لن تتأكدي أبداً من حصولك على خميرة جيدة، بما أن كل شئ صار مغشوشاً. وتقول أيضاً إنه يتوجب على الحكومة أخذ هذه القضية بعين الاعتبار، ولكننا لن نرى اليوم الذي ستقوم فيه بذلك حكومة المحافظين. ماذا لو لم ينتفخ القالب ياماريلا؟"

"لدينا الكثير من الطعام،" كان هذا هو أسلوب ماريلا غير العاطفي في النظر إلى الموضوع.

على كل حال، انتفخ قالب الكعك. وخرج من الفرن خفيفاً وهشّاً كالرغوة الذهبية. اصطبغت آن بحمرة الحبور، وطبقّته بعد أن حشته بالهُلام الأحمر، ورأت بعين خيالها السيدة آلن وهي تأكل قطعة منه، وربّما ترغب في تناول قطعة أخرى.

"طبعاً ستستعملين أفضل طقم شاي عندك ياماريلا" قالت. "أيمكنني تحضير الطاولة وتزيينها بأوراق السراخس والورود البرّية؟"

"أعتقد أن كل هذا كلام فارغ،" قالت ماريلا وهي تنفخ من منخريها. "أنا أرى أن المأكولات هي المهمة وليس التزيين الهراء."

"لقد قامت السيدة باري بتزيين طاولتها،" قالت آن التي لم يكن تعليقها بريئاً تماماً من فطنة الأفعى، "ووجّه إليها القسّ وزوجه الكثير من المديح، وقال لها القسّ إن الطاولة كانت عيداً للعين وعيداً للفم."

"حسناً، افعلي ما يحلو لك،" أجابت ماريلا، التي كانت مصرّة إصراراً أكيداً على ألاّ تتفوق عليها السيدة باري أو أي شخص آخر. "ولكن لا تنسي أن تتركي مكاناً مناسباً يتسع لوضع الأطباق والطعام."

انهمكت آن في عملية التزيين بكل ما تتميز به من براعة ومهارة، حتى فاقت ما كانت قد قامت به السيدة باري من جهود. وجعلت من تلك المائدة مشهداً يسرّ العين بما توفّر لها من أزهار وسراخس وذوق فني رفيع. وما إن جلس القسّ وزوجه إلى تلك المائدة حتى هتفا معربين عن تقديرهما لجمالها.

"إنها من عمل آن،" قالت ماريلا الصارمة حتى في تحقيق العدالة. وشعرت آن أن السعادة التي أشاعتها ابتسامة الاستحسان المرتسمة على وجه السيدة آلن، كانت أكثر ممّا يستحقه هذا العالم.

كان ماثيو هناك أيضاً. وبطريقة لا يعرفها أحد إلاّ السماء وآن، أُغويَ على حضور تلك المأدبة. كانت تلك الدعوة قد سببت له إرباكاً وعصبية لا يمكن وصفهما، حتى اضطرت ماريلا إلى الاستسلام

ونفض يديها منه يأساً. لكن آن نجحت في التعامل معه، بحيث جلس هو أيضاً إلى المائدة، متأنقاً بياقته البيضاء، ومرتدياً أفضل ملابسه. بل إنه تحدث مع القسّ باهتمام، ورغم أنه لم يوجّه كلمة واحدة إلى السيدة آلن، إلاّ أن هذا لم يكن متوقَعاً منه في جميع الأحوال.

تتابع كل شئ بسلاسة، كأنه جرس عرس من الأعراس، إلى أن جاءت كعكة آن المُطَبَّقة. ورفضت السيدة آلن تناول شئ منها، بعد أن أُتْخِمت بالكثير من تلك المأكولات المُحيِّرة بتنوعها. غير أن ماريلا التي لاحَظت علامات الخيبة على وجه آن قالت مبتسمة:

"ولكن، لا بدّ أن تذوقيها ياسيدة آلن. خبزتها آن خصيصاً من أجلك."

"في هذه الحالة ينبغي لي حتماً تناول قطعة صغيرة منها،" قالت السيدة آلن ضاحكة وهي تقطع لنفسها قطعة مثلثة، وجاراها في ذلك كلٍ من القسّ وماريلا.

ما كادت السيدة آلن تتناول لقمة من قطعتها حتى اجتاح وجهها أغرب تعبير يمكن أن تراه العين؛ لكنها لم تفه بكلمة واحدة، وسارعت بابتلاعها فوراً. وما إن رأت ماريلا ذلك التعبير العجيب حتى قامت بتذوق الكعكة حالاً.

"آن شيرلي!" صاحت. "ماذا أضفت لكعكتك بحق السماء؟"

"لا شئ غير ما هو وارد في الوصفة ياماريلا،" أجابت آن وقد غشي الكرب عينيها. "أوه، أليست طيّبة المذاق؟"

"طيبة المذاق! إنها بكل بساطة رهيبة. أرجوك ياسيدة آلن لا تأكلي المزيد منها. آن، تذوَّقيها بنفسك. وأخبريني بم نكّهت هذه الكعكة؟"

"بالفانليا،" أجابت آن، التي اصطبغ وجهها بلون الخزي القرمزيّ بعد أن تذوقت الكعكة. "لا شئ سوى الفانليا. لا بدّ أنها الخميرة ياماريلا. كانت لدي شكوكي فيما يتعلق بالخمـ..."

"خميرة.. هراء! اذهبي وأحضري زجاجة الفانليا التي استعملتها."

طارت آن إلى غرفة المؤونة وعادت مع زجاجة صغيرة تحتوي كمية قليلة من سائل بُنيّ اللون، وعليها ورقة لاصقة كُتب عليها بخط أصفر: أفضل فانليا.

أخذتها ماريلا، فتحت غطاءها، وشمّتها.

"يارحمة السماء. آن، لقد نكّهت كعكتك بعقار تسكين الأوجاع، ويبدو لي أني مسؤولة جزئياً عن هذا الخطأ. فقد انكسرت زجاجة العقار المسكّن في الأسبوع الماضي، واضطررت إلى سكب ما تبقى من العقار في زجاجة فانيليا فارغة. ولكن بالله عليك ياآن ألم تشمّيها؟"

غرقت آن في الدموع تحت وطأة هذا الخزي المزدوج.

"لم أستطع شمّ ما في الزجاجة، فأنا مزكومة!" قالت ناحبة، وطارت حالاً إلى الغرفة الشرقية، حيث ألقت نفسها على السرير وأطلقت العنان لبكاء شخصٍ يرفض أن يهدئ من روعه أحد.

بعد قليل، تناهى إليها وقع خطى خفيفة على الدرج ودخل شخص ما الغرفة.

"أوه ياماريلا،" قالت آن ناشجة بدون أن ترفع رأسها، "لحقني العار إلى الأبد. ولن أقدر مطلقاً على متابعة حياتي مع ما حدث. سوف تنتشر الحكاية، فجميع الأخبار تنتشر بسرعة في أفونليا. ستسألني ديانا كيف كانت كعكتي، وسأضطر إلى إخبارها الحقيقة. سيُشار إليَ دوماً بأني البنت التي نكّهت الكعكة بعقار تسكين الأوجاع. وغيل... الصبية في المدرسة لن يكفّوا أبداً عن الضحك على ما حدث. أوه ياماريلا، إذا كان لديك قبس من الرحمة لا تطلبي مني النزول الآن لغسل الأطباق. سأقوم بذلك بعد مغادرة القسّ وزوجه، فأنا لن أتمكن من مواجهتها بعد اليوم، وربّما ستظن أني حاولت تسميمها. تقول السيدة ليند إنها تعرف بنتاً يتيمة حاولت تسميم الناس الذين أحسنوا إليها. لكن عقار تسكين الأوجاع ليس ساماً،

فهو مصنوع ليؤخذ عن طريق الفم، وإن لم يكن بوساطة إضافته إلى الكعك. أيمكنك إخبار السيدة آلن بهذا ياماريلا؟"

"ماذا لو قفزت من مكانك وأخبرتها أنت بنفسك،" قال صوت مرح.

قفزت آن من مكانها، لتجد السيدة آلن واقفة عند سريرها، تعاينها بعينين ضاحكتين.

"ياطفلتي الغالية، لا يجدر بك البكاء هكذا،" قالت، وقد تكدّرت تكدراً حقيقياً من مرأى وجه آن المأساوي. "ولِمَ كل هذا الانفعال؟ ليس الأمر إلاّ غلطة مضحكة يمكن أن يرتكبها أي شخص."

"أوه، لا، يستلزمني الكثير لأرتكب مثل هذه الغلطة،" قالت آن بصوت بائس. "أردت أن تكون الكعكة بالغة الإتقان من أجلك ياسيدة آلن."

"نعم أعرف ياصغيرتي، وتأكدي أني أقدّر لك لطفك واهتمامك، تماماً لو أن تلك الكعكة كانت جيدة. والآن كفكفي دموعك وتعالي معي لتريني حديقة أزهارك. أخبرتني الآنسة كُثْبيرت أن لديك قطعة أرض خاصة بك."

انصاعت آن مسلمة قيادها للسيدة آلن، ومستكينة لتقبل العزاء، وهي تشكر العناية الإلهية لأن روح السيدة آلن كانت مُتائِمة لروحها. ومنذ تلك اللحظة لم يذكر أحد شيئاً عن عقار تسكين الأوجاع. وعندما غادر الضيوف شعرت آن أنها استمتعت بأمسيتها أكثر ممّا كانت تتوقّع إذا أخذت تلك الحادثة الرهيبة بعين الاعتبار. مع ذلك تنهّدت من صميم أعماقها.

"ماريلا، أليس من اللطيف أن يكون الغد يوماً جديداً خالياً من الأخطاء؟"

"أنا أضمن لك ارتكابك للكثير منها فيه،" قالت ماريلا. "لم أر في حياتي من يضاهيك في ارتكاب الأخطاء ياآن."

"نعم، هذا صحيح،" أقرّت آن بحزن. "ولكن ألم تلاحظي بي أمراً

مشجعاً ياماريلا؟ أنا لا أرتكب نفس الخطأ مرتين."

"لا أدري إذا كان لهذا أية فائدة ما دُمت تقومين بارتكاب أخطاء جديدة."

"أوه ألا ترين وجهة نظري ياماريلا؟ إن هناك حدوداً للأخطاء التي يرتكبها المرء. وعندما أبلغ هذه الحدود أكون قد تجاوزت جميع الأخطاء. وهذه فكرة مريحة جداً."

"هه، يُستحسن أن تذهبي الآن وتطعمي ذاك الكعك للخنازير،" قالت ماريلا. "إنه لا يصلح لأي مخلوق بشري، ولا حتى للصبي جيري بوت."

٢٢
دعوة آن إلى تناول الشاي

"هل لي أن أعرف الآن لماذا تبصّ عيناك وكأنهما على وشك النتوء من رأسك؟" سألت ماريلا آن ما إن رأتها تدخل البيت بعد عودتها من مكتب البريد. "أتُراك عثرت على روح أخرى مُتائِمة لروحك؟"

كان الحماس يجلّل آن كالرداء، وينبثق مشعّاً من عينيها، ويضطرم في كل قسمة من قسماتها. عادت راقصة على طول الدرب، كجنيّة صغيرة طايرتها نفخات الريح رغم أشعة الشمس الدافئة والظلال الكسولة التي توشّحت بها تلك الأمسية من شهر آب.

"ليس الأمر كذلك ياماريلا، ولكن ما الذي يمكن أن يخطر ببالك؟ أنا مدعوّة إلى تناول الشاي في منزل القسّ مساء غد! تركت لي السيدة آلن رسالة الدعوة في مكتب البريد. تأمّليها ياماريلا، 'الآنسة آن شيرلي، المرتفعات الخضراء'. هذه أول مرة في حياتي أُدعى بها آنسة. يالها من رعشة تلك التي سبّبتها لي! سأظل محتفظة بهذه الدعوة إلى الأبد وسأعتبرها من أغلى كنوزي."

"أخبرتني السيدة آلن أنها ستدعو تلاميذها في مدرسة الأحد تِباعاً إلى تناول الشاي،" قالت ماريلا، مستقبلة ذلك الحدث ببرود. "لا داعي لأن تهتاجي بسبب هذا الأمر. تعلّمي كيف تتعاملي مع الأحداث بهدوء ياصغيرتي."

كان التعامل مع الأحداث بهدوء يعني بكل بساطة تغيير طبيعة آن الفطرية. فقد كانت تلك الطبيعة المجبولة من الحيوية والنار والندى، تجعلها تضاعف جميع مسرّات وآلام الحياة إلى ثلاثة أضعاف. كانت

ماريلا تعرف هذه الحقيقة، وكان قلبها يعتلج بقلق غامض على آن، لإدراكها أن الارتقاء والانحدار في هذا الوجود سيكون صعب الاحتمال على تلك الروح المندفعة التي لا تعي أن الابتهاج الهائل بتحقق المسرّات قد تكون نتائجه أكثر خطورة من كونه مجرّد تعويض عن خيبات أمل سابقة. وشعرت ماريلا أن الواجب يقتضي منها ترويض عريكة آن بحيث تصبح ذات اتساق هادئ. غير مدركة أن هذا التغيير مستحيل ودخيل على آن كما قد يكون مستحيلاً ودخيلاً على إشعاع شمس راقص فوق ماء جدول. ولم تحقق ماريلا أي تقدّم ملحوظ، كما اعترفت لنفسها بأسى. فقد ظلّ فشل واحد من الآمال الغالية أو المخططات يُغرق آن في أعماق العذابات، كما استمرّ تحقق أحد الآمال أو المخططات يسمو بها إلى عوالم الحبور المذهل. وكانت ماريلا على وشك اليأس من فلاحها في تشكيل تلك المنبوذة الصغيرة وفق فكرتها عن الطفلة النموذجية ذات الطباع الرزينة والسلوك العقلاني. وفي نفس الوقت لم تكن تعتقد أنها ستحبّ آن أكثر ممّا تحبها لو أنها كانت تلك الطفلة النموذجية.

أوت آن إلى سريرها في تلك الليلة بتعاسة خرساء، لأن ماثيو قال إن هبوب الريح من ناحية الشمال الشرقي قد يتسبب في غدٍ ماطر. أقلقها صوت حفيف أوراق شجر الحور حول المنزل، وتناهى إليها وكأنه وقع طقطقة حبات المطر. أمّا هدير الخليج الرتيب البعيد، الذي كانت تُنصت إليه بجذل في أوقات أخرى، مُتيّمة بإيقاعه الغريب الجهوري القلق، فقد بدا تلك الليلة وكأنه نذير عاصفة ونبوءة شؤم بالنسبة إلى بتول صغيرة أرادت الحصول على غدٍ مشرق. وهكذا، شعرت آن أن الصباح لن يطلّ أبداً.

لكن ما مِن شئ إلاّ وله نهاية. بما في ذلك الليالي التي تسبق يوم الدعوة إلى تناول الشاي في منزل القسّ. ورغماً عن توقعات ماثيو، كان ذلك الصباح صاحياً، ومعه ارتقت معنويات آن إلى أعلى قممها.

"أوه ياماريلا إن في داخلي اليوم شيئاً يجعلني أحب جميع الناس

الذين أراهم،" هتفت بينما كانت تجلي أطباق وجبة الإفطار. "أنت لا تعرفين عمق إحساسي بالسعادة اليوم! أمَا كان من اللطيف لو ظلّ هذا الإحساس مستمراً؟ أظن ياماريلا أنني إذا دُعيت إلى تناول الشاي كل يوم، سيكون من السهل عليَ أن أغدو بنتاً مثالية. لكن هذه ليست مجرّد دعوة، بل هي مناسبة رسمية أيضاً، وهذا يجعلني قلقة جداً. ماذا لو لم أحسن التصرف؟ تعرفين أنه لم يسبق لي أبداً تناول الشاي في منزل قسّ، ولست واثقة من استيعابي لجميع آداب السلوك، رغم أني داومت على دراسة قواعد آداب السلوك الموجودة في كتاب دليل العائلة منذ أن جئت إلى هنا. وأخشى أن أرتكب حماقة ما أو أنسى أداء عمل ينبغي لي أداؤه. تُرى أهو من غير اللائق أن تتناولي المزيد من أي صنف من أصناف المأكولات التي تحبينها كثيراً؟"

"مشكلتك ياآن أنك تجعلين تفكيرك يتمحْوَر حول نفسك كثيراً. ما ينبغي لك هنا هو التفكير بالسيدة آلن وما الذي يناسبها ويكون مستحسناً بالنسبة إليها،" أجابتها ماريلا التي استطاعت لأول مرة في حياتها إسداء نصيحة صحيحة وجوهرية، وهذا ما أدركته آن في الحال.

"أنت محقّة ياماريلا. سأحاول ألاّ أجعل تفكيري ينصبّ على نفسي بعد الآن."

كان من الواضح أن آن تمكّنت من قضاء زيارتها بدون أي خرق لآداب السلوك. فقد عادت إلى البيت مع حلول الشفق تحت السماء العظيمة التي وشتّها أذيال غيوم زعفرانية ووردية، وهي في حالة فكرية طوباوية. وشرعت تروي لماريلا تفاصيل زيارتها بسعادة، بينما اقتعدت العتبة الحجرية الحمراء عند باب المطبخ، وتوسّد رأسها الصغير المتعب حضن ماريلا.

هبّت ريح باردة فوق حقول المحاصيل من فوق حوافّ التلال الغربية التنوبية، وصفرت بين شجر الحور، بينما أطلّت نجمة واحدة صافية على البستان، وطارت الحباحب فوق درب العشاق متغلغلة حيناً بين السراخس وحيناً خارجها وحيناً آخر بين الأغصان

المخشخشة. كانت آن ترقب هذا المشهد أثناء حديثها مع ماريلا، وشعرت أن الريح والنجوم والحباحب قد تشابكت فيما بينها بطريقة ما، مُشكِّلة شيئاً ساحراً يعجزه الوصف.

"لقد قضيت وقتاً من أروع الأوقات ياماريلا، وأشعر الآن أن حياتي لم تذهب هدراً، ولسوف أبقى محتفظة بهذا الشعور وإن لم أُدع مرة ثانية إلى تناول الشاي في منزل قسّ. لاقتني السيدة آلن أمام الباب عندما وصلت، وكانت تبدو كالملاك بفستانها الجميل من الموسلين الوردي الفاتح وكشاكشه الكثيرة وأكمامه التي تصل إلى المرافق. أعتقد ياماريلا أني أرغب في الزواج من قسّ عندما أكبر، فالقسّ قد لا يهتم كثيراً بشعري الأحمر لأنه لن يكون منشغل البال بالأمور الدنيوية. ولكني في هذه الحالة يجب أن أكون صالحة، وأنا لن أكون كذلك أبداً، ويبدو أن لا فائدة من تفكيري بهذا الأمر. إن بعض الناس، كما تعلمين، هم ذوو فطرة طيبة في الأساس، وبعضهم الآخر ليسوا كذلك. أنا واحدة من أولئك الآخرين. وتعتقد السيدة ليند أني مُشبعة بالخطيئة الأصلية، وأن لا أمل في محاولتي كي أكون صالحة، ومهما فعلت لن أتمكّن من إحراز أي تقدم يُذكر، كما تجري الأمور مع الناس ذوي الفطرة الطيبة. وأظن أن الأمر يشبه إلى حدّ ما مشكلتي مع الهندسة. ولكن ألا تعتقدين ياماريلا أن المحاولة قد تثمر شيئاً؟ السيدة آلن هي واحدة من أولئك الأشخاص ذوي الفطرة الطيبة. وأنا أحبها كثيراً ياماريلا، فهناك أشخاص مثل ماثيو والسيدة آلن، يمكنك التعلّق بهم تلقائياً بدون أي عناء. وهناك آخرون مثل السيدة ليند، مِنَ الذين عليك بذل مجهود كبير كي تحبيهم، فأنت تعرفين أنه لا يسعك إلاّ أن تحبيهم، لأن معلوماتهم غنية ولأنهم أعضاء فعّالون ونشطون في الكنيسة. شرط أن تُذكّري نفسك دوماً بهذه الحقيقة وإلاّ فإنك تكونين عرضة للنسيان. اجتمعتُ في منزل القسّ ببنت أخرى كانت مدعوّة إلى تناول الشاي، وهي من مدرسة الأحد في بلدة وايت ساندس. اسمها لوريتا برادلي، وهي لطيفة جداً، ليست من الأوراح

المُتائمة لروحي، مع ذلك ما زلت أعتقدها لطيفة جداً. كان الشاي رائعاً، وأظنني راعيت آداب السلوك كما يجب. بعد تناول الشاي عزفت السيدة آلن وغنّت وجعلتنا نغني أنا ولوريتا أيضاً. وقالت إن صوتي جيد وعليَّ الغناء في جوقة مدرسة الأحد. لا يمكنك ياماريلا تصوّر الحماس الذي انتابني من مجرّد التفكير بهذا. لطالما تشوقت إلى الغناء في جوقة مدرسة الأحد كما تفعل ديانا، ولكني كنت أظنه شرفاً لا يمكنني الطموح إلى نيله أبداً. اضطرت لوريتا إلى المغادرة في وقت مبكر لأن هناك حفلاً موسيقياً في فندق وايت ساندس الليلة، وستشارك فيه شقيقتها. قالت لوريتا إن الأميركيين في الفندق يقيمون حفلاً موسيقياً كل أسبوعين ويخصصون ريعه لمستشفى تشارلوت تاون، ويطلبون من أهالي وايت ساندس المشاركة فيه. وأخبرتنا لوريتا أنها تتوقّع أن يطلبوا منها المشاركة ذات يوم، واكتفيت ياماريلا بالحملقة فيها مشدوهةً. بعد أن غادرتنا، تحدثنا أنا والسيدة آلن حديثاً من القلب إلى القلب. أخبرتها كل شئ عن السيدة توماس وعن التوائم وعن كيتي موريس وفيوليتا، وعن مجيئي إلى المرتفعات الخضراء ومشاكلي في الهندسة، وهل تصدقين أمراً يا ماريلا؟ أخبرتني السيدة آلن أنها كانت هي أيضاً بليدة في الهندسة، ولا يمكنك أن تتصوري كم شجّعني ذلك. جاءت السيدة ليند إلى منزل القسّ قبل أن أغادر بقليل، وماذا تظنين ياماريلا؟ لقد قام الأوصياء على المدرسة بتسليم مهمة التعليم فيها إلى إمرأة. اسمها الآنسة موريل ستيسي. أليس هذا الاسم اسماً شاعرياً؟ قالت السيدة ليند إنه لم يسبق أن كان في أفونليا معلّمة من قبل، وتعتبر هذا التجديد تجديداً خطيراً. أمّا أنا فأظن أنه من الرائع الحصول على معلّمة، ولا أعرف كيف سأتمكّن من تمضية هذين الأسبوعين بانتظار أن تفتح المدرسة أبوابها، لأني أتحرّق شوقاً إلى رؤيتها."

٢٣
محنة آن في مسألة شرف

اضطرت آن إلى احتمال الحياة لأكثر من أسبوعين قبل رؤية المعلّمة الجديدة، نتيجة ما جرى من أحداث تالية. فبعد مضيّ شهر تقريباً على واقعة العقار المسكّن للأوجاع في قالب الكعك، كان الوقت قد حان لتورّط نفسها في مشكلة جديدة من أي نوع. بالطبع لم يخل الأمر من أخطاء عَرضية، مثل سهوها أثناء تفريغها لوعاء من الحليب المقشود داخل سلّة كرات خيطان الغزل الموجودة في غرفة المؤونة بدل تفريغه في دلو الخنازير. أو مثل استغراقها في حلم من أحلامها الخيالية أثناء تجاوزها لجسر جذع الشجرة، ومشيّها على حافته، ثم سقوطها في الجدول مباشرة. لكن أمثال هذه الحوادث التافهة لم تكن جديرة بالحسبان.

بعد أسبوع من دعوة آن لتناول الشاي في منزل القسّ، أقامت ديانا باري حفلة.

"متواضعة ومُنتقاة،" أكّدت آن لماريلا. "بنات صفّنا فقط."

قضت الفتيات في تلك الحفلة وقتاً ممتعاً. ولم يحدث شيء إلاّ بعد فراغهن من تناول الشاي، عندما وجدن أنفسهن في حديقة آل باري، ضَجِرات من جميع ألعابهن المعتادة، وجاهزات لتقبّل أية تسلية جديدة يمكن أن تُثيرهن، فظهرت هذه الإثارة في لعبة التحدّي.

كان التحدّي تسلية جديدة وعصرية بين أطفال أفونليا في ذلك الوقت. استهلّه الصبية ثم انتشر بين البنات. وكان يمكن تأليف كتاب كامل عن جميع الأفعال السخيفة التي جرت في أفونليا ذلك الصيف، نتيجة اضطرار الذين تعرّضوا للتحدّي إلى القيام بها.

في البدء قامت كاري سلون بتحدّي روبي غيليز في أن تتسلّق شجرة الصفصاف الضخمة العتيدة التي أمام باب البيت الرئيسي شرط الوصول إلى حدّ معين فيها. ورغم فزع روبي غيليز الرهيب من اليرقانات الخُضر السِمان اللواتي كانت الشجرة المذكورة مغزوّة بهن، ورغم خوفها الواضح من أمها في حال مزّقت فستان الموسلين الجديد، تسلّقت تلك الشجرة برشاقة، منتصرة على كاري سلون التي تحدّتها.

بعد ذلك قامت جوزي باي بتحدّي جين آندروز في أن تحجل على قدمها اليسرى بحيث تدور حول الحديقة من غير أن تتوقّف مرة واحدة أو تضع رجلها اليمنى على الأرض. حاولت جين آندروز أن تفعل ذلك بروح مرحة، لكنها استسلمت عند الزاوية الثالثة واعترفت بالهزيمة.

كان التشفّي الذي أظهرته جوزي باي أكثر ممّا يحتمله الذوق. فما كان من آن شيرلي إلاّ أن تحدّتها في السير فوق السياج الخشبي الذي يحدّ الحديقة من ناحية الشرق.

لم يكن المشي على الأسيجة الخشبية من الأمور السهلة، لأنه يتطلب مهارة وتوازناً أكثر ممّا قد يُخيَّل للمرء الذي لم يسبق له القيام بمثل هذه التجربة. لكن جوزي باي التي لم تكن تتحلّى بصفات مُحببة تجعلها صاحبة شعبية بين قريناتها، كانت تتميز بموهبة فطرية فيما يتعلق بالمشي على الأسيجة. وُلدت هذه الموهبة معها، ودأبت صاحبتها على تطويرها كما ينبغي. وهكذا، اعتلت جوزي سياج آل باري وقطعته بلامبالاة متعجرفة، أوحت لقريناتها أن ما قامت به كان عملاً سخيفاً لا يستحق التحدّي. فاضطرت الفتيات مُكْرَهات إلى إطراء مأثرتها وتقدير نجاحها، لأن معظمهن كثيراً ما سبق لهن أن عانيْن من محاولات مماثلة فاشلة. وما إن ترجلّت جوزي باي من على ساريتها متوردّة بحمرة الزهو حتى شزرت آن بنظرة متغطرسة.

نفضت آن ضفيرتها الحمراء.

"لا أعتبر السير على سياج واطيء صغير، انتصاراً عظيماً حقاً،"

قالت آن. "أعرف بنتاً في ماريسفيل تستطيع المشي على رافدة السطح الأفقية."

"لا أصدقك،" قالت جوزي بصوت جهوري. "لا أصدق أن أحداً يمكنه المشي على رافدة السطح، على كل حال أنت لا تقدرين على ذلك."

"لا أقـــــدر؟" صاحت آن بتهور.

"إذن أنا أتحدّاك في القيام بهذا،" قالت جوزي باي بجسارة. "أتحدّاك في أن تتمكني من التسلق إلى سطح مطبخ آل باري والمشي على رافدته."

امتقعت آن، ولكن كان من الواضح أن هناك شيئاً واحداً يمكنها عمله. مشت نحو المنزل، حيث كان يوجد سلم يستند على جدار المطبخ. وهتفت جميع بنات الصفّ الخامس: أوه! بصوت واحد اختلطت فيه الإثارة بالرعب.

"لا تقومي بذلك ياآن،" استعطفتها ديانا. "سينتهي بك الأمر إلى السقوط والموت. لا تكترثي بما تقوله جوزي باي، فليس من العدل تحدّي أي شخص في القيام بعمل بالغ الخطورة."

"يجب أن أقوم بهذا. شرفي على المحكّ،" قالت آن بجدّية. "سأمشي على تلك الرافدة ياديانا أو أهلك أثناء محاولتي. وإذا متُّ، فأنا أهبك خاتمي اللؤلؤي."

تسلّقت آن السلم وسط الصمت المخيّم، ارتقت الرافدة الأفقية، وازنت نفسها، ووقفت على تلك الأرضية المتقلقلة استعداداً لمباشرة المشي عليها. وسرعان ما تغشّاها إحساس مزعج نتيجة وعيها بارتفاعها الشاهق عن عالم الأرض الثابتة، ونتيجة إدراكها أن المشي على الروافد الخشبية ليس من الأعمال التي يلعب فيها الخيال دوراً مهماً. مع ذلك، نجحت في إنجاز بضع خطوات قبل أن تحلّ الكارثة، إذ كانت على وشك متابعة السير قُدماً عندما ترنّحت فجأة ففقدت

توازنها ومالت ثم تعثرت وانزلقت على السطح الذي سخّنته أشعة الشمس، ثم تهاوت من فوقه وسقطت بين أكوام العرائش المتسلّقة. جرت هذه الوقائع كلها قبل أن تنطلق الزعقة المخيفة الموحّدة من الحلقة التي كانت تراقبها وهي محبوسة الأنفاس.

لو قُدّر لآن أن تقع من الجهة التي صعدت منها، لأصبحت ديانا منذ تلك اللحظة وإلى الأبد وريثة شرعية لخاتم آن ذي الخرزات اللؤلؤية. غير أنها لحسن الحظ سقطت من الجهة الأخرى، التي انبسط فيها السطح الخشبي ومال نحو الشرفة غير بعيد عن الأرض، بحيث كان السقوط منه أقل خطورة حتماً. كانت آن منطرحة على الأرض فوق أكوام العرائش المتكسِّرة، هامدة وشاحبة عندما هرعت ديانا وجميع البنات نحوها مسعورات، باستثناء روبي التي وقفت وكأنها قد تسمّرت في الأرض مطلقة العنان لبكائها العصبيّ العنيف.

"آن، هل أنت ميتة؟" صرخت ديانا، وهي ترمي نفسها على ركبتيها بالقرب من رفيقتها. "آه.. يا.. آن، ياغاليتي آن، كلّميني كلمة واحدة فقط وقولي لي إذا كنت قد مـــتِّ؟"

لا يمكن وصف شعور الارتياح العظيم الذي غمر البنات، خصوصاً جوزي باي التي رغم افتقارها للخيال، استولت عليها تلك الرؤى المستقبلية المخيفة التي ستعيِّرها بأنها البنت التي تسبّبت بمقتل آن شيرلي التراجيدي وهي في ريعان الصبا، وذلك عندما جلست آن نصف واعية وأجابت ديانا بنبرة حائرة:

"لا، يا ديانا أنا لست ميتة، ولكن أظنني فقدت وعيـــي."

"أيـــن؟" سألتها كاري سلون باكية. "أيـــن ياآن؟"

قبل أن تتمكن آن من الإجابة أطلّت السيدة باري على الحديقة، وما إن رأتها آن حتى حاولت النهوض على قدميها لكنها سرعان ما وقعت على الأرض، وهي تطلق صرخة ألم صغيرة.

"ماذا حدث؟ أين تشعرين بالألم؟" سألتها السيدة باري.

"كاحلي،" شهقت آن. "ديانا، أرجوك ابحثي عن أبيك واطلبي منه أخذي إلى البيت. أعرف أني لن أتمكّن من المشي، وبالتأكيد لن أستطيع الحجل على طول الطريق، في حين لم تتمكّن جين من الوثوب على رجل واحدة حول الحديقة."

كانت ماريلا واقفة في البستان، تقطف شيئاً من التفاح، عندما رأت السيد باري وهو يجتاز جسر جذع الشجرة ويصعد المرتفع، حاملاً آن بين ذراعيه وقد استند رأسها على كتفه بإعياء، تماشيه السيدة باري ويتبعه موكب الفتيات الصغيرات.

في تلك اللحظة كان لدى ماريلا ما تصارح به نفسها. إذ أدركت فجأة ما الذي تعنيه آن لها عندما شعرت بتلك الطعنة التي شقّت لها صميم فؤادها. كانت فيما بينها وبين نفسها تقرّ بأنها تستلطف آن.. لا.. بل تقرّ بأنها كانت مولعة بها. لكنها في تلك اللحظة عندما هرعت بجنون نحو الطريق المنحدر عرفت أن آن كانت أغلى على قلبها من أي شئ آخر موجود على وجه هذه الأرض.

"ما الذي أصابها ياسيد باري؟" شهقت ماريلا وهي ممتقعة ومرتعدة الفرائص أكثر ممّا سبق لماريلا الحكيمة المتزنة أن كانت عليه لعددٍ لا يُحصى من السنين.

أجابتها آن بنفسها وهي تحاول رفع رأسها:

"لا تخافي ياماريلا. كنت أمشي على رافدة السطح ووقعت عنها. أظنني رضضت كاحلي. مع ذلك دعينا ننظر إلى الأمر من الناحية الإيجابية ياماريلا، إذ كان يمكن أن أكسر عنقي."

"كان يجدر بي التأكد أنك ستقحمين نفسك في ورطة جديدة عندما سمحت لك بالذهاب إلى الحفلة،" قالت ماريلا معبّرة عن اطمئنانها على آن بلهجة حادّة ولاذعة. "أدخلها إلى البيت ياسيد باري، ومدّدها على الأريكة. رحمتك يارب، لقد أُغمي على الطفلة!"

كان هذا صحيحاً. فنظراً للألم الرهيب الذي شعرت به آن أُغمي

عليها حالاً. وتحققت بذلك أمنية أخرى من أمانيها.

استُدْعِيَ ماثيو على وجه السرعة من حقل الحصاد. وأوفِد لإحضار الطبيب الذي جاء في الوقت المناسب، وأعلن أن الحالة كانت أكثر خطورة ممّا توقع الآخرون. لقد كسرت آن عظم كاحلها.

تلك الليلة، عندما قصدت ماريلا الغرفة الشرقية التي كانت تلازمها طفلة شاحبة الوجه، استقبلها صوت كئيب من السرير:

"ألست حزينة عليَّ ياماريلا؟"

"كان الذنب ذنبك،" قالت ماريلا وهي تسدل الستائر وتضيء مصباحاً.

"وهذا هو السبب الذي يستدعي حزنك عليَّ." أجابت آن، "لأن مجرد التفكير أني أنا وحدي المسؤولة عمّا حدث يجعل الأمر صعباً للغاية. لو كان بإمكاني إلقاء اللوم على أي شخص آخر لربّما شعرت ببعض الارتياح. ولكن ماذا كنت ستفعلين ياماريلا لو أن أحداً تحدّاك في أن تمشي على رافدة السطح؟"

"كنت بقيت واقفة على الأرض الثابتة، وضربت بتحدّي المتحدّين عرض الحائط. ياللترّهات السخيفة!" قالت ماريلا.

تنهّدت آن.

"ولكنك صاحبة إرادة قوية ياماريلا، وأنا لست كذلك. شعرت أني لن أستطيع احتمال استهزاء جوزي باي مني. وكانت هذه الفكرة ستظل تنعق في وجهي لبقية عمري. وأظنني نلت العقاب الكافي الذي يحول دون استمرار غضبك عليِّ ياماريلا. لقد اكتشفت أخيراً ياماريلا أن الإغماء ليس بتلك التجربة اللطيفة، كما أن الطبيب آلمني ألماً لا يمكن وصفه عندما كان يعالج كاحلي. ولن أقدر الآن على التحرّك لمدة سبعة أسابيع، وسأفوّت على نفسي فرصة رؤية المعلّمة الجديدة. ولن تكون معلّمة جديدة أبداً عندما يحين الوقت الذي

سأتمكّن فيه من العودة إلى المدرسة. بالإضافة إلى أن غيلـ... الجميع في المدرسة سيتفوقون عليَ في الصف. أوه، إني مخلوقة فانية تعيسة، ومع ذلك سأحاول تقبُّل الأمر بشجاعة ياماريلا، إذا لم تكوني غاضبة عليَ."

هيا، هيا، أنا لست غاضبة،" قالت ماريلا. "أنت طفلة غير محظوظة بدون أدنى شكّ. ورغم كل شئ فإن أحداً غيرك لن يعاني من هذه المحنة التي ألّمت بك. والآن حاولي تناول شئ من الطعام."

"أليس من حسن حظي ياماريلا أني خيالية؟" قالت آن. "أظن أن خيالي سيساعدني كثيراً الآن. تُرى ماذا يفعل الناس الذي يفتقرون إلى الخيال عندما يكسرون عظامهم؟"

من المؤكد أنه كان لآن أسبابها الوجيهة التي جعلتها تحمد قدرتها على التَخَيُّل مراراً وتكراراً خلال تلك الأسابيع السبعة المُضجرة التي مرّت بها، رغم أنها لم تعتمد اعتماداً كاملاً على ذلك الخيال. فقد استقبلت العديد من الزوار في تلك الفترة، ولم يكن يمرّ يوم واحد بدون زائرة أو اثنتين من رفيقات المدرسة، وهنّ محمّلات بالأزهار والكتب وأخبار آخر التطورات الجديدة في عالم أبناء أفونليا الأحداث.

"كان الجميع طيباً ولطيفاً معي ياماريلا،" قالت آن وهي تتنهد بسعادة يوم تمكّنت أخيراً من المشي وهي تعرج. "ليس اضطرار المرء إلى المكوث في سريره بالشئ اللطيف أبداً. مع ذلك يوجد فيه جانب إيجابي مميز ياماريلا، فهو يبين لك كم أنت محظوظة بحصولك على كثير من الأصدقاء. حتى الناظر بيل عادني ياماريلا، وهو في الحقيقة إنسان لطيف جداً، طبعاً ليست روحه من تلك الأرواح المُتآئِمة لروحي ولكني ما زلت أعتبره لطيفاً، وأنا أشعر بالأسف لأني انتقدت صلاته. بل وأعتقد الآن أنه يصلّي من صميم قلبه، ولكن اعتياده على تلاوة الصلاة، يجعله يبدو وكأنه يفتعلها، مع أنه قادر على التخلص من رتابة العادة لو بذل القليل من الجهد. وهذا ما جعلني أعطيه بعض التلميحات الواضحة، إذ أخبرته أني أحاول دائماً جعل صلواتي

الخاصة مشوّقة. روى لي ياماريلا كل شئ عن الحادثة التي كسر فيها عظم كاحله عندما كان صبياً صغيراً. وكان من الصعب على خيالي تَصَوّر أن الناظر بيل كان صبياً في يوم من الأيام، فحتى خيالي له حدوده. وكلما حاولت تَخَيُّل طفولته لا أراه إلاّ بسالفين أشيبين ونظارات، تماماً كما يبدو في مدرسة الأحد لكن على شكل مُصَغَّر. وبالمقابل ليس هناك ما هو أسهل من تَخَيُّل طفولة السيدة آلن. تصوّري ياماريلا أنها عادتني أربع عشرة مرة، أليس هذا بالشئ الذي يستحقّ الافتخار؟ نظراً للمشاغل الكثيرة التي ينبغي لزوج القسّ القيام بها! بالإضافة إلى أنها من أولئك الناس الذين يشيعون حولك المرح عندما يزورونك. ولا تقول لك أبداً أن الذنب ذنبك، أو تُلَمِّح لك أن ما حدث يجب أن يكون عبرة مستقبلية لك. هذا ما قالته لي السيدة ليند عندما جاءت لرؤيتي، وقالته بأسلوب جعلني أشعر أنها كانت تأمل في أن أكون بنتاً صالحة ولكنها لا تعتقد أن هذه الأمنية قابلة للتحقق. أمّا جوزي باي التي جاءت لزيارتي أيضاً، فقد ألزمت نفسي على استقبالها بأدب، لأني أظنها تشعر بالأسف نتيجة تحدّيها لي في المشي على رافدة السطح. ولو متُّ لكان عليها حمل عبء الندم الثقيل طيلة حياتها. كانت ديانا رفيقة مخلصة فعلاً، فقد عادتني يومياً لتؤنس وحشتي. لكني الآن سعيدة جداً بالعودة إلى المدرسة لأني سمعت أخباراً مثيرة عن المعلّمة الجديدة. والبنات يعتقدنها لطيفة جداً. أخبرتني ديانا أن شعرها فائق الروعة بلونه الفاتح وخصلاته المجعدة، وأنها جميلة العينين وأنيقة الملبس، وأكمام فساتينها منفوخة أكثر من أكمام أي مخلوق آخر في أفونليا. كما أخبرتني أنها تقوم كل أسبوعين بتخصيص أمسية يوم الجمعة لحلقات الإلقاء، وعلى كل تلميذ إلقاء مقطوعة شعرية أو أخذ دور في مقطع حواري. أوه ياماريلا، أليس هذا شيئاً راقياً؟ تقول جوزي باي إنها تكره حلقات الإلقاء هذه، وأظن السبب يعود إلى افتقارها للخيال. أخبرتني ديانا أنها تتدرب حالياً مع روبي غيليز وجين آندروز على مقطع حواري عنوانه: زيارة صباحية، وذلك لأمسية يوم الجمعة القادمة. أمّا أمسيات

يوم الجمعة التي لا يوجد فيها حلقات إلقاء، فإن الآنسة ستيسي تقوم باصطحاب التلاميذ إلى الغابة في درس ميداني، يعملون أثناءه على دراسة النباتات والعصافير والأزهار. كما أنهم يمارسون التمارين الرياضية صباحاً ومساءاً. وتقول السيدة ليند إنها لم تسمع بمثل هذه الصرعات من قبل، وكل ذلك بسبب وجود معلّمة وليس معلّم. لكنني أرى كل ما تفعله رائعاً، وأنا متأكدة أني سأجد روح الآنسة ستيسي مُتائِمة لروحي."

"هناك شئ واضح يمكن التأكد منه ياآن،" قالت ماريلا، "وهو أن سقوطك من على سطح آل باري لم يُصب لسانك بأي عطب."

٢٤
إعداد الآنسة ستيسي وتلاميذها لحفل موسيقي

كان شهر تشرين الأول قد عاد من جديد عندما أصبحت آن قادرة على العودة إلى المدرسة. كان ذلك الشهر بديعاً بصباحاته المنعشة المتشربة بالظلال الذهبية والحمراء، ووديانه المغشيّة بالسديم الشفاني المتماوج بأصبغة بنفسجية ولؤلؤية وفضّية ووردية وزرقاء دخانية، وكأن روح الخريف سكبته خصيصاً للشمس لتجففه. كانت الحقول تلمع كالبُسط الفضّية تحت الندى الغزير، وكانت أكوام أوراق الأشجار المتساقطة تحتشد في فسحات الأحراج وتتطاير حرّة في أرجائها. أمّا ممر البتولا الذي أصبح قبّة صفراء فقد غدت السراخس الذاوية على امتداده بُنْيِّة اللون، بينما تشبّع الجو بعبق عبير نفّاذ، أثلج قلوب العذارى الصغيرات اللاتي قصدن المدرسة طوعاً، وتخطرن فوق الدروب بخطى رشيقة لا تشبه بلادة الحلزونات.

كان الرجوع ثانية إلى المقعد البُنْيّ الصغير حيث تجلس ديانا حدثاً مفرحاً. ومع إيماءات روبي غيليز من مقعدها، والأوراق الصغيرة المرسَلة من قبِل كاري سلون، ومضغة العلكة التي هرّبتها جوليا بيل من تحت المقعد، استنشقت آن عبير السعادة وهي تسنن قلمها وترتّب الصور التي تزين بها مقعدها.

نعـــــم، لا شكّ أن الحياة جميلة.

وجدت آن في المعلّمة الجديدة صديقة أخرى حقيقية ومفيدة. كانت الآنسة ستيسي شابّة خَلوقة، عطوفة. تتميز بمقدرة بارعة على كسب وتنمية محبة تلامذتها، واستخلاص أفضل ما عندهم من فضائل فكرية

وأخلاقية. وهكذا، تفتّحت آن كالزهرة تحت تأثير هذا الجوّ السليم، وحملت باستمرار إلى ماثيو المُحبّ وماريلا النزّاعة إلى الانتقاد أخباراً مثيرة عن المدرسة وأهدافها.

"أحب الآنسة ستيسي من صميم قلبي ياماريلا. إنها إمرأة بكل معنى الكلمة، ولديها صوت لطيف جداً. عندما تلفظ اسمي أحس غريزياً أنها تلفظه بطريقة صحيحة. أخذنا حلقة إلقاء هذه الأمسية، وليتك كنت هناك ياماريلا لتسمعيني وأنا ألقي: ماري ملكة اسكوتلندا، لقد ضمّنتُ روحي في ذلك الإلقاء. وعندما كنّا في طريق العودة إلى البيت أخبرتني روبي غيليز أن طريقة قراءتي لبيت الشعر:

والآن ها هو قلبي الراشد يودّع كنف أبي

جعلتْ الدم يجمد في عروقها."

"إذن، لا بدّ أن تلقيها أمامي في يوم ما من تلك الأيام المقبلة، هناك في البيدر،" اقترح ماثيو.

"طبعاً سأفعل هذا،" أجابت آن متفكّرة، "ولكني لا أعتقد أني سألقيها كما ينبغي. أنا متأكدة من هذا، فالأمر لن يكون مثيراً كما هو الحال عندما تجد أمامك المدرسة كلها، وهي تنصت إليك وتنتظر وقع كلماتك محبوسة الأنفاس. أظن أني لن أتمكّن من جعل الدم يجمد في عروقك."

"تقول السيدة ليند أن الدم جمد في عروقها يوم الجمعة الماضي، عندما رأت الصبية يتسلقون أعالي الأشجار الكبيرة في حرش السيد بيل بحثاً عن أعشاش الغربان،" قالت ماريلا. "إني أستغرب تشجيع الآنسة ستيسي لمثل هذه التصرفات."

"ولكننا أردنا عشّ غراب من أجل دراسة الطبيعة،" أوضحت آن. "كان هذا في الأمسية الميدانية. الأمسيات الميدانية رائعة ياماريلا. والآنسة ستيسي تشرح كل شئ بطريقة جذابة. وعلينا أن نكتب مواضيع إنشائية عن أمسياتنا الميدانية، وأنا أكتب أفضل المواضيع."

"من الغرور أن تقولي هذا عن نفسك. يُستحسن أن تدعي معلمتك تقوله."

"ولكن هذا ما قالته هي ياماريلا. وصدّقيني لست أشعر بالغرور. وكيف أغترّ بنفسي بينما أنا بليدة في الهندسة؟ ورغم أني أكاد أستقريء مبادئها الآن، لأن الآنسة ستيسي تشرحها بوضوح، أؤكد لك بكل تواضع أنني لن أحرز أي تفوّق فيها. أمّا المواضيع الإنشائية فأنا مولعة بها، وغالباً ما تترك لنا الآنسة ستيسي حرية اختيار الموضوع. ينبغي لنا في الأسبوع القادم كتابة موضوع عن شخص مشهور. وليس هناك أصعب من انتقاء شخص مشهور من بين المشاهير الكُثر الذين عاشوا في هذه الدنيا. أليس من الرائع ياماريلا أن يكون الإنسان مهماً، وأن تُكتب عنه المواضيع بعد موته؟ إني لأرغب حقاً في تحصيل الشهرة. وأعتقد أني سأمتهن التمريض عندما أكبر لأصبح ملاك رحمة، وأرافق الصليب الأحمر إلى مواقع المعارك. هذا إذا لم أذهب بصفتي مُبَشِّرة، وسيكون ذلك شاعرياً جداً. لكن العقبة الكبيرة التي ستعترضني في هذه الحالة هي أن المُبَشِّر يجب أن يكون إنساناً مثالياً. نحن الآن نمارس التمارين الرياضية أيضاً، فهي تجعلك رشيقة وتنظّم لك عملية الهضم."

"عملية هضم هراء!" قالت ماريلا، التي كانت تعتقد فعلاً أن كل ما ذكرته آن ليس إلاّ كلاماً فارغاً.

مع ذلك، ذوى بريق الأمسيات الميدانية وحلقات الإلقاء والتمارين الرياضية، أمام مشروع جديد اقترحته الآنسة ستيسي في شهر تشرين الثاني. فقد رأت أنه يجب على تلاميذ مدرسة أفونليا تنظيم حفل موسيقي، يُقام في صالة الاحتفالات عشيّة عيد الميلاد، ويخصص ريعه من أجل هدف سامٍ، ألا وهو شراء علم للمدرسة.

كان للتلاميذ أفراداً وجماعات دور فعّال في هذا المشروع، وبدأت التحضيرات له في الحال. وكانت آن من أكثر المشاركين حماساً، إذ انهمكت في هذا المشروع بروحها وقلبها، رغم كل معارضات ماريلا

المُحبِطة. ماريلا التي رأت أن كل ما كان يجري لا يُصنّف إلاّ ضمن مرتبة الحماقات.

"لا يتعدى الأمر سوى حشو رؤوسكم بالسفاسف، وهدر الوقت الذي يجب تخصيصه للدراسة،" قالت ماريلا متذمّرة. "وأنا لا أحبذ أبداً مشاركة الأطفال في الحفلات الموسيقية وانشغالهم بالتدريبات، فهذا يملؤهم بالغرور والتهوّر والولع بالتسكع."

"ولكن فكّري بالهدف النبيل ياماريلا،" توسلّت آن. "سيغرس العَلَمُ الروحَ الوطنية في النفوس."

"احتيـــــال! لا أصدق أن هناك ذرّة من الوطنية النبيلة في قلب أي منكم. كل ما تسعون إليه هو الاستمتاع بوقت طيب."

"وما العيب في مزج الوطنية بالمرح عندما يكون باستطاعتك فعل هذا؟ طبعاً، لا أنكر أيضاً أن الإعداد لحفل موسيقي أمر مسلٍ جداً. سيكون لدينا ست جوقات ياماريلا، وستؤدي ديانا أغنية فردية. أنا أشارك في مشهدين حواريين: المجتمع يحارب النميمة، وملكة الجنيّات. سيؤدي الصبية أيضاً مشهداً حوارياً. وسألقي ياماريلا قطعتين من الشعر، وكلما فكّرت بهذا الأمر أرتجف فزعاً. وفي الختام سنقدّم لوحة حيّة راقصة وهي: الإيمان والأمل والإحسان. سنتشارك فيها أنا وديانا وروبي، وسنرتدي جلابيب بيضاء ونسدل شعرنا. سأكون أنا الأمل، وسأقف مشبوكة اليدين..هكذا.. وعيناي تنظران إلى الأعلى. سأتدرب على المقطوعات الشعرية في العليّة، فلا تفزعي ياماريلا إذا سمعتني أصدر أنيناً، لأنه ينبغي لي أن أئن من صميم قلبي في واحدة منهما. وليس أصعب من إتقان الأنين بطريقة فنية ياماريلا. جوزي باي مغتاظة جداً لأنها لم تحصل على الدور الذي كانت تريده في المشاهد الحوارية. أرادت أن تكون ملكة الجنيات. وما من شئ أسخف من هذا، فلا أحد سمع من قبل عن ملكة جنيات بدينة مثل جوزي. ألا ينبغي أن تكون ملكة الجنيات نحيلة ياماريلا؟ ستقوم جين آندروز بدور الملكة، وسأكون واحدة من وصيفات الشرف. وتقول جوزي إن الجنيّة الحمراء

الشعر تعادل في سخفها سخف الجنيّة البدينة، لكني لا أشغل فكري بما تقوله جوزي. سأزيّن شعري بإكليل من الورود البيضاء، وستعيرني روبي غيليز خُفّها لأني لا أملك خُفّاً خاصاً بي. وكما تعلمين ياماريلا، من الضروري أن تنتعل الجنيّة خُفّاً، إذ لا يمكنك تخيّل جنيّة تنتعل جزمة، أيمكنك هذا؟ خصوصاً إذا كانت مقدمة الجزمة مُلَبّسة بالنحاس؟ سنزين الصالة بعرائش الراتينج وأوراق التنوب وسنضع بينها أزهاراً من الورق الوردي اللون، وبعد جلوس الحضور سنمشي كلنا أمامهم في موكب زوجيّ، بينما ستعزف إيما وايت لحناً عسكرياً على الأورغ. أعرف ياماريلا أنك لست متحمسة لهذا الحفل مثلي، ولكن ألا تتمنين أن تُبلي صغيرتك آن بلاءاً حسناً؟"

"كل ما أتمناه هو أن تحسني التصرف. وسأحمد الله من صميم قلبي عندما تنتهي كل هذه الجلبة لتستقري من جديد. فأنت الآن لا تنفعين لأي شئ، ما دام رأسك محشواً بكل تلك الحوارات والأنين واللوحات الراقصة. أمّا بالنسبة إلى لسانك، فإنها لمعجزة فعلاً ألاّ يكون قد اهترأ بعد."

تنهّدت آن، وقصدت الفناء الخلفي الذي أطلّ عليه من بين أغصان الحور الجرداء قمر صغير لامع، انبثق من ناحية السماء الغربية التي بدت خضراء كخضرة التفاح. ثم توجهت نحو ماثيو الذي كان يقطع الحطب، وجلست على كومة منه، وشرعت تحدّث ماثيو عن الحفل، متأكدة هذه المرة من عثورها على مستمع متعاطف ومتجاوب معها.

"حسناً، أعتقد أن الأمور ستجري على ما يرام. وأظنك ستؤدين دورك بإتقان،" قال وهو يبتسم لذلك الوجه الصغير المتحمس المفعم بالحيوية. فردّت آن على ابتسامته بابتسامة.

كانا نِعْمَ الصديقين. وكم شكر ماثيو حظّه مرة تلو مرة لأنه لم تكن له أية علاقة في تربية آن.

كانت هذه المهمة واجباً مقتصراً على ماريلا؛ ولو كان موكلاً بها

لوقع أسير حيرة كبيرة بسبب التناقضات المتواترة التي قد تنجم نتيجة عدم توافق الأهواء مع الواجبات. أمّا والحال على ما هو عليه، فإنه مطلق الحرية في إفسادها بالدلال، كما تقول ماريلا.

ولم يكن هذا تدبيراً سيئاً رغم كل شئ، ففي كثير من الأحيان يتساوى القليل من الدلال مع جميع إجراءات التربية الحازمة التي توجد في هذا العالم.

٢٥
إصرار ماثيو على الأكمام المنفوخة

كان ماثيو مرغماً على احتمال عشر دقائق من الوقت العصيب، عندما دخل إلى المطبخ، في شفق يوم رمادي بارد من أيام شهر كانون الأول.

كان قد اقتعد الصندوق الخشبي في الزاوية، وهمّ بخلع جزمته الثقيلة، قبل أن ينتبه إلى وجود آن مع مجموعة من رفيقات المدرسة في غرفة الجلوس، يتدربن معاً على حوارية ملكة الجنيات. ولم يمض وقت طويل إلاّ وكنّ قد احتشدن في الرواق واتّجهن نحو المطبخ، وقد تعالت أصوات دردشتهن وضحكهن المرح، غافلات عن حضور ماثيو الذي تكوّم مرتبكاً في ظِل الصندوق الخشبي، وهو يحمل جزمة بِيَد، وأداة خلع الجزمة باليد الأخرى. وبينما انهمكت البنات في اعتمار قبعاتهن وارتداء معاطفهن، وهن يتداولن الحديث عن الحوارية وعن الحفل الموسيقي، بقي ماثيو قابعاً في مكمنه، وراقبهن بارتباك على طول تلك الدقائق العشر.

كانت آن تتوسطهن، وكانت مثل أية واحدة منهن نابضة بالحياة ومفعمة العينين بالبريق. مع ذلك انتاب ماثيو إحساس مفاجيء بأنها كانت تبدو مختلفة عن قريناتها بشكلٍ ما. وأصابه الانزعاج عندما شعر أن ذلك الاختلاف لا ينبغي أن يكون موجوداً. كان وجه آن أكثر إشراقاً، وعيناها أكثر بريقاً ولمعاناً واتساعاً، وسيماؤها أكثر دقة، من وجه وعينيّ وسيماء أية بنت أخرى. ولا عجب في هذا فحتى ماثيو الحييّ، القليل الملاحظة، كان قادراً على سبر هذه التفاصيل. لكن الاختلاف الذي أقلقه لم يكن يتعلق بأية صفة من تلك الصفات التي

لاحظها. فما هو ياتُرى كُنه ذلك الاختلاف الذي رآه؟

ظلّ هذا التساؤل يتناهش ماثيو لفترة طويلة من الوقت، بعد مغادرة البنات وهن متشابكات الأيدي على امتداد الدرب المُتجلِّد، وانصراف آن إلى كتبها. وأدرك أنه لن يستطيع تداول الأمر مع ماريلا، التي، بدون شكّ، ستنفخ منخريها بازدراء قبل أن تجيبه قائلة إن الاختلاف الوحيد الذي تراه بين آن وقريناتها، هو لجمهن لألسنتهن بعضاً من الوقت في حين لا تفعل آن هذا أبداً. وأحسّ ماثيو أن تعليقاً كهذا لن يعود عليه بأية فائدة.

لجأ ماثيو في تلك العشيّة إلى غليونه، ليستعين به على دراسة الموضوع، رغم تقزّز ماريلا الواضح. وبعد ساعتين من التدخين والتأمل العميق، عرف ماثيو كُنه المشكلة:

لم يكن مَلْبَس آن يشبه مَلْبَس بقية البنات!

وكلما تبحّر ماثيو في تداول ما اكتشفه، كلما ازداد قناعة بأن ملابس آن لا تشبه أبداً ملابس البنات الأخريات، وأبداً لم تشبه ملابسها ملابسهن منذ أن جاءت إلى المرتفعات الخضراء. لقد حرصت ماريلا دائماً على كسوتها بفساتين عادية بسيطة غامقة الألوان، موحّدة الزيّ. ورغم أن ماثيو ما كان يعرف سوى القليل عن عالم الموضة والأزياء، إلاّ أن تلك المعرفة الضئيلة أكّدت له أن أكمام فساتين آن لا تشبه في شئ أكمام الفساتين التي ترتديها بقية البنات.

استرجعت ذاكرته مجموعة الفتيات اللاتي تحلّقن حولها في ذلك المساء، زاهيات بفساتينهن الحمراء والزرقاء والوردية والبيضاء، وتساءل عن السبب الذي يدفع ماريلا إلى الإصرار على كسوة آن بملابس بسيطة ورصينة.

طبعاً، لم يكن في هذا ما يعيب، لأن معرفة ماريلا أوسع من معرفته، وماريلا هي في النهاية المسؤولة عن تربية آن. ولا ريب أن لديها دافعاً لا يستطيع اجتلاءه فيما يخصّ هذا الموضوع. مع ذلك،

من المؤكد أن لا مانع هناك من تقديم فستان جميل للطفلة، فستان بشبه تلك الفساتين التي ترتديها ديانا باري دائماً.

وهكذا، قرّر ماثيو شراء فستان جديد لآن، شرط ألاّ يُعتبر تصرّفه محاولة غير شرعية لإقحام مجذافه في القارب. ووجد لنفسه ذريعة بعيد الميلاد الذي سيحلّ بعد أسبوعين، واعتبره مناسبة لائقة لتلك الهدية. وما إن طاب نفساً بهذا الحلّ حتى تنهّد بارتياح، ووضع غليونه جانباً، وذهب لينام، بينما قامت ماريلا بفتح جميع أبواب البيت لتهوئة المكان.

توجّه ماثيو في مساء اليوم التالي إلى بلدة كارمودي ليشتري الفستان. كان مصمّماً على تجاوز أسوأ ما سيلقاه من ارتباك، لأن هذه المهمة ستكون بكل تأكيد فوق طاقة احتماله. بالطبع، كانت هناك أشياء يستطيع ماثيو إجراء صفقات رابحة بها، ولكنه شعر أنه عندما يتعلق الأمر بشراء فستان لبنت صغيرة، فسيكون في هذه الحالة تحت رحمة الباعة.

بعد تردد طويل قرّر ماثيو الذهاب إلى مخزن صاموئيل لوسون بدلاً من الذهاب إلى مخزن ويليام بلير. كان آل كُثْبيرت لا يقصدون في العادة إلاّ مخزن ويليام بلير، وكان هذا التصرّف بالنسبة إليهم مسألة مبدأية، لا تختلف في شئ عن ارتياد الكنيسة البروتستانتية أو التصويت لصالح المحافظين. غير أن ابنتيّ ويليام بلير كانتا غالباً ما تستقبلان الزبائن هناك، ورغم تعامُل ماثيو معهما بفزع مطلق، إلاّ أنه لطالما استطاع تدبّر أمره عندما يكون متأكداً ممّا يبغي شراءه، ويعرف تماماً كيفية العثور عليه. ولكن في حالة مثل هذه الحالة التي تستدعي التوضيح والاستشارة، شعر ماثيو أنه بحاجة إلى وجود رجل خلف منضدة الدكّان. وهذا ما جعله يفضّل الذهاب إلى مخزن لوسون، حيث سيكون واثقاً من وجود صاموئيل أو ابنه هناك.

ويالأسف! لم يكن ماثيو يعلم أن ازدهار أعمال صاموئيل الحديث، جعله يوظّف بائعة جديدة في مخزنه! كانت تلك البائعة ابنة

أخت زوجه، وكانت شابّة مفعمة بالكثير من الحيوية، ذات عينين بُنيّتين واسعتين سريعتين، وابتسامة عريضة ساحرة. تتميز بتسريحة شعرها العالية العصرية، وملابسها الفائقة الأناقة، وأساورها العديدة التي تلمع وتخشخش وترن مع كل حركة من حركات يديها. ارتُجَّ الأمر على ماثيو عندما وجدها هناك، واضمحلّت جسارته من مرأى تلك الأساور التي انقضّت عليه بهجمة واحدة.

"بمَ يمكنني خدمتك هذا المساء ياسيد كُتْبيرت؟" سألته الآنسة لوسيلا هاريس بحيوية وتملّق، وهي تنقر المنضدة بأصابعها.

"أيوجد لديك أي.. أي.. أعني.. أقصد.. مجرافاً لأعشاب الحديقة؟" تأتأ ماثيو.

بدت الآنسة هاريس مدهوشة إزاء سماعها أن رجلاً يطلب منها مجرافاً للأعشاب في منتصف شهر كانون الأول.

"أظن أنه يوجد لدينا مجراف أو اثنان متبقيين،" أجابت، "ولكني أعتقد أنهما في غرفة الخردوات في الطابق العلوي، سأصعد وأرى."

أثناء فترة غيابها حاول ماثيو لملمة شجاعته المبعثرة من أجل محاولة أخرى.

وهكذا، عندما عادت الآنسة هاريس وهي تحمل مجراف الأعشاب وتسأله بمرح: "أي شئ آخر ياسيد كُتْبيرت؟" كان ماثيو قد قبض بكلتيّ يديه على كل ما لديه من جرأة وأجاب:

"حسناً، ما دُمت قد سألتني، أظنني أرغب في الحصول.. أعني.. أسأل عن.. أشتري بعضاً من.. شيئاً من بزور الحشيش."

كانت الآنسة هاريس قد سمعت من قبل أن ماثيو كُتْبيرت رجل غريب الأطوار. ولكنها في تلك اللحظة استنتجت أنه مجنون جنوناً مطلقاً.

"إننا لا نجلب بزور الحشيش إلاّ في الربيع،" شرحت له

باستعلاء. "لا يوجد لدينا شئ منه في الوقت الحاضر."

"ها، طبعاً.. طبعاً.. الأمر كما تقولين،" تأتأ ماثيو التعس وهو يحمل مجراف الأعشاب مسرعاً نحو الباب. وعند العتبة تذكّر أنه لم يدفع ثمن ما اشتراه، فعاد أدراجه ببؤس. وبينما كانت الآنسة هاريس تعدّ الفكّة، كثّف جميع قواه من أجل كَرّة أخيرة يائسة.

"في الحقيقة.. إذا لم يكن الأمر مزعجاً.. أرغب.. أعني.. أحب معاينة.. شراء بعض السكّر."

"سكّر أبيض أو بُني؟" سألته الآنسة هاريس بصبر.

"ها.. حسناً.. سكّر بني." أجاب ماثيو بصوت واهٍ.

"يوجد هناك برميل منه،" أشارت الآنسة هاريس وهي تخشخش أساورها. "إنه النوع الوحيد الذي لدينا."

"أريد.. أريد.. شراء عشرين رطلاً منه،" قال ماثيو، وحبيبات العرق تستقرّ على جبهته.

لم يستعد ماثيو رباطة جأشه إلاّ في منتصف طريق عودته إلى البيت. لقد كانت تجربة شنيعة بالنسبة إليه. ولكنه رأى أن تلك التجربة لقّنته درساً لن ينساه، لأنه غامر وارتكب جُرم اللجوء إلى متجر غريب. وما إن وصل البيت حتى أسرع ليخفي مجراف الأعشاب في كوخ الأدوات، لكنه حمل السكّر إلى ماريلا.

"سكّر بُني!" هتفت ماريلا مُستنكرة. "بِرَبّك ما الذي تلبّسك لتجلب كل هذه الكمية؟ تعرف أني لا أستعمل هذا السكر إلاّ للعصيدة ألتي أطبخها للفتى الأجير، أو لتلوين كعكة الفاكهة. وقد غادرَنا جيري، كما أني أنهيت خبز كعكتي منذ وقت طويل. بالإضافة إلى أنه ليس من النوع الجيّد، فهو خشن وغامق اللون جداً. ليس من عادة ويليام إحضار هذا النوع من السكّر."

"فكّرتُ.. فكّرتُ.. أنك قد تستفيدين منه في يومٍ ما،" قال ماثيو،

متملّصاً منها بشطارة.

تبحّر ماثيو في الموضوع من جديد، وارتأى أنه لا بدّ من وجود امرأة لتتدبّر هذه القضية. كانت ماريلا خارج نطاق البحث، إذ شعر ماثيو أنها سرعان ما ستصبّ الماء البارد على مشروعه. ولم يتبق أمامه إلاّ اللجوء إلى السيدة ليند، فما كان هناك من إمرأة غيرها يجرؤ على طلب العون منها. وهكذا، قصد ماثيو السيدة ليند. وقبلت تلك المرأة الطيبة فوراً أن تتولى رفع عبء المشكلة عن كاهل الرجل المنزعج.

"تريد مني انتقاء ثوب لك لتهديه لآن؟ طبعاً سأفعل. سأقصد كارمودي غداً وسأبتاع لك ما تريده. ألديك شئ معين في ذهنك؟ لا؟ حسناً، سأتصرف وفق ما أراه مناسباً. أظن أن اللون البُنّيّ الفاتح سيناسب آن، ولدى ويليام بلير قماش من الحرير الصوفي الجميل. لعلك ترغب أيضاً في أن أخيطه لها، حتى لا تراه آن مع ماريلا فتفسد المفاجأة قبل حلول عيد الميلاد؟ حسناً سأخيطه. سأفصّله على قياس ابنة أختي جيني غيليز، لأنها هي وآن متماثلتان في الحجم وكأنهما حبّتان من البازيلاء."

"في الحقيقة أنا أشعر بكثير من الامتنان لك،" قال ماثيو، "و.. و.. لا أدري بالفعل.. ولكني أرغب.. أعتقد أنهم الآن يفصّلون الأكمام بطريقة مختلفة عمّا اعتدنا عليه. وإذا لم أكن أطلب منك الكثير.. أتمنى.. لو.. لو تصمّمي الأكمام وفق الزيّ الدارج."

"أكمام منفوخة؟ طبعاً. لا داعي لأن تقلق قيد أُنملة بخصوص هذا الأمر ياماثيو. سأفصّل الأكمام وفق أحدث زيّ دارج،" أجابت السيدة ليند، ثم أضافت لنفسها بعد مغادرة ماثيو:

"سأشعر بالرضى فعلاً إذا رأيت تلك الطفلة المسكينة تلبس شيئاً أنيقاً ولو لمرة واحدة. إن الطريقة التي تكسوها بها ماريلا هي بكل صراحة طريقة سخيفة جداً. ولطالما وخزني لساني لأفاتحها بالأمر،

ولكني كنت أكبح نفسي دائماً، لأني أعرف أن ماريلا تحسب نفسها امرأة حصيفة جداً، ولذلك ترفض الأخذ بنصيحة أحد، وتظن أن معرفتها بأساليب تنشئة الأطفال تفوق معرفتي بكثير. ولكن أليس هذا هو الحال مع الناس دائماً. طبعاً، إن الأهالي الذين ربوا أطفالاً يعرفون أنه لا توجد طريقة واحدة فعّالة وسريعة تناسب جميع الأطفال على حدّ سواء. ولم يظنوا أبداً أن التربية سهلة وواضحة بمثل وضوح قواعد القراءة والكتابة والحساب، وأنه لا يلزمهم إلاّ تحديد قواعدهم الثلاثة التي يرغبون في تطبيقها وستكون الحسبة صحيحة، لأنهم يعرفون أن الروح والجسد لا يمكن إدراجهما تحت قائمة الحساب. وهنا يكمن خطأ ماريلا. أظنها تحاول خلق روح متواضعة عند آن، بهندمتها بتلك الطريقة، غافلة عمّا يمكن أن يخلقه هذا من غَيرة وعدم رضى أكثر ممّا يمكن التكهن به. أنا متأكدة من أن الاختلاف الذي تراه تلك الطفلة بين ملابسها وملابس بقية البنات يحزّ في نفسها. ولكن أعجب ما في الأمر أن يلاحظ ماثيو هذا! يبدو أن ذلك الرجل على وشك الاستيقاظ الآن من نوم دام لأكثر من ستين سنة."

عرفت ماريلا خلال الأسبوعين التاليين أنه كان لدى ماثيو ما يشغل فكره، لكنها لم تستطع اكتشاف السرّ إلاّ عشيّة عيد الميلاد عندما أحضرت السيدة ليند الفستان الجديد. ورغم حرص ماريلا على التصرّف بلباقة، إلاّ أن الشكوك ساورتها من أسلوب السيدة ليند الدبلوماسي وهي تعلل لها سبب اضطلاعها بخياطة ذلك الفستان، وأنه كان تحرّزاً من ماثيو خشية اطّلاع آن على المفاجأة قبل أوانها إذا رأته بين يديّ ماريلا.

"هه، أهذا إذن سبب غموض ماثيو في الأسبوعين الماضيين، وابتسامه باستمرار فيما بينه وبين نفسه؟" قالت بشئ من الحنق المُشرّب بالتسامح. "كنت أعرف أنه على وشك ارتكاب حماقة ما، ولا بدّ لي من القول إن آن لم تكن بحاجة إلى ملابس جديدة. لقد صنعت لها في الخريف ثلاثة فساتين شتوية سميكة وعملية، وأي شئ أكثر من

هذا ليس إلاّ تبذيراً لا ضرورة له. أنا على يقين بأن هذه الأكمام وحدها تستهلك قماشاً يكفي لصنع صديرية فستان. إنك ياماثيو ستفسد آن حتى تزداد خيلاءً على خيلاء، ألا يكفي أنها تكاد تكون الآن مغرورة كالطاووس. على كل حال أرجو أن تشعر بالرضى أخيراً، لأنها كانت تتوق إلى هذه الأكمام السخيفة منذ أن أصبحت دارجة، رغم عدم اعتراضها بكلمة واحدة بعد أول مرة تذمّرت فيها من الأكمام الضيقة. لقد أخذت هذه الأكمام تزداد انتفاخاً على انتفاخ وضخامة على ضخامة حتى غدت أكثر سخفاً وأشبه بالبالونات. وأظن أنها في السنة القادمة ستحتّم على من يرتديها المرور من بين دفتيّ الباب بشكل جانبي."

أطلّ صباح عيد الميلاد على عالم كلّه البياض الجميل. كان ذلك الشهر شهراً معتدلاً، وتوقّع الناس أن يكون الميلاد أخضراً. ولكن الليل حمل معه ما يكفي من الثلج ليضفي على أفونليا البهاء المجيد. نظرت آن بعينين ممتلئتين حبوراً من خلال نافذة الغرفة الشرقية. كان التنوب المُورِق في الغابة المسكونة رائعاً، وكانت أشجار البتولا والكرز موشّاة باللآليء البيضاء، والحقول الممتدة المحروثة مطرّزة بالبُسط الثلجية، وعمّ العبق العبيريّ المنعش تلك الأجواء كلها. وهكذا، اندفعت آن هابطة الدرج وهي تغني بسعادة، حتى تردّدت أصداء صوتها في أرجاء المرتفعات الخضراء.

"ميلاد مجيد ياماريلا! ميلاد مجيد ياماثيو! أليس هذا الميلاد جميلاً؟ أنا سعيدة جداً لأنه ميلاد أبيض. أيمكن أن يبدو أي ميلاد آخر غير الميلاد الأبيض عيداً حقيقياً؟ أنا لا أحب الميلاد الأخضر، فهو لا يكون أخضراً، بل ظلالاً ذاوية من الألوان البُنيّة والرمادية، فلماذا يدعوه الناس أخضراً؟ ياالله.. ماهــذا ياماثيو؟ أهذا لي؟ أوه ياماثيو!"

كان ماثيو قد فرد الفستان بارتباك، بعد أن أخرجه من لفافته الورقية ورفعه عالياً وهو يوجّه نظرة مترددة نحو ماريلا. ومع أن

ماريلا تظاهرت باللامبالاة والانشغال بملء إبريق الشاي، إلاّ أنها كانت تراقب ما يجري من زاوية عينها بشئ من الاهتمام.

أخذت آن الفستان وتأملته بصمت خاشع. ربّاه كم هو جميل. كان الفستان بُنّيَّ اللون، من الحرير الصوفي الناعم الملمس، لتنورته كشاكش أنيقة ودرزات، أمّا صديريته الفضفاضة فكانت مُفصّلة وفق الزيّ الدارج، تحيط بياقتها كشاكش صغيرة من الشرائط الشفافة. ولكن ماذا عن الأكمام؟ إن تلك الأكمام كانت قمّة روعة الفستان! أكمام تبلغ زنودها حدود المرافق، ويتصل بكل زند كمّ منفوخ مُوَشّى بصفوف من الدرزات وعقد من الشرائط البُنيّة الحريرية.

"هذه هدية عيد الميلاد لك ياآن،" قال ماثيو بحياء. "لكن.. لكن.. ما الحكاية ياآن ألم يعجبك؟ حسناً، اهدأي الآن، اهدأي."

كانت عينا آن قد اغرورقتا فجأة بالدموع.

"ألم يعجبني! أوه ياماثيو!" حطّت آن الفستان على كرسي وشابكت يديها. "ماثيو، إنه فاتن. ولا أظن أبداً أني سأتمكّن من التعبير لك عن امتناني كما ينبغي. انظر إلى هذه الأكمام! ياإلهي، يبدو لي وكأني أعيش حلماً جميلاً."

"هيا، هيا، دعونا نتناول طعام الإفطار،" قاطعتها ماريلا. "لا بُدّ لي من القول إنك لم تكوني بحاجة إلى فستان جديد ياآن، ولكن ما دام ماثيو قد أحضره لك، اعملي على المحافظة عليه. لقد جلبت لك السيدة ليند شريطاً للشعر يتناسب مع الفستان. تعالي الآن واجلسي إلى المائدة."

"لا أدري كيف سأستطيع تناول طعام الإفطار،" قالت آن مستغرقة في أحلامها. "يبدو الإفطار شيئاً عادياً جداً بالنسبة إلى لحظة مثيرة مثل هذه اللحظة، وأنا أفضّل إشباع ناظريَ بهذا الفستان. لكم يسرّني أن الأكمام المنفوخة ما زالت دارجة، إذ كثيراً ما أحسست أني لن أستطيع تجاوز حسرتي إذا بَطُلت هذه الأكمام

قبل ارتدائي لها. أعني أن نفسي ما كانت ستشعر بالرضى مطلقاً. كان لطيفاً من السيدة ليند أن تحضر لي شريطة الشعر أيضاً. أشعر الآن أنه ينبغي لي أن أكون بنتاً صالحة. ففي أوقات مثل هذه الأوقات أشعر بالأسف لأني لست بنتاً مثالية، ثم أصمّم على ضرورة الالتزام بسلوك مسلك مثالي فيما بعد، ولكن تصميمي يبوء بالفشل كلّما واجهت الإغراء الذي لا يُقاوم. رغم ذلك، لا بدّ أن أحاول بذل المزيد من الجهد."

عندما انتهت وجبة الإفطار العادية، لاحت ديانا بهيئتها المرحة ومعطفها القرمزي وهي تجتاز جسر جذع الشجرة المتوّج بالثلج الناصع عند الغور. وسرعان ما طارت آن للقائها.

"ميلاد مجيد ياديانا! وصدّقيني هو ميلاد مجيد بالفعل. لقد حصلت اليوم على شئ جميل أريد أن أريك إياه. أهداني ماثيو فستاناً من أجمل الفساتين التي رأتها عيناي، وله أكمام لا مثيل لها، بل ليس بإمكان خيالي تَخَيُّل أكمام أروع منها."

"أنا أيضاً لدي ما أعطيك إياه،" قالت ديانا لاهثة. "ها هو معي.. خذي هذه العلبة. لقد أرسلت لنا العمة جوزفين طرداً كبيراً فيه أشياء كثيرة جداً، وهذه العلبة لك. لم أحضرها ليلة أمس لأن الطرد لم يصل إلاّ بعد حلول الظلام، وأنا ما عدت أشعر بالارتياح أبداً أثناء عبوري الغابة المسكونة في الليل."

فتحت آن العلبة واسترقت النظر إلى ما بداخلها. رأت بطاقة كُتب عليها: إلى الصغيرة آن، مع أمنياتي بميلاد مجيد. ثم رأت خُفّاً من أجمل الخِفاف الخاصة بالأطفال، مزيّناً بالخرز عند موضع الأصابع مع عُقَدٍ مِن الساتان وإبزيم برّاق.

"أوه،" قالت آن. " هذا كثير جداً ياديانا، لا بدّ أني أحلم."

"أنا أدعو هذا العناية الإلهية،" قالت ديانا. "ما عدت مضطرة الآن إلى استعارة خُفّ روبي. وهذه نعمة، لأن قياس قدميها أكبر من

قياس قدميك بنمرتين. وليس أبشع من مشهد جنيّة تجرجر قدميها، ولا شئ سيسعد جوزي باي أكثر من هذا. وبالمناسبة، أتعلمين أن روب رايت صحب جيرتي باي إلى البيت بعد انتهاء التدريبات ليلة ما قبل الأمس. أسمعت بشئ مماثل لهذا قبل الآن؟"

كان جميع تلامذة مدرسة أفونليا يستعرون بحمّى الحماس في ذلك اليوم، لأنه كان عليهم تزيين الصالة والقيام بتجربة الأداء النهائية استعداداً للحفل.

أخيراً، أقيم الحفل الموسيقي في مساء ذلك اليوم، وأسفر عن نجاح باهر. اكتظّت الصالة الصغيرة بالحضور، وأحسن جميع المشاركين في أداء أدوارهم. لكن آن كانت نجمة المناسبة بلا منازع. ولم يجرؤ أحد على إنكار هذه الحقيقة، بما في ذلك تلك الغَيرة التي تجسّدت في شخص بنت تدعى جوزي باي.

"أوه، ألم تكن أمسية ساحرة؟" قالت آن وهي تتنهّد بعد أن انتهى كل شئ، بينما كانت وديانا تستحثّان الخطى في طريق عودتهما إلى البيت، تحت سقف السماء العظيمة الموشاة بالنجوم.

"سار كل شئ كما ينبغي،" قالت ديانا بأسلوب عملي. "أظننا استطعنا تحصيل عشرة دولارات. وسوف يرسل السيد آلن خبراً عن هذا الحفل إلى جرائد تشارلوت تاون."

"أحقاًسنرى أسماءنا مطبوعة في الجرائد؟ إن مجرّد التفكير بهذا يملأني حبوراً. لقد كان أداؤك لأغنيتك الفردية ساحراً ياديانا، بل إن افتخاري بك فاق افتخارك بنفسك عندما طلب منك الحضور إعادة غنائها مرة ثانية. وما أحسستني إلاّ وأنا أقول لنفسي إنها رفيقتي الحميمة تلك التي يهتفون لها."

"ولكن ماذا عن إلقائك ياآن، لقد زلزل الصالة فعلاً. وتلك المقطوعة الحزينة التي ألقيتها، كانت بكل بساطة رائعة."

"أوه، لقد كنت متوتّرة للغاية ياديانا. وعندما أعلن السيد آلن

اسمي لا أستطيع أن أوضح لك كيف وجدت طريقي إلى المنصّة. شعرت وكأن ملايين العيون كانت تحدق بي وتخترقني. ومرّت عليَ لحظة رهيبة أحسست خلالها أني عاجزة عن القيام بأي شئ، ثم تذكّرت أكمامي المنفوخة الجميلة واستمدّيت منها الشجاعة. وأدركت ياديانا أنه يجب عليَ الإقدام من أجل هذه الأكمام. وهكذا باشرت الإلقاء. وبدا لي صوتي وكأنه آتٍ من مكان ناءٍ جداً، وأحسست أني أشبه الببغاء. ولكم حمدت الله لأني واظبت على التمرّن على هذه المقطوعات في العليّة، وإلاّ لما تمكّنت من المتابعة. أخبريني، هل كان أنيني مؤثّراً؟"

"نعم، بكل تأكيد، كان أنينك جميلاً جداً." أكّدت لها ديانا.

"رأيت السيدة سلون تجفف دموعها عندما جلست، وشعرت بالسعادة لأني استطعت ملامسة شغاف قلب أحد الأشخاص. أليس من الشاعري ياديانا أن يأخذ المرء دوراً في حفل موسيقي؟ إنها مناسبة لا يمكن نسيانها أبداً."

"ألم تكن حِوارية الصبِية رائعة؟" قالت ديانا. "كان غيلبرت عظيماً. وبكل صراحة ياآن أنا أعتقد أن طريقتك في معاملة غيل طريقة لئيمة جداً. بل انتظري حتى أقصّ عليك ما حدث: بعد أن انتهيت من حِوارية الجنيّات وغادرت المنصّة، سقطت من شعرك واحدة من الورود التي زينته بها، ورأيت غيل يلتقطها ويضعها في جيب سترته. أرأيت الآن. أنا أعرف كم أنت شاعرية، ولا بدّ أن هذا سيسرّك كثيراً."

"ما يفعله ذلك الشخص لا يهمني في أي شئ،" قالت آن بازدراء. "أنا بكل بساطة ياديانا لا أبدّد عليه لحظة تفكير واحدة."

جلس ماثيو وماريلا في تلك الليلة بالقرب من موقد المطبخ لبعض الوقت، بعد إخلاد آن إلى النوم، واسترجعا وقائع الحفل الذي لم يحضرا غيره منذ عشرين سنة.

"هه، أظن أن صغيرتنا آن أبلت بلاءاً حسناً مثل الجميع،" قال ماثيو باعتزاز.

"نعم، هذا صحيح،" اعترفت ماريلا. "إنها طفلة لامعة ياماثيو، كما أنها بدت لطيفة حقاً. كنت من قبل أعارض هذا الحفل، ولكني الآن لا أظن أن هناك أي خطر حقيقي فيه. على كل حال، كنت فخورة بآن الليلة، رغم أني لن أخبرها بهذا."

"هه، لقد كنت أنا أيضاً فخوراً بها، وأخبرتها أني فخور بها قبل أن تصعد إلى غرفتها،" قال ماثيو. "في الحقيقة ياماريلا يجب علينا التفكير بما يمكننا القيام به من أجلها في الأيام المقبلة. أظن أنها ستحتاج إلى ما هو أكثر من مدرسة أفونليا فيما بعد."

"لدينا متسع من الوقت للتفكير بهذا،" أجابت ماريلا. "فهي لن تبلغ في شهر آذار المقبل إلاّ ثلاث عشرة سنة من العمر فقط، رغم اندهاشي الليلة عندما لاحظت أنها غدت صبيّة يافعة. لقد صنعت السيدة ليند ذلك الفستان طويلاً بعض الشئ، وهذا جعل آن تبدو فارعة الطول. إنها نبيهة في التعلّم، وأعتقد أن أفضل ما يمكننا عمله من أجلها هو إرسالها إلى معهد كوين بعد فترة. لكننا لسنا بحاجة إلى تدبير أي شئ من هذا قبل سنة أو سنتين."

"مع ذلك، لن يكون هناك ضَير في التفكير بهذا الأمر ما بين حين وآخر،" قال ماثيو. "فمثل هذه الأمور تؤتي نتائج أفضل عندما يفكّر بها المرء ملياً."

٢٦
تأسيس نادي القصة

كان من الصعب على جميع أبناء أفونليا الأحداث أن يعودوا بعد ذلك الحفل إلى النمط الحياتيّ الرتيب من جديد. أمّا آن على وجه الخصوص، فقد بدا لها كل ما حولها رهيباً بسطحيته، وسقامته، وعقمه، بعد كأس الإثارة الذي ظلت ترتشفه لأسابيع. أكان بإمكانها العودة ثانية إلى تلك المسرّات القديمة الوديعة التي اعتادتها في الأيام السابقة على الحفل؟ في البداية، وكما أخبرت آن رفيقتها ديانا لم تحسب نفسها قادرة على ذلك أبداً.

"أنا متأكدة ياديانا أن الحياة لن تكون مثلما كانت عليه في تلك الأيام الغابرة،" قالت متحسّرة، وكأنها تشير إلى حِقبة من الزمن تعود على الأقل إلى خمسين سنة خلَت. "ربما سأعتاد هذا الوضع بعد فترة، لكني الآن بتّ أخشى أن الحفلات الموسيقية تُفسد حياة الناس اليومية. ولعل هذا هو سبب معارضة ماريلا للحفلات، فهي امرأة عقلانية. ولا بدّ أنه من الأفضل للإنسان أن يتّصف بالعقلانية. مع ذلك لا أظنني أرغب فعلاً في أن أكون كذلك، فالشخص العقلاني شخص غير عاطفي أبداً. ورغم تأكيد السيدة ليند لي أنه لا خطر عليَ من اكتسابي لهذه الصفة، لا أحد يستطيع الجزم. وفي هذه اللحظة يراودني الشعور بأن هذا ممكن الحدوث. لكن لعل السبب عائد إلى ما أحسه من إعياء، فأنا لم أحصِّل قدراً كافياً من النوم في الليلة الماضية. بقيت مضطجعة في سريري من غير أن يغمض لي جفن، بينما استرجع ذهني أحداث الحفل مرة تلو مرة. ولا شكّ أن استرجاع الإنسان للأحداث في ذاكرته، هو واحد من إيجابيات هذه المناسبات."

على كل حال، تمكّن تلامذة مدرسة أفونليا من تجاوز الإثارة التي خلّفها الحفل، وعادوا إلى نظام حياتهم القديم واهتماماتهم المعتادة، رغم أن الحفل ترك بصماته الواضحة عليهم. فقد أدّى الشجار بين روبي غيليز وإيما وايت على حقّ الأولوية في أماكنهما على خشبة المسرح، إلى انفصام عُرى صداقة واعدة بينهما كانت قد دامت ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الوقت ما عادت روبي تجلس إلى جانب إيما في الصفّ. وتخاصمت جوزي باي مع جوليا بيل لمدة ثلاثة أشهر، لأن جوزي أخبرت بيسي رايت أن انحناءة جوليا بيل عندما ارتقت المنصّة لتلقي الشعر، ذكّرتها بدجاجة تهز رأسها، وكان أن روَت بيسي لجوليا ما قالته جوزي عنها. أمّا أولاد آل سلون فامتنعوا كلهم عن التعاطي مع أولاد آل بيل كلهم، لأن آل بيل قالوا إن آل سلون انفردوا بالكثير من النشاطات في الحفل، فأجاب آل سلون إن آل بيل لم ينجحوا حتى في تدبّر أمر النشاطات القليلة التي اضطلعوا بها. وأخيراً تشاجر تشارلي سلون مع مودي سبرجيون ماكفرسون، لأن مودي سبرجيون زعم أن آن شيرلي كانت متصنّعة في الإلقاء، وأن هذا أدّى إلى أفول نجم مودي سبرجيون. ونتيجة لذلك، امتنعت إيلا ماي أخت مودي سبرجيون عن التحدّث مع آن طيلة فصل الشتاء. باستثناء هذه الخلافات التافهة، جرى العمل المدرسي في مملكة الآنسة ستيسي الصغيرة بسلاسة وانتظام.

تتابعت أيام فصل الشتاء، وكانت على غير المعتاد أياماً معتدلة البرودة. ونظراً لأن الثلج لم يتساقط خلال ذلك الشتاء إلاّ لِماماً، كان بإمكان آن وديانا بين يوم وآخر الذهاب إلى المدرسة عبر ممر البتولا. وفي اليوم الذي وافق ذكرى مولد آن، كانتا تسلكانه بأعين مفتوحة وآذان صاغية، متيقظتين، وحريصتين على عدم إغفال شاردة أو واردة فيه، لأن الآنسة ستيسي كانت قد أعلمت تلاميذها أنهم في القريب العاجل سيقومون بكتابة موضوع إنشائي عنوانه: نزهة شتوية في الغابة.

"تصوّري ياديانا أني بلغت اليوم سنّ الثالثة عشرة،" قالت آن بلهجة فزعة. "وأنا بالكاد أدرك أني قد دخلت مرحلة جديدة من مراحل العمر. عندما استيقظت هذا الصباح تهيأ لي أني سأرى كل شئ حولي مختلفاً. طبعاً قد لا ترين الأمر بمثل هذه الجِدّة التي أراه عليها، لأنك بلغت الثالثة عشرة قبلي بشهر. إن هذه المرحلة من العمر تجعل الحياة تبدو أكثر إثارة، وفي غضون سنتين سأصبح بنتاً ناضجة. وهذا شئ يريحني كثيراً، لأني حينها سأكون قادرة على استخدام العبارات الكبيرة في حديثي مع الناس من غير أن يسخروا مني."

"تقول روبي غيليز إنها تنوي اتّخاذ حبيب لها ما إن تبلغ الخامسة عشرة من العمر،" قالت ديانا.

"لا شئ يشغل بال روبي غيليز إلاّ العشاق،" قالت آن بترفّع. "وأنا متأكدة أن لا شئ يطربها أكثر من رؤيتها لاسمها مكتوباً على جدار الرواق مع عبارة خذوا علماً، رغم تظاهرها بالانزعاج من ذلك. أوه، أخشى الآن أن تعليقي هذا ليس بالكلام الصالح. تقول السيدة آلن إنه لا ينبغي لنا الاسترسال في الأحاديث غير الصالحة. ولكن ألا تعتقدين ياديانا أن هذه الأحاديث غالباً ما تأخذ مجراها قبل التفكير بها؟ أنا، على سبيل المثال، لا أستطيع التطرق إلى ذكر جوزي باي بدون أن يكون كلامي غير صالح، ولذلك أحاول دائماً تجنّب ذكرها، ولا بدّ أنك لاحظت هذا. إني أبذل جهدي لأتشبّه بالسيدة آلن، لأني أراها كاملة. والسيد آلن يعتقد هذا أيضاً. تقول السيدة ليند إنه يعبد الأرض التي تمشي عليها، وهي لا تظن أن هذا شئ يليق بالقسّ، لأنه يعلّق عواطفه على كائن فان. مع ذلك، أنا أرى ياديانا أن القساوسة ليسوا في النهاية إلاّ بشراً مثلنا، ولديهم خطاياهم المُغوية مثل أي إنسان آخر. ولقد أجريتُ في مساء الأحد الفائت حديثاً شيّقاً مع السيدة آلن عن الخطايا المُغوية. طبعاً، هناك مواضيع قليلة يجوز للمرء بحثها أيام الآحاد، وهذا واحد منها. خطيئتي التي تُغويني هي الإسراف في

جنوحي مع الخيال ونسياني لواجباتي. وأنا أناضل بجهد لأتخطاها. ولعلي الآن سأتحسّن، بما أني بلغت سن الثالثة عشرة."

"بعد أربع سنوات سيصبح بإمكاننا رفع شعرنا إلى الأعلى،" قالت ديانا. "ومع أن أليسْ بيل ليست إلاّ في السادسة عشرة من العمر، فهي ترفع شعرها. غير أني أرى هذا سخيفاً، وأفضّل الانتظار حتى أبلغ السابعة عشرة."

"لو كان لدي أنف أليسْ بيل المعقوف،" أجابت آن بلهجة جازمة، "فلن.. ولكن.. لا.. لن أكمل ما كنت أنوي قوله الآن لأنه كلام غير صالح، بالإضافة إلى أني كنت أقارن أنفها بأنفي، وهذا اختيال. أخشى أني أصبحت أفكّر بأنفي كثيراً منذ أن سمعت ذلك الإطراء عنه ذات مرة. ولا أنكر أنه يُشكّل لي عزاءاً حقيقياً. أوه، انظري ياديانا، يوجد هناك أرنب. هذا شئ يجب علينا تذكّره من أجل موضوع نزهة الغابة. أنا في الحقيقة أرى الغابة رائعة في الشتاء كروعتها في الصيف، فالشتاء يجعلها تغدو بيضاء وساكنة، وكأنها غارقة في سُبات عميق مليء بالأحلام اللطيفة."

"لست خائفة من موضوع الكتابة عن الغابة، عندما يحين الوقت لكتابته،" تنهّدت ديانا. "يمكنني الكتابة عن الغابات بسهولة. لكن ما يزعجني هو ذاك الموضوع الذي علينا تسليمه يوم الاثنين، أعني الموضوع الذي تطالبنا فيه الآنسة ستيسي بكتابة قصة من بنات أفكارنا!"

"لِمَ، إنه أسهل من غمضة عين،" قالت آن.

"سهل عليك لأنك خيالية،" أجابت ديانا، "ولكن كيف تستطيعين تدبّر أمرك إذا كنت مخلوقة بدون خيال؟ أأفهم من حديثك أنك أنهيت كتابته؟"

أومأت آن إيجاباً. ورغم أنها بذلت مجهوداً جباراً حتى لا تبدو راضية عن نفسها، فشلت جهودها فشلاً ذريعاً.

"كتبته مساء يوم الاثنين الماضي. وجعلت عنوان القصة: المنافَسَة الحسودة، أو: لا فراق بعد الموت قرأتها لماريلا فقالت إنها سفاسف وكلام فارغ. ثم قرأتها لماثيو فقال إنها جيِّدة. ولا شكّ أني أفضل هذا النوع من النقّاد. إنها قصة لطيفة ومحزنة، ولقد بكيت كالأطفال عندما كتبتها. وهي تدور حول إمرأتين جميلتين تُدعيان: كورديليا مونتمورنسي، وجيرالدين سيمور. كانتا تعيشان في قرية واحدة وكانتا مُقرّبتين من بعضهما كثيراً. كورديليا سمراء، ذات شعر فاحم السواد وعينين سوداوين لامعتين. وجيرالدين ملكية البياض، ذات شعر مثل سبائك الذهب وعينين أرجوانيتين دافئتين."

"لم أسمع من قبل عن شخص بعينين أرجوانيتين،" قالت ديانا بلهجة متشككة.

"ولا أنا، لكني تخيلت هذا، لأني أردت شيئاً خارجاً عن المألوف. كانت جيرالدين ذات جبين مرمري أيضاً. لقد اكتشفت أخيراً ما معنى الجبين المرمري، ولا شكّ أن هذا واحد من إيجابيات سن الثالثة عشرة، إذ تصبح معلوماتك أكثر ممّا كانت عليه وأنت في سن الثانية عشرة."

"وماذا حدث مع كورديليا وجيرالدين؟" سألتها ديانا التي شعرت بشيء من الاهتمام لتعرف مصيريهما.

"عاشتا سعيدتين بصداقتهما، إلى أن بلغتا سِنّ السادسة عشرة. ثم قَدِم برترام دو فير إلى قريتهما الصغيرة ووقع في غرام الشقراء جيرالدين، وذلك بعد أن أنقذها من موت وشيك عندما جمح بها جوادها، وجرى بالعربة على غير هدى. ونظراً لأنها أصيبت بالإغماء وهي بين ذراعيه، حملها إلى بيتها على طول مسافة ثلاثة أميال. حملها لأن العربة كانت قد تحطمت طبعاً. كان من الصعب عليَ ياديانا أن أتخيل الطريقة التي طلب بها برترام يد جيرالدين للزواج، لأني لا أملك خبرة سابقة أستطيع الاعتماد عليها. وسألت روبي غيليز إذا كانت تعرف شيئاً عن تقدّم الرجال لخطبة النساء، إذ ظننتها

واسعة الاطّلاع في هذا المجال نظراً لأن لديها العديد من الأخوات المتزوجات. أخبرتني روبي أنها كانت تختبيء في حجرة المؤونة في الصالة، عندما تقدم مالكولم آندروز لخطبة أختها سوزان. قالت إن مالكولم أعلم سوزان أن أباه كتب له المزرعة باسمه ثم قال لها: ما رأيك ياغاليتي المدللة إذا ارتبطنا هذا الخريف؟ فأجابت سوزان: نعم.. لا.. لا أعرف.. دعني أفكر. وهكذا تمّت خطوبتهما بمثل هذه السرعة. لم أشعر أن هذه الطريقة في الزواج طريقة شاعرية، ولذلك بذلت جهداً كبيراً كي أتخيل طريقة عاطفية، مفرحة وشاعرية. ورغم أن روبي غيليز قالت إن الرجال هذه الأيام ما عادوا يجثون على ركبهم أثناء التقدم لخطبة فتاة، جثا برترام على ركبتيه عندما طلب يد جيرالدين التي قبلت به بعد حوار طويل جداً. صدّقيني يادايانا لقد عانيت كثيراً أثناء كتابة هذه الفقرة، بل وأعدت كتابتها خمس مرات. وأنا أعتبرها من تُحفي الإنشائية. أهداها برترام خاتماً من الألماس وعقداً من الياقوت، وأخبرها أنهما سيقضيان شهر العسل في أوروبا، لأنه كان فاحش الثراء. ولكن بكل أسف، سرعان ما اجتاحت الظلال السوداء درب حياتهما. كانت كورديليا قد أُغْرِمت سراً ببرترام، وعندما علمت من جيرالدين بشأن الخطبة احتدّت كثيراً، وازداد هياجها لمّا رأت العقد وخاتم الألماس، فتحول حبها لجيرالدين إلى حقد مرير، وقطعت على نفسها عهداً بألاّ تدع هذا الزواج يتمّ. ولكنها ظلّت تتظاهر أمام جيرالدين بأنها رفيقتها المخلصة كما كانت أبداً. وذات مساء وبينما كانتا تقفان على جسر فوق تيّار ماء هائج، اعتقدت كورديليا أنهما كانتا بمأمن من رقابة الأعين، فدفعت جيرالدين من فوق حافة الجسر وهي تطلق: ها.. ها.. متوحشة ومُتشفية. غير أن برترام رأى ما جرى، وفي الحال قفز إلى التيّار وهو يصرخ: سأنقذك ياجيرالدين، أيتها الحبيبة التي لامثيل لها. بكل أسف، كان برترام قد نسي أنه لا يجيد السباحة، فغرقا معاً، وهما متعانقين. وبعد وقت، دفع الموج جسديهما نحو الشاطئ، وتمّ دفنهما في قبر واحد. كانت جنازتهما مؤثرة جداً يادايانا. وأنا أرى أن إنهاء القصة بجنازة هو أكثر شاعرية من إنهائها

بزفاف. أمّا بالنسبة إلى كورديليا، فقد أصيبت بالجنون نتيجة ندمها على ما اقترفته يداها، وتمّ سجنها في مصحّ للأمراض العقلية. رأيت أن هذه النهاية ستكون عقاباً شاعرياً على جريمتها."

"يالها من قصة جميلة،" تنهّدت ديانا، التي كانت تنتمي إلى مدرسة ماثيو النقدية. "لا أعرف كيف يستطيع رأسك اختراع كل هذه الأشياء المثيرة ياآن. كم أتمنى لو أن خيالي كان بخصوبة خيالك."

"يمكن أن يصبح خصباً إذا تعهدته بالرعاية،" قالت آن محاولة مواساة ديانا. "لقد خطرت على بالي الآن فكرة معقولة. ما رأيك إذا أسسنا أنا وأنت نادياً خاصاً بنا لكتابة القصة، بحيث نكتب فيه القصص على سبيل التمرين؟ وسأساعدك حتى تتمكني في النهاية من الاعتماد على نفسك. تقول الآنسة ستيسي إنه من الضروري للمرء أن يتعهد خياله بالرعاية، وكل ما علينا مراعاته هو اتباع الطريق السليم. وعندما أخبرتها عن الغابة المسكونة، قالت لي إننا سلكنا سبيلاً خاطئاً في طريقة استعمالنا لخيالنا."

هذه هي الكيفية التي ظهر بها نادي القصة إلى الوجود. كان في البداية يقتصر على ديانا وآن، لكنه سرعان ما اتّسع وضمّ جين آندروز وروبي غيليز وواحدة وأخرى من البنات اللاتي شعرن أن خيالهن كان بحاجة إلى التعهد بالرعاية. لم يُسمح للصبية بالانضمام إلى هذا النادي، رغم أن روبي غيليز ارتأت أن انضمامهم سيجعل النادي أكثر إثارة. وكان على كل عضوة من أعضاء النادي أن تكتب قصة واحدة في الأسبوع.

"إنه نادٍ مثير جداً،" أخبرت آن ماريلا. "تقوم كل بنت بقراءة قصتها بصوت عال، ثم نناقشها فيما بيننا. سنحتفظ بهذه القصص من أجل أحفادنا ياماريلا، ونحن نكتبها بأسماء مستعارة. اسمي هو روزاموند مونتمورنسي. جميع البنات يؤدين عملاً جيّداً. روبي غيليز عاطفية نوعاً ما، وهي تضع الكثير من مشاهد الحب في قصصها، ولكن، كما تعلمين، الكثير من المشاهد العاطفية هو أكثر غثاثة من

نُدرة تلك المشاهد. جين لا تضع أي مشاهد حب في قصصها، وتعلل ذلك بأن هذا يجعلها تشعر بالسخف عندما تقرأ قصصها بصوت عالٍ. قصص جين عقلانية إلى أقصى حدّ. أمّا ديانا فإنها تضع الكثير من الجرائم في قصصها، وتقول إنها في معظم الأوقات تحتار فيما يجب عليها صنعه بشخوصها القصصية، فتقتلهم لتتخلص منهم. أنا في الغالب أحدّد لهن المواضيع التي يجب عليهن كتابتها، ولكن هذا ليس صعباً لأني أملك ملايين الأفكار."

"أرى أن نادي القصة هذا، هو أسخف ما سمعت به على الإطلاق." قالت ماريلا ساخرة. "وفي النهاية ستحشون رؤوسكم بالسفاسف، وستهدرون وقتاً ينبغي صرفه على الدراسة. لا شكّ أن قراءة القصص عادة سيئة بما فيه الكفاية، لكن كتابتها أسوأ."

"ولكننا حريصون على التشديد على العبرة فيها ياماريلا،" فسّرت آن، "وأنا أشدّد دائماً على العبرة. وعندما يُكافأ الناس الصالحون، ويُعاقب جميع الطالحين، لا بدّ أن لهذا تأثيراً كلياً على النفوس. يقول السيد آلن إن العبرة هي الأهم. وقد وافق هو والسيدة آلن على أن العبرة كانت ممتازة في واحدة من قصصي التي قرأتها لهما. ما حيّرني في الأمر هو أنهما كانا يضحكان عند المقاطع التي لا ينبغي الضحك فيها، وأنا في الحقيقة أفضّل إبكاء الناس. وغالباً ما تبكي جين وروبي عندما أصل أثناء قراءتي لقصصي إلى المقاطع الشجيّة. راسلتْ ديانا عمتها جوزفين، وأخبرتها عن نادي القصة. فردّت العمة جوزفين مُبدية رغبتها في الاطّلاع على بعض القصص التي كتبناها. وهكذا، قمنا بنسخ أربع قصص من نخبة إنتاجنا وأرسلناها لها. فكتبت الآنسة باري رسالة تقول فيها إنها لم تقرأ في حياتها شيئاً أكثر إمتاعاً من تلك القصص. وهذا تعليق أدهشنا قليلاً، لأن القصص كانت شجيّة جداً، وجميع الأبطال لقوا حتفهم. مع ذلك يسعدني أن تكون الآنسة باري قد أُعْجِبت بها، فهذا يدلّ على أن لدى نادينا شيئاً مفيداً يقدمه للعالم. تُشدّد السيدة آلن على ضرورة

التماسنا للخير في كل شئ نقوم به. وأنا أحاول مُخلصةً كي أجعل الخير هدفي، ولكني غالباً ما أنسى عندما أستغرق في اللهو. كم أتمنى أن أصبح مثل السيدة آلن عندما أكبر، أو أن أشبهها قليلاً على أقل تقدير. ماريلا، أتظنين أنه لدي أي أمل في تحقيق هذه الأمنية؟"

"لا يمكنني الجزم بأن لديك فرصة كبيرة،" جاء جواب ماريلا المُشجِّع. "أنا واثقة أن السيدة آلن لم تكن في يومٍ ما بنتاً طائشة، مهملة، مثلك."

"لا، ولكنها لم تكن دائماً مثالية كما هي عليه الآن." قالت آن بجنّية. "لقد أخبرتني هي نفسها بهذا. قالت لي إنها كانت مزعجة جداً في طفولتها، وأنها كثيراً ما أقحمت نفسها في المآزق. وهذا الحديث شجّعني كثيراً ياماريلا. تُرى، أهو سوء خلق مني أن أشعر بالتشجيع عندما أسمع أن الآخرين كانوا طائشين ومزعجين؟ أكّدت لي السيدة ليند بأن هذا سوء خلق، وأخبرتني أنها تُصاب بصدمة عندما تعرف أن أحد الأشخاص، مهما بلغ صغر سنه، كان شقيّاً. وأعلمتني أنها في ذات مرّة سمعت قِساً يعترف بسرقته لكعكة توت من خزانة مؤونة عمته عندما كان صغيراً، ومنذ ذلك الحين فقدت احترامها لذلك القِسّ نهائياً. أمّا أنا فما كنت لأشعر بنفس الشعور أبداً، بل ولا اعتبرت اعترافه تصرّفاً نبيلاً، وعِظة مشجعة للأطفال الصغار هذه الأيام، مِن الذين يتصرّفون تصرّفاتٍ طائشة ثم يندمون عليها، وذلك إذا عرفوا أنهم رغم ذلك قد يصبحون قساوسة عندما يكبرون. هذا فعلاً ما كنت سأشعر به ياماريلا."

"أمّا ما أشعر به الآن ياآن،" قالت ماريلا، "فهو أن الوقت قد حان لتقومي بجلي هذه الأطباق. لقد هدرت نصف ساعة من الوقت بثرثرتك. عليك أن تتعلمي إنجاز أعمالك أولاً ثم الثرثرة لاحقاً."

٢٧
مأزق الروح المُختالة

أدركت ماريلا وهي عائدة إلى البيت في إحدى أمسيات أواخر شهر نيسان، أن الشتاء قد ولّى أخيراً، مُخلّفاً مكانه لذلك الحبور الذي لا يفشل الربيع في جلبه لأتعس الناس وأكبرهم سنّاً، ولأصغرهم وأسعدهم على حدّ سواء. كانت قد فرغت على التوّ من اجتماع جمعية معونة الكنيسة، ولم تكن تشعر في نفسها ميلاً إلى تحليل أفكارها ومشاعرها تحليلاً موضوعياً. وفي الغالب حسبت أن تأملاتها قد تمحورت حول ذلك الاجتماع وصندوق جمع التبرعات والسجادة الجديدة لغرفة مجلس الكنيسة. رغم ذلك، وفيما وراء هذه التأملات السطحية، كان وعي ماريلا في حالة تناغم مع الحقول الحمراء التي غلّفها سديم الضباب الأرجواني الباهت تحت الشمس المُغربة، ومع ظلال أشجار التنوب المسننة التي حطّت أخيلتها على المرج وراء الجدول، ومع أشجار القيقب ذات البراعم القرمزية المحيطة ببركة تشبه المرآة، ومع يقظة العالم، واهتياج النبضات الخفيّة تحت أديم التربة الرمادية.

كان الربيع يعمّ الأرض، وكانت فشخات الكهولة الرزينة لقدميّ ماريلا، أخفّ وأرشق بعد أن انتقلت إليها عدوى الفرح بإطلالة الربيع.

حطّت عيناها بشغف على دارة المرتفعات الخضراء، وراحت تتأمل اللوحة المُشجّرة التي تحيطها، وانعكاسات أشعة الشمس على نوافذها وهي تتلألأ بالوميض الخافت البهيّ. وفكّرت، بينما تابعت

سيرها على الدرب النديّ، أن لا شئ أكثر إشاعة للراحة في النفس من تأكدها بأنها ستعود إلى البيت، لتجد نار الموقد متأججة، وطاولة العشاء معدّة بأناقة. عكس ما كان الحال عليه في تلك الأيام السابقة على مجيء آن إلى المرتفعات الخضراء، عندما كانت تعود من اجتماع الجمعية في المساء إلى بيت بارد مقفر.

كان من البديهي أن تشعر ماريلا بالخيبة والغيظ، عندما دخلت المطبخ ورأت الموقد خابياً، بدون أي دليل على وجود آن في البيت، رغم أنها أكّدت عليها بضرورة إعداد الشاي في الساعة الخامسة، وبالطبع سيرغمها هذا على الاستعجال في خلع أحد أفضل أثوابها، ثم الإسراع في إعداد وجبة العشاء قبل عودة ماثيو من الحراثة.

"سوف أصفّي حسابي مع الآنسة آن عندما تعود إلى البيت،" قالت ماريلا بلهجة حازمة وهي تكشط ركام الرماد من الموقد بأداة الكشط، منهمكة في عملها انهماكاً تجاوز الحدّ الضروري لتلك المهمة. بينما كان ماثيو الذي جاء في ذلك الوقت، يقبع في مكانه صامتاً، منتظراً وجبة العشاء بصبر. "لا بدّ أنها تهيم في مكان ما مع ديانا، تؤلفان القصص أو تتمرنان على مقطوعة حوارية أو أي شئ من هذه السخافات، من غير أن تفكّر ولو لمرة واحدة بواجباتها. ينبغي أن توضع عند حدّها بصرامة. لا يهمني قول السيدة آلن عنها بأنها أذكى وألطف طفلة عرفتها في حياتها. قد تكون ذكية ولطيفة بما يكفي، ولكن رأسها محشوّ بالسفاسف، ولا يمكن مطلقاً التكهّن بما قد يسفر عنه ذلك الهراء بين لحظة وأخرى. وما إن تُشفى من نزوة حتى تتعلق بأخرى. هه، ها أنا الآن أردد عين ما قالته ريتشيل ليند في الاجتماع اليوم، والذي أغضبني كثيراً. ولكم سررت عندما تكلمت السيدة آلن لصالح آن. ولو لم تفعل كنت على يقين بأني سأواجه ريتشيل بكلام جارح أمام الجميع. نعم، لا شكّ أن نقائص آن كثيرة، والله وحده يعلم عددها، وهذه الحقيقة تستعصي على الإنكار، ولكن في النهاية أنا المسؤولة عن تربية هذه الطفلة وليس ريتشيل ليند، التي قد تعثر

على العيوب حتى في الملاك جبريل لو قدّر له العيش في أفونليا. مع ذلك لا أرى الآن فائدة من هذا الكلام، إذ ليس هناك أي سبب يبرر لآن تركها البيت بينما أكدّت عليها بضرورة البقاء فيه لتهتم بالواجبات المنزلية. هي في الحقيقة رغم نقائصها الكثيرة، لم تعص أوامري في يومٍ ما، ولم تكن غير أهل للثقة من قبل، ويزعجني الساعة أن أكتشف هذا العيب فيها."

"هه، لا أعرف حقاً،" أجاب ماثيو، الذي جعله تذرّعه بالصبر والحلم وقبل كل شئ جوعه يرى أن أفضل ما يمكنه عمله هو إفساح المجال لماريلا حتى تُنفّس عن كربها، بدون مقاطعتها. فقد علّمته التجربة أن ماريلا تستطيع إنجاز عملها بسرعة أكبر إذا لم تُعوّق بأية مناقشة طارئة. "ربما كان حكمك عليها متسرّعاً ياماريلا. لا تقولي إنها غير أهل للثقة حتى تتأكدي من عصيانها لأوامرك فعلاً. ولعل هناك سبباً وجيهاً لما حدث، ولا تنسي أن آن ماهرة في التوضيح."

"هي لم تلازم البيت رغم تأكيدي عليها بأن تفعل ذلك،" ردّت ماريلا. "ولا شكّ أنها هذه المرة لن تستطيع إعطائي تبريراً يقنعني بسهولة. أمّا بالنسبة إليك، فلقد عرفت منذ البداية أنك ستدافع عنها ياماثيو، ولكن تذكّر أنني المسؤولة عن تربيتها وليس أنت."

كان الظلام قد خيّم عندما أصبح العشاء جاهزاً، ومع ذلك لم يكن هناك ما يدلّ على ظهور آن في أي مكان؛ سواء وهي تجتاز جسر جذع الشجرة أو وهي تعبر درب العشاق مهرولة ولاهثة، يتآكلها الندم لتقاعسها عن أداء واجباتها. وهكذا جلت ماريلا العابسة الأطباق ورتبتها في أماكنها، وعندما احتاجت شمعة لتضيء بها القبو، صعدت إلى الغرفة الشرقية، لتجلب منها الشمعة التي تنتصب عادةً على طاولة آن. وما كادت ماريلا تشعل الشمعة وتستدير، حتى رأت آن متكوّمة في سريرها وقد غاص وجهها بين ثنايا الوسائد.

"رحمتك يارب،" قالت ماريلا مذهولة، "هل كنت نائمة ياآن؟"

"كلاّ" جاءها الجواب من صوت مكتوم.

"أأنت مريضة إذن؟" سألتها ماريلا بقلق، وهي تتجه نحو السرير.

انكمشت آن أكثر من ذي قبل بين وسائدها، وكأنها تروم الاحتجاب عن ناظريّ أي مخلوق فانٍ.

"كلاّ، لست مريضة، ولكن أرجوك ياماريلا اتركيني ولا تحاولي التطلع إليّ. أنا في هاوية اليأس، ولا يهمني بعد اليوم من سيكون الأول في الصف، أو من سيكتب أفضل المواضيع الإنشائية، أو من سيغني في جوقة مدرسة الأحد. لم يعد لهذه الأمور الصغيرة أية أهمية الآن، لأني لا أحسبني قادرة على الذهاب إلى أي مكان ثانية. لقد انتهت مسيرة حياتي. من فضلك ياماريلا، اتركيني ولا تنظري إليّ."

"هل سمع أحد من قبل شيئاً مماثلاً لما تقوله؟" قالت ماريلا التي ارتجّ الأمر عليها وأرادت أن تعرف كُنْه القضية. "آن شيرلي، ماذا أصابك بحق السماء؟ ماذا فعلت؟ انهضي من السرير في هذه اللحظة، وأخبريني. أقول في هذه اللحظة. نعم.. هكذا.. والآن ما القضية؟"

انزلقت آن من سريرها ووقفت على الأرض مُنصاعة بقنوط.

"انظري إلى شعري ياماريلا." همست.

فعلت ماريلا ما طلبته منها آن، وأمعنت النظر في شعرها الذي كان ينسال كثيفاً على ظهرها. ولم يكن لديها أدنى شكّ في أن منظره كان غريباً جداً.

"آن شيرلي، مذا فعلت بشعرك؟ كيف حدث هذا؟ إنه أخضر اللون!"

نعم، يمكن وصف لونه بالأخضر، إذا كان ذلك اللون يشبه أي لون من الألوان التي يعرفها العالم الأرضي. كان مائلاً إلى خضرة برونزية

مستهجنة، تتخلله هنا وهناك بضع شعيرات من لونه الأحمر الأصلي، زادت من فظاعة منظره الإجمالي. ولم تكن ماريلا قد رأت في حياتها كلها زخرفة تشبه في غرابتها ما بدا عليه شعر آن في تلك اللحظة.

"نعم، إنه أخضر،" قالت آن بحزن. "كنت في السابق أعتقد أن لا شئ أسوأ من الشعر الأحمر، لكني الآن أعرف أن الشعر الأخضر أسوأ منه بعشر مرات. أوه ياماريلا، إنك لا تعرفين إلاّ القليل عن بؤسي الذي أنا فيه الآن."

"قليل هو ما أعرفه عن كيفية تورّطك في هذا المأزق، ولكنني عازمة على اكتشاف ذلك،" قالت ماريلا. "اتبعيني إلى المطبخ حالاً.. فالجو هنا بالغ البرودة.. وأخبريني ماذا فعلت بالضبط. كنت أتوقّع تصرفاً مُستهجناً منك منذ مدة، فأنت لم تُقحمي نفسك في المآزق لأكثر من شهرين، وأنا واثقة أنه قد حان وقت حلول مصيبة جديدة. والآن، ما الذي فعلتِه بشعرك؟"

"صبغتُه."

"صبغتِه! صبغت شـــعرك! آن شيرلي، أما كنت تعلمين أن هذا العمل عمل طَالح؟"

"بلى كنت أعلم أنه عمل غير صالح،" أقرّت آن. "ولكني ظننت أن التخلّص من الشعر الأحمر شئ يستحقّ التخلي عن الصلاح لبعض الوقت. لقد حسَبت التكلفة ياماريلا، بالإضافة إلى أني كنت أنوي التعويض عن مَغبّة هذه الفعلة بمضاعفة أعمالي الصالحة في مجالات أخرى."

"هه،" قالت ماريلا ساخرة، "عندما أرى أن الأمر يستحقّ إقدامي على تغيير لون شعري، فأنا على الأقل سأصبغه بلون لائق، ولن أفكّر أبداً باللون الأخضر."

"ولكني لم أقصد صبغه باللون الأخضر ياماريلا،" اعترضت آن بصوت مكتئب. "إذا كنت قد تصرّفت تصرفاً شائناً، فقد فعلت هذا

من أجل غـاية صَبَوْت إليـهـا. قـال لي إنـهـا سـتـجـعل شـعـري فـاحـم السواد. وأكـدّ لي ذلك بأسلوب قـاطع حـازم. فكيف كـان لي أن أرتاب بما قاله ياماريلا، خصـوصـاً وأنا أعرف ما معنى ألاّ يصدقك الناس؟ كما أن السيدة آلن تقول إنه لا يجوز لنا مطلقاً الشكّ في صدق أي مـخلوق إلاّ إذا كنا نملك دليـلاً على كـذبه. أنا الآن أملك هذا الدليل. طبعـاً، لا شكّ أن الشـعر الأخضـر دليل كاف لأي مـخلوق. ولكني في ذلك الوقت لم أكن أملك أي برهان، وصدّقت كلّ كلمة قـالها تصـديقاً كاملاً."

"من الذي قال؟ عمّن تتحدثين؟"

"البائع المتجول الذي جاء إلى هنا بعد ظهر اليوم، والذي اشتريت صباغ الشعر منه."

"آن شـيرلي، كم مـرة حـذّرتك من عدم السـمـاح لأحد من هؤلاء الإيطاليين بدخول البيت! لطالما قلت إني لا أحبذ أبداً تشجيعهم على التجول في هذه الأنحاء."

"أوه، أنا لم أُدخله إلى البيت. لقد تذكرت ما قلته لي، فخرجت إليه أنا، بعد أن أغلقت الباب خلفي بحرص، وعاينت ما معه من أغراض عند العتبة. كما أنه لم يكن إيطالياً، بل كان من يهود ألمانيا. كان معه صندوق كبير يحتوي على الكثير من الأغراض المسلّية. وأخبرني أنه يعمل كي يكسب مالاً يكفيه ليحضر زوجه وأولاده من ألمانيا. كانت لهجتـه مؤثرة لدرجة أنـهـا لامست قلبي، فرغبت في شراء شئ منه لأساعده في تحقيق هدفه. وفجأة وقعت عيني على زجاجة صبغة الشـعر. قال ذلك الجوّال إنها كفيلة بصبغ أي شـعر باللون الأسود الساحر، وأنها لا تزول أبداً. وعندما تخيلت نفسي بشعر حالك السواد ياماريلا لم أستطع مـقاومـة الإغراء. إلاّ أني مـا كنت أملك سـوى خمسين سنتاً من مصروفي، بينما كان سعر الزجاجة خمسة وسبعين سنتاً. وشعرت أن البائع كان كريماً جداً معي، عندما أخبرني أنه من أجلي أنا فقط سيبيعها بخمسين سنتاً، وأن هذا يكاد يعني بالنسبة

إليه بيعها بدون قبض ثمنها. وهكذا اشتريتها. وما إن ذهب، صعدت إلى غرفتي وصبغت شعري بفرشاة قديمة كما تقول التعليمات، واستعملت جميع ما كانت تحتويه الزجاجة من صباغ. صدّقيني ياماريلا، عندما رأيت اللون الرهيب الذي آل إليه شعري ندمت كثيراً لأني كنت بنتاً غير صالحة، ومازال الندم يعضّني منذ ذلك الوقت."

"أرجو أن يفيدك هذا الندم،" قالت ماريلا بحدّة. "وأن تكوني قد فتحت عينيك أخيراً ياآن، لتري إلى أين يودي بك اختيالك. أمّا الآن، فالله وحده يعلم ما الذي يمكنك عمله لتتخلصي من هذا المأزق. وأحسب أن أول شئ تستطيعين محاولته هو غسل شعرك جيداً. وسنرى إذا كان في هذه المحاولة أي أمل."

تجاوباً مع اقتراح ماريلا، غسلت آن شعرها. ورغم أنها دعكته جيداً بالصابون والماء، لم تسفر النتيجة إلاّ عن التخلص ممّا كان متبقياً فيه من بضع خصل حمراء.

حــقاً، لقد صدق ذلك البائع عندما قال إن تلك الصبغة لا تزول أبداً، وفيما عدا ذلك فلا شكّ أن صدقه كان موضع اتّهام أكيد.

"ماذا سأفعل الآن ياماريلا؟" سألتها آن باكية. "لن أقدر أبداً على تحمّل الحياة مع هذه المصيبة. لقد كاد الناس الآن ينسون أخطائي السابقة؛ قالب الكعك بالعقار المسكّن للأوجاع، إسكار ديانا، وتطاولي على السيدة ليند. لكنهم لن ينسوا هذه الحادثة أبداً ياماريلا، وسيعتبرونني غير جديرة بالاحترام . آه ياماريلا، يالذلك النسيج المتشابك الذي نحيكه بأنفسنا عندما نجرّب الخداع لأول مرة. هذا بيت من الشعر، لكنه يعبّر عن حالتي أصدق تعبير. ربّاه، كم ستضحك عليَ جوزي باي! أنا لن أحتمل مواجهة جوزي باي ياماريلا. بل أنا الآن أتعس بنت في جزيرة برنس إدوارد."

استمرّت تعاسة آن على نفس المنوال لأسبوع كامل. ولم تبارح البيت أبداً في تلك الفترة، ودأبت على غسل شعرها يومياً. ولم يعرف

أحد من خارج البيت بذلك السرّ المصيري إلاّ ديانا وحدها، التي وعدت آن وعداً قاطعاً بألاّ تبوح به لمخلوق. ويمكن التأكيد تأكيداً قاطعاً بأنها حافظت على وعدها. وعندما أطلّت نهاية الأسبوع قالت لها ماريلا بلهجة حاسمة:

"لا فائدة ياآن، يبدو أنه لا يوجد في هذا العالم ما يماثل هذه الصبغة بقوة فعاليتها، ولا مفرّ من قصّ شعرك الآن، إذ لا يوجد أمامك حل آخر، ومن المستحيل أن تغادري البيت وأنت على هذا المنظر."

ارتجفت شفتا آن، ولكنها أدركت الحقيقة المريرة التي تضمّنها تعليق ماريلا، فذهبت لتحضر المقصّ وهي تتنهد بمرارة.

"أرجوك قصّيه الآن ياماريلا، ودعينا ننتهي من هذه المصيبة. أشعر الساعة أني محطمة الفؤاد، لأن هذه المصيبة ليست مصيبة شاعرية أبداً. ففي القصص تفقد البنات شعرهن إذا أصابتهن الحُمّى، أو إذا اضطرتهن الحياة إلى بيعه من أجل غاية نبيلة. ولا شكّ أني لن أمانع كثيراً إذا خسرت شعري بنفس الطريقة. ولكن، أية عبرة توجد في قصّك لشعرك لمجرد أنك صبغته بلون شنيع؟ سأضطر ياماريلا إلى البكاء أثناء قصّه، إذا لم يتعارض بكائي مع عملك، فكل ما أنا فيه الآن يبدو لي بالغ المأساوية."

وهكذا بكت آن، ولكنها عندما صعدت إلى غرفتها فيما بعد، وعاينت نفسها في المرآة، جمّدها الحزن. كان من الضروري جزّ ذلك الشعر إلى نهايات أطرافه، ولقد أدّت ماريلا هذه المهمة كما ينبغي. وإذا شاء المرء إيضاح ما أسفرت عنه العملية بأسلوب لطيف، يمكن القول إن النتيجة لم تكن مشجعة. وعلى الفور أدارت آن وجه المرآة نحو الحائط.

"لن أنظر إلى نفسي في المرآة أبداً.. أبداً، إلاّ بعد أن ينمو شعري." هتفت بانفعال. لكنها، عادت وعدلت المرآة بشكل مفاجئ.

"بلى، سأنظر إلى نفسي في المرآة، لأكَفِّر بذلك عن فعلتي. وسأفعل ذلك كلّما صعدت إلى غرفتي لأرى كم أبدو قبيحة، ولن أحاول تخيُّل أن ما أراه ليس حقيقياً. ما كنت لأصدّق يوماً أني رغم كرهي لحمرة شعري كنت مزهوّة بطوله وغزارته وتجعيداته. والآن.. أتوقع أن يصاب أنفي أيضاً بمصيبة ما."

أحدث شعر آن القصير ضجّة في المدرسة عندما قصدتها يوم الاثنين التالي. ولحسن حظها لم يستطع أحد تخمين السبب الحقيقي لقصّها إياه، بما في ذلك جوزي باي، التي لم تفوّت على نفسها فرصة إعلام آن أنها كانت تبدو مثل فزّاعة حقيقية.

"لم أنبس ببنت شفة عندما قالت لي جوزي باي هذا،" سارّرت آن ماريلا في ذلك المساء، بينما كانت الأخيرة تضطجع على الأريكة بسبب معاناتها للصداع. "لأني اعتبرت تعليقها جزءاً من عقابي، وأنه يجب عليَ تحمّله بصبر. ليس أقسى من أن يقال لك إنك تشبهين الفزّاعة، وتمنيت أن أردّ عليها لكني لم أفعل. اكتفيت بكنسها بنظرة ازدراء، ثم سامحتها. ألا تجعلك مسامحتك للناس تشعرين بشعور نبيل ياماريلا؟ أنا عازمة بعد هذه الورطة على تكريس جميع طاقاتي لأكون بنتاً صالحة، ولن أحاول بعد اليوم السعيَ كي أبدو جميلة أبداً. لا شكّ أنه من الأفضل لي أن أكون صالحة على أن أكون جميلة، لكن الإنسان في بعض الأحيان يجد صعوبة في الإيمان بما هو متأكّد من صحته. صدّقيني ياماريلا، لا شئ يعدل رغبتي في الاقتداء بصلاحك وصلاح السيدة آلن والآنسة ستيسي، حتى أغدو مصدر فخر لك. قالت لي ديانا أنني عندما ينمو شعري قليلاً أستطيع تصفيفه بلفّ شريطة من المخمل الأسود حول رأسي مع عقدة جانبية، وأخبرتني أن هذا سيكون جميلاً. سأطلق على هذه الشريطة اسم العِصابة، فلهذا الاسم وقع شاعري. ولكن، أتُراني أبالغ في ثرثرتي ياماريلا؟ هل يضاعف كلامي من صداعك؟"

"لقد تحسّنتُ الآن، رغم أن الصداع الذي أصابني هذا المساء

كان رهيباً. ولا بدّ لي من استشارة طبيب لأعرف أسبابه لأنه أصبح أكثر حدّة وإيلاماً من ذي قبل. أمّا بالنسبة إلى ثرثرتك، لا أظنني متضايقة منها، يبدو أني أصبحت معتادة عليها."

كانت هذه هي طريقة ماريلا في إفصاحها عن استساغتها الاستماع إلى تلك الثرثرة.

٢٨

وصيفة زنبق عاثرة الحظ

"طبعاً ياآن لا بدّ أن تكوني أنت إيلين،" قالت ديانا. "فأنا لا أملك أية جرأة على العَوْم هناك."

"ولا أنا،" قالت روبي غيليز وهي ترتجف. "لن أمانع العَوم هناك، إذا صحبتني واحدة أو اثنتين منكن على ظهر ذلك القارب المُسَطّح، وكان باستطاعتنا في نفس الوقت الجلوس عليه. عندها سيكون الأمر مُسلياً. أمّا أن أتمدّد عليه وأتظاهر بالموت، فهذا ما لا أستطيعه. في هذه الحالة سأموت من الخوف."

"لا شكّ أنها ستكون تجربة شاعرية،" اعترفت جين آندروز. "ولكني أعرف أني لن أحافظ على هدوئي، وسأظل ما بين دقيقة وأخرى أسترق النظر، لأرى أين أصبحت، وفيما إذا لم يكن القارب ينجرف بسرعة كبيرة. وتعلمين ياآن، أن هذا سيفسد تأثير المشهد كله."

"ولكن، ليس هناك أسخف من إيلين حمراء الشعر،" قالت آن محتجّة. "لا يخيفني العوم هناك، وأحب فعلاً أن ألعب دور إيلين. مع ذلك، ما زلت أرى هذا سخيفاً. يجب أن تأخذ روبي دور إيلين، لأنها شقراء، وذات شعر ذهبي طويل وجميل، كما قرأنا عن إيلين التي كان شعرها الأشقر اللامع ينساب فوق الماء، بالإضافة إلى أن إيلين كانت وصيفة الزنبق. ومن المؤكد أنه لا يمكن لبنت حمراء الشعر أن تكون وصيفة زنبق."

"إن بياض بشرتك لا يختلف في شئ عن بياض بشرة روبي،"

قالت ديانا بلهجة جدّية. "كما أن شعرك أصبح بعد أن قصصتِه أغمق من ذي قبل ياآن."

"أوه، أتعتقدين هذا حقاً؟" هتفت آن، التي سرعان ما توردّت وجنتاها ابتهاجاً. "لقد لاحظت هذا عدّة مرات، ولكني لم أجرؤ على سؤال أيّ مخلوق عن مدى صحة ملاحظتي، لئلا يُقال لي عكس ذلك. أتظنين ياديانا أنه يمكن أن يُسمى الآن كستنائياً؟"

"نعم، وأرى أن هذا اللون جميل فعلاً،" أجابت ديانا وهي ترمق بإعجاب ذلك الشعر القصير الحريري الأجعد، الذي تماوج على رأس آن، وبدا أنيق التصفيف مع تلك الشريطة المخملية ذات العقدة الجانبية التي أحاطت به.

كانت البنات الأربع واقفات عند ضفة البركة، تحت امتداد منحدر البستان، حيث انبثقت أشجار البتولا على مقربة من الضفة وتحلّقت حول بقعة صغيرة من الأرض، بُنيت على طرفها قاعدة خشبية تمتدّ إلى داخل الماء، ليستعملها صيادو السمك والبَطّ. كانت روبي وجين تقضيان تلك الأمسية الصيفية بصحبة ديانا، ثم انضمت إليهن آن لتلعب معهن.

في ذلك الصيف، قضت آن وديانا معظم أوقات لهوهما في البركة أو قريباً منها. كان مسرح فردوس الأحلام قد غدا شيئاً من الماضي، بعد أن أقدم السيد بيل في الربيع على قطع تلك الحلقة الصغيرة المُشجّرة الواقعة في مرعى ماشيته الخلفي، بدون أية رحمة.

يومها، جلست آن بين الجذوع وبكت، ولم يحجب عنها بكاؤها بالطبع، شاعرية تلك اللحظة. لكن همّها سرعان ما انسلى، لأنها ارتأت هي وديانا أن البنات اليافعات اللاتي في سن الثالثة عشرة، واللاتي سيبلغن الرابعة عشرة عمّا قريب، أصبحن كبيرات جداً على أمثال تلك التسالي الطفولية التي تتضمن مسارح اللعب وما يشبهها. بالإضافة إلى أنه كان يمكن العثور على تسليات أكثر ترفيهاً عند

البركة. ولا شئ بدا لهما أكثر روعة من صيد سمك السلمون من فوق الجسر، أو التجذيف في البركة بعد أن تعلمتا ركوب القارب الصغير المسطح الذي يستعمله السيد باري لصيد البَطّ.

اقترحت آن في تلك الأمسية على قريناتها القيام بتمثيل حكاية إيلين. وكان قد سبق لتلاميذ أفونليا أن درسوا قصيدة الشاعر ألفريد تنيسون في الشتاء الفائت، بعد أن قررها المسؤول عن التعليم ضمن منهج اللغة الإنجليزية الخاص بمدارس جزيرة برنس إدوارد.

وهكذا حلّل تلاميذ أفونليا القصيدة وأعربوها، وفكّكوها إلى مقاطع صغيرة، حتى صار من المستغرب جداً أن يكون قد بقي فيها أي معنى خافٍ يستطيعون اكتشافه بأنفسهم. مع ذلك، فإنهم على الأقل، أصبحوا يرون أن وصيفة الزنبق الشقراء ولانسيلوت وغوينيفر والملك آرثر كانوا أشخاصاً حقيقيين. أمّا آن فكثيراً ما تناهشها حزن خفيّ لأنها لم تُخلق في كاميلوت، فتلِك الأيام، كما قالت، كانت أكثر شـــاعرية من الأيام الحاضرة.

قوبلت فكرة آن بالحماس. وكانت البنات قد اكتشفن من قبل أنهن عندما يدفعن القارب من مرساه، فإن التيار يعمل على جرفه إلى ما تحت الجسر، ثم يرسيه على ضفة منطقة خفيضة عند منعطف البركة. ولطالما قُمْن بهذا من قبل، ولا شئ كان أكثر ملائمة لتمثيل حكاية إيلين.

"حسناً، سأمثّل دور إيلين،" قالت آن التي رضخت للأمر الواقع مُكرهة، لأنها رغم توقها الشديد للعب دور الشخصية الرئيسة، كان حسّها الفنيّ يلحّ عليها بضرورة تطابق الممثل مع دوره. وكانت تشعر أن مواصفاتها تجعل هذا الأمر مستحيلاً. "روبي، عليك أن تأخذي دور الملك آرثر، وستأخذ جين دور غوينيفر، أمّا ديانا فستمثل لانسيلوت. ولكن عليكن في البداية تمثيل أدوار الأخوة والأب. سنتناسى أمر العبد الأصمّ، لأنه لا يوجد مكان يكفي لشخصين في ذلك القارب عندما يتمدد المرء عليه. يجب علينا تغطية الفُلْك بالحرير

الحالك السواد دلالة على الحِداد، وذلك الشال الأسود القديم الذي لدى أمك سيفي بالغرض ياديانا."

تمّ إحضار الشالِ الأسود، وجللت آن القارب به، ثم تمددت على سطحه، مغمضة العينين، مشابكة ذراعيها فوق صدرها.

"أوه، إنها تبدو كأنها ميتة حقاً." همست روبي غيليز بعصبية، وهي ترقب الوجه الصغير الأبيض الساكن الذي حطّت عليه ظلال أشجار البتولا المتراقصة. "إن هذا يجعلني أشعر بالخوف يابنات. أتحسبن أنه من الصواب قيامنا بأداء هذه التمثيلية؟ تقول السيدة ليند إن جميع أنواع التمثيل بغيضة وشريرة."

"روبي، لا يجدر بك ذكر السيدة ليند الآن،" قالت آن بنبرة حازمة. "هذا يُفسد تأثير الأداء، كما أن ما نمثله الآن جرى قبل مولد السيدة ليند بمئات السنين. جين، قومي أنت باستكمال التحضيرات اللازمة، فمن السخف أن تتكلم إيلين أثناء موتها."

شرعت جين تكمل المطلوب. لم يكن هناك سِتر من الذهب لتغطية إيلين، وتَمّت معالجة الوضعِ بالاستعانة بغطاءِ للبيانو من الحرير الياباني الأصفر، وكان بديلاً عظيماً. كما تَمّت الاستعاضة عن الزنبقة البيضاء التي تعذّر توفّرها، بفرع سوسنة زرقاء وُضِعت بين ذراعيّ آن، وأشاعت التأثير الذي كان مرجوّاً منها.

"أصبحتْ الآن جاهزة،" قالت جين. "يجب أن نقوم بتقبيل جبينها الساكن وعليك ياديانا أن تقولي: وداعاً ياأختاه. وأنت ياروبي قولي: وداعاً أيتها الأخت الغالية. ويجب أن تبدو عليكما مظاهر الحزن العميق. آن، بحق السماء ابتسمي قليلاً، فأنت تعرفين، كما قرأنا، أن إيلين الميتة استلقت مبتسمة. نــعم، هذا أفضل. والآن علينا دفع القارب."

وهكذا، تمّ دفع القارب، الذي ارتطم أثناء عملية دفعه بوتد قديم مطمورفي التراب. انتظرت ديانا وجين وروبي إلى أن رأين التيار

يجرف القارب ويوجّهه نحو الجسر، ثم عَدَوْن خلال الغابة، فالطريق، حتى وصلن المنطقة الخفيضة حيث سيكون لانسيلوت وغوينفير والملك على أهبة الاستعداد لاستقبال وصيفة الزنبق.

انجرفت آن ببطء لبضع دقائق، وهي تتجرع كأس تلك اللحظات الشاعرية حتى الثُمالة. فجأة، حدث شئ غير شاعري البتة. كان الماء يتسرّب إلى القارب. وفي غضون لحظات، استدعت الضرورة إيلين الميتة لتقف على قدميها، منتضية عن جسمها دثار الذهب، مزيحة عن نعشها وشاح الحِداد الأسود، ومتفحّصة قعر القارب الذي كان الماء يتدفق من شقّ كبير فيه. لقد صدّع ذلك الوتد الحادّ الذي ارتطم به القارب عند اليابسة قاعدة القارب المثبتة بالمسامير. لم تعرف آن هذه الحقيقة، لكن الأمر لم يستغرقها طويلاً لتشعر أنها تحت رحمة خطر محدّق، ولتدرك أنه إذا استمر تدفق الماء على نفس المعدل، فسرعان ما سيمتليء القارب بالماء وسيغوص إلى الأعماق قبل أن ينجرف إلى تلك المنطقة الخفيضة.

ولكن ماذا عن المجاذيف؟

نعم، لقد تُركت هناك على اليابسة!

أطلقت آن زعقة فزع صغيرة لم تصل إلى مسامع أحد أبداً. وامتقع لونها حتى كسى بياض الذعر شفتيها، لكنها لم تفقد السيطرة على نفسها. وكان ما يزال لديها فرصة واحدة للنجاة.

فرصة واحدة فقط.

"كان ذعري يفوق التصور،" أخبرت آن السيدة آلن في اليوم التالي، "وبدا لي أن القارب قد استغرق سنيناً طويلة قبل أن ينجرف نحو الجسر، بينما لم يكفّ منسوب الماء عن الازدياد في الارتفاع على مدار اللحظات. حينها، صليّت ياسيدة آلن، صليّت بإخلاص عميق. لكني لم أغمض عينيَّ أثناء صلاتي، إذ كنت متأكدة بأن الطريقة الوحيدة التي سينقذني بها الله هي في جعله القارب يمرّ بالقرب من

أحد أعمدة الجسر، لأتمكن من التشبث به. فكما تعلمين، ليست تلك الأعمدة إلاّ جذوع أشجار قديمة، ما زال يوجد عليها الكثير من العقد والفروع الغليظة. كان من الملائم أن ألجأ إلى الله في ذلك الوقت، ولكن كان يجب عليَ أيضاً أن أقوم بدوري في المراقبة. عرفت هذا على الفور، وقلت: أيها الربّ الكريم، من فضلك اجرف القارب نحو أحد الأعمدة وسأتكفّل بالباقي. واستمرّيت أكرر هذا الالتماس مرة تلو مرة. طبعاً، في مثل هذه الظروف، لا تستطيعين التفكير بصلاة أدبية مُنمّقة، مع ذلك استجاب الله لصلاتي، لأن القارب اصطدم لبرهة بأحد الأعمدة، لكنها كانت كافية لأقذف بالغطاء والشال على كتفي، ولأتعلق بأرومة شجرة يَسَّرتها لي العناية الإلهية. وهكذا، وجدت نفسي هناك ياسيدة آن، متشبثة بذلك الجذع القديم الزلق، لا أستطيع الهبوط أو الصعود. كان وضعاً خالياً من أية شاعرية على الإطلاق، لكني لم أكن أفكّر بالأوضاع الشاعرية في ذلك الحين. لا شكّ أنك لن تستطيعي التفكير بالأشياء الشاعرية عندما تكونين قد نجوت على التوّ من قبر مائي. وفي الحال تَلوتُ صلاة شكر، ثم ركّزت كل انتباهي على التشبث بقوة، لتأكّدي بأنه عليَ الاتكال بعد ذلك على العون البشري من أجل إعادتي إلى اليابسة."

تابع القارب انجرافه مع التيار، ثم غاص عند منتصف البركة. كانت روبي وجين وديانا واقفات عند رأس اليابسة الخفيض، تنتظرنه. وعندما شاهدنه يغرق أمام أعينهن، لم يكن لديهن أدنى شك بأن آن قد غرقت معه. وللحظة وقفن بلا حراك، ممتقعات اللون، جامدات فزعا من هول الفاجعة، ثم صرخن بأعلى أصواتهن، وجَرَيْن مسعورات خلال الغابة، من غير أن يتوقفن ولو لبرهة أثناء عبورهن الطريق الرئيسي، لينظرن باتجاه الجسر.

رأت آن أخيلتهن المندفعة، وسمعت صراخهن، بينما كانت تتمسك يائسة بملاذها المتقلقل.

نعم، ستأتي النجدة حالاً، ولكن بانتظار تلك النجدة، كان وضعها

على غاية من الخطورة.

مرّت الدقائق، وكانت كل دقيقة أشبه بالساعة بالنسبة إلى وصيفة الزنبق العاثرة الحظ. لماذا لَمْ يهبّ أحد إلى نجدتها؟ أين اختفت البنات؟ ماذا لو كُنّ قد أُغميَ عليهن كلهن! ماذا لو لم يأت أحد! ماذا لو بلغ بها الإعياء حدّه وأصابها التشنج وما عاد بإمكانها التمسك بعد!

تفرّست آن في تلك الأعماق الخضراء الشريرة تحتها، وهي تتماوج بالظلال اللزجة المديدة، وارتعدت فرائصها. وسرعان ما بدأ خيالها يصور لها شتّى أنواع الاحتمالات المرعبة.

ولكنها لحظةً شعرت أنها ماعادت قادرة على احتمال آلام ذراعيها ومعصميها أكثر من ذلك، رأت غيلبرت بلايث يجذف تحت الجسر في زورق هارمون آندروز!

ألقى غيلبرت نظرة عابرة نحو الأعلى، ولدهشته البالغة، وقعت عينه على وجه صغير شاحب ومتعالٍ، يطالعه بعينين رماديتين واسعتين فزعتين، لكنهما غير خاليتين من التعالي أيضاً.

"آن شيرلي! كيف وصلت إلى هناك بحق السماء؟" هتف غيلبرت.

وبدون أن ينتظر جواباً، اقترب بالزورق من العمود ومدّ يده. وبما أن حالة آن المتأزمة لم تكن تسمح لها بالرفض، تمسّكت بيد غيلبرت بلايث، وقفزت إلى الزورق، وجلست عند مؤخرته، ساخطة ومعفّرة بالوحل، بينما ضمّت ذراعاها الشال المبلل والغطاء الحريري النديّ. لا شكّ أن ذلك الظرف كان أسوأ من أن يتيح لها فرصة التصرّف بكبرياء!

"ماذا حدث ياآن؟" سألها غيلبرت، وهو يمسك بالمجذافين.

"كنّا نمثل إيلين،" شرحت آن ببرود، بدون أن تحاول التطلع إلى منقذها، "وكان عليَ أن أنجرف مع التيار إلى كاميلوت بالفُلك، أعني

بالقارب. ثم بدأ الماء يتسرب إلى جوف القارب، فتسلقت ذلك العمود. وذهبت البنات لإحضار النجدة. أيمكنك أن تتلطف وتوصلني إلى اليابسة؟"

رضخ غيلبرت لرغبة آن وجذف الزورق إلى اليابسة، حيث قفزت آن إلى البرّ برشاقة، بعد رفضها المتأنف لأية مساعدة منه.

"أنا ممتنة لك كثيراً،" قالت بغطرسة، وهي تدير له ظهرها. ولكن غيلبرت كان قد قفز من الزورق في تلك اللحظة وحطّ يده على ذراعها مستوقفاً إياها.

"آن،" قال بلهفة، "اسمعيني الآن، ألا يمكننا أن نغدو صديقين؟ أنا متأسف جداً لأني سخرت من شعرك ذات مرّة. لم أكن أقصد إغاظتك، كل ما أردته هو ممازحتك، بالإضافة إلى أن هذا حدث منذ وقت بعيد. وأنا الآن أعتقد أن شعرك جميل جداً. صدقاً، أنا أعني ما أقول. دعينا ننسى الماضي ونتصافى."

ترددت آن للحظة. وغمرها إحساس غريب وُلد فجأة داخلها، رغماً عن كل كبريائها المُستَنفَر. وشعرت أن تلك النظرة نصف الخجولة نصف التوّاقة التي شعشعت في عيني غيلبرت العسليتين، كانت شيئاً محبباً. خفق قلبها فجأة بنبضة صغيرة سريعة وغريبة، لكن حيرتها سرعان ما حُسمت عندما تذكرت مرارة مَظْلمتها القديمة. وعاد إليها المشهد الذي مضت عليه سنتان، بنفس الحياة التي كان عليها، كما لو أنه لم يأخذ مجراه إلاّ في اليوم السابق. لقد أطلق عليها غيلبرت اسم الجزر، وجلب لها العار أمام جميع المدرسة.

كان من الواضح أن مرور الوقت لم يخفف أو يلطّف شيئاً من استيائها، رغم أن سببه قد يستدعي ضحك الآخرين والراشدين. لقد كانت تكره غيلبرت بلايث! ولن، لن تسامحه أبداً!

"لا،" قالت ببرود، "لن أكون أبداً على وفاق معك ياغيلبرت بلايث. ولا أريد أن أكون كذلك!"

"لا بأس،" اندفع غيلبرت نحو زورقه، وقد اكتسى وجهه بحمرة الغضب. "لن أطلب منك مرة ثانية أن نكون صديقين ياآن شيرلي، واعلمي أن هذا لا يهمني أيضاً!"

بينما جذف غيلبرت زروقه، بحركات سريعة جريئة، توغّلت آن في الدرب المعشوشب تحت أشجار القيقب. ورغم أنها مشت شامخة الرأس إلاّ أنها لم تستطع تغافل ذلك الإحساس الغريب النادم الذي اكتنفها. بل إنها تمنّت لو أنها ردّت على غيلبرت بلايث ردّاً مغايراً لما قالته.

طبعاً، لقد سبق له أن أهانها إهانة لا تُغتفر، لكن.. وإن يـــكن..!

بالإجمال، شعرت آن أن لا شئ سيعيد إليها تماسكها إلاّ إذا خلت إلى نفسها واستغرقت في البكاء من صميم قلبها. كانت متوتّرة الأعصاب بحقّ، وكان ردّ فعلها نتيجة ما عانته من خوف وتوتر على وشك التمهيد لنفسه بالظهور.

التقت آن بكلٍ من جين وديانا عند منتصف الدرب، وهما تستحثّان الخطى عائدتين إلى البركة في حالة تكاد تشارف الجنون. لم تعثر الفتيات على أحد في دارة منحدر البستان، فقد كان السيد والسيدة باري خارج البيت. وهناك فقدت روبي غيليز سيطرتها على نفسها واستسلمت لنوبة من نوبات بكائها الانفعالي. فتركتها جين وديانا وحدها حتى تتجاوز ما هي فيه، وطارتا عبر الغابة المسكونة، فالجدول، نحو المرتفعات الخضراء. لكنهما لم تعثرا على أحد هناك أيضاً. كانت ماريلا قد ذهبت إلى كارمودي، وكان ماثيو في الحقل الخلفي يخلط التبن.

"أوه يا آن،" شهقت ديانا وهي تحتضن آن وتبكي ارتياحاً وحبوراً. "أوه يا آن.. ظننا.. أنك.. غرقت.وأحسسنا بأننا مجرمات.. لأننا أرغمناك على.. تمثيل دور إيلين. وروبي الآن في حالة هياج هستيري.. أوه ياآن، كيف تمكّنت من النجاة؟"

"تعلّقت بواحدة من تلك العضادات،" أجابت آن بإعياء، "وجاء غيلبرت بلايث بزورق السيد آندروز وأوصلني إلى الشاطىء."

"أوه ياآن، ياللصبي العظيم! بل إن هذا شئ شاعري للغاية!" قالت جين، بعد أن عثرت أخيراً على نَفَس يمكّنها من التفوه بكلمة. "لا شكّ أنك ستصالحينه بعد ما حدث."

"لا شكّ أني لن أفعل،" أجابت آن، التي توهّج داخلها ذلك الغضب القديم للحظة عابرة. "ولا تدعيني أسمعك تستعملين كلمة شاعري مرّة ثانية ياجين آندروز. أنا متأسفة يابنات لأني أخفتكن إلى هذا الحدّ. لا شكّ أن الخطأ كان خطأي. ولا بدّ أني قد وُلدت تحت تأثير نجم منحوس، فكل ما أفعله يورّطني في المآزق، ويورّط معي أيضاً أغلى الناس على قلبي. وها نحن الآن بالإضافة إلى أننا فقدنا قارب أبيك ياديانا، أشعر، كما يؤكد لي حدسي، أننا سنُحرم التجذيف في البركة مرة أخرى."

أثبت حدس آن أنه أهل للثقة أكثر ممّا يمكن توقعه من مثل هذه الأحاسيس. وكان الرعب الذي عمّ منزليّ آل باري وآل كُثْبيرت عظيماً عندما علموا بأحداث ذلك المساء.

"تُرى، ألن يكون بإمكانك التعقل في يومٍ ما ياآن؟" زمجرت ماريلا.

"طبعاً، لا بدّ أن يحصل هذا ياماريلا،" أجابت آن بتفاؤل. بعد أن كانت قد لجأت إلى العزلة التي تاقت إليها في غرفتها الشرقية حيث أطلقت سراح مشاعرها الكبوتة وبكت بكاءاً عميقاً، خفّف من حدّة توتّرها وأعادها إلى مرحها المعتاد. "لا شكّ أن إمكانية تبصّري في الأمور أصبحت الآن أكثر رجحاناً من أي وقت مضى."

"لست أرى كيف يمكن أن يحدث هذا،" قالت ماريلا.

"حسناً،" أوضحت آن. "لقد تعلّمت اليوم درساً جديداً وقيّماً. ورغم أني منذ مجيئي إلى المرتفعات الخضراء ما برحت أرتكب

الأغلاط، إلاّ أن كل غلط كان يعالج نفسي من نقص كبير فيها. عالجتني حادثة مشبك الجمشت من التطفّل على أشياء لا تخصني. وعالجتني حكاية الغابة المسكونة من الاسترسال مع خيالي. وعالجتني الكعكة بالعقار المسكّن من اللامبالاة أثناء طهي الطعام. وعالجني صباغ الشعر من الاختيال. ما عدت الآن أفكر بشعري أو بأنفي.. على الأقل نادراً ما أفعل هذا. أمّا غلطة اليوم فستعالجني من الاستغراق في الشاعرية. ولقد استنتجت في النهاية أنه لا فائدة من محاولتي كي أكون شاعرية في أفونليا. ولا بدّ أن هذا كان سهلاً جداً في كاميلوت المُسوّرة منذ مئات السنين الماضيات، لكن الشاعرية ما عادت من الصفات المقدّرة هذه الأيام. أنا متأكدة ياماريلا أنك ستلاحظين عندي تحسّناً كبيراً فيما يتعلق بهذه الناحية."

"لا شكّ أني أرجو هذا فعلاً" قالت ماريلا بشئ من الشك.

أمّا ماثيو الذي كان يجلس في زاويته صامتاً، فما كاد يرى ماريلا خارجةً، حتى حطّ يده على كتف آن، وهمس بحياء:

"لا تتخلي عن كل شاعريتك ياآن. لا ضرر في أن يكون لديك شئ من الشاعرية... ليس الكثير منها بالطبع... ولكن احتفظي بالقليل منها ياآن، احتفظي بالقليل منها."

٢٩
حِقبة في حياة آن

كانت آن تسوق الأبقار من المرعى الخلفي إلى الحظيرة على طول درب العشاق في ذات أمسية من أمسيات شهر أيلول. كانت جميع فسحات الغابة وانفراجاتها مضرّجة بحمرة الغروب الياقوتية التي نوّرت الدرب بين بقعة وأخرى، بينما خيّمت ظلال أشجار البتولا على القسم الأكبر منه. كان الجوّ بين أشجار التنوب مغشيّاً بالألوان البنفسجية الداكنة كأنها الخمرة الأثيرية، وعلى قممها صدحت الريح بألحانها، وليس هناك على وجه هذه البسيطة موسيقى أعذب من تلك التي تعزفها الريح على أشجار التنوب في المساء.

تقدّمت الأبقار بتؤدة على طول الدرب. وتبعتها آن حالمة، تُردد بصوت عالٍ نشيد المعركة من قصيدة مارميون، التي كانت أيضاً ضمن مقرّر اللغة الإنجليزية للشتاء الماضي، والتي جعلتهم الآنسة ستيسي يحفظونها عن ظهر قلب. كانت آن تتلوها جذلة بوقع أبياتها السريع وبصور مناوشات الرماح الخيالية فيها، وعندما وصلت إلى هذه الأبيات:

وتوارى حاملو الرماح الأشداء
في غياهـــب أدغالهم الدهماء

وقفت مغلقة عينيها في حالة من الوجد، لتتخيل نفسها واحدة من أفراد تلك الواقعة البطولية. وما إن فتحتهما ثانية حتى وقع نظرها على ديانا وهي تتجاوز بوابة حقل آل باري وقد علت محيّاها علائم الجدّ. عرفت آن حالاً أن رفيقتها تحمل لها خبراً مهماً، لكنها ضبطت نفسها حتى لا تفضح ما اعتمل داخلها من لهفة غامرة.

"ألا تشبه هذه الأمسية حلماً أرجوانياً ياديانا؟ إنها تجعلني أشعر بالسعادة لكوني على قيد الحياة. والغريب في الأمر أني عندما يطلّ علينا الصباح أراه أجمل أوقات النهار، لكن ما إن يحلّ المساء حتى أرى أنه أكثر جمالاً."

"نعم، لا شكّ أنها أمسية لطيفة،" أجابت ديانا، "ولكن الأهم من ذلك ياآن هو ما أحمله من أخبار مثيرة. عليك أولاً أن تحزري، سأمنحك ثلاث فرص للتخمين."

"قررت تشارلوت غيليز إقامة مراسم زواجها في الكنيسة أخيراً، وتريد منّا السيدة آلن تزيين الكنيسة،" هتفت آن.

"كلاّ. لم يوافق خطيب تشارلوت على هذا، لأن أحداً لم يتزوج في الكنيسة قبلهما. ويعتقد أن الزواج في الكنيسة سيبدو أشبه بالجنازة. طبعاً هذه أنانية منه، لأنه لو وافق لكان ذلك حدثاً مسلياً. خمّني مرة أخرى."

"والدة جين ستسمح لها بإقامة حفلة عيد ميلادها؟"

هزّت ديانا رأسها نافية، ورقصت عيناها السوداوان مرحاً.

"لا أستطيع التفكير بشئ آخر،" قالت آن مستسلمة، "إلاّ إذا كان مودي سبرجيون ماكفرسون قد أوصلك إلى البيت ليلة أمس بعد اجتماع الصلاة. هل فعل هذا؟"

"كلاّ بكل تأكيد،" قالت ديانا بلهجة حانقة. "وما كنت لأفاخر بشئ من هذا لو فعل. ياله من مخلوق بغيض! كنت أعرف أنك لن تحزري.

حسناً، لقد استلمت أمي اليوم رسالة من العمة جوزفين. وتريدنا العمة جوزفين أن نذهب أنا وأنت إلى المدينة يوم الثلاثاء القادم، ونبقى عندها من أجل حضور المعرض. ما رأيك بهذا الخبر!"

"أوه يادیانا،" همست آن التي شعرت أن الموقف يقتضي منها الاتكاء على جذع شجرة قيقب طلباً للدعم. "أصحيح ما تقولينه؟ ولكني أخشى ألا تسمح لي ماريلا بالذهاب. ستقول إنها لا تحبذ تجوالي خارج البيت. هذا ما قالته الأسبوع الماضي عندما دعتني جين للذهاب معهم في عربتهم ذات المقاعد المزدوجة إلى الحفل الموسيقي الأميركي في فندق وايت ساندس. كنت أتحرّق شوقاً للذهاب، لكن ماريلا قالت إنه من الأفضل لي البقاء في البيت ومراجعة دروسي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى جين. كانت خيبة أملي مريرة يادیانا، وشعرت أن قلبي قد انفطر لدرجة امتنعت معها عن تلاوة صلاتي قبل إخلادي إلى النوم، لكني ندمت بعد ذلك فنهضت وصلّيت في منتصف الليل."

"سأقول لك ما الذي يمكننا عمله،" قالت ديانا. "سنجعل أمي تطلب من ماريلا السماح لك بالذهاب، ولا شكّ أنها في هذه الحالة ستكون أكثر ليونة. وإذا وافقت سنحظى بفرصة عمرنا ياآن. أنا لم أحضر في حياتي أي معرض، ولا شئ كان يضايقني أكثر من سماعي للبنات يتحدثن عن زياراتهن للمعارض. لقد سبق لجين وروبي أن حضرتا المعرض مرتين من قبل، وهما ذاهبتان هذه السنة أيضاً."

"لن أفكّر بهذا الحدث إلاّ عندما أتأكّد من ذهابي أو عدمه،" حزمت آن أمرها. "لأني إذا فكرت به ثم خاب أملي سيكون ذلك فوق طاقة احتمالي. أمّا إذا قدّر لي الذهاب، فلا شكّ أني سأكون سعيدة جداً لأن معطفي الجديد سيكون جاهزاً في ذلك الوقت. لم تعتقد ماريلا في البداية أني كنت بحاجة إلى معطف جديد، ورأت أن معطفي القديم ما زال صالحاً ليخدمني شتاءين آخرين. وقالت إنه علي الاكتفاء بالحصول على فستان جديد. وهو فستان جميل فعلاً يادیانا

بلونه الأزرق الغامق وتصميمه العصري. طبعاً أصبحت ماريلا الآن تخيط لي فساتيني حسب الموضة، وتقول إنه ليس في نيّتها ترك المجال لماثيو ليقصد السيدة ليند حتى تخيطها لي. وهذا يسعدني كثيراً، لأنه من الأسهل على الإنسان أن يكون صالحاً إذا كانت أزياء ملابسه عصرية. على الأقل هذا أسهل بالنسبة لي، إذ قد لا يشكّل أهمية كبيرة بالنسبة إلى الناس ذوي الفطرة الصالحة. مع ذلك أصرّ ماثيو على ضرورة حصولي على معطف جديد، لذلك اشترت ماريلا قماشاً من اللون الأزرق الفاتح، وسلّمته لخياط حقيقي في كارمودي. وسيعطينا إياه ليلة السبت. وأنا أحاول ألاّ أتخيل نفسي وأنا أتبختر بمعطفي وقبعتي الجديدين في رواق الكنيسة يومَ الأحد، إذ أخشى أن هذه الخيالات ليست تقيّة. لكن الأمر يفلت من يدي رغماً عني. وقبعتي الجديدة جميلة أيضاً، اشتراها لي ماثيو يوم ذهبنا إلى كارمودي. هي واحدة من تلك القبعات المخملية الصغيرة الدارجة هذه الأيام. وهي زرقاء وذات شراريب وأربطة ذهبية. وبالمناسبة ياديانا إن قبعتك الجديدة أنيقة وجميلة جداً. وعندما رأيتك تعتمرينها في الكنيسة يوم الأحد الماضي انتعش قلبي زهواً لأنك رفيقتي الحميمة. أتظنين أن تفكيرنا بملابسنا ليس تفكيراً تقيّاً؟ إن ماريلا تعتبره تفكيراً آثماً، ولكن ألا ترين معي أنه موضوع مشوّق جداً؟"

سمحت ماريلا لآن بالذهاب إلى المدينة. وتمّ الاتفاق على أن يقوم السيد باري باصطحاب الفتاتين إليها يوم الثلاثاء التالي. كان لزاماً عليهم مغادرة أفونليا في وقت مبكر جداً، نظراً لأن المدينة تقع على مبعدة ثلاثين ميلاً، ولأن السيد باري أراد الذهاب والعودة في اليوم نفسه. لكن آن اعتبرت هذه الترتيبات شيئاً ممتعاً، ونهضت في يوم الثلاثاء قبل مشرق الشمس. وتأكّدت بعد نظرة خاطفة من نافذة غرفتها أن الطقس سيكون معتدلاً، لأن السماء الشرقية المطلّة على أشجار التنوب في الغابة المسكونة كانت فضيّة وخالية من الغيوم. وكان الضوء الذي شعّ في السقيفة الغربية لدارة منحدر البستان من

خلال فرجة الأشجار، دليلاً على نهوض ديانا أيضاً.

انتهت آن من ارتداء ملابسها خلال الوقت الذي أشعل فيه ماثيو نار الموقد. وأُعدّت وجبة الإفطار بعد نزول ماريلا من غرفتها. لكن حماس آن كان أشدّ من أن تُقبل على تناول الطعام بشهية. وبعد انتهاء الإفطار ارتدت معطفها وقبعتها الجديدين وهرعت إلى دارة منحدر البستان عبر جسر الجدول ثم حرش أشجار التنوب. كان السيد باري وديانا بانتظارها، وسرعان ما باشروا رحلتهم.

استمتعت آن وديانا بكل لحظة من لحظات تلك الرحلة رغم طول المسافة. ولا شئ بدا لهما أكثر عذوبة من صوت قعقعة العربة فوق الطرقات الندية تحت ضوء الشروق الأحمر الزاحف نحو حقول الحصاد. كان الجو منعشاً وغضّاً، يكتنفه السديم الدخاني الزرقة الذي غلّف الوديان وطفا فوق التلال. وكان الطريق يمتدّ أحياناً بين الأحراش حيث أشجار القيقب المحمّلة بأوائل براعمها القرمزية، أو يمضي قاطعاً الأنهار فوق جسورٍ جعلت جسم آن ينكمش بذلك الفزع القديم المشرّب بالحبور. وفي أحيان أخرى ينعطف نحو الساحل، مروراً بأكواخ الصيد الرمادية الصغيرة ذات الأشكال العنقودية، ثم يصعد من جديد نحو التلال المطلّة على البقاع المتعرجة أو المشرفة على السماء الزرقاء السديمية. لكنه أينما مضى تكشّف عن كثير من الأمور المثيرة المحفّزة على النقاش. كان النهار قد انتصف تقريباً عندما وصلت العربةُ المدينةَ وتوجّهت نحو منطقة بيتشوود حيث تقع دار الآنسة باري الفسيحة، الجميلة، القديمة الطراز، القائمة بعيداً عن الشارع بين عزلة أشجار الدردار الخضراء والزان المغصوص. استقبلت الآنسة باري ضيفتيها عند الباب، وعيناها السوداوان الثاقبتان تشعّان بالوميض.

"إذن، جئت أخيراً لزيارتي أيتها البنت آن،" قالت. "عجباً، عجباً، كم كبرت أيتها الطفلة! أرى أنك غدوت أطول مني الآن، بل وتبدين أجمل بكثير ممّا كنت عليه. طبعاً أظنك تعرفين هذا من غير أن

يخبرك به أحد."

"لا، لم أكن أعرف،" أجابت آن وهي تتوهج حيوية. "أعرف أني ما عدت منمشة كما كنت في السابق، وهذا شئ أحمد الله عليه، ولكن فيما عدا ذلك لم أجرؤ حتى على مجرّد الأمل بأي تحسّن آخر. ويسرّني أنك ترين هذا ياآنسة باري."

كان منزل الآنسة باري مؤثثاً بأبّهة فخمة، كما أخبرت آن ماريلا فيما بعد. وفي البداية، ارتبكت الصغيرتان قليلاً من عظمة الصالة التي تركتهما فيها الآنسة باري ريثما تشرف على تحضير الغداء.

"ألا يشبه البلاط الملكي، أنا لم أزر منزل العمة جوزفين من قبل، وما كانت لدي أدنى فكرة عن مدى رحابته. ولا أتمنى الآن إلاّ أن تراه جوليا بيل التي لا تكفّ عن المباهاة بصالة أمها."

"سجادة مخملية،" قالت آن وهي تتنهد طرباً، "وستائر حريرية! كثيراً ما حلمت بمثل هذه الأشياء ياديانا. مع ذلك لا أجدني مرتاحة كثيراً لوجودها حولي. توجد في هذه الغرفة أشياء كثيرة جداً، وجميعها بالغة الروعة لدرجة أنها لاتترك للخيال أية فسحة. لا شكّ أن ما يعزيك عندما تكونين فقيرة، هو قدرتك على تخيُّل امتلاكك للأشياء التي ترغبين فيها."

كانت إقامة آن وديانا في المدينة حدثاً استحقّ أن تؤرخ الفتاتان حياتيهما بدءاً منه لعدة سنين، لأنها كانت إقامة مكتظّة بالأحداث المفرحة من بدايتها إلى نهايتها.

أخذتهما الآنسة باري يوم الأربعاء إلى المعرض، ومكثن هناك طيلة النهار.

"كان عظيماً،" روت آن لماريلا فيما بعد. "ما تخيلت في حياتي شيئاً مسلياً مثله. ولا أدري حقاً أي فرع منه كان أكثر تشويقاً. مع ذلك أظنني أحببت فروع الأحصنة والأزهار والأعمال الزخرفية أكثر

من غيرها. نالت جوزي باي الجائزة الأولى على حياكة الشرائط. وسررت من أجلها كثيراً، وسررت من نفسي لأني سررت من أجلها. ألا تظنين ياماريلا أن هذا يدلّ على تحسّن أخلاقي؟ ربح السيد هارمون آندروز الجائزة الثانية على التفاح المطعّم. أمّا السيد بيل فربح الجائزة الأولى على خنزير. ورأت ديانا أنه من السخف أن يربح ناظر مدرسة الأحد جائزة على خنزير. وعللت ذلك بأنها فيما بعد لن تكفّ عن التفكير بالخنزير كلّما رأت الناظر بيل مستغرقاً في الصلاة. لكني ياماريلا لم أستوعب ما قصدته، أتستطيعين أنت ذلك؟ ربحت كلارا لويس ماكفرسن جائزة على الرسم، أمّا السيدة ليند فحصلت على الجائزة الأولى لأفضل المصنوعات البيتية من الجبنة والزبدة. ألا تظنين ياماريلا أنه قد تمّ تمثيل أفونليا في المعرض خير تمثيل؟ طبعاً كانت السيدة ليند هناك في ذلك النهار. ولم أعرف مطلقاً كم كنت أحبها إلاّ عندما رأيت وجهها المألوف بين آلاف الغرباء الذين عجّ المعرض بهم، حتى جعلتني كثرتهم أشعر بضآلتي. أخذتنا الآنسة باري إلى المنصّة الكبيرة لنتفرّج على سباق الأحصنة. أمّا السيدة ليند فلم تقصد تلك البقعة لأنها تعتبر سباق الأحصنة شيئاً موبقاً. ورأت أن عضويتها الكنسية تحتّم عليها ضرب مثل صالح بتجنبها لهذه الأماكن. لكني لا أظن ياماريلا أن أحداً من ذلك الحشد الهائل لاحظ غياب السيدة ليند. أثارني السباق كثيراً ياماريلا، ولا أعتقد أنه يجدر بي حضور السباقات دائماً. ولقد وصل الحماس بديانا إلى درجة أنها عرضت عليَ مراهنتي بعشرة سنتات على فوز الحصان الأحمر. لكني رفضت مراهنتها رغم أني ما كنت أظنه سيتمكّن من الفوز، وذلك لأني أردت إطلاع السيدة آلن على كل ما جرى معي، وأدركت أني لن أجرؤ على ذكر حكاية الرهان أمامها. ومن المعيب حتماً قيامك بعمل لاتستطيعين إطلاع زوج القسّ عليه. طبعاً، من الجيد أن يكون المرء مرتبطاً بأواصر الصداقة مع زوج القسّ، لكنها أيضاً مسؤولية كبيرة تستدعي التمسّك الدائم بالفضيلة. على العموم،

ربح الحصان الأحمر السباق، وكنت سأخسر عشرة سنتات لولا رفضي لذلك الرهان الذي كان من صالحي، بل وبمثابة مكافأة لي. رأينا رجلاً يطير بوساطة بالون، وأتمنى ياماريلا لو تتاح لي فرصة الطيران ببالون، لأن هذا سيكون بكل بساطة ممتعاً. والتقينا رجلاً يقرأ الطالع. تدفعين له عشرة سنتات ويقوم طائر صغير بالتقاط ورقة تحتوي على طالعك. أعطت الآنسة باري لكل منّا؛ أنا وديانا، عشرة سنتات لنقرأ طالعنا. ونصّ طالعي على أني سأتزوج رجلاً أسمراً فاحش الثراء، وأني سأقطن في مكان أعبر إليه البحار. راقبت بانتباه جميع الرجال السمر الذين رأيتهم هناك، ولكني لم أشعر بالميل لأي منهم. وفي جميع الأحوال أظن أن الوقت مازال مبكراً لأبحث عنه. كان يوماً لا يُنسى ياماريلا، وبلغ بي الإعياء درجة منعتني من النوم تلك الليلة. استضافتنا الآنسة باري في غرفة نوم الضيوف كما وعدتني سابقاً. كانت غرفة فخمة ياماريلا، ولكني لم أجد النوم في هذه الغرفة كما كنت أتخيله. ولعل هذا من أسوأ الأمور التي تصيبك عندما تكبرين، ولقد بدأت أدرك هذه الحقيقة الآن. حقيقة أن جميع تلك الأشياء التي كنت تتوقين إليها في طفولتك تفقد نصف روعتها عندما تحصلين عليها فيما بعد."

ذهبت البنتان في يوم الخميس إلى المنتزه، ومساءاً صحبتهما الآنسة باري إلى حفل موسيقي أقيم في معهد الموسيقى، حيث ستغني فيه مغنية أوبرا ذائعة الصيت. كانت تلك الأمسية بالنسبة إلى آن كالحلم المتوهج ببريق السعادة.

"كان ذلك يفوق الوصف ياماريلا، وبلغ بي الحماس درجة جعلتني أسيرة الصمت التامّ. وأظن أن هذا يعطيك فكرة عن مدى روعته. كانت السيدة سيلتسكي رائعة الجمال، بثوبها الأبيض اللامع المرصّع باللآلئ. لكني توقفت عن التفكير بكل هذه المظاهر عندما سمعتها تغني. ولا أستطيع ياماريلا أن أعبّر لك عن المشاعر التي انتابتني حينها، وبدا لي أنه باستطاعتي أن أصبح بنتاً صالحة فيما بعد بدون

أية صعوبة. كانت أحاسيسي تشبه تلك الأحاسيس التي تسيطر عليَ عندما أتطلع نحو النجوم، وترقرقت عيناي بالدموع، لكنها كانت دموع حبور. ولكم حزنت عندما انتهى كل شئ. وأخبرت الآنسة باري أني لا أعرف كيف سأتمكن بعد ذلك الحفل من العودة إلى رتابة الحياة العادية. فقالت الآنسة باري أنني قد أتجاوز هذا الشعور إذا قصدنا المطعم الذي يقع في الجهة المقابلة من الشارع وتناولنا البوظة. بدا لي ما تقوله مجرد كلام، لكني دُهشت كثيراً عندما وجدته كلاماً صحيحاً. كانت البوظة لذيذة جداً ياماريلا، ولم يكن هناك أروع وأكثر ترفاً من الجلوس في ذلك المطعم في الساعة الحادية عشرة ليلاً لتناول البوظة. قالت ديانا إنها خُلقت لتعيش في المدينة، وسألتني الآنسة باري عن رأيي، فأخبرتها أنه عليَ التفكير ملياً قبل الإدلاء بأي رأي. وفي تلك الليلة فكّرت بالأمر تفكيراً عميقاً بعد أن أويت إلى السرير، لأن هذا الوقت هو أنسب وقت للتفكير. واستنتجت ياماريلا أني لم أكن قد خُلقت من أجل حياة المدينة، بل ويسعدني ألاّ أكون في المدينة. طبعاً، من اللطيف أن ترتادي المطاعم الفخمة ليلاً بين حين وآخر لتتناولي البوظة، ولكن عندما يتعلق الأمر بالحياة اليومية العادية فلا شئ أروع من أن أكون نائمة في غرفتي عندما يكون الوقت قد شارف الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأنا أعرف أن النجوم تشعّ خارج نافذتي، وأن الريح تعصف فوق أشجار التنوب عند الجدول. أخبرت الآنسة باري برأيي على طاولة الإفطار في صباح اليوم التالي، فضحكت. كانت الآنسة باري تضحك على أي شئ أقوله، حتى وإن كان جدّياً. ولا أظنني استسغت هذا ياماريلا، لأني ما كنت أسعى إلى التصرّف بطريقة هزلية. مع ذلك، لا شكّ أن الآنسة باري إمرأة مضيافة جداً، ولقد عاملتنا بطريقة ملوكية."

أخيراً، حلّ يوم الجمعة مع تباشير العودة إلى البيت، وحضر السيد باري ليصطحب الفتاتين.

"أرجو أن تكونا قد استمتعتما بإقامتكما هنا،" قالت الآنسة

باري، عندما ودّعتهما.

"نعم، بكل تأكيد،" قالت ديانا.

"وماذا عنك أنت أيتها الصبية آن؟"

"لقد استمتعت بكل لحظة من لحظات وقتي،" أجابت آن وهي تلفّ ذراعيها حول عنق المرأة المسنّة وتقبّل خدّها الهرم. أمّا ديانا التي لم تكن تملك جرأة الإقدام على عمل مماثل، فقد دُهشت من طلاقة آن في تعبيرها عن مشاعرها. لكن الآنسة باري شعرت بالرضى، ووقفت في شرفتها وراقبت العربة تبتعد عن ناظريها، ثم دخلت بيتها الكبير وهي تتنهد. بدا ذلك البيت موحشاً بعد أن فارقته الحياة التي أشاعتها الصبيّتان اليافعتان.

كانت الآنسة باري في الواقع، إمرأة مسنّة ذات طبع لا يخلو من الأنانية. وما كانت تكترث لأي مخلوق غير نفسها، وبالتالي لطالما قيّمت الناس حسب نفعهم لها أو عملهم على تسليتها. ولقد حظيت آن باهتمامها لأنها كانت تسليها. مع ذلك شعرت الآنسة باري أن استلطافها لتلك الطفلة ماعاد منصباً على أحاديثها الظريفة بقدر ما أصبح منصبّاً على حماسها الفتيّ وعواطفها الشفافة وحركاتها الساحرة اللطيفة ووداعة عينيها ورقّة شفتيها.

"كنت أعتقد أن ماريلا كُثْبيرت ليست إلاّ عانساً حمقاء عندما علمت أنها تبنّت فتاة من ملجأ للأيتام،" قالت لنفسها، "ولكني الآن لا أظنها مخطئة فيما أقدمت عليه. ولو كان يوجد في بيتي طفلة مثل آن لغدوت امرأة أكثر سعادة ممّا أنا عليه."

وجدت آن وديانا رحلة العودة إلى البيت بجمال رحلة الذهاب، بل وأكثر جمالاً. لأن سرورهما في هذه المرة كان ناجماً عن معرفتهما بأن البيت ينتظرهما في آخر المطاف.

كان الوقت قد شارف الغروب عندما اجتازوا بلدة وايت ساندس،

ثم سلكوا طريق الشاطئ، حيث لاحت أمامهم تلال أفونليا داكنةً تحت السماء الزعفرانية، بينما بزغ خلفهم القمر طالعاً من البحر ومضفياً عليه بريق أضوائه العظيمة. كانت الخلجان الصغيرة على طول الطريق أعجوبة من المياه المتراقصة، وكانت الأمواج تتكسر على الصخور بهسهسة خافتة، وكان الجوّ مفعماً برائحة البحر المنعشة.

"رائع أن نكون على قيد الحياة وأن نكون في طريقنا إلى البيت." هتفت آن وهي تأخذ نفساً عميقاً.

عندما وصلت العربة إلى أفونليا، أسرعت آن قاصدة البيت. وبينما كانت تعبر جسر الجدول بعث لها ضوء مطبخ المرتفعات الخضراء غمزة ترحيب ودودة، ولوّحت لها نار الموقد المتوهجة من خلال الباب المفتوح وهي ترسل وميضها الأحمر الدافئ إلى ليل الخريف الصقيعي. جرت آن مرتقية المرتفع بفرح، وسرعان ما وصلت واندفعت إلى المطبخ حيث كان العشاء الساخن ينتظر على الطاولة.

"أرى أنك عدت أخيراً؟" قالت ماريلا، وهي تطوي أدوات حياكتها.

"نعم عدّت ياماريلا، ولا شئ أجمل من العودة،" قالت آن بحبور. "يسعدني في هذه اللحظة تقبيل كل شئ، حتى تلك الساعة. أوه، دجاج مشوي ياماريلا! لا تقولي أنك أعددته من أجلي!"

"بلى،" أجابت ماريلا. "فكّرت أنك ستكونين جائعة بعد هذه الرحلة، وستحتاجين إلى وجبة مُشهية. أسرعي وانزعي عنك ثيابك وسنتاول العشاء ما إن يأتي ماثيو. أنا سعيدة بعودتك ياآن. لقد كانت هذه الأيام الأربعة أياماً موحشة بدونك، ولم يسبق لي أن عشت أياماً أكثر طولاً منها."

جلست آن بعد تناول العشاء أمام الموقد، بين ماثيو وماريلا وشرعت تحكي لهما بإسهاب عن جميع وقائع رحلتها.

"لقد حظيت بوقت رائع،" اختتمت آن حديثها بسعادة، "وأشعر

أنه يحدّد حقْبة مميزة من حقِب حياتي، لكن أروع ما فيه على الإطلاق هو العودة إلى البيت."

٣٠
تأسيس صفّ التحضير لمعهد كوين

وضعت ماريلا أدوات حياكتها على حضنها واستندت على ظهر كرسيها. كانت تشعر بألم في عينيها، وفكّرت بصمت أنه لا بدّ لها من تغيير نظارتها عندما تقصد المدينة في المرة المقبلة، لأن آلام عينيها أصبحت أشدّ من ذي قبل.

كان الوقت يكاد يشارف الليل، بعد أن خيّم شفق شهر تشرين الثاني على المرتفعات الخضراء، ولم يبق ما ينير المطبخ إلاّ ذلك البصيص المنبعث من اللهب الأحمر المتراقص في الموقد، الذي جلست آن على حصيرة بالقرب منه وحملقت بالوهج المرح الناجم عن احتراق حطب أشجار القيقب الذي تقطرت منه مئات الشموس الصيفية.

كانت قبل أن ينزلق كتابها نحو الأرض مستغرقة في القراءة، ثم ما لبثت أن استغرقت في دنيا الخيال وقد انفرج فمها عن ابتسامة وديعة. وراحت تحلم بالقصور الإسبانية العامرة التي انسلت حيّة من خيالها الشفاف، النابض، الموشّى بألوان قوس قزح. وخاضت في عالمها السديمي مغامرات رائعة وساحرة؛ مغامرات تنتهي بالنصر دائماً من غير أن تقحمها في مآزق الحياة الواقعية.

أخذت ماريلا تعاين آن بحنانٍ كان سيجد حرجاً كبيراً في الكشف عن نفسه تحت أي ضوء آخر غير ذلك النور الخافت المتماوج الذي انبعث من نار المدفأة، لأن التعبير الصريح عن الحب بكلمات منطوقة ونظرات صريحة لم يكن واحداً من الدروس التي يمكن أن

تتعلمها ماريلا، رغم أنها استطاعت أن تتعلّم كيف تحب تلك البنت النحيلة ذات العينين الرماديتين، بعاطفة أقوى وأعمق من أي تحفّظ. وكثيراً ما جعلها هذا الحب تخشى أن تكون متساهلة في تربيتها أكثر ممّا ينبغي، كما جعلها تشعر بالقلق لأنه ليس من التقوى أن يتعلق قلب المرء بأي مخلوق فانٍ كما تعلّق قلبها بآن. ولعل هذا ما دفعها من غير أن تعي إلى التكفير عن هذه العاطفة باصطناع الحزم والصرامة مع الطفلة أكثر ممّا تستدعيه الحاجة فيما لو كانت آن أقل غلاوة على قلبها. ولم تكن لدى آن، بكل تأكيد، أية فكرة عن عمق محبة ماريلا لها. بل إنها كثيراً ما فكّرت أن ماريلا إمرأة صعبة الإرضاء، وأنها تفتقر حتماً إلى التفهّم والمشاركة الوجدانية. لكنها كانت تطرد هذه الأفكار من رأسها نادمة، مذكّرة نفسها بما تدين به لماريلا.

"آن،" قالت ماريلا بدون مقدمات، "لقد جاءت الآنسة ستيسي إلينا هذا المساء بعدما خرجت برفقة ديانا."

عادت آن من عالمها الآخر مُجفلة، وتنهدت.

"أحقاً؟ يؤسفني أني لم أكن هنا. لماذا لم تناديني ياماريلا؟ كنت وديانا في الغابة المسكونة، فلا شئ ألطف من الغابة في هذا الوقت من السنة، إذ تبدو وكأن جميع معالمها الصغيرة قد ذهبت لتنام؛ السراخس والأعشاب اليانعة وثمار التوت. كأن شخصاً طوى الأرض وغطّاها بلحاف من أوراق الأشجار اليابسة بانتظار عودة الربيع. وأنا أعتقد أن ذلك الشخص ليس إلاّ جنية رمادية صغيرة تتشح بقوس قزح، جاءت في آخر ليلة مقمرة وفعلت هذا، لكن ديانا لم تعلّق على حديثي عندما أخبرتها بما أعتقد. ويبدو أنها لم تنس أبداً توبيخ أمها لها بعد حكاية أشباح الغابة المسكونة. كان لذلك التوبيخ تأثير سلبي على خيال ديانا؛ لقد حطمه ياماريلا. تقول السيدة ليند إن مارتل بيل مخلوقة محطمة. وسألتُ روبي عن سبب تحطم مارتل بيل فقالت إن ذلك قد يكون بسبب هجران حبيبها لها. لا تفكّر روبي إلاّ بالشبّان، وكلّما كبرت ازدادت علّتها سوءاً. طبعاً، لا بأس بالشبّان كشبّان،

ولكن ليس هناك أي نفع في إقحامهم بكل شئ في هذه الحياة، أليس كذلك ياماريلا؟ نفكّر أنا وديانا تفكيراً جدّياً في التعاهد على عدم الزواج أبداً وعلى أن نعيش مع بعضنا إلى أن نغدو عجوزين لطيفتين. لكن ديانا لم تحسم رأيها نهائياً، فهي ترى أنه ربما كان من الأنبل أن تتزوج شاباً همجياً، عنيفاً وشريراً، ثم تحاول إصلاحه. لقد أصبحنا أنا وديانا، كما ترين، نخوض مناقشات جدّية الآن، لأننا نشعر أننا كبرنا وما عاد الخوض في الأحاديث الطفولية يليق بنا. ولا شئ ياماريلا يبدو لي أكثر مهابة من أن يكون المرء على وشك بلوغ سن الخامسة عشرة. ولقد كلّمتنا الآنسة ستيسي عن هذا الموضوع بعد أن صحبت جميع الفتيات المراهقات إلى نزهة عند الجدول يوم الأربعاء الماضي. وأعلمتنا أنه يجب علينا منذ الآن مراقبة عاداتنا التي نمارسها وتوخّي الحرص في المُثل التي نتبناها، لأننا عندما نبلغ العشرين من العمر تكون شخصياتنا قد تشكّلت ويكون أساس حياتنا المستقبلية كلها قد تمّ تشييده. وأخبرتنا أنه إذا لم يكن ذلك الأساس راسخاً فلن نتمكن أبداً من بناء أي شئ يستحق الذكر. تباحثنا في هذا الموضوع أنا وديانا أثناء طريق عودتنا إلى البيت وشعرنا بالخوف، وقررنا أن نكون حذرتين في كل ما نقوم به، وأن نتطبع بالعادات المحترمة، وأن نتعلم كل ما يمكننا تعلمه، وأن نكون عاقلتين قدر الإمكان، وبهذه الطريقة تكون شخصياتنا قويمة عندما نبلغ العشرين من العمر. لا شئ يفزعني ياماريلا أكثر من تفكيري بسن العشرين، إذ يتهيأ لي أنه دلالة على التقدّم في السن. ولكن لماذا زارتنا الآنسة ستيسي هذا المساء؟"

"هذا ما أريد إخبارك به ياآن، إذا تركت لي فرصة للكلام. جاءت لتحدثني في شأن يخصكّ."

"يخصّني؟" بدت آن فزعة قليلاً، ثم اصطبغت بحمرة الخجل وهتفت:

"أعرف ما الذي قالته لك. كنت عازمة ياماريلا على إخبارك بما حدث. صدقاً، نويت هذا ولكني نسيت. ضبطتني الآنسة ستيسي في المدرسة مساء أمس وأنا أقرأ كتاب بن حور، أثناء الوقت المخصص لدراسة التاريخ الكندي. لقد أعارتني جين آندروز ذلك الكتاب، وكنت أقرأ فيه أثناء ساعة الغداء، ووصلت إلى مقطع سباق العربات عندما حان وقت الدرس. كنت ياماريلا أتحرّق شوقاً لمعرفة نهاية ذلك السباق، رغم تأكدي من فوز بن حور، لأن عدم فوزه لن يكون عدالة أدبية أبداً. وهكذا فتحت كتاب التاريخ فوق مقعدي ثم حشرت كتاب بن حور بين المقعد وركبتي. وبدا ذلك ياماريلا كما لو أني كنت أطالع في كتاب التاريخ. كنت مستغرقة جداً في القراءة لدرجة أني لم أنتبه إلى الآنسة ستيسي وهي تأتي من مؤخرة الصفّ، وما رأيتها إلاّ فوق رأسي تنظر إليَ بتلك النظرة الموبّخة. لا يمكنك أن تعرفي ياماريلا كم شعرت بالخجل، خصوصاً عندما سمعت جوزي باي تقهقه. خلّصتني الآنسة ستيسي كتاب بن حور لكنها لم توجّه لي كلمة واحدة في ذلك الوقت. وعند موعد الانصراف استبقتني وكلّمتني. قالت لي إن تصرفي كان معيباً لسببين، أولهما هدري للوقت الذي يجب تكريسه للدراسة، وثانيهما خداعي لمعلمتي في تظاهري بقراءة كتاب التاريخ الكندي بينما كان ما أقرأه كتاباً قصصياً. وما أدركت ياماريلا حتى تلك اللحظة أن ما فعلته كان احتيالاً. صُدمت ياماريلا، وبكيت بحرقة، وسألت الآنسة ستيسي السماح، ووعدتها بألاّ أكرر مثل هذا التصرف مرة ثانية. بل واقترحت التكفير عن خطأي بالامتناع عن القراءة في كتاب بن حور لأسبوع كامل، بدون أن أعرف كيف انتهى سباق العربات. لكن الآنسة ستيسي قالت إنها لا تطلب مني أية كفارة وسامحتني بدون مقابل. ولا أظن الآن أنه كان من اللطيف منها المجيء لإخبارك بما حدث."

"لم تتطرق الآنسة ستيسي إلى هذا الموضوع أبداً ياآن. وجميع هذه الأوهام ليست إلاّ نتيجة إحساسك بالذنب. ليس من الصواب أن

تأخذي الكتب القصصية إلى المدرسة، بالإضافة إلى أنك تبالغين في قراءة الكثير من الروايات. عندما كنت صغيرة لم تكن مطالعة الروايات مسموحة لي دائماً."

"ولكن كيف تسمين بن حور رواية بينما هو أقرب إلى الكتب الدينية؟" اعترضت آن. "طبعاً، ما يحتويه من الإثارة لا يجعله من الكتب التي يمكن قراءتها يوم الأحد، لذلك أنا لا أقرأ فيه إلاّ خلال أيام الأسبوع العادية. وأنا الآن لا أقرأ كتاباً إلاّ إذا ارتأت الآنسة ستيسي أو السيدة آلن أنه كتاب مناسب لفتاة تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر. لقد جعلتني الآنسة ستيسي أعدها بهذا بعد أن رأتني ذات يوم أقرأ قصة عنوانها: اللغز الرهيب للقصر المسكون. كانت قصة أعارتني إياها روبي غيليز، وكانت قصة مثيرة ومفزعة ياماريلا، لدرجة أنها جمّدت الدم في عروقي. لكن الآنسة ستيسي قالت إنه كتاب سخيف، وضارّ، وطلبت مني ألاّ أتابع قراءته، وألاّ أقرأ بعد ذلك كتباً مشابهة له. لم أجد مانعاً في وعدها بعدم قراءة كتب مشابهة ياماريلا، لكن كان من المضني لي أن أعيد الكتاب إلى روبي بدون أن أعرف نهاية القصة. وفي النهاية تفوقت رغبتي في إرضاء الآنسة ستيسي على فضولي. إن الأمور التي تستطيعين القيام بها ياماريلا عندما تتلهفين على إرضاء شخص تحبينه، هي أمور عظيمة فعلاً."

"حسناً، أظنني سأضيء المصباح وأنصرف إلى عملي،" قالت ماريلا. "أرى بكل وضوح أنك لا تريدين سماع ما قالته الآنسة ستيسي. فأنت كما يبدو لي تفضلين سماع صوتك فقط."

"أوه، لا ياماريلا، أنا راغبة فعلاً في سماع ما لديك،" صاحت آن نادمة. "لن أتفوه بأية كلمة أخرى، ولا أية كلمة. أعرف أني أتكلم كثيراً وأنا أحاول جاهدة السيطرة على نفسي. ورغم أني ما زلت كثيرة الكلام إلاّ أنك إذا عرفت كم هي كثيرة تلك الأشياء التي أريد قولها ولا أقولها ستغفرين لي. من فضلك أخبريني ياماريلا."

"حسناً، ترغب الآنسة ستيسي في تأسيس صفّ يضم تلامذتها الذين ينوون تقديم امتحانات الالتحاق بمعهد كوين. وهي تنوي تدريسهم ساعات إضافية بعد انتهاء دوام المدرسة اليومي، وجاءت تستفسر عمّا إذا كنا نرغب أنا وماثيو في انضمامك إلى هذا الصفّ. فما رأيك بهذا ياآن؟ أترغبين في الانتساب إلى معهد كوين لتتخرجي منه معلّمة؟"

"أوه ياماريلا!" اعتدلت آن على ركبتيها وشابكت يديها. "كان هذا حلم حياتي طوال الأشهر الستة التي مضت. وذلك منذ أن بدأت روبي وجين تتحدثان عن الدراسة من أجل الاستعداد لامتحان الدخول إلى المعهد. ولكني لم أقل كلمة بخصوص هذا الموضوع لأني افترضت أن أي شئ سأقوله سيكون بلا فائدة. أنا أتمنى فعلاً أن أصبح معلّمة، لكن ألن يكون الانتساب إلى ذلك المعهد مكلّفاً جداً؟ يقول السيد آندروز أن إدخال بريسي إلى المعهد كلّفه مائة وخمسين دولاراً، وبريسي لم تكن غبية في الهندسة."

"لا أرى داعياً يستوجب قلقك بخصوص هذا الشأن ياآن. فعندما تبنيناك أنا وماثيو وقررنا التكفّل بتنشئتك، عزمنا على تقديم أفضل ما نستطيع تقديمه لك، والعمل على تحصينك بعلم نافع. وأنا أؤمن بضرورة تسلّح البنت بما يمكّنها من كسب عيشها سواء احتاجت إلى العمل أم لم تحتج له. بالطبع ستظلّ المرتفعات الخضراء بيتك، ما دُمنا أنا وماثيو على قيد الحياة. لكن أحداً لا يعرف ما الذي يخبئه له هذا العالم المتقلقل، وليس أفضل من أن يكون المرء مستعداً لمواجهته. ولذلك، يمكنك الانضمام إلى هذا الصفّ إذا كنت ترغبين في ذلك ياآن."

"أوه ياماريلا،" لفّت آن ذراعيها حول خصر ماريلا ورفعت رأسها وعاينتها بإكبار. "أنا ممتنة لك ولماثيو من صميم قلبي، وأعدك أني سأجدّ في الدرس بقدر ما أستطيع، وسأبذل أقصى جهدي لأكون مشرّفة لك. لكني أحذرك منذ الآن بألاّ تتوقعي الكثير مني في

الهندسة، أمّا بقية المواد فأظنني قادرة على تدبّر أمرها إذا اجتهدت في الدراسة."

"أعتقد أنك ستبلين بلاءاً حسناً في كل شئ، فالآنسة ستيسي ترى أنك ذكية ومجتهدة." لا شكّ أن شيئاً في هذا العالم ما كان يستطيع إرغام ماريلا على إخبار آن بما قالته عنها الآنسة ستيسي حرفياً. ذاك، كما رأت ماريلا، سيزيد بكل تأكيد من غرور آن وزهوها بنفسها. "ولستِ بحاجة إلى المبالغة في إنهاك نفسك بالدراسة. تقول الآنسة ستيسي إنه ليس هناك من عجلة ملّحة، كما أنك لن تكوني جاهزة لتجربة أي امتحان دخول قبل سنة ونصف السنة. ولكن لا بأس من البدء في الوقت المناسب حتى يكون أساسك متيناً."

"سأهتم الآن بدروسي أكثر من أي وقت مضى،" قالت آن بسعادة، "لأنه أصبح لدي هدف في هذه الحياة. يرى السيد آلن أنه يجب على كل إنسان تحديد هدفه في الحياة، ثم السعي إلى تحقيقه، ولكن علينا أولاً التأكد من نُبل ذلك الهدف. وأنا أرى أن طموحي كي أصبح معلمة مثل الآنسة ستيسي هو هدف قيّم جداً، ألا تعتقدين هذا ياماريلا؟ إني أعتبرها مهنة نبيلة جداً."

تمّ تأسيس صفّ الراغبين في دخول معهد كوين خلال الوقت المحدد. وانضم إليه غيلبرت بلايث، آن شيرلي، روبي غيليز، جين آندروز، جوزي باي، تشارلي سلون وмودي سبرجيون ماكفرسون. لم تكن ديانا باري ضمن هذا الصفّ، لأن والديها لم يرغبا في إرسالها إلى معهد كوين. وكان هذا أشبه بالمصيبة الكبيرة بالنسبة إلى آن، فمنذ تلك الليلة التي أصيبت فيها ميني ماي بالخنّاق لم يفرّقها شئ عن ديانا. وفي اليوم الأول الذي تخلّف فيه صفّ كوين عن بقية التلامذة المنصرفين، راقبت آن رفيقتها وهي تغادر حجرة الدراسة ببطء مع الآخرين، لتعود وحدها إلى البيت سالكة ممر البتولا ووادي البنفسج. وأدركت أنها ماكانت تستطيع القيام بأي شئ سوى التماسك في مقعدها لعلّها تقاوم الاستسلام لرغبتها العفوية في

الاندفاع وراء زميلتها. وسرعان ما شعرت بغصّة تخنق حلقها، فتداركت نفسها بإخفاء وجهها بين صفحات كتاب القواعد اللاتينية لتخفي الدموع المترقرقة في عينيها، فهي لن تسمح لغيلبرت بلايث أو لجوزي باي أن يريا دموعها من أجل أي شئ في هذا العالم.

"آه ياماريلا، عندما رأيت ديانا تغادر وحدها، شعرت أني أتذوق مرارة الموت فعلاً، كما قال السيد آلن في موعظة الأحد الماضي،" قالت متشكّية في تلك الليلة. "وخُيِّل لي أنه سيكون من الرائع حقاً لو أن ديانا شاركتني هذا الصفّ. لكننا، كما تقول السيدة ليند، لا نستطيع الحصول على الكمال في هذا العالم الناقص. ولا شكّ أن السيدة ليند صاحبة آراء سديدة، رغم أنها ليست بذلك الشخص الذي يريحك دائماً. أظن ياماريلا أن صفّنا الجديد هذا سيكون مثيراً جداً. تريد كل من جين وروبي أن تصبحا معلمتين، وهذا هو أقصى ما تصبوان إليه. تقول روبي إنها تنوي التعليم لسنتين فقط بعد تخريجها من المعهد، ثم ستتزوج بعد ذلك. أمّا جين فهي تنوي تكريس حياتها للتعليم، ولن تتزوج أبداً.. أبداً. وتقول إن المعلّمة تتقاضى راتباً عن عملها، أمّا الزوج فلن يعطيك شيئاً، وسيتذمر إذا طالبته بحصتك من ثمن البيض والزبدة. أظن أن كلام جين نابع من تجربة مريرة، فالسيدة ليند تقول إن والدها نزق ورديء الطبع، وأبخل من القشدة التي قد تحصلين عليها بعد غلي الحليب مرة ثانية. أمّا جوزي فتزعم أنها ستقصد المعهد من أجل العلم فقط، لأنها ليست بحاجة إلى كسب قوتِها. وقالت إن الوضع يختلف مع الأيتام الذين يعيشون على الإحسان، والذين يتحتم عليهم مجابهة الحياة فيما بعد. يريد مودي سبرجيون أن يصبح قسّاً، وتقول السيدة ليند إنه لا يمكن أن يصلح لأي شئ آخر بهذا الاسم الذي يحمله. أرجو ياماريلا ألاّ يكون سوء خلق مني أن أضحك كلّما تخيلت مودي سبرجيون قسّاً، نظراً لغرابة شكله بذلك الوجه السمين والعينين الزرقاوين الصغيرتين والأذنين المنتصبتين كالأجنحة. ولعله عندما يكبر سيكون مظهره أكثر إيحاءً

بأنه صاحب فكر حصيف. ويقول تشارلي سلون إنه ينوي التخصص في المجال السياسي، ويطمح لأن يصبح عضواً في البرلمان. لكن السيدة ليند لا تظن أنه سينجح في السياسة لأن جميع آل سلون أناس مستقيمون، ولا أحد في هذه الأيام ينجح في الميدان السياسي إلاّ إذا كان من الأوغاد."

"وماذا عن طموحات غيلبرت بلايث؟" قالت ماريلا ناكئة بذلك جراح آن المكنونة.

"لا أعرف شيئاً عن طموحات غيلبرت بلايث في الحياة، هذا إذا كان لديه أي طموح،" ردّت آن بترفّع.

غدا التنافس بين غيلبرت وآن واضحاً في ذلك الصفّ التحضيري. كان التنافس بينهما في الماضي تنافساً أحادي الجانب تقريباً، لكن غيلبرت بدا عازماً على احتلال المرتبة الأولى في الصفّ، وكذلك كان حال آن، ولا شكّ أن غيلبرت كان خصماً مناسباً للدرع الفولاذي الذي تسلّحت به. أمّا بقية أفراد الصفّ الذين لم يخالجهم أدنى ريب بتفوّق آن وغيلبرت عليهم، فلم يحلموا حتى بمحاولة مباراتهما.

كان غيلبرت منذ أن رفضت آن مسامحته عندما جرت حادثة البركة، قد نهج سبيل تجاهل وجود آن شيرلي تجاهلاً كاملاً إلاّ فيما يخصّ المنافسة الجارية بينهما. ولطالما مازح بقية البنات وجاذبهن أطراف الحديث وتبادل معهن الكتب والألعاب، ورافق هذه أو تلك إلى بيتها بعد انفضاض اجتماع الصلاة في نادي المناظرات. أمّا آن شيرلي فكانت بكل بساطة غير موجودة بالنسبة إليه. واكتشفت آن أن تجاهل الآخرين لها لم يكن شيئاً مستساغاً، وعبثاً أقنعت نفسها وهي تهزّ رأسها أن هذا لم يكن مهماً لها، لكنها في أعماق قلبها الأنثوي الصغير المشاكس كانت تعرف أنها تهتم، وأنها إذا حصلت على فرصة حادثة بحيرة المياه البراقة من جديد، فستجيب جواباً مختلفاً. لقد أدركت فجأة أن استياءها من غيلبرت، والذي دأبت على تعزيزه

في نفسها كان قد تلاشى. تلاشى رغم حاجتها الماسّة إلى دعم طاقته الساخطة. وعندما حاولت أن تعيد إلى نفسها غضبها القديم بتأجيج كل واقعة وعاطفة سابقة، باءت محاولتها بالفشل. كان ذلك اليوم عند البركة قد شهد آخر سَورة من سَوراته.

وهكذا، عرفت آن بعد فوات الأوان أنها سامحت غيلبرت ونسيت إيلامه لها رغم عدم اعترافها بذلك. وما كان أمامها من حلّ سوى الحرص على عدم إتاحة الفرصة لغيلبرت أو لأي شخص آخر، بما في ذلك ديانا، اكتشاف مرارة ندمها. وكم تمنّت سرّاً لو أنها لم تكن مزهوة بنفسها وبغيضة! ورأت أن أقلّ ما تستطيع عمله هو محاولة دفن مشاعرها في أعماق النسيان. ولا شكّ أنها نجحت في مسعاها بحيث أن غيلبرت الذي لم يكن حقاً غير مبالٍ كما ظهر عليه، لم يطب نفساً بأي دليل يؤكد له أن آن شعرت بانتقامه منها، ولم يظفر بأي عزاء يسليه سوى فرحه برؤية تشارلي سلون يلقى التعنيف الدائم منها، بدون أن يجترح ما يستحق عليه تلك المعاملة.

فيما عدا ذلك، مرّ فصل الشتاء في تسلسل متتابع من الواجبات والدراسات المشوّقة. وتتالت الأيام بالنسبة إلى آن كأنها خرزات من الذهب في قلادة السنة. كانت متحمسة وجادّة. كانت لديها دروس جديدة لتتعلمها، ودرجات شرف لتستحقها، وكتب مهمة لتقرأها، ومقطوعات ترنيمية لتتدرب عليها في جوقة مدرسة الأحد، وأمسيات سبت جميلة لتقضيها في منزل القسّ مع السيدة آلن. وقبل أن تدرك آن، كان الربيع قد أطلّ مجدداً على المرتفعات الخضراء، وسرعان ما أزهر العالم ثانية.

أصبح الدرس مملّاً قليلاً في صفّ التحضير لمعهد كوين، الذي كان يبقى في المدرسة بعد انتهاء الدوام. وبينما كان بقية التلامذة ينتشرون في الدروب الخضراء والأحراج المورقة والمروج المزهرة، كان طلاب صفّ كوين لا يكفّون عن تأمل العالم بتوق من خلال النوافذ، يتآكلهم الإحساس بأن الأفعال اللاتينية والتمارين الفرنسية ما عادت

على نفس تلك النكهة والإثارة التي كانت عليها في أشهر الشتاء الباردة. حتى آن وغيلبرت أصبحا أقل اندفاعاً واكتراثاً. وما كاد الفصل الدراسي ينتهي إلاّ وكانت المعلّمة والتلاميذ على نفس القدر من السعادة، احتفاءاً بأيام العطلة المشرقة التي كانت بانتظارهم.

"لقد أدّيتم عملاً جيداً هذه السنة،" قالت لهم الآنسة ستيسي في آخر مساء مدرسي لهم. "ولا شكّ أنكم تستحقون الآن عطلة جيدة ومرحة. تمتعوا بقدر ما تستطيعون بالطبيعة حولكم، واستجمعوا لأنفسكم رصيداً طيباً من الصحة والطاقة والطموح ليكون عوناً لكم على المثابرة في السنة القادمة، لأنها ستكون سنة شدّ الحبل، فهي السنة الأخيرة قبل دخول الامتحان."

"هل ستعودين إلينا في السنة القادمة ياآنسة ستيسي؟" سألتها جوزي باي.

لم تكن جوزي باي تتحرج عن طرح أي نوع من الأسئلة أبداً. وفي تلك اللحظة شعر الجميع بالامتنان لها، لأن أحداً منهم لم يجرؤ على طرح هذا السؤال على الآنسة ستيسي رغم رغبتهم في ذلك. فقد سبق أن سرت في المدرسة إشاعة كبيرة مفادها أن الآنسة ستيسي لن تعود لأنه عُرض عليها منصب تعليمي في ثانوية بلدتها. وقيل إنها نوت القبول به. أنصت تلامذة صفّ كوين، وانتظروا جوابها قلقين محبوسي الأنفاس.

"نعم، أظنني سأعود،" قالت الآنسة ستيسي. "كنت أفكر بقبول منصب تعليمي في مدرسة أخرى، لكني قررت في النهاية العودة إلى أفونليا. فأنا بكل صراحة غدوت مولعة بتلاميذي هنا، واكتشفت أني لا أستطيع التخلي عنهم. لذلك تأكدوا من بقائي معكم حتى النهاية."

"تحيـــــا الآنسة ستيسي!" صاح مودي سبرجيون بعفوية، لكنه ظلّ لمدّة أسبوع يتضرّج بحمرة الخجل كلّما تذكّر انجرافه مع مشاعره الذي لم يكن على الإطلاق من طباعه.

"كم يسعدني هذا،" قالت آن بعينين فرحتين. "فمن الرهيب حقاً ألاّ تعودي إلينا ياآنسة ستيسي العزيزة. ولا أظن أن قلبي كان سيطاوعني على متابعة دراستي بإخلاص لو حلّ مكانك معلّم جديد."

عندما عادت آن إلى البيت في تلك الليلة كوّمت جميع كتبها وحفظتها داخل صندوق قديم في العليّة، ثم أقفلته ورمت المفتاح في جارور البطانيات.

"لن أقدِم حتى على مجرّد النظر إلى كتاب مدرسي في هذه العطلة،" أخبرت ماريلا. "لقد درست بجدّ لا مثيل له في هذا الفصل، وانكببت على الهندسة حتى أصبحت أعرف جميع الرموز في الكتاب الأول عن ظهر قلب، سواء تغيرت الأحرف أم لم تتغير. وأشعر الآن بالسأم من أي شئ عقلاني وأريد أن أترك العنان لخيالي حتى يسرح كما يشاء في هذه العطلة. لا.. لا تخافي ياماريلا، لن أدع خيالي يشاغب إلاّ ضمن حدود المعقول. أنا عازمة على قضاء وقت ممتع ومرح في هذا الصيف، فلربما كان آخر صيف يمرّ على طفولتي. قالت لي السيدة ليند أنني أصبحت ساقين وعينين، وأني إذا ازددت نمواً في السنة القادمة بنفس معدل هذه السنة فسأضطر إلى ارتداء فساتين أطول من فساتيني الحالية. حينها ياماريلا سأشعر أنه ينبغي لي التصرّف باحتشام يليق بطول تلك الفساتين، وفي تلك الحالة لن يجديني أي شئ نفعاً بما في ذلك إيماني بوجود الجنيات. لذلك سأؤمن بالجنيات في هذا الصيف من صميم قلبي. أظن أن هذه العطلة ستكون رائعة؛ فروبي غيليز ستقيم حفلة عيد ميلادها عمّا قريب، وهناك نزهة مدرسة الأحد، والحفل الموسيقي الذي ستعدّه الإرسالية في الشهر القادم. ويقول السيد باري أنه سيأخذنا ذات مساء أنا وديانا لنتناول العشاء في فندق وايت ساندس، فالناس كما تعلمين يقصدون ذلك الفندق من أجل تناول العشاء. وعندما ذهبت إليه جين آندروز ذات مرة في الصيف الماضي، أخبرتنا أن ذلك المنظر كان باهراً بأضوائه الكهربائية

ونسائه المتخطرات بملابس السهرة الجميلة. وتقول جين أن تلك المرة كانت المرة الأولى في حياتها التي ترى فيها حياة المجتمعات الراقية، ولن تنساها إلى يوم موتها."

قصدت السيدة ليند المرتفعات الخضراء مساء اليوم التالي لتستفهم عن السبب الذي منع ماريلا من حضور اجتماع جمعية المعونة في يوم الخميس. كان الناس يعرفون أن تغيُّبَ ماريلا عن الاجتماع يدلّ على حصول طارئ سيء في المرتفعات الخضراء.

"تعرّض ماثيو لنوبة قلبية حادّة يوم الخميس،" أوضحت ماريلا، "ولم أشعر أني أستطيع تركه وحده. نعم، إنه بخير الآن، لكن هذه النوبات أصبحت تراوده أكثر من السابق، وأنا قلقة جداً عليه. قال الطبيب إنه ينبغي لماثيو توخي الحذر في عدم التعرض للإثارة. طبعاً لا شئ أسهل من هذا، لأن ماثيو ليس من الأشخاص الذين يسعون إلى الإثارة بأية وسيلة، ولم يكن كذلك أبداً. ولكن الطبيب ألحّ على ضرورة تجنبه لأي عمل مرهق أيضاً. ويمكنك بكل بساطة أن تطلبي من ماثيو ألاّ يتنفس ولا تطلبي منه التوقف عن العمل. تفضلي بالدخول ياريتشيل، وانزعي عنك قبعتك، ألا تبقين لتناول الشاي؟"

"هه، بما أنك تصرّين عليَ، أحسب أنه يجدر بي الدخول لبعض الوقت،" أجابت السيدة ليند التي لم تكن لديها أدنى نية في عمل أي شئ آخر.

جلست السيدة ليند وماريلا في الصالة، بينما أحضرت آن الشاي بعد أن أعدّت رقائق من البسكويت الهشّ الأبيض الذي تحدّى حتى ما يمكن أن يصدر عن السيدة ليند من انتقاد.

"لا شكّ أن آن أصبحت بنتاً جيدة،" اعترفت السيدة ليند، بينما صحبتها ماريلا إلى نهاية الدرب ساعة الغروب. "وأظن أنها غدت خير معين لك."

"نعم إنها كذلك،" أجابت ماريلا، "وهي بنت مستقيمة وأهل للثقة

الآن. كم خشيت في السابق ألاّ تتجاوز ما كانت عليه من طيش، لكن خشيتي لم تكن في محلها. وأنا الآن لا أتوانى عن توكيلها بأية مهمة."

"ما ظننت أبداً أنها ستتحسن عندما رأيتها أول مرة هنا، قبل ثلاث سنوات،" قالت السيدة ريتشيل. "ياللتك الذكرى، أيمكن أن أنسى في حياتي نوبة غضبها! عندما رجعت إلى البيت في تلك الليلة قلت لتوماس: سجّل أقوالي ياتوماس، إن ماريلا كُثْبيرت ستعيش حتى تلعن اليوم الذي اتخذت فيه هذه الخطوة. ولكني كنت مخطئة، ويسرّني أني كنت كذلك. طبعاً، أنا لست من الأشخاص الذين لا يعترفون بخطأهم ياماريلا. وأحمد الله لأن هذا ليس من أساليبي. نعم، لقد أخطأت في حكمي عليها ولكن ذلك لم يكن مستغرباً، نظراً إلى عدم وجود طفلة في العالم كله تماثل تصرفاتها المستهجنة تصرفات هذه الساحرة الصغيرة. ولم يكن هناك شيفرة يمكن تطبيق رموزها عليها كما تجري الأمور مع بقية الأطفال. إن تحسّنها في هذه السنوات الثلاث أشبه بالمعجزة، خصوصاً شكلها. فهي الآن صَبيّة جميلة، رغم أني بكل صراحة لا أميل كثيراً إلى هذا النوع من الجمال الذي يتميز بالشحوب والعينين الواسعتين. أنا أفضّل الجمال الحادّ الذي يضج بالألوان مثل جمال دياناباري وروبي غيليز. روبي صَبيّة ذات جمال أخّاذ فعلاً. مع ذلك، وبطريقة ما، عندما تكون آن في صحبة بقية الفتيات لا أعرف كيف تجعل وسامتهن تبدو عادية ومستهلكة، رغم أنها أقل جمالاً منهن. ويبدو الأمر في الحقيقة، أشبه برؤيتك لزنابق حزيران، أو ما تدعوها آن بالنرجس، إلى جانب أزهار عود الصليب الكبيرة الحمراء."

٣١
مُلتقى الجدول بالنهر

حصلت آن على الصيف الطيب الذي صبت إليه واستمتعت به إلى ذروته. وقضت هي وديانا معظم أوقات لهوهما خارج حدود الجدران، ترتعان في كل تلك المسرّات التي أتاحها لهما درب العشاق ونبع خرير الحورية وتخوم الصفصاف وجزيرة فكتوريا. ولم تُبْد ماريلا أي اعتراض على تسكّع آن خارج البيت، إذ حدث في ذات أمسية من أمسيات أوائل أيام العطلة أن التقت آن في منزل أحد المعارف المرضى بطبيب سبنسرفيل الذي جاء ليلة أصيبت ميني ماي بالخناق، ولمّا رآها الطبيب، أمعن النظر إليها، لوى شفتيه، هزّ رأسه، ثم أرسل رسالة شفوية إلى ماريلا مع أحد الأشخاص.

تقول الرسالة:

"دعي تلك البنت الحمراء الشعر التي تربّينها ترتع في الهواء الطلق طيلة فصل الصيف، ولا تسمحي لها بقراءة الكتب قبل أن تستعيد طاقتها الحيوية."

أفزعت الرسالة ماريلا على صحة آن، ورأت فيها مذكّرة موتها بالسّل إلاّ إذا نُفِّذت بحذافيرها. وهكذا، أتيحت الفرصة لآن كي تتمرغ في نعيم تلك العطلة الذهبية المنشودة، فمرحت وانطلقت بقدر ما سمح لها المرح والانطلاق. مشت، جذفت، قطفت الثمار، وحلمت حتى الانتشاء. وما كاد يُقبل شهر أيلول إلاّ وكانت قد استعادت بريق عينيها وطاقتها، وامتلأ قلبها من جديد بالطموح والاندفاع، وعمّتها الحيوية التي كانت بدون شك ستقنع طبيب سبنسرفيل.

"أشعر أني مستعدّة لمباشرة الدراسة بكل ما لديَ من عزم وطاقة،" أعلنت آن بعد أن أنزلت كتبها من العليّة. "ياللأصدقاء

القدامى الأعزاء، كم تسعدني رؤية وجوهكم المخلصة من جديد، نـعم، بما فيهم أنت ياكتاب الهندسة. لقد كانت هذه العطلة رائعة ياماريلا، وأنا الآن مفعمة بالنشاط كرجل قويّ يستعدّ لخوض السباق، كما قال السـيـد آلن يوم الأحد الماضي. أليست مـواعظ السـيـد آلن عظيـمـة ياماريلا؟ تقول السيدة ليند إنه يتطور باستمرار، وأول شئ سنسمع به بعد ذلك هـو التهام إحدى كنائس المدينة له. وحينها سنبقى بدون قسّ، وسنضطر إلى البدء من جديد في البحث عن واعظ آخر قليل الخبرة، وسنجهد في العمل على تدريبه. وأنا أستغرب هذا القول منها لأني لا أرى فائدة في مواجهة المتاعب قبل أن تبدأ، أترين في ذلك أية فائدة ياماريلا؟ أرى أنه يجدر بنا الآن التنعّم بوجود السيد آلن ما دام بيننا. أتعلمين ياماريلا أني لو كنت رجلاً لاخترت أن أكون قساً. فالقس الراسخ العقيدة يملك القدرة على توجيه الناس نحو الخير، ولا شكّ أنه من المثير أن تعظي الناس بأقوال عظيمة توقظ قلوبهم. لماذا لا يُسمح للنساء بأن يكنّ قسيسات ياماريلا؟ عندما سألت السيدة ليند عن ذلك، صُعقت، واعتبرت أن هذا إذا حدث سيكون شيئاً مخزياً. وأخبرتني أنه ربما كان يوجد قسيسات في الولايات الأميركية وهي ترجّح هذا الاحتمال، ثم حمدت الله لأننا لم نصل إلى هذه المرحلة في كندا، وأملت ألاّ نصل إليها أبداً. لكني لا أفهم السبب، إذ أعتقد أن النساء صالحات لاحتلال هذه المرتبة. فهن اللاتي يشرفن على المناسبات الاجتماعية إذا وُجدت، وعلى حفلات الشاي في الكنيسة، وعلى أي شئ آخر يُقام من أجل جمع التبرعات. وأنا واثقة بأن السيدة ليند قادرة على الصلاة بنفس الإتقان الذي يصلي به الناظر بيل، ولا أشكّ في قدرتها على الوعظ أيضاً إذا تمرّنت قليلاً."

"نعم، أعتقد أنها قادرة،" قالت ماريلا بدون تحيّز. "فهي في جميع الأحوال لا تكفّ عن توجيه المواعظ بشكل غير رسمي. ولا تُتاح لأي مخلوق في أفونليا ولو فرصة ضئيلة لارتكاب الأغلاط، مع رقابة ريتشيل عليه."

"ماريلا،" قالت آن، وقد اعترتها رغبة فجائية بالمصارحة. "أرغب في استشارتك بموضوع يقلقني كثيراً كلّما فكّرت به في أمسيات الأحد التي أخصصها عادة للتفكير بهذه المواضيع. أنا ياماريلا أرغب صادقة في أن أكون بنتاً صالحة، وعندما أكون معك أو مع السيدة آلن أو الآنسة ستيسي أطمح لهذا أكثر من أي شئ آخر، وأحب دائماً القيام بما يرضيكن. لكني عندما أكون مع السيدة ليند، تعتريني رغبة عارمة في مشاكستها، وأشعر كما لو أني أريد ارتكاب جميع الأشياء التي تنهاني عنها، ويبدو لي هذا الإغراء مستعصياً على المقاومة. فما هو السبب ياماريلا؟ أتعتقدين أنه عائد لكوني طائشة وسيئة فعلاً؟"

لاحت معالم الالتباس على ماريلا لبرهة، ثم ضحكت.

"إذا كنت كذلك، فلا بدّ أني مثلك أنا أيضاً ياآن، لأن ريتشيل غالباً ما تترك في نفسي مثل هذا الانطباع. وفي كثير من الأحيان أعتقد أن قدرتها على توجيه الناس نحو الخير ستكون أكثر فعالية إذا كفّت عن مناكدة الناس ليتبعوا الطريق القويم. وأرى أنه لا بدّ من اشتراع نصّ يحظر المناكدة. ولكن، ها أنا أقول كلاماً لا يجدر بي قوله، فريتشيل إمرأة مؤمنة وصالحة وصافية النية، ولا يوجد في أفونليا روح أطيب من روحها، وهي لا تتهرب أبداً من واجباتها والتزاماتها."

"يسعدني أنك تشعرين بما أشعر به،" قالت آن بارتياح. "هذا يشجعني كثيراً، ولا شكّ أنه سيجعل قلقي أخفّ وطأة. مع ذلك أخشى أنه ستكون لدي أشياء أخرى لأقلق بشأنها. فالأشياء المربِكة لا تكفّ عن الظهور في حياة الإنسان كما تعلمين، وكلما عالج مسألة وانتهى منها واجهته مسألة أخرى على الفور. كثيرة هي تلك المسائل التي تعترض المرء عندما يتدرج في النموّ وكلها تحتاج إلى التبصّر والتفكّر. وهي عادة تشغل معظم وقتي ما بين مناقشتها والتوصل إلى حلول سليمة لها. أليس النضوج مسألة جدّية وخطيرة ياماريلا؟ مع ذلك، أعتقدني قادرة على النضوج من غير أن تعترضني العراقيل ما

دُمت أنعم بوجود رفاق طيبين حولي مثلك ومثل ماثيو والسيدة آلن والآنسة ستيسي. وعندما أفشل لا ريب أن الخطأ في هذه الحالة سيكون خطأي وحدي. أشعر ياماريلا أن النضوج مسؤولية كبيرة لأني لا أملك في هذه الحياة إلاّ فرصة واحدة، وإذا لم أحسن استغلالها فلن أستطيع العودة إلى الطفولة لأبدأ من جديد. لقد ازداد طولي في هذه الصيف بمعدل إنشين ياماريلا. عرفت هذا لأن السيد غيليز قاس طولي في حفلة روبي. وكم سرّني أنك فصلّت لي فساتيني الجديدة أطول من السابق. وذلك الفستان الأخضر جميل جداً ياماريلا، وكان لطيفاً منك أن تضعي له الحواشي على أطرافه. أعرف طبعاً أنها لم تكن ضرورية، لكن الحواشي على أطراف الفساتين أصبحت دارجة هذا الخريف. وجميع فساتين جوزي باي يوجد عليها حواشي. وأنا متأكدة أني سأُقبِل على الدراسة أكثر بسبب حواشي فستاني، لأنها ستشيع في أعماقي شعوراً مريحاً جداً."

"إذن، لا شكّ أن هذه الحواشي تستحق عناء إضافتها،" أقرّت ماريلا.

عادت الآنسة ستيسي إلى مدرسة أفونليا لتجد جميع تلاميذها على أهبة الاستعداد للعمل من جديد، خصوصاً تلاميذ صفّ كوين الذين شمّروا عن سواعدهم من أجل خوض المعركة، لأن نهاية السنة القادمة التي بدأت أطيافها الباهتة تظهر على دربهم منذ الآن، كانت تلوّح لهم منذرة إياهم باقتراب موعد ذلك الحدث المصيري المعروف باسم امتحان الدخول. وكان مجرّد تفكيرهم به يجعل قلوبهم تغوص إلى أخامص أقدامهم.

ماذا لو لم ينجحوا!

لاحقت هذه الفكرة آن خلال جميع ساعات صحوها في الشتاء، بما في ذلك ساعات أمسيات الأحد، وكثيراً ما طغت حتى على معظم تساؤلاتها الأخلاقية والدينية الاستثنائية. وكانت إذا حلمت أحلاماً مزعجة رأت نفسها تتفرّس بتعاسة في قائمة الناجحين بالامتحان

التي يتصدرها اسم غيلبرت بلايث بينما لا يوجد لاسمها أي أثر.

مع ذلك، كان ذلك الشتاء على وجه الإجمال شتاءً مرحاً حافلاً بالعمل، وسريعاً في انقضائه. كانت الدراسة مشوّقة، والمنافسة قائمة على أشدّها كما في السابق. وتفتحت أمام عينيّ آن المتلهفتين آفاق جديدة من عوالم الفكر والمشاعر والطموحات، وحقول مدهشة من المعارف الغامضة.

انبثقت تلال فوق التلال، وقمم جبال جديدة فوق قمم الجبال.

وكان معظم هذا الفضل يعود إلى الآنسة ستيسي وتوجيهاتها اللبقة الحصيفة الواسعة المدارك. إذ بذلت ما لديها من طاقات لترشد تلامذتها نحو درب التفكير والاستكشاف والاكتشاف. وشجعتهم على تخطي مسالك التعلّم القديمة المستهلكة إلى المسالك الجديدة. مسالك صدمت السيدة ليند والقيّمين على المدرسة الذين عاينوا التجديد في الطرق القديمة بعين الشكّ والحذر.

بمعزل عن الدراسة توسعت آن على الصعيد الاجتماعي، لأن ماريلا التي لم تنس مقولة طبيب سبنسرفيل ما عادت تحظّر عليها الخروج العَرَضي من البيت. وفي تلك الأثناء ازدهر نادي المناظرات وأقام العديد من الحفلات؛ وكادت واحدة أو اثنتين من حفلاته أن تكون بمستوى الأداءات التي ينظمها الراشدون. بالإضافة إلى ذلك استمتعت آن بالنزهات في مركبات الثلج، وبالرياضات الشتوية المختلفة مثل التزلج وغيره.

تدرجت آن في النمو مع مرور الوقت، وكان طولها يزداد بسرعة، حتى ذُهلت ماريلا ذات يوم بينما كانت آن واقفة إلى جانبها عندما رأت أنها غدت أطول منها.

"ربّاه، كم كبرت ياآن!" قالت وهي لا تكاد تصدق عينيها، ثم تنهّدت. وسرعان ما زحف إلى صدرها حزن غريب فيّاض من رؤيتها لتلك الإنشات الزائدة. لقد اختفت، بطريقة ما، تلك الطفلة التي تعلّمتْ

كيف تحبها، وحلّت محلّها هذه الصبيّة الهيفاء ابنة الخمسة عشر ربيعاً ذات العينين الوديعتين والجبين المفكّر والرأس الصغير الشامخ باعتزاز. كانت ماريلا تحب الصبيّة بقدر ما تحب الطفلة، لكنها رغم ذلك وقعت أسيرة إحساس غريب بلوعة الفقد. وفي تلك الليلة، عندما ذهبت آن مع ديانا إلى اجتماع الصلاة، جلست ماريلا وحدها في ظل الغروب الشتوي واستسلمت للبكاء. ولمّا دخل ماثيو حاملاً بيده فانوساً، ضبطها وهي تبكي، فوقف في مكانه وحملق بها، حتى أُرغمت على الضحك رغم دموعها المنهمرة.

"كنت أفكر بآن،" أوضحت. "لقد غدت صبيّة يافعة، وأظنها ستكون بعيدة عنّا في الشتاء المقبل، ولا شكّ أني سأفتقدها كثيراً."

"ستتمكن من المجيء إلى البيت في كثير من المناسبات،" قال ماثيو محاولاً التخفيف عن ماريلا. كانت آن بالنسبة إلى ماثيو ما زالت وستبقى دائماً تلك الطفلة الصغيرة النابضة بالحياة التي أحضرها إلى البيت من بلدة برايت ريفر في إحدى أمسيات شهر حزيران قبل أربع سنوات. "عندما يحين ذلك الوقت سيكون قد تمّ تشييد سكة الحديد الجديدة إلى كارمودي."

"لن يكون ذلك مماثلاً لوجودها الدائم بيننا،" أجابت ماريلا وهي تتنهّد بحزن، عازمة على المُضي في التمرغ بأحضان تلك المرارة الوافرة التي اجتاحتها. "ولكن ما يُدريك أنت. إن الرجال لا يستطيعون فهم هذه الأمور!"

كانت هناك تغيّرات أخرى في آن ليست أقل واقعية من تغيّر مظهرها الخارجي، وأهمّها على الإطلاق أنها أصبحت أكثر صمتاً. ربما كانت تفكّر أكثر من ذي قبل، وربما كانت تحلم بنفس الغزارة التي اعتادت عليها، لكن لا شكّ أن كلامها أصبح أقل من السابق. لاحظت ماريلا هذا التطور، وعلّقت عليه أيضاً:

"أصبحت دردشتك لا تتجاوز نصف ما كانت عليه في الماضي

ياآن، كما أنك توقفت عن استعمال العبارات الطنّانة في أحاديثك، فما الذي غير حالك ياتُرى؟"

تضرّج وجه آن بالحمرة، وأطلقت ضحكة قصيرة، ثم نحّت كتابها جانباً، وتأملت العالم من خلال النافذة حيث كانت البراعم الكبيرة المنتفخة قد تفتحت في العرائش تجاوباً مع إغواء أشعة الشمس الربيعية.

"لا أعرف، لا أشعر بالرغبة في الكلام،" أجابت وهي تضغط بسبابتها على ذقنها متفكّرة. "أصبحت أرى أنه من الأفضل لي أن أحفظ في قلبي ما يخطر ببالي من أفكار جميلة، وأن أصونها فيه كما تُصان الكنوز الغالية. فأنا ما عدت أستسيغ استهزاء الناس بهذه الأفكار أو اندهاشهم منها. وعلى نحوٍ ما فقدت رغبتي في استعمال العبارات الكبيرة. أليس هذا بالأمر المحزن قليلاً؟ الآن، بعد أن كبرت بما يكفي لأستعمل تلك العبارات كما يحلو لي. لا شكّ أن للنضوج رونقه المميز، لكنه ياماريلا ليس ذلك النوع من الرونق الذي كنت أتوقعه. أمامي الآن الكثير ممّا يجب أن أتعلمه، وأنجزه، وأفكّر به، وليس هناك متسع من الوقت لاستعمال العبارات الطنّانة. كما أن الآنسة ستيسي تقول إن التعابير السهلة أقوى وأفضل، وهي تجعلنا نكتب مقالاتنا بأبسط لغة ممكنة. كان هذا صعباً في البداية، لأني كنت معتادة على حشو كتاباتي بجميع الكلمات الكبيرة الرنانة التي تخطر ببالي، ولكني الآن تأقلمت، بل وأصبحت أرى أن هذا أحسن بكثير."

"وماذا حلّ بنادي القصة؟ لم أسمعك تتحدثين عنه منذ وقت طويل."

"لم يعد لنادي القصة أي وجود، ليس لدينا وقت له، وفي جميع الأحوال أظننا سئمناه. كانت الكتابة عن الحب والجريمة والهروب مع العشاق والألغاز شيئاً سخيفاً. في بعض الأحيان تطلب منا الآنسة ستيسي كتابة قصة لتقوية أساليبنا الإنشائية، ولكنها لا تدعنا نكتب

أي شيء، بل فقط ما يكن أن يحدث في أفونليا وفي حياتنا نحن. وهي تنتقد أعمالنا بقسوة، وتطلب منّا أيضاً أن ننتقد أعمالنا. ما كنت أعرف ياماريلا كم كانت مواضيعي مليئة بالأخطاء إلاّ عندما بدأت أبحث عنها بنفسي. وكاد خجلي يحرّضني على الاستسلام، لكن الآنسة ستيسي أخبرتني أني قادرة على إجادة فن الكتابة إذا درّبت نفسي لأكون أنا أكثر نقاد أعمالي قسوة، وها أنا أحاول الآن."

"لم يبق لديك الآن سوى شهرين قبل حلول الامتحان،" قالت ماريلا. "أتشعرين أنك مستعدّة له؟"

ارتعشت آن.

"لا أعرف. في بعض الأحيان يُخيل لي أني سأكون على ما يُرام، ثم أُصاب بذعر مباغت مخيف. لقد عملنا بجدّ، وقامت الآنسة ستيسي بتدريبنا تدريباً مكثفاً، لكننا قد نفشل رغم ذلك. لكل منّا حجر عثرة يعترض طريقه. أنا أعاني من الهندسة طبعاً، وتعاني جين من اللاتينية، وروبي وتشارلي من الجبر، وجوزي من الحساب. ويقول مودي سبرجيون إن هاجس رسوبه في مادّة التاريخ الإنجليزي ينخر في عظامه. ستُجري لنا الآنسة ستيسي امتحاناً تجريبياً في شهر حزيران، وستجعله بصعوبة امتحان الدخول، وستصححه بقسوة بالغة. وبذلك نستطيع تكوين فكرة عن الامتحان الحقيقي. ربّاه، أتمنى لو ينتهي كل شيء بأسرع ما يمكن ياماريلا. إن هاجس هذا الامتحان يلاحقني باستمرار، وفي بعض الأحيان أستيقظ في الليل وأتساءل عمّا سأفعله إذا لم أنجح."

"لا أهمية لهذا، يمكنك العودة إلى المدرسة في السنة القادمة والمحاولة من جديد،" قالت ماريلا بلهجة مطمئنة.

"لا أظنني أملك الجرأة على ذلك. سيكون رسوبي مُذّلاً، خصوصاً إذا نجح غيل... بقية التلامذة. ولا شيء يوتّرني أكثر من الامتحانات إلى حدّ أنها تجعلني عُرضة لارتكاب الأخطاء. أتمنى لو كانت

أعصابي مثل أعصاب جين، فلا شئ يثيرها على الإطلاق."

تنهدت آن، وجرجرت عينيها بعيداً عن سحر دنيا الربيع، المضمخة بالنسيم والزرقة والنباتات الخضراء المشرئبة في الحديقة، ودفنت رأسها في كتابها بجلَد ومثابرة.

لا شكّ أنها ستنعم فيما بعد بأكثر من ربيع غير هذا الربيع، لكنها إذا رسبت في امتحان الدخول، فلن تتعافى أبداً بالقدر الذي سيتيح لها فرصة الاستمتاع بأي ربيع.

٣٢
صدور قائمة الناجحين

انتهى شهر حزيران حاملاً معه خاتمة الفصل الدراسي وخاتمة عهد الآنسة ستيسي في مدرسة أفونليا. وعادت آن وديانا في تلك الأمسية الأخيرة إلى البيت يكتنفهما الأسى العميق. وقد حملت أعينهما المُحمرّة ومناديلهما المبللة الدليل القاطع على أن كلمات وداع الآنسة ستيسي ضاهت بفعاليتها كلمات وداع السيد فيلبس التي قالها في ظل ظروف مماثلة منذ ثلاث سنوات. وبينما تابعت الصبيتان طريقهما التفتت ديانا ونظرت باتجاه المدرسة من عند سفح تلة حرش الراتينج وتنهدت بعمق.

"ألا يبدو وكأن هذا نهاية كل شئ؟" قالت بصوت حزين.

"لا يمكن أن يبلغ شعورك بالأسى نصف شعوري،" ردّت آن وهي تبحث عبثاً عن موضع جافّ في منديلها. "أنت على الأقل ستعودين إلى المدرسة في الشتاء القادم، أمّا أنا فأظن أني قد غادرت هذه المدرسة العزيزة إلى الأبد، إذا حالفني الحظ طبعاً."

"لكنها لن تعود إلى عهدها السابق أبداً، فالآنسة ستيسي لن تكون هنا، وعلى الأرجح لن تكوني أنت أو جين أو روبي هنا أيضاً. وفي النهاية سأضطر إلى الجلوس وحدي لأني لن أتحمّل اتّخاذ زميلة مقعد أخرى بعدك. ربّاه، ألم تكن تلك الأيام أياماً حلوة ياآن؟ من الرهيب حقاً التفكير بأنها قد ولّت إلى غير رجعة."

تدحرجت دمعتان كبيرتان من عينيّ ديانا على حدّي أنفها.

"إذا امتنعت عن البكاء ياديانا فسأكفكف أنا أيضاً دموعي،"

ناشدتها آن. "أنا لا أكاد أضع منديلي جانباً حتى أرى دمعك فيّاضاً، فأسترسل في البكاء مجدداً. ولكن السيدة ليند تقول: إذا لم تستطع أن تكون مرحاً، فامرح بقدر ما تستطيع. على كل حال، أخشى أني سأكون من روّاد هذه المدرسة في السنة القادمة، ففي داخلي حسٌ لا ينفكّ يؤكّد لي أني لن أنجح هذه المرّة."

"لمه، لقد أحسنت كثيراً في أداء الامتحانات التي أخضعتكم لها الآنسةَ ستيسي."

"هذا صحيح، ولكن هذه الامتحانات لم توترّني، أمّا الامتحانات الحقيقية فلا يمكنك ياديانا أن تتصوري ما تسببه لي من اضطراب مخيف عندما أفكّر بها. بالإضافة إلى أن رقمي فيها هو ثلاث عشر، وتقول جوزي باي إنه رقم مشؤوم. أنا لست من الأشخاص المتطيرين وأعرف أن هذا الرقم لا يحمل أية دلالة خاصة، مع ذلك كنت أتمنى لو أنه كان رقماً مختلفاً."

"ليتني كنت ذاهبة معك،" قالت ديانا. "أما كنّا أمضينا وقتاً طيباً معاً؟ ولكن، أحسب أنك ستكرسين فترات المساء لمراجعة دروسك."

"كلاّ، طلبت منّا الآنسة ستيسي أن نعدها بألاّ نفتح الكتب أبداً. قالت إن هذا لن يفيد إلاّ في إنهاكنا وإرباكنا. ونصحتنا بمغادرة البيت والتمشي في الهواء الطلق من غير أن نشغل أذهاننا بالتفكير بالامتحانات، وأنه علينا أيضاً الإخلاد إلى النوم باكراً. لا شكّ أنها نصيحة قيّمة، لكني أظن التقيّد بها صعباً، فالنصائح القيّمة هي دائماً صعبة التنفيذ. أخبرتني بريسي آندروز أنها كانت تبقى مستيقظة إلى منتصف الليل طيلة أيام الامتحان، وأنها كانت تنكبّ على مراجعة دروسها بضراوة. وأظن أن أقلّ ما يمكنني عمله هو مجاراتها في هذا. كان لطفاً من عمتك جوزفين ياديانا أن تدعوني إلى الإقامة في بيتشوود خلال فترة وجودي في المدينة."

"ستكتبين لي عندما تكونين هناك، أليس كذلك؟"

"سأكتب لك ليلة الثلاثاء لأخبرك كيف مضى يومي الأول،"وعدتها آن.

"إذن، أعاهدك على ملازمة مكتب البريد في يوم الأربعاء،" أكّدت ديانا.

غادرت آن إلى المدينة في يوم الاثنين التالي. وفي صبيحة الأربعاء قصدت ديانا مكتب البريد كما اتفقت مع رفيقتها، واستلمت رسالتها المنشودة التي كتبت فيها آن ما يلي:

أيتها الغالية ديانا،

هاأنا أكتب لك هذه الرسالة في مكتبة بيتشوود مع حلول ليلة الثلاثاء كما اتفقنا. وكم تمنيتك ليلة أمس معي، فقد شعرت في غرفتي بوحشة رهيبة. لم أجد في نفسي القدرة على مراجعة دروسي لأني وعدت الآنسة ستيسي بألاّ أفعل. لكني لم أستطع مقاومة فتح كتاب التاريخ كما جرت عليه عادتي كلّما أردت ردع نفسي عن قراءة القصص قبل مراجعة دروسي.

جاءت الآنسة ستيسي صباح اليوم لتصحبني إلى المعهد، ومررنا في طريقنا على جين وروبي وجوزي. وأثناء سيرنا طلبت مني روبي أن أتحسس يديها، وكانتا باردتين كقطعتين من الثلج. أخبرتني جوزي أنه يبدو عليَ وكأني لم أنم للحظة واحدة، وأنها لا تعتقد أني صاحبة جَلَد يمكّنني من الصمود أمام أهوال دورة المعلمين الدراسية حتى وإن نجحت في الامتحان. وما زلت إلى اليوم تمرّ بي أوقات وأحيان أشعر فيها أني لم أحرز أي نجاح في محاولاتي كي أستلطف جوزي باي!

عندما وصلنا المعهد التقينا بحشود التلاميذ الوافدين من جميع أنحاء الجزيرة. وكان أول من رأينا ممّن نعرفهم مودي سبرجيون، الذي كان يقتعد درج المعهد وهو يتمتم بينه وبين نفسه. سألته جين عمّا يقوله بحقّ السماء، فأجاب بأنه يكرّر جدول الضرب مرة تلو مرة ليهدئ من روعه وبحقّ الله لا يريد أن يقاطعه أحد، لأنه إذا توقّف ولو لبرهة سينتابه الخوف وسينسى كل ما يعرفه، أمّا تكراره لجدول الضرب فسيحفظ له معلوماته في مكانها السليم!

غادرتنا الآنسة ستيسي بعد أن فُرزنا في قاعات الامتحان. جلسنا أنا وجين معاً. وكانت جين رابطة الجأش لدرجة أني حسدتها. فلا ضرورة لجدول الضرب من أجل جين الطيبة المستقيمة العقلانية! وأمضيت الوقت وأنا أتساءل عمّا إذا كانت ملامحي تشي بحقيقة شعوري، وعمّا إذا كان الآخرون في قاعة الامتحان يستطيعون سماع ضربات قلبي الذي أخذ يقرع بشدّة. أخيراً جاء رجل ليوزع علينا أوراق امتحان اللغة الإنجليزية. حينها وما إن أمسكت بالورقة تجمدت يداي، ودارت الدنيا بي. ومضت عليَّ لحظة واحدة مخيفة ياديانا اعتراني خلالها نفس الشعور الذي شعرته قبل أربع سنوات عندما سألت ماريلا إذا كنت سأبقى في المرتفعات الخضراء. ثم صفا ذهني، وعاود قلبي خفقانه... نسيت إخبارك أنه في تلك اللحظة كان قد توقف عن العمل توقفاً نهائياً! وعلمت أني أستطيع تدبّر أمر تلك الورقة.

عدنا ظهراً الى البيت من أجل تناول الغداء، ثم رجعنا الى المعهد لتقديم امتحان التاريخ. كان امتحان التاريخ صعباً فعلاً، وقد اختلطت عليّ الأمور بالنسبة الى التواريخ. لكني أعتقد أني أديت عملاً لا غبار عليه اليوم.

ربّاه ياديانا، غداً هو يوم امتحان الهندسة، وكلّما فكّرت بذلك استلزمني جهد مضنٍ لأتجنب فتح كتاب إقليدس. ولو كنت أظن أن في استذكار جدول الضرب أي نفع، لعكفت على ترداده منذ الآن إلى صباح الغد.

ذهبت في المساء لرؤية البنات، وفي الطريق قابلت مودي سبرجيون الذي كان يمشي هائماً على وجهه. قال إنه متأكد من رسوبه في امتحان التاريخ، وأنه لم يولد إلاّ ليكون خيبة أمل كبيرة لأهله، وأنه سيعود إلى بيته في قطار الصباح ليمتهن النجارة لأنها أسهل بكثير من الانضمام إلى سلك الكهنوت. على كل حال، حاولت التخفيف عنه وأقنعته بالبقاء إلى النهاية لأنه ليس من العدل في حقّ

الآنسة ستيسي ألاّ يبقى. كثيراً ما كنت أتمنى يا ديانا لو أني خلقت ولداً، ولكني عندما أرى مودي سبرجيون أشعر بالسعادة لأني بنت، ولأني لست أخته.

كانت روبي في نوبة من نوبات بكائها الانفعالي عندما وصلت إلى مكان إقامتها، لأنها كانت قد اكتشفت غلطة شنيعة ارتكبتها في امتحان اللغة الإنجليزية. وبعد أن هدأت قصدنا وسط المدينة وتناولنا البوظة، وكم تمنّينا وجودك معنا.

آه يا ديانا، لا أتمنى شيئاً الساعة إلاّ لو أن امتحان الهندسة كان قد انتهى! مع ذلك، وكما تقول السيدة ليند، لا شكّ أن الشمس ستستمر بالشروق والغياب سواء رسبت في الهندسة أو لم أرسب. طبعاً هذا كلام صحيح، ولكنه ليس بذلك الكلام الباعث على الراحة. وأظن أني أفضّل ألاّ تشرق الشمس ثانية، إذا رسبت!

المخلصة إلى الأبد،

آن

انتهى امتحان الهندسة وبقية الموادّ في الوقت المحدّد، وعادت آن إلى ديارها مساء يوم الجمعة. متعبة نوعاً ما، وفخورة بتواضع. كانت ديانا تنتظرها في دارة المرتفعات الخضراء، والتقت الرفيقتان كما لو أنهما افترقتا منذ سنين.

"أيتها الغالية الحبيبة، ليس أروع من رؤيتك مجدداً. يبدو لي وكأنه قد مرّ علينا عمر طويل منذ ذهابك إلى المدينة. أوه، كيف كانت مجريات الأمور معك ياآن؟"

"أظنني أحسنت في كل شئ ما عدا الهندسة. ولا أعرف إذا كنت سأنجح فيها أم لا. فقلبي تتناهشه الوساوس التي لا تفتأ تنعي لي رسوبي فيها. ربّاه، ما أحلى العودة إلى البيت! لا مكان في كل هذا العالم أغلى وأجمل من المرتفعات الخضراء."

"كيف أبلى الآخرون؟"

"تزعم البنات أنهن متأكدات من رسوبهن، لكني واثقة من أنهن أدّيْن عملاً حسناً. قالت جوزي باي إن أسئلة الهندسة كانت سهلة جداً بحيث يمكن لطفل في العاشرة الإجابة عليها! ما زال مودي سبرجيون يؤكد أنه سيرسب في التاريخ، ويظن تشارلي أنه لن ينجح في الجبر. لكننا بكل بساطة لا نعلم شيئاً أكيداً، ولن نعلم قبل صدور قائمة الناجحين، وهذا لن يحدث قبل أسبوعين. ياإلهي، أتستطيعين يادیانا أن تتخيلي معنى العيش في براثن الشكّ لمدة أسبوعين! بودّي لو أنام ولا أفيق إلاّ بعد انتهاء كل شيء."

كانت ديانا متأكدة أنه ليس هناك من جدوى في سؤال آن عن أداء غيلبرت بلايث في الامتحانات، لذلك اكتفت بالقول:

"لا تقلقي ياآن، فلا ريب أنك من الناجحين."

"إذا لم أنجح بتفوّق، أُفضّل ألاّ أنجح أبداً،" قالت آن، ملمّحة إلى ما لم تفصح عنه من كلام فهمته ديانا فوراً؛ والذي عنى أنها ستعتبر نجاحها ناقصاً ومريراً إذا لم تتفوّق على غيلبرت بلايث.

استنفدت آن أعصابها في الامتحانات وهي تضع هذه الغاية نُصب عينيها، وكذلك فعل غيلبرت.

وعلى الرغم من أنهما كثيراً ما التقيا وجهاً لوجه أثناء فترة الامتحانات، أو اجتازا بعضهما في الشارع، لم يكن يظهر عليهما أي تعبير يدلّ على وجود سابق معرفة بينهما. لكن آن التي كانت تتجاوزه دائماً وهي شامخة الرأس، لم يكفّ قلبها عن الإحساس بالأسف لأنها لم تصافيه عندما سألها ذلك، وفي نفس الوقت كانت تجدّد قسمها بألاّ تدعه يتفوّق عليها في الامتحان. كانت تعرف أن جميع أبناء أفونليا يتساءلون مَن منهما سيتفوّق على الآخر، بل وتعرف أن جيمي غلوفر ونيد رايت أقاما رهاناً عليهما، وأن جوزي باي أكّدت على تفوّق غيلبرت. وشعرت آن أن إزاء كل هذا أن مذلتها لن تكون محتملة إذا لم تتفوّق على غيلبرت.

في الحقيقة كان لدى آن دافع آخر نبيل لرغبتها في التفوّق. وهو توقها الصادق لإرضاء ماثيو وماريلا؛ خصوصاً ماثيو. ماثيو الذي كان مقتنعاً، كما قال لها، بأنها ستهزم تلاميذ الجزيرة كلها. طبعاً، شعرت آن أن الأمل بهذا لا يعدو كونه ضرباً من الجنون حتى في أكثر الأحلام طيشاً. لكنها أملت أن تكون ضمن العشر الأوائل على الأقل، حتى تسعد برؤية عيني ماثيو البُنيّتين الوديعتين وهما تشعّان زهواً بها. تلك، ستكون خير مكافأة تنالها على كل صبرها وكدّها وانهماكها في عالم المعادلات وتصريف الأفعال الخاليين من أي خيال.

ما إن مضى الأسبوعان حتى كانت آن قد اتّخذت من التردد على مكتب البريد عادة لها بصحبة بقية الرفيقات القلقات. وكانت هي وجين وروبي يفتحن جرائد تشارلوت تاون اليومية بأيدٍ مرتعشة باردة، وقلوب خائرة، ومشاعر لا تختلف في توتّرها عن المشاعر التي خَبرنها خلال أسبوع الامتحان. ولم يكن تشارلي وغيلبرت أكبر مقاماً من قيامهما بالأمر عينه. لكن مودي سبرجيون صمّم على البقاء بمنأى عن كل ذلك.

"لست أملك ذرّة من الجرأة تمكّنني من مطالعة الجريدة بأعصاب باردة،" أخبر آن. "سأنتظر حتى يأتيني من يخبرني فجأة بنجاحي أو رسوبي."

مرّت ثلاثة أسابيع من غير أن تُعلَن قائمة الناجحين، وبدأت آن تشعر أنها لم تعد قادرة على احتمال القلق أكثر ممّا احتملته. وسرعان ما فقدت شهيتها للطعام، وفتر اهتمامها بما يدور في أفونليا من حوادث. واتّخذت السيدة ليند من هذا التأخير فرصة لتتساءل عمّا يمكن توقعه من عضو في حزب المحافظين عندما يكون مسؤولاً عن الشؤون التربوية ومشرفاً على إدارة المهام التعليمية. أمّا ماثيو الذي لم تغب عنه ملاحظة ذبول آن، وعزوفها عن كل نشاط، وعودتها من مكتب البريد كل مساء وهي تجرجر قدميها بخطوات متثاقلة، فقد بدأ

في ذلك الحين يتساءل بشكل جدّي عمّا إذا لم يكن من المستحسن أن يصوّت لحزب الأحرار في الانتخابات المقبلة.

وصلت الأخبار أخيراً في ذات مساء. كانت آن تجلس عند نافذتها المفتوحة، متناسية ويلات الامتحان ومشاغل العالم، ومستغرقة في تجرّع جمال الغسق الصيفي المعطّر بأنفاس الرياحين المنبعثة من الحديقة، والصائت بالصفير والهمهمة بين أشجار الحور المتمايلة. فجأة، وبينما كانت مبحرة في تأمل الروعة التي بدت عليها السماء الشرقية المطلّة على حرش التنوب، بعد أن توشّت بانعكاسات اللون الوردي الباهت الزاحف إليها من الغرب، مسائلة نفسها عمّا إذا كانت روح ذلك اللون المنعكس تماثل في جمالها جمال اللون نفسه، رأت ديانا وهي تكاد تطير طيراناً بين أشجار التنوب، ثم جسر الجدول، فالمرتفع وبيدها جريدة تتطاير معها.

شبّت آن على قدميها، مدركة في الحال ما الذي تحتويه تلك الجريدة. نعم، لقد صدرت قائمة الناجحين! دار رأسها، وخفق قلبها إلى أن أوجعها، ولم تتمكّن من التحرك خطوة واحدة. وبدا لها أنه قد مضت نصف ساعة قبل أن تصل ديانا مندفعة عبر الردهة فالغرفة من غير أن تقرع الباب، وبحماس يفوق الوصف.

"آن، لقد نجحت،" صاحت، "نجحت وفزت بالمرتبة الأولى، أنت وغيلبرت بلايث معاً. أنتما متعادلين، ولكن اسمك مكتوب قبل اسم غيلبرت. ربّاه، كم أنا فخورة بك ياآن!"

قذفت ديانا الجريدة على الطاولة، وقذفت نفسها على سرير آن، منقطعة النفَس كلية وغير قادرة على التفوه بكلمة أخرى. وفي تلك الأثناء حاولت آن إضاءة القنديل، ولم تنجح في هذا المهمة إلاّ بعد أن استهلكت يداها المرتعشتان العديد من أعواد الكبريت، ثم اختطفت الجريدة.

نعــم، لقد نجحت، وهاهو اسمها يتصدر القائمة التي تحتوي على مائتي اسم! كانت تلك اللحظة تستحق أن يعيش الإنسان من أجلها.

"لا شئ أعظم من هذا ياآن،" قالت ديانا لاهثة، بعد أن استرجعت من قواها ما يساعدها على الجلوس والتحدث، لأن آن اكتفت بالحملقة بعينيها الحالمتين من غير أن تنبس ببنت شفة. "أحضر أبي الجريدة من بلدة برايت ريفر منذ عشر دقائق، جاءت الجرائد في قطار المساء كما تعلمين، ولن تصل إلى بريد أفونليا إلاّ صباح غد. وما إن رأيت قائمة الناجحين ياآن حتى هرعت إليك كالمجنونة. لقد نجحتم جميعاً، بما في ذلك مودي سبرجيون رغم أن عليه إعادة امتحان التاريخ. قامت كل من جين وروبي بعمل جيد، ويحتلّ اسماهما منتصف القائمة تقريباً، وكذلك تشارلي. أمّا جوزي باي فلم تحرز إلاّ ثلاث علامات فوق معدل النجاح، ولكن انتظري حتى تري كم ستفاخر بنفسها كما لو أنها فازت بالمرتبة الأولى. ألن يكون نجاحكم مصدر فخر للآنسة ستيسي؟ بالله عليك ياآن أخبريني كيف يكون شعور المرء عندما يرى اسمه يتصدر قائمة نجاح مثل هذه القائمة؟ لو كنت مكانك لطرت جنوناً من الفرح، وكأنه لا يكفيني ما أكاد أكون فيه من جنون الآن. ويدهشني برود أعصابك الذي يشبه وداعة أمسية من أمسيات الربيع."

"ما أشعره من انبهار داخلي يعجزني عن الكلام،" قالت آن. "أريد قول مئات الأشياء، لكني لا أستطيع العثور على كلمات يمكن أن تفيها حقّها من التعبير. ما حلمت أبداً بهذا ياديانا. بلى حلمت به مرّة واحدة! حيث تركت العنان لخيالي ذات مرّة وقلت لنفسي وأنا أرتجف: ماذا لو فزت بالمرتبة الأولى؟ ثم تراجعت، لأنه بدا لي من العبث واللاجدوى أن أفترض تفوّقي على تلاميذ الجزيرة كلهم. أودّ استئذانك لدقيقة ياديانا، إذ لا بدّ لي من الإسراع إلى الحقل لتبشير ماثيو، بعد ذلك سنذهب لنزفّ الأنباء السعيدة للآخرين."

أسرعت الصبيّتان إلى حقل البرسيم وراء البيدر حيث كان ماثيو يخلط التبن، ولحسن الحظ كانت السيدة ليند في ذلك الوقت تتحدث مع ماريلا على مقربة من سياج الدرب.

"ماثيو،" هتفت آن، "لقد نجحت وفزت بالمرتبة الأولى، أو بالأحرى الأولى من بين اثنين من الأوائل! لست أشعر بالغرور وإنما بالشكر لله."

"هها، لا عجب في ذلك، فلطالما قلت لك هذا." قال ماثيو وهو يمعن النظر في قائمة الناجحين بابتهاج. "عرفت أنك ستهزمينهم كلهم بمنتهى السهولة."

"لا بدّ أن أعترف أنك أبليت بلاءاً حسناً." قالت ماريلا، وهي تحاول إخفاء فرحها العظيم عن عين السيدة ليند النزّاعة إلى الانتقاد. لكن تلك الروح الطيبة قالت بصدق خالص:

"أظن أنها قامت بعمل جيّد، ومن المستبعد أن أنكر هذا أو أتقاعس عن الاعتراف به. أنت مصدر فخر لأصدقائك ياآن، ونحن جميعاً مزهوون بك."

أنهت آن يومها بأمسية جميلة قضتها مع السيدة آلن في منزل القسّ، حيث جرت بينهما محادثة جدّية. وفي الليل، ركعت بوداعة قرب نافذتها المفتوحة المطلّة على بريق ضوء القمر العظيم، وتلت صلاة شكر وعرفان خرجت من قلبها مباشرة. كان في تلك الصلاة حمد على الماضي والتماس خاشع من أجل الحصول على مستقبل مشرق. وعندما توسّدت مخدتها البيضاء وأخلدت إلى النوم، راودتها أحلام جميلة، مشرقة، وهانئة بقدر ما تتوق إليه صبيّة بتول.

٣٣
حفلة الفندق

"عليك ارتداء فستان الأورغانزا الأبيض مهما كلّف الأمر ياآن،" شدّدت ديانا عليها ناصحة.

كانتا معاً في غرفة السقيفة الشرقية. وكان الوقت قبيل الغروب تقريباً، غروب مال لونه إلى خضرة صفراء خلاّبة تكحلت بها السماء الصافية الخالية من الغيوم، بينما بدأت معالم البدر المكتمل فوق الغابة المسكونة تتدرج ببطء في التحوّل من ظلال طيف شاحب إلى بريق الفضة الصقيلة. كان الفضاء يضجّ بأصوات الصيف الرخيمة، حيث صدحت فيه سقسقة العصافير النعسة، وهمهم النسيم، وتصاعدت أصداء همهمات وقهقهات نائية. لكن ستائر نافذة غرفة آن كانت في ذلك الوقت مسدلة والمصباح مضاءاً، نظراً لما كان يجري فيها من عملية تبرّج مهمة.

كانت الغرفة الشرقية قد أصبحت مكاناً مختلفاً جداً عن ذلك المكان الذي استقبل آن في تلك الليلة الأولى قبل أربع سنوات. ليلة شعرت آن أن عريّ الغرفة وصقيعها غير المضياف اخترقا صميم روحها. كانت التغييرات التي تغاضت عنها ماريلا طوعاً، تزحف إلى تلك الغرفة بالتدريج، حتى غدت عشّاً ودوداً ولطيفاً يسرّ قلب صبيّة صغيرة.

لا شكّ أن الخيالات القديمة التي تخيلت آن غرفتها عليها لم تتحقق أبداً. لكن آن لم تتحسر على تلك الرؤى لأن نضوج أحلامها كان يواكبها في النضوج. وهكذا، لم تزوّد الغرفة مطلقاً بالسجادة المخملية ذات الأزهار الوردية، أو بالستائر الحريرية، بل فُرشت

بحصيرة لائقة، ولُطّفت حدّة نافذتها العالية بستائر فاتحة الاخضرار من الموسلين الهفهاف الذي كان النسيم يداعبه باستمرار. ولم تستر البسط الذهبية والفضية المزركشة عريّ الجدران، ولكنها غُطيت بورق أنيق موشّى برسوم زهر التفاح، وعُلّقت عليها بعض اللوحات الجميلة المُهداة من السيدة آلن، بالإضافة إلى صورة الآنسة ستيسي التي احتلّت مكان الشرف فوق الرفّ الذي اعتبرته آن بقعة وجدانية، وداومت على تزيينه بالأزهار. وفي تلك الليلة شغلته بفرع زنبق أبيض أشاع في أرجاء الغرفة عبيراً لطيفاً أشبه بحلم عَطِر. لم تُؤثَّث الغرفة أيضاً بأية مفروشات من خشب الماهوغاني، ولكن بمكتبة بيضاء اللون مليئة بالكتب، وكرسي هزّاز منجّد، وسرير أبيض واطيء، ومنضدة تبرّج مجللة بالموسلين الأبيض، ومرآة كانت معلّقة سابقاً في غرفة الضيوف الاحتياطية، ذات إطار ذهبي ظريف تنتهي قمته المقوّسة برسمين من اللون الوردي يمثلان زوجين من كيوبيد المكتنز الجسم بينهما عنقود من العنب الأرجواني.

كانت آن تتأنق استعداداً للمشاركة في حفل سيقام في فندق وايت ساندس بإشراف ضيوف الفندق لمساعدة مستشفى تشارلوت تاون. وقد بحث المشرفون على الحفل في المقاطعات المجاورة عن المواهب الفتية لتساعدهم في إقامته. فانتقوا من جوقة معمودية وايت ساندس كل من بيرتا سامبسون وبيرل كلاي ليؤديا أغنية ثنائية. وطلبوا من ميلتون كلارك من بلدة نيوبريدج تقديم عزف منفرد على الكمان. واتفقوا مع ويني آديلا بلير من بلدة كارمودي على تقديم أغنية أسكتلندية. أمّا لورا سبنسر من سبنسرفيل وآن شيرلي من أفونليا فكان عليهما إلقاء قصائد شعرية.

كانت هذه المناسبة حقبة مميزة في حياة آن، كما قالت ذات مرّة. وكان حماسها بهذا الحدث لا يعدله حماس. أمّا ماثيو فقد ارتقى إلى سماء المجد السابعة نتيجة ما اعتلج في نفسه من زهو عارم بذلك الشرف الذي ستحصل عليه صغيرته آن. ولم تكن حال ماريلا تختلف

كثيراً عن حاله، رغم أنها كانت تفضّل الموت على الإقرار بهذه الحقيقة أمام أحد. واكتفت بالقول إنه ليس من اللائق أن يرتاد الشبّان ذلك الفندق بدون صحبة شخص بالغ ومسؤول.

كانت آن وديانا ستقصدان الفندق مع جين آندروز وشقيقها بيلي بعربة آل آندروز ذات المقاعد المزدوجة. وكان الكثير من صبايا أفونليا وشبّانها سيرتادون ذلك الحفل أيضاً. وتوقّع الفندق استقبال زوّار من المدينة. وتمّ الإعداد لتقديم العشاء للمساهمين في الحفل بعد انتهاء العرض.

"أترين حقاً أن فستان الأورغانزا أفضل؟" سألتها آن بقلق. "أنا لا أراه بجمال فستان الموسلين الأزرق المطبّع بالأزهار، كما أنه ليس مواكباً للموضة كثيراً."

"لكنه يليق بك أكثر من فستان الموسلين،" قالت ديانا. "فهو هفهاف ويمتاز بكشاكشه الطرية وإبرازه لتفاصيل جسمك، ويكاد يوحي أنه مخلوق معك. أمّا فستان الموسلين فهو من القماش الجامد كما أنه يجعلك تبدين مفرطة في التأنق."

تنهّدت آن راضخة للأمر الواقع، لأن ديانا كانت قد بدأت تكتسب شهرة عريضة فيما يتعلق بذوقها الرفيع في انتقاء الملابس، حتى أصبح الناس ينشدون نصيحتها. وكانت هي نفسها في تلك الليلة تبدو أنيقة جداً بفستانها ذي اللون الوردي الفاقع، الذي لا تستطيع آن حتى في خيالها التفكير بارتداء لون يماثله. لكن ديانا لم تكن تعلّق أهمية كبيرة على مظهرها لأنها ليست من المساهمين في الحفل، وكانت جميع جهودها ومواهبها مُنصبّة على آن، ناذرة الاهتمام بملبسها وشعرها وزينتها كما يليق بملكة، من أجل سمعة أفونليا.

"اعدلي هذه الكشاكش قليلاً.. نعم، هكذا، دعيني أعقد لك الحزام، انتعلي الآن خفيك. سأضفر لك شعرك ضفيرتين سميكتين ثم سأرفعهما وأثبتهما عند منتصف رأسك بشرائط كبيرة بيضاء..لا.. لا

تسحبي فوق جبينك أية خصلة مجعدة.. فقط تلك الخصل الملساء. لا يوجد هناك طريقة تناسبك أكثر من هذه ياآن، والسيدة آلن تقول إنك تبدين مثل السيدة العذراء عندما تفرقينه هكذا. سأثبّت هذه الوردة البيضاء الصغيرة خلف أذنك مباشرة. لم يكن يوجد غيرها بين أزهار حديقتي، وقد احتفظت بها لك."

"أيمكن أن أتقلّد عقدي اللؤلؤي؟" سألتها آن. "لقد اشتراه لي ماثيو من المدينة في الأسبوع الماضي، وأعرف أنه يحب رؤيته علي."

زمّت ديانا شفتيها، أمالت رأسها متفكّرة، ثم أعلنت حكمها لصالح العقد. وهكذا، تمّ تقليد عنق آن النحيل الناصع به.

"فيك شئ مميز جداً ياآن،" قالت ديانا، بإعجاب خال من الحسد. "فطريقة شموخك برأسك تشيع حولك جوّا خاصاً. لا شكّ أن هذا عائد لبنيتك النحيلة، أمّا أنا فلست إلاّ بنتاً بدينة، وكثيراً ما خشيت أن أصبح كذلك، ولكني الآن لا أستطيع المراوغة ولا بدّ لي من الاعتراف بهذه الحقيقة."

"ولكنك رائعة بهذه الغمّازات،" قالت آن وهي تبتسم بحنان لذلك الوجه الجميل المشرق الذي كان قريباً من وجهها. "غمّازات حلوة كأنها انبعاجات صغيرة في القشدة. أمّا أنا فقد فقدت الأمل بحصولي على أية غمّزات، ولن يتحقق حلمي بها مطلقاً. مع ذلك لا يجدر بي أن أتذمّر الآن بعد تحقق الكثير من أحلامي. أتُراني أصبحت جاهزة؟"

"جاهزة تماماً." أجابتها ديانا مؤكدّة وهي تنظر إلى ماريلا التي ظهرت عند الباب. كانت بُنْية ماريلا قد أصبحت أكثر هزالاً من السابق، وعظامها أشدّ نتوءاً وشعرها أغزر شيباً، لكن سيماء وجهها كانت أكثر رقّة. "تعالي وتأملي خطيبتنا ياماريلا، ألا تبدو رائعة؟"

أصدرت ماريلا صوتاً ما بين الصفير والزفير، دلالة على الإعجاب.

"تبدو مرتبة وأنيقة. وتعجبني طريقة تصفيف شعرها، لكني أخشى

أن تفسد هذا الفستان بالغبار والندى وهي في طريقها إلى الفندق، وأظن أن رقّته لا تناسب هذه الليالي الرطبة كثيراً. على كل حال، لا يوجد قماش في العالم أكثر هشاشة من الأورغانزا، وقد أخبرت ماثيو بهذا عندما اشتراه، مع أنه لا جدوى من اعتراضي على أي شئ يفعله ماثيو الآن. لقد ولّت تلك الأيام التي كان ينشد فيها نصيحتي، وأصبح يشتري الحاجيات لآن بدون تفكير. ويعرف باعة كارمودي أنهم قادرون على إقناعه بأية سلعة. ومجرّد قولهم له إنها جميلة وعصرية يجعله يبذّر أمواله بتهوّر. انتبهي ياآن لئلا يحتكّ فستانك بدولاب العربة، ولا تنسي ارتداء سترتك السميكة."

هبطت ماريلا الدرج منتصبة القامة مزهوة بذلك الجمال الذي بدت عليه آن كأنه:

إشعاع قمر يومض من الجبهة إلى قمة الرأس

وآسفة لأنها لن تذهب إلى ذلك الحفل كي تسمع صغيرتها وهي تلقي الشعر.

"أخشى أن يكون الجو رطباً جداً على هذا الفستان،" قالت آن بقلق.

"أبداً، لا يوجد في الجوّ أدنى قدر من الرطوبة،" أجابت ديانا وهي تفتح ستائر النافذة. "إنها ليلة مثالية، ولن يكون فيها أي رذاذ. انظري إلى ضوء القمر."

"كم يسعدني إطلال نافذتي على مشرق الشمس،" قالت آن وهي تدنو من ديانا. "وليس في هذه الدنيا شئ أروع من رؤية ضوء الصباح وهو يزحف نحو تلك التلال العالية وينبلج فوق قمم أشجار التنوب، جديداً مع مطلع كل يوم جديد. وما رأيته مرّة إلاّ وشعرت أن صميم روحي يغتسل في حوض أشعة شمسه المبكرة. ربّاه، ليتك تعرفين ياديانا كم أحب هذه الغرفة الصغيرة، ولا أدري كيف سأفارقها عندما أغادر إلى المدينة في الشهر القادم."

"لا تتحدثي الليلة عن رحيلك،" رجتها ديانا. "إن التفكير به يجعلني بائسة جداً. وأريد الليلة التنعّم بوقت طيب. أخبريني ياآن ما القصيدة التي تنوين إلقاءها، وهل أنت متوترة الأعصاب؟"

"أبداً. لقد أصبحت معتادة على إلقاء الشعر أمام الناس، وما عاد الأمر يقلقني مطلقاً. سألقي قصيدة: نذر البتول. فهي قصيدة حزينة جداً. وستلقي لورا سبنسر قصيدة هزلية، لكني أفضّل إبكاء الناس على إضحاكهم."

"وإذا استزادك الجمهور؟"

"لن يخطر لهم ولو مجرّد خاطر باستزادتي،" قالت آن ساخرة، رغم أنها كانت تضمر الأمل بحدوث ذلك، بل إنها تخيّلت نفسها وهي تقصّ على ماثيو تفاصيل ما جرى معها على مائدة إفطار صباح اليوم التالي. "ها قد قدم بيلي وجين، إني أسمع صوت العربة."

أصرّ بيلي آندروز على جلوس آن إلى جانبه في العربة، فوافقت مُكرهة لأنها كانت تفضّل الانضمام إلى ديانا وجين في المقعد الخلفي حيث تستطيع الضحك والدردشة معهما كما تشتهي. ولم تكن مجالسة بيلي تتضمن شيئاً من هذا. كان بيلي شاباً ضخماً بديناً وبليداً في العشرين من العمر، وجهه المدوّر خال من التعبير، وحسّه البليد يفتقر إلى الموهبة في فن المحادثة. لكنه كان معجباً بآن أيّما إعجاب، وكان منتفخ الأوداج زهواً بهذه الفرصة التي أتاحت له قيادة العربة إلى وايت ساندس بصحبة تلك الصبيّة الحسناء ذات القامة المشوقة.

تحادثت آن مع ديانا وجين بصعوبة من فوق كتفها، وكانت بين فينة وأخرى تمرّر كلمة مجاملة لبيلي، الذي كان يبتسم ويضحك من غير أن يستطيع التفكير بجوابٍ ما إلاّ بعد فوات الأوان. لكن، وعلى الرغم من كل شئ، تمكّنت آن من الاستمتاع بالرحلة كما تشتهي.

كانت الليلة ليلة ساحرة، بطرقاتها المزدحمة بالعربات المتوجهة نحو الفندق، وبدروبها المصطخبة برنين الضحك ذي النقاء الفضي.

وما كادت العربة تصل بهم، حتى طالعهم الفندق ساطعاً بالأضواء الباهرة من قمته إلى قاعدته. واستقبلتهم هناك السيدات المشرفات على تنظيم الحفل، وصحبت إحداهن آن إلى غرفة استعداد المشاركين. كانت الغرفة مكتظة بأعضاء نادي تشارلوت تاون الموسيقي، وشعرت آن بينهم بالخجل والخوف والضآلة. بدا لها فستانها الذي رأته في غرفتها جميلاً وأنيقاً، بسيطاً وعادياً جداً، بالمقارنة مع ما لمع حولها وحفحف من حرير وساتان. بل ما أهمية عقدها اللؤلؤي أمام ماسات تلك السيدة الضخمة الأنيقة قربها؟ وكم هي فقيرة وردتها البيضاء إلى جانب كل تلك الورود ذات الألوان البديعة التي تتحلّى بها الأخريات! خلعت آن قبعتها وسترتها، وانكمشت تعيسة في إحدى الزوايا، متمنيّة لو أنها لم تغادر غرفتها البيضاء في المرتفعات الخضراء.

غدا الأمر أسوأ بالنسبة إلى آن عندما وجدت نفسها عند مقاعد منصّة الصالة المخصصة للحفلات؛ حيث أعمت الأضواء الكهربائية عينيها، وأذهلتها روائح العطور وهمهمات الناس، حتى ودّت لو أنها كانت بين الحضور مع ديانا وجين اللتين بدتا مستمتعتين جداً في مؤخرة الصالة. جلست آن على أحد المقاعد محشورة بين امرأتين إحداهما سيدة بدينة تلبس فستاناً من الحرير الوردي، والأخرى فتاة طويلة ذات سيماء متعجرفة تلبس فستاناً من الساتان الأبيض. وبعد فترة من الوقت أدارت السيدة البدينة رأسها نصف دورة وتفحّصت آن من خلال نظارتها، حتى تملكت آن رغبة ملحة في الصراخ بأعلى صوتها نتيجة ارتباكها الشديد من تلك النظرة الفضولية المتفحصة. أمّا ذات الرداء الأبيض فكانت في ذلك الحين تسامر جارتها بصوت مسموع هازئة في حديثها من فلاحي الأرياف والجمال الريفي الساذج، ومبدية يأسها من الحصول على أية إثارة تستحق الذكر من أداءات تلك المواهب المحلية في البرنامج. وشعرت آن شعوراً أكيداً أنها ستبغض تلك الفتاة حتى نهاية الحياة.

شاء سوء حظ آن في تلك الليلة أنه كان يوجد بين نزلاء الفندق خطيبة محترفة وافقت على المشاركة بإلقاء الشعر في الحفل. كانت امرأة رشيقة سوداء العينين، ترفل بثوب رمادي لامع كأنه سبائك من أشعة القمر المحبوكة، وتزيّن عنقها وشعرها بالأحجار الكريمة. وكانت ذات صوت رخيم وقدرة ساحرة على الإلقاء لدرجة أنها هيّجت الجمهور طرباً بمجموعتها الشعرية التي انتقتها. استمعت إليها آن بعينين لامعتين، مسحورة ومتناسية كل إرباكاتها ومتاعبها. لكنها بعد فراغ تلك الخطيبة من وصلتها أخفت وجهها بيديها ارتباكاً.

كيف ستجرؤ بعد ذلك على النهوض والإلقاء؟ هل ظنت نفسها في يوم أنها بارعة في هذا المجال؟ أوه، ليتها تستطيع العودة إلى المرتفعات الخضراء.

في نفس تلك اللحظة غير المناسبة نودي على اسمها. وبطريقة ما استطاعت آن النهوض على قدميها والتقدّم نصف واعية إلى الأمام. كانت شاحبة لدرجة جعلت ديانا وجين تمسكان أيدي بعضهما بتوتّر وخوف. ولم تلاحظ آن أثناء نهوضها النظرة المجفلة نوعاً ما، المذنبة نوعاً ما، المصطبغة بالدهشة التي ارتسمت في عينيّ الفتاة المتعجرفة ذات الرداء الأبيض. ولو لاحظتها لما تمكّنت من سبر أغوار الإعجاب الخفي الذي أفصحت عنه تلك النظرة.

كانت آن ضحية الخوف من خشبة المسرح الذي ينتاب الناس أحياناً. إذ سرعان ما خارت قواها إزاء رؤيتها لذلك الحشد الذي لم يسبق لها أن واجهت مثله عندما كانت تُلقي الشعر أمام الناس. كان كل ما حولها غريباً، برّاقاً ومربكاً؛ أرتال النساء بملابس السهرة، الوجوه الناقدة، جو الثراء والجاه. بل وكان بكل تأكيد مختلفاً عن مقاعد نادي المناظرات البسيطة في أفونليا، والوجوه الودودة العطوفة للأصدقاء والجيران. هؤلاء الناس الذين أمامها، ليسوا إلاّ نقّاداً قساة، وربما هم، كما قالت ذات الرداء الأبيض، لاينشدون منها ومن أمثالها إلاّ الاستهزاء بأدائها الريفي الساذج.

وقفت، بلا حول ولا قوّة، خجلة وبائسة، تقصف بها ركبتاها، ويخفق قلبها اضطراباً، ويهيمن عليها الوجوم الأخرس، بحيث لم يعد أمامها أي حل سوى الهروب من المنصة رغم العار الذي سيكون قدراً أبدياً لها إذا فعلت هذا.

فجأة، بينما كانت عيناها الفزعتان تحملقان بالجمهور، وقع نظرها على غيلبرت بلايث في مؤخرة الصالة، حيث جلس منحنياً إلى الأمام وقد أشرق وجهه بابتسامة تراءت لها أنها ابتسامة سخرية وانتصار. في الحقيقة، لم تكن ابتسامة غيلبرت تعبّر عن أي شئ ممّا تصورته آن. فقد كان غيلبرت مشدوهاً بكل ما حوله عموماً، ومفتوناً على وجه الخصوص بالتأثير الذي أشاعه مظهر آن الأهيف ووجهها الملائكي أمام لوحة النخيل التي كانت خلفها. أمّا جوزي باي التي جاءت الحفل برفقته والتي كانت تجلس إلى جانبه فلا شكّ أن وجهها كان يحمل تلك التعابير الدالّة على السخرية والانتصار، لكن آن لم تر جوزي، وما كانت لتكترث كثيراً لو رأتها.

فجأة، عبّت آن نفساً طويلاً، وشمخت برأسها عالياً، وسرى فيها التصميم كصدمة كهربائية.. لا.. لن تتخاذل.. لن تتخاذل أمام غيلبرت بلايث، ولن تتيح له الفرصة ليسخر منها أبداً.. أبداً. وهكذا، تماسكت، سيطرت على خوفها، تناست توترها، وباشرت الإلقاء. مستملكة زمام نفسها بالكامل، ومُطلقة صوتها الصافي العذب على سجيته حتى بلغ أبعد زاوية في القاعة بدون تقطّع فيه أو ارتجاف، ومُلقية الشعر كما لم يسبق لها أن فعلت من قبل، تدعمها الطاقة التي انبعثت فيها تلقائياً نتيجة ردّ فعلها على ما أصابها من ارتباك في تلك اللحظات الرهيبة.

وما كادت تنتهي حتى قُوبلت بعاصفة من التصفيق الصادق. وكانت على وشك العودة إلى مكانها، عندما استوقفتها السيدة البدينة وهي تشدّ على يدها بقوة وانفعال. "كان أداؤك رائعاً ياعزيزتي،" قالت لها. "لقد أبكيتني كأني طفل صغير، اسمعي.. اسمعي.. إنهم

يستزيدونك، يريدون منك العودة إلى المنصّة!"

"لا أجرؤ على العودة،" قالت آن بارتباك. "ولكن، لا، يجب أن أعود وإلاّ سيخيب أمل ماثيو. لقد قال لي إنهم سيطلبون سماع إلقائي مرة ثانية."

"إذن، لا يجب أن تخيِّبي أمل ماثيو،" قالت السيدة البدينة ضاحكة.

عادت آن إلى المنصة مشرقة، متوردة، شفافة العينين. وقدّمت مجموعة من القصائد اللطيفة التي فتنت جمهورها أكثر من قبل. وكانت بقية الأمسية بمثابة انتصار صغير لها.

بعد انتهاء الحفل، تولّت السيدة البدينة، التي كانت زوج مليونير أميركي، مهمة رعاية آن، فضمتها تحت جناحها وقدمتها إلى الجميع هناك. كان الكل لطيفاً مع آن، بل إن السيدة إيفانز؛ الخطيبة المحترفة، وقفت ودردشت معها وأخبرتها أنها ساحرة الصوت وأن مجموعتها المنتقاة كانت رائعة. حتى ذات الرداء الأبيض وجّهت لها مديحاً مقتضباً. ثم حان وقت تناول العشاء، ودُعيت إليه جين وديانا لأنهما كانتا بصحبة آن، أمّا بيلي الذي تملّكه الفزع من هذه الدعوة فلم يتمّ العثور عليه في أي مكان، لكنه كان بانتظارهن مع العربة والفرس عندما انتهى كل شئ.

تناولت البنات العشاء في صالة الطعام الفسيحة، الرائعة الزينة، ثم غادرن الفندق إلى ليل السكينة والنقاء ووداعة القمر الأبيض. تنفست آن بعمق، وتأملت السماء الصافية فوق أشجار التنوب.

ربّاه، كم هي رائعة عودتهم إلى نقاء ذلك الليل وسكينته! كم هو عظيم وهادئ، تتردد خلاله أصداء همهمة البحر، وتؤنسه دمدمة الخلجان الخفية كأنها عمالقة شرسة تتناوب على حراسة الشطآن المسحورة.

"ألم تكن ليلة من ليالي العمر؟" تنهدت جين، بينما ابتعدت بهم

العربة. "لا أتمنى إلاّ أن أكون ثرية أميركية تستطيع قضاء الصيف في فندق كهذا، لديها الكثير من المجوهرات وفساتين السهرة، وتتناول البوظة وسلطة الدجاج في كل يوم من أيام حياتها الرغيدة. لا شكّ أن هذا سيكون أكثر تشويقاً من التعليم في مدرسة ما. آن، كان إلقاؤك عظيماً، رغم أني في البداية ما ظننت أنك ستنطقين بكلمة. لكنك في النهاية تفوّقت على السيدة إيفانز."

"لا، لا تقولي هذا ياجين،" ردّت آن بسرعة، "فهو كلام سخيف، لأن إلقائي لم يكن أحسن من إلقاء السيدة إيفانز، وأنت تعرفين ذلك. هي خطيبة محترفة، أمّا أنا فلست سوى تلميذة مدرسة لا تملك إلاّ بعض الخبرة. وأقصى ما يرضيني هو أن يكون الناس قد استساغوا إلقائي."

"أنا أحمل لك مديحاً ياآن،" قالت ديانا. "أظنه كان مديحاً بسبب اللهجة التي قيل بها، على الأقل لا بدّ أن يكون جزء منه مديحاً. كان يجلس وراءنا أنا وجين رجل أميركي فاحم الشعر أسود العينين، تبدو عليه سمات الشاعرية. أخبرتنا جوزي باي أنه فنان مشهور وأن ابنة عم أمها في بوسطن متزوجة من رجل كان يذهب معه إلى نفس المدرسة. المهم، سمعناه يقول.. أليس كذلك ياجين؟ من هي تلك الفتاة ذات الشعر التيتياني الرائع التي تعتلي المنصّة؟ إن لديها وجهاً أرغب في رسمه. هاكِ الآن، ما رأيك؟ ولكن ما معنى الشعر التيتياني؟"

"إذا أردنا تفسيرها إلى كلمات مفهومة فأظنها تعني الشعر الأحمر،" قالت آن ضاحكة. "تيتيان فنان مشهور جداً، كان يحب رسم النساء ذوات الشعر الأحمر."

"أرأيتما تلك الماسات التي كانت تضعها النساء؟" تنهّدت جين. "كانت بكل بساطة مذهلة. ألا تتمنيان معي لو أننا كنّا من الأغنياء؟"

"نحن أغنياء ياجين،" قالت آن بصدق. "كيف لا ونحن نبلغ من العمر ست عشرة سنة، وفي نفس الوقت سعيدات كالملكات، وجميعنا

صاحبات خيال وإن اختلفت درجات خصوبته. تأملا البحر معي وتفكّرا بما يحتويه من خفايا رغم كل شفافيته وصفائه ووضوحه، تُرى أكان بمقدورنا الاستمتاع به أكثر لو كنّا نملك ملايين الدولارات وحبالاً طويلة من الألماس؟ بل من منّا تقبل أن تستبدل مكانها بمكان أية واحدة من تلك النساء؟ من منّا ترضى بأن تشبه صاحبة الرداء الأبيض بسحنتها القاسية التي عليها تحمّلها طيلة عمرها، والتي تبدو كما لو أنها خُلقت ووجهها مشيح عن هذا العالم؟ ومن منّا تودّ أن تحلّ محل السيدة صاحبة الفستان الوردي، التي رغم لطفها وعطفها لا يكاد المرء يستبين شكلها بسبب قصرها وبدانتها؟ أو حتى السيدة إيفانز بنظرة عينيها الحزينة التي تؤكد أنها قد مرّت بظروف تعسة تركت آثارها عليها؟ ثقي ياجين آندروز أنك لن تقبلي في أن تكوني أية واحدة منهن!"

"لا أعرف على وجه التأكيد،" أجابت جين غير مقتنعة. "أظن أن الألماس يمكن أن يريح المرء ويعوّضه عن أشياء كثيرة."

"أمّا أنا، فلا أريد أن أكون أي شخص آخر إلاّ ما أنا عليه، حتى وإن لم أحصل على الألماس طيلة حياتي،" أعلنت آن. "أنا راضية رضى كاملاً بأن أكون آن المرتفعات الخضراء، مع عقدي اللؤلؤي البسيط هذا، الذي أعرف أن ماثيو قدّمه لي بمحبة تفوق كل ما حصلت عليه تلك السيدة البدينة من محبّة مع جميع مجوهراتها."

٣٤
طالبة في معهد كوين

كانت الأسابيع الثلاثة التي تلت الحفل أسابيعاً حافلة بالمشاغل في المرتفعات الخضراء، استعداداً لذهاب آن إلى معهد كوين. كان هناك الكثير من الملابس التي يجب خياطتها، والعديد من الأمور التي ينبغي بحثها أو تحضيرها. وقد أشرف ماثيو بدقّة على مهمة تزويد آن بمختلف الحاجيات الوافرة والجميلة. ولأول مرة لم تعترض ماريلا أبداً على أي شئ اشتراه أو اقترحه. بل إنها ذات مساء قصدت الغرفة الشرقية حاملة بيدها قماشاً هفهافاً من اللون الأخضر الفاتح.

"آن، هذا قماش يصلح لخياطة فستان جميل لائق بالمناسبات الخاصة. لا أظنك ستحتاجينه فعلاً لأن لديك وفرة من الفساتين الجميلة. ولكني فكّرت أنك قد ترغبين في الحصول على فستان رسمي أنيق لترتديه إذا دُعيت إلى مناسبة مسائية في المدينة، كحفلة أو أي شئ من هذا القبيل. علمت أن جين وروبي وجوزي تجهزن بفساتين للسهرة كما يسمونها الآن. ولا أنوي أن تكوني أقلّ منهن في أي شئ، ولذلك سألت السيدة آلن في الأسبوع الماضي مساعدتي في اختيار هذا القماش من المدينة. وسوف نطلب من إميلي غيليز أن تخيطه لك. وكما تعرفين، ليس هناك أحد يضاهي إميلي في ذوقها ومهارتها."

"ربّاه، ياله من قماش جميل ياماريلا،" قالت آن. "أنا شاكرة لك جداً، ولكن، يستحسن ألاّ تكوني لطيفة معي إلى هذه الدرجة، لأن هذا يجعلني أستصعب الرحيل أكثر فأكثر."

تمّت خياطة الثوب الأخضر مع الكثير من الثنيات والزمّات

والكشاكش والدرزات، بقدر ما ساعد ذوق إميلي. وفي ذات مساء وضعته آن عليها من أجل ماثيو وماريلا، وألقت أمامهما في المطبخ، قصيدة: نذر البتول.

وبينما كانت ماريلا تتأمل وجه صغيرتها المشرق النضر، وإيماءاتها الرشيقة، راحت أفكارها إلى تلك الأمسية التي جاءت فيها آن إلى المرتفعات الخضراء. واسترجعت ذاكرتها صورة حيّة للطفلة الغريبة المذعورة بثوبها القطني البالي، وقلبها الصغير الذي أطل كسيراً من خلال عينيها الدامعتين. شئ ما في تلك الذكرى جلب الدموع إلى عيني ماريلا.

"يبدو أن إلقائي أبكاك ياماريلا،" قالت آن بحبور، وهي تنحني فوق كرسي ماريلا وتطبع على خدّ تلك المرأة قبلة وديعة. "أنا أدعو هذا ظفراً أكيداً."

"لا، لم أكن أبكي من إلقائك،" قالت ماريلا، التي أبت أن يُعزى ضعفها إلى شئ له علاقة بالشعر. ما استطعت الامتناع عن التفكير بتلك الطفلة التي كنتها ياآن. وكنت أتمنى لو أنك بقيت طفلة مع كل أساليبك الغريبة. لقد كبرت الآن وسترحلين عنّا عمّا قريب، وهذا الثوب يجعلك تبدين هيفاء وأنيقة ومختلفة كثيراً.. كثيراً، وكأنه لم يكن لك أية علاقة بأفونليا. ومجرّد تفكيري بكل هذا أشاع في نفسي مرارة الوحشة."

"ماريـــــــــلا!" جلست آن في حضن ماريلا، وأخذت وجهها الهرِم بين يديها، ونظرت بوداعة وحنان في عينيها. "أنا لن أتغيّر أبداً.. ولم أتغيّر قط. كل ما في الأمر أني تشذبت وتفتحت، أمّا أنا الحقيقية الموجودة داخلي فما زالت هي نفسها، ولن يبدّل ذهابي إلى أي مكان شيئاً من هذا. ومهما تغيّر مظهري، سأبقى دائماً صغيرتك آن، آن التي ستظل مع مطلع كل يوم جديد في حياتها تحبك وتحب ماثيو وتحب المرتفعات الخضراء الغالية أكثر وأعمق من اليوم الذي سبقه."

مـالت آن برأسـهـا وحطت خـدّها الفـتـيّ الناعم على خـدّ مـاريلا الذاوي، ومـدّت يدها مـربّتـة على كتف مـاثيـو. كـانت مـاريلا في تلك اللحظة على استـعداد للتضحـيـة بأي شئ لديها مقابل تمكّنها من ترجمة مشاعرها إلى كلمات. لكن طبيعتها وما درجت عليه شاءتا العكس، فاكتفت بلفّ ذراعيها بقوة حول الصبيّة وضمّها بحنان إلى قلبها، مُتمنية لو أنها لم تكن مضطرة إلى إفلاتها.

أمّا مـاثيو الذي أوشكت عيناه على الترقرق بالدمع، فسرعان ما نهض من مكانه وغادر البيت إلى الفناء حيث مشى نحو البوابة بين أشجار الحور تحت نجوم ليلة الصيف الزرقاء.

"لا أظن أن الدلال قد أفسدها في النهاية،" همهم بفخر، "وأعتقد أن إقحامي لمجذافي في القارب بين حين وآخر لم يسبب أي أذى. إنها ذكية، وجميلة، ومُحبّة أيضاً وهذا أفضل من أي شئ آخر. كانت نعمة بالنسبة إلينا، ولم يكن هناك حظّ أكثر بركة من الغلطة التي ارتكبتها السيدة سبنسر إذا كان هذا يسمى حظاً. ولا أظن أن الأمر كان مجرّد حظّ. كان بكل بساطة تدبيراً إلهياً، لأن الله القادر على كل شئ رأى أننا بحاجة إليها."

جاء أخيراً يوم رحيل آن إلى المدينة، وأقلّها ماثيو إليها بالعربة في صباح لطيف من صباحات شهر أيلول، بعد وداع دامع مع ديانا، ووداع عملي مع ماريلا، غير دامع من جهة ماريلا على الأقل. ولكن بعد مغادرة آن جففت ديانا دموعها وذهبت إلى نزهة على الشاطئ مع بعض نسيباتها من بلدة كارمودي، مقررة الترفيه عن نفسها إلى أقصى حدّ. أمّا ماريلا فقد شغلت نفسها بضراوة في أداء أعمال منزلية غير ضرورية استمرّت طيلة النهار، وهي كسيرة الخاطر، يئن فؤادها وجعاً من ذلك الألم الحارق القارس الذي لم تستطع غسله بأية دموع جاهزة. وعندما توجهت ليلاً إلى غرفتها لتنام، سيطر عليها وجوم تعيس لأن الغرفة الشرقية عند نهاية الرواق لم تكن مأهولة بالحياة الفتيّة النابضة، ولم تكن عامرة بعبق أنفاس صاحبتها الرقيقة.

وهكذا، دفنت وجهها في المخدة وبكت صغيرتها الغائبة بنشيج مرير. نشيج روّعها عندما استعادت ما يكفيها من الهدوء لتتفكّر بتبصّر، مستنكرة ذلك الضعف الإنساني الذي يجعل قلب المرء متعلقاً بمخلوق خطّاء مثله.

وصلت آن وبقية الطلاب إلى المدينة في الوقت المناسب للتوجّه إلى المعهد. ومضى اليوم الأول جيداً، بكل دوّامته الحماسية من مقابلة الطلاب المستجدّين، والتعرّف على الأساتذة من هيئاتهم الخارجية، وفرز التلاميذ في قاعات الدراسة. كانت الآنسة ستيسي قد نصحت آن باختيار صف السنة الثانية، الذي يؤهل الطالب لينال رتبة معلّم مُجاز من الدرجة الأولى في سنة واحدة، ولكنه في نفس الوقت يتطلب بذل مجهود جبّار من العمل الجادّ. عملت آن بنصيحة الآنسة ستيسي، واختار غيلبرت بلايث الصف نفسه. أمّا جين وروبي وجوزي وتشارلي ومودي سبرجيون الذين لم يكن لديهم طموح متأجج يحرّضهم، فقنعوا بالانتساب إلى صف السنة الأولى الذي يؤهلهم لنيل إجازة تعليم من الدرجة الثانية. وسرعان ما شعرت آن بالوحشة عندما وجدت نفسها في تلك القاعة مع خمسين طالباً وطالبةغيرها، لا تعرف أحداً منهم سوى ذلك الفتى الطويل ذي الشعر البُنيّ الذي يجلس في منتصف القاعة، والذي بكل أسف لن تساعدها معرفتها به كثيراً والحال بينهما على ما هو عليه. لكنها، كانت بكل تأكيد سعيدة لأنهما في الصفّ عينه، فهذا سيمكّنهما من متابعة منافستهما المعهودة، بل إنها ما كانت ستعرف كيف ستتدبر أمورها لو لم يعد لهذه المنافسة وجود.

"ما كنت سأشعر بالراحة بدون هذه المنافسة." فكّرت آن. "يبدو غيلبرت عاقد العزم على التفوق. وأظن أنه يضع الفوز بالميدالية نُصب عينيه. ياللتلك الذقن الجميلة التي يتميّز بها! أنا لم ألاحظها من قبل أبداً. ربّاه، كم أتمنى لو أن جين وروبي قررتا الانضمام إلى صفّ الدرجة الأولى. طبعاً لا بدّ أني لن أستمر في الإحساس وكأني هرّة

في علّية غريبة عنها عندما أتعرف على الطلاب الذين هنا. وأنا الآن أتساءل أية واحدة من تلك البنات ستكون صديقتي. وهو في الحقيقة تساؤل مثير. طبعاً لقد وعدت ديانا بأن غلاوتها على قلبي لن تتساوى مطلقاً مع غلاوة أية بنت في المعهد مهما توطدت علاقتي بها. لكن هذا لا يعني أني لا أملك الكثير من العواطف الثانوية الجيدة التي أستطيع تبادلها مع غيري. تعجبني تلك الفتاة ذات العينين السوداوين والصديرية القرمزية، تبدو مفعمة بالحيوية والانطلاق. وهناك أيضاً تلك الفتاة الشاحبة الشقراء ذات الشعر الجميل التي تحملق خارج النافذة، يبدو عليها أنها تعرف شيئاً عن دنيا الأحلام. أرغب في التعرف عليهما معاً؛ في التعرف عليهما معرفة وثيقة تؤهلنا لأن نمشي معاً متعانقات، ولأن ننادي بعضنا بألقاب تحبب. أمّا الآن فأنا لا أعرفهما، وهما لا تعرفاني، وقد لا ترغبان في التعرف عليَ أنا شخصياً. ربّاه، كم أشعر بالوحشة!"

كان الحال أكثر وحشة عندما اختلت آن بنفسها في غرفتها مساء ذلك اليوم. لم تكن تقيم مع بقية البنات، اللاتي تكفّل أقرباؤهن بالاهتمام بشؤونهن. كانت الآنسة جوزفين باري على استعداد لاستقبالها بكل ترحيب، ولكن هذا الموضوع كان خارج نطاق البحث نظراً لبعد منطقة بيتشوود عن المعهد. ولذلك عملت الآنسة باري على تأمين غرفة سكن لآن، مؤكدة لكل من ماثيو وماريلا أنها المكان المناسب لها.

"السيدة التي تدير بيت السكن سيدة محترمة،" شرحت الآنسة باري. "كان زوجها ضابطاً بريطانياً، وهي حريصة جداً في انتقاء الناس الذين تؤجرهم الغرف عندها. ولن تلتقي آن هناك بأي شخص غير مرغوب فيه، كما أن الطعام جيد والبيت قريب من المعهد، بالإضافة إلى أنه يقع في منطقة هادئة."

لم يكن هناك أي غبار على هذا الكلام، وقد أثبت فيما بعد أنه

كلام صحيح. لكنه في الواقع لم يساعد آن عندما سيطر عليها أول إحساس موجع بالحنين إلى البيت. أخذت تتأمل بحزن تلك الغرفة الضيقة بورق جدرانها الكئيب وبحيطانها الخالية من اللوحات، بسريرها الحديدي الواطيء وبمكتبتها الفارغة. وسرعان ما خنقتها غصّة رهيبة عندما تذكرت غرفتها البيضاء في المرتفعات الخضراء، ووعيها وهي هناك بوجود الخضرة المحببة الشاسعة الهادئة في الخارج، وبنمو البازلاء الحلوة في الحديقة، وبسقوط ضوء القمر على البستان، بالجدول الرقراق عند المنحدر، بفروع أشجار الراتينج المتمايلة مع نسيم الليل وراء الجدول، بالسماء العظيمة المشعّة بالنجوم، بنافذة ديانا يسطع نورها من خلال فرجة بين الأشجار. هنا.. لا يوجد شئ من هذا، فخارج نافذة الغرفة لا يوجد إلاّ شارع مزفّت، وأسلاك شبكة الهاتف التي تسدّ السماء، ووقع أقدام مستهجنة، وآلاف من الأضواء المسلطة على وجوه الغرباء.

أدركت آن أنها كانت على وشك الانفجار بالبكاء وحاولت المقاومة.

"لن أبكي. هذا تصرف سخيف.. وضعف.. ها هي الدمعة الثالثة تنحدر قرب أنفي. هناك المزيد من الدموع على وشك الانهمار! يجب أن أفكر بشئ مضحك لأمنع هذه الدموع. لكن لا شئ يشرح الصدر إلاّ وله علاقة بأفونليا، وهذا يزيد حالتي سوءاً... أربعة... خمسة... أعرف أني سأذهب إلى البيت في يوم الجمعة المقبل، ولكن هذا يبدو بعيداً بُعد مئات السنين. لا بدّ أن ماثيو قد أوشك على الوصول إلى البيت الآن، وماريلا تقف عند البوابة تنتظر ظهوره على الدرب... ستة... سبعة... ثمانية... أوه، لا فائدة من عدّ هذه الدموع! إنها تنهمر كالطوفان. لا أستطيع الترفيه عن نفسي... لا أريد الترفيه عن نفسي. من الأفضل لي أن أكون بائسة!"

كان طوفان الدمع على وشك الانفجار حتماً لو لم تظهر جوزي باي في تلك اللحظة. ونسيت آن في غمرة فرحها لرؤية وجه مألوف، أنه كان هناك الكثير من الودّ المفقود بينها وبين جوزي، فقد جعلها حنينها

لأفونليا ترحب بكل ما يمتّ إليها بصلة، حتى لو كان بنتاً من آل باي.

"أنا سعيدة جداً بمجيئك،" قالت آن صادقة.

"ها، يبدو أنك كنت تبكين،" قالت جوزي بلهجة فيها رثاء بغيض. "أظنك تشعرين بالحنين إلى البيت.. لا يستطيع بعض الناس تمالك نفوسهم عندما يسيطر عليهم هذا الإحساس. أمّا أنا فتأكدي أنه ليس لدي أدنى استعداد للشعور بالغربة والحنين. لا شئ يضاهي حيوية المدينة بعد العيش في أفونليا القديمة الخاملة. وأتساءل عمّا جعلني أبقى فيها طويلاً. وبالمناسبة ياآن، أظن أنه لا يجدر بك البكاء، فهذا يجعل عينيك وأنفك يصطبغان بالحمرة، وفي النهاية ستبدين كلّك حمراء. كان يومي في المعهد ممتازاً، وقد تعرفت على أستاذ اللغة الفرنسية وهو بكل بساطة يشبه البطة، ومجرد رؤية شاربيه قد تسبب لك نوبة قلبية. أيوجد لديك أي شئ يؤكل ياآن؟ أنا أكاد أتضور جوعاً. ها.. عرفت أن ماريلا ستزوّدك بمؤونة من المعجنات، وهذا في الحقيقة هو سبب مجيئي إليك، وإلاّ لكنت قصدت المنتزه لأستمع إلى الفرقة وهي تعزف مع فرانك ستوكلي. يقيم فرانك في نفس المكان الذي أقيم فيه، وهو شاب حلو المعشر كثيراً، وقد لاحظك في الصفّ اليوم وسألني عمّن تكون تلك البنت ذات الشعر الأحمر. فأخبرته أنك يتيمة وأن آل كُثْبِيرت تبنياك وأن لا أحد يعرف الكثير عن ماضيك."

كانت آن تسائل نفسها عمّا إذا كانت العزلة والدموع أرحم لها من صحبة جوزي عندما جاءت جين وروبي وهما تتباهيان بشعار المعهد ذي اللونين الأرجواني والقرمزي الذي كان يزين معطفيهما. لم تكن جوزي تتكلم مع جين في ذلك الوقت، ولذلك تراجعت إلى حالة نسبية من كفّ أذى لسانها عن غيرها.

"حسناً،" قالت جين وهي تتنهد، "أشعر وكأنني عشت سنيناً طويلة منذ هذا الصباح. ويجب عليّ الآن أن أكون في البيت منكبّة على حفظ شعر: فيرجل، فقد أعطانا ذلك الأستاذ العجوز الشنيع عشرين سطراً

من أجل الغد. ولكني لا أشعر الليلة باستقرار يساعدني على الدراسة. آن، كأني أرى آثار دموع في عينيك، وإذا كانت ملاحظتي في محلها يجدر بك الاعتراف بذلك، لأن هذا سيعيد لي احترامي لنفسي، فقد كنت أذرف دموعاً سخية قبل مجيء روبي. وأنا لا أمانع في أن أكون حمقاء إلى هذه الدرجة إذا عرفت أن هناك من يجاريني حمقي. ما هـــذا.. كعك؟ أيمكنني الحصول على قطعة صغيرة ياآن؟ شكراً.. ربّاه، إن فيها نكّهة أفونليا الحقيقية."

رأت روبي تقويم معهد كوين على طاولة آن، وأرادت أن تعرف فيما إذا كانت آن تطمح إلى الفوز بالميدالية الذهبية.

تضرّج وجه آن بالحمرة وهي تعترف بأنها تفكّر بهذا.

"أوه، هذا يذكرني،" قالت جوزي، "سيحصل معهد كوين أخيراً على واحدة من منح أفيري، وقد صدر القرار اليوم. أخبرني بذلك فرانك ستوكلي لأن عمه هو واحد من أعضاء مجلس المحافظة. وسوف يُعلن الخبر في المعهد غداً."

منحة أفيري! ازداد خفقان قلب آن، وتوسعت آفاق طموحاتها وتصاعدت، كما لو أنها كانت تحت تأثير سحر ما.

كان أقصى ما تطمح إليه آن، قبل تصريح جوزي بهذا النبأ، هو الحصول عند نهاية السنة الدراسية على إجازة تعليم إقليمية من الدرجة الأولى، وربما ميدالية! أمّا الآن، وفي غضون لحظة واحدة، رأت نفسها وهي تفوز بمنحة أفيري، وتلتحق بكلية الآداب في جامعة ردموند، وتتخرج فيها وهي ترتدي عباءة التخرج وقلنسوتها! رأت كل ذلك قبل أن يذوي صدى كلمات جوزي، لأن منحة أفيري كانت مخصصة للغة الإنجليزية وآدابها، المادّة التي شعرت آن بأنها الموطن الأصلي الذي تبحث عنه قدماها.

كانت المنحة تعود إلى صاحب مصنع ثري من مواطني نيوبرنسويك، والذي خلّف بعد موته جزءاً من ثروته لتوزّع منحاً على

مختلف الثانويات والمعاهد في المقاطعة الساحلية، وفقاً لأنظمتها الخاصة. وكانت هناك بعض الشكوك حول إمكانية حصول معهد كوين على واحدة من تلك المنح، ثم تمّت تصفية الموضوع في النهاية لصالح المعهد. وصدر القرار الذي ينصّ على أن الطالب الذي ينال أعلى علامة في اللغة الإنجليزية وآدابها عند نهاية السنة الدراسية، سيفوز بهذه المنحة التي تبلغ مائتين وخمسين دولاراً في السنة، لمدّة أربع سنوات في جامعة ردموند. ولا عجب أن أخلدت آن إلى النوم في تلك الليلة بخدّين موردين!

"سأفوز بتلك المنحة إذا كان العمل الجادّ سيتيح لي فرصة نيلها،" قرّرت آن. "ألن يفخر ماثيو بي إذا حصلت على الشهادة الجامعية؟ أوه، من الممتع حقاً أن أكون بنتاً طموحة. بل ويسعدني ألاّ تكون هناك نهاية لطموحاتي. ولعل هذا أفضل ما في الأمر، لأن المرء ما يكاد يحقق واحداً من أحلامه حتى يتألق في أفقه حلم آخر أعظم منه. ربّاه، إن هذا يجعل الحياة بالغة الإثارة."

٣٥
الشتاء في معهد كوين

أخذ شعور آن بالغربة والحنين إلى البيت يتناقص تدريجياً، خصوصاً وأنها داومت على زيارته عند نهاية كل أسبوع، ما دامت حالة الطقس مواتية. كان أبناء أفونليا من طلاب المعهد يرتحلون إلى كارمودي بوساطة فرع سكة الحديد الجديد، حيث يجدون ديانا والعديد من أبناء أفونليا بانتظارهم. ومن هناك يتوجّه الجميع إلى أفونليا في مجموعات فتيّة مرحة. وكانت آن ترى أن هذه المسيرات الأسبوعية عبر التلال الخريفية المضمّخة بالهواء الذهبي العليل، والمشرفة على أنوار بيوت أفونليا المشعشعة من بعيد، هي أحلى وأغلى ساعات الأسبوع كله.

كان غيلبرت بلايث يواظب تقريباً على مرافقة روبي غيليز في هذه الرحلات، حاملاً لها حقيبة كتبها. وكانت روبي التي أصبحت صبيّة رائعة الجمال، ترى أنها قد بلغت مرحلة من النضوج تؤهلها لأن تتشبه بالبالغين، فأطالت ملابسها بقدر ما سمحت لها أمها، وداومت على رفع شعرها في المدينة، لكنها كانت تسدله كلما قصدت أفونليا. كانت ذات عينين زرقاوين واسعتين جميلتين، وبشرة نقية وجسم مكتنز ملفت للنظر. وكانت صاحبة مزاج مرح، ضحوكة، ومقبلة على كل ما تتيحه لها الحياة من مسرّات.

"ولكني لا أعتقد أنها من الفتيات اللاتي قد يستلطفهن غيلبرت،" همست جين لآن ذات مرّة. ولم تكن آن نفسها تعتقد هذا، ولكنها لم تستطع تعميم هذا الاعتقاد ليشمل طموح غيلبرت بالحصول على منحة أفيري. وفي نفس الوقت لم تستطع الامتناع عن التفكير بروعة الحصول على رفيق مثل غيلبرت تستطيع ممازحته ومحادثته ومبادلته

الأفكار والكتب والأحلام. فهي تعرف أن لغيلبرت طموحه في هذه الحياة، وهي متأكدة أن روبي غيليز ليست تلك الإنسانة التي يستطيع مناقشة طموحاته معها بحرية.

لم تكن آن تُضمر لغيلبرت أية مشاعر عاطفية خاصة، بل ورأت أنها لو كانت على وفاق معه فلن تهتم بِمَن يتحلّق حوله من الفتيات أو من يماشي منهن. لأن تفكيرها بالشبّان، عندما يصدف أن تفكّر بهم بين حين وآخر، لم يتجاوز حدود الأمل بالحصول على صداقة طيبة معهم. ورغم أنها لم تعانِ مطلقاً من ندرة الرفيقات حولها، نظراً لما تتميز به من مقدرة فريدة على إنشاء الصداقات، إلا أنها كثيراً ما رأت أنه قد يكون لصداقتها مع الذكور مردود إيجابي سواء في تعميق فهمها لجوهر الصداقة أو في تزويدها بوجهات نظر أوسع أفقاً نتيجة مناقشة الآراء ومقارنة الأحكام. طبعاً، لا يعني هذا أنه كان بإمكان آن في ذلك الحين تعريف مشاعرها تجاه غيلبرت بوضوح، لكن ذلك لم يحل بينها وبين الاعتقاد بأنها لو استطاعت مرافقته من محطة القطار إلى البيت عبر الحقول اليانعة والدروب المعشوشبة، فلربما تبادلا أحاديثَ كثيرة مشوّقة عن العالم الجديد الذي كان ينفتح أمامهما، وعن آمالهما وأحلامهما التي يرجوان تحقيقها فيه.

كان غيلبرت في الحقيقة شاباً ذكياً، يتميز بأفكاره الخاصة، وتصميمه في الحصول على أفضل ما يوجد في هذه الحياة، ومنحها أفضل ما لديه. وقد أخبرت روبي غيليز رفيقتها جين آندروز ذات مرّة، أنها لم تكن تفهم نصف المواضيع التي يتكلم عنها غيلبرت، وأنه يشبه آن عندما تكون منطقية في تفكيرها. وأنها؛ أي روبي، لا ترى في الاهتمام بالكتب وما يماثلها شيئاً ممتعاً، ما دام المرء غير مجبر على ذلك. ورغم شعورها أن فرانك ستوكلي هو أكثر اندفاعاً وانطلاقاً من غيلبرت، إلاّ أنه ليس على نصف وسامة الأخير. وفي النهاية، لا تعرف حقاً أيهما تستلطف أكثر!

كوّنت آن لنفسها في المعهد حلقة صداقة صغيرة، مفكّرة وطموحة

وخيالية مثلها. وسرعان ما غدت علاقتها حميمة بكل من ستيلا مينارد تلك الفتاة ذات البشرة المتوردّة، وبريسيلا غرانت الفتاة الحالمة. واكتشفت أن الأخيرة التي شدّها إليها شحوبها ووجهها الملائكي، كانت في الحقيقة مفعمة بالحيوية والطيش وحب المزاح. أمّا ستيلا ذات العينين السوداوين التي ظنتها آن صبيّة مرحة فقد كانت مليئة بالأحلام المحلّقة والخيالات الشفانية ذات الألوان السحرية، التي تشبه أحلام وخيالات آن.

توقّف أبناء أفونليا عن الذهاب إلى بيوتهم عند نهاية الأسبوع بعد عطلة عيد الميلاد. واستقرّوا في المدينة من أجل الانكباب على الدراسة الجادّة. وفي غضون هذا الوقت كان جميع طلاب معهد كوين قد احتلّوا مكاناتهم ومراتبهم في محيطهم، كما تميّز طلاب الصفوف المختلفة فيما بينهم بما يحمله كل واحد منهم من خصائص فردية. وأصبحت هناك حقائق معروفة ومعترف بها علناً، وأهمها أن حلقة المتنافسين على الميدالية قد ضاقت وتحددت بثلاثة طلاب: غيلبرت بلايث، وآن شيرلي، ولويس ويلسون، وأن الطالب المحتمل للفوز بمنحة أفيري كان أكثر غموضاً، إلا أنه ينحصر عموماً بستّة أسماء. وأن المرشح الوحيد للفوز بالميدالية البرونزية للرياضيات هو صبي ريفي ناتيء الجبهة، مرقّع المعطف.

فازت روبي غيليز بلقب أجمل صبيّة في المعهد لتلك السنة. وفازت ستيلا مينارد من صفّ السنة الثانية بسعفة الجمال، ولم يخل الأمر من أقلية ذات ذوق نقدي رفيع صوّتت لصالح آن شيرلي. وأقرّ الحكام أن إثيل مار كانت صاحبة أكثر الأساليب عصرية في تصفيف الشعر. وحصلت جين آندروز، الصبية البسيطة، الكادحة، الحية الضمير، على وسام الشرف في مادة العلوم الوطنية. حتى جوزي باي أقرّ لها الجميع بأنها صاحبة لسان لاذع لا يضاهيه في سلاطته لسان أي طالب آخر. وهكذا، يمكن القول إن تلاميذ الآنسة ستيسي ظلّوا محافظين على مواقعهم البارزة في حلبة المعهد الكبيرة رغم أن المعركة

فيها كانت أشدّ ضراوة.

عكفت آن على الدراسة بكدّ ومثابرة، وكانت منافستها مع غيلبرت لا تختلف في حدّتها عن السابق، رغم أنها لم تكن معروفة على نطاق واسع في الصفّ. وبطريقة ما، اختفت منها تلك المرارة السابقة، إذ ما عادت آن ترغب في الفوز من أجل إلحاق الهزيمة بغيلبرت، بل من أجل المفاخرة بتحقيق نصر باهر على خصم يستحقّ العناء المبذول لقهره. والأهم من ذلك، أنها ما عادت ترى الحياة غير محتملة إذا لم تتفوّق عليه.

مع ذلك، ورغم كثافة الدروس، وجد الطلاب فرصاً عديدة لتمضية أويقات طيبة بين حين وآخر. كانت آن تقضي معظم أوقات فراغها في بيتشوود، وتتناول الغداء يوم الأحد هناك أيضاً، ثم تصحب الآنسة باري إلى الكنيسة. وقد أقرّت الآنسة باري أخيراً أنها أصبحت طاعنة في السن، رغم أن عينيها السوداوين لم ينضب منهما البريق، ورغم أن حدّة لسانها لم يصبها ولو القليل من الفتور. لكنها لم تسلّط ذلك اللسان على آن أبداً، بل وظلّت آن تحتل المكانة الأولى في نفس تلك المرأة العجوز الصعبة المراس.

"يدهشني التطور المستمر لهذه البنت،" قالت ذات مرة. "فأنا سرعان ما يعتريني السأم من بقية البنات اللاتي يوجد بينهن تشابه مزعج. أمّا آن ففيها شئ يشبه ألوان قوس قزح، وعندما يُشعّ منها أحد هذه الألوان يبقى محتفظاً بروعته طيلة ظهوره. لا أعرف إذا كانت ما تزال على نفس القدر من الظرافة التي تميّزت بها في طفولتها، ولكنها بكل بساطة تجعلني أحبها. وأنا أقدّر الناس الذين يجعلوني أحبهم لأن هذا يوفر عليَ مشقة إرغام نفسي على استلطافهم."

فجأة، وقبل أن يدرك الناس، أطلّ الربيع على العالم من جديد، وانبثق النوّار في أفونليا هازجاً فوق أديم الحقول الجرداء التي تخلّفت فيها أكاليل الثلج، وتجلّلت الغابات والوديان بالسديم الأخضر. أما في

مدينة تشارلوت تاون فكان الطلاب المرهقون لا يفكرون إلاّ بالامتحان ولا يتحدثون إلاّ عنه.

"لا أصدق أن الفصل الدراسي على وشك الانتهاء،" قالت آن. "ففي الخريف الماضي بدت لنا نهاية السنة بعيدة جداً. ربّاه، لقد أمضينا شتاءً كاملاً في الدرس والدراسة، وها هو الامتحان يلوح أمامنا في أفق الأسبوع القادم. أشعر في بعض الأحيان يابنات أن هذا الامتحان هو كل ما يعنيني في الحياة، لكنه يفقد نصف أهميته عندما أتأمل تلك البراعم المنتفخة على أشجار الكستناء، وتلك الزرقة الضبابية للسماء عند نهاية الشارع."

لم تر جين وروبي وجوزي، اللاتي قصدن آن في زيارة غير متوقعة، ما رأته.

كان الامتحان بالنسبة إليهن مُهماً دائماً في جميع الأوقات والأحوال، وأكثر أهمية حتماً من براعم الكستناء أو غيوم شهر أيار. ونظراً لأنهن كن يعتقدن أن مستقبلهن كله متوقف عليه، استحالت عليهن رؤية الأمر من خلال وجهة نظر فلسفية. أمّا آن، فلا شكّ أن كل شئ سيكون بالنسبة إليها حسناً ما دامت متأكدة على أقل تقدير من نجاحها، وهذا بالتأكيد يبرر لها تقليلها من أهمية الامتحان في تلك اللحظة.

"لقد خسرت خمسة باوندات من وزني في الأسبوعين الماضيين،" تنهّدت جين. "ولا جدوى في نصحي بألاّ أقلق. سأظل بكل بساطة قلقة. فالقلق يساعد الإنسان قليلاً، لأنه يوحي لك بأنك تؤدين عملاً ما. ربّاه، سيكون من المروع ألاّ أحصل على إجازة التعليم بعد ارتياد المعهد طيلة الشتاء، وصرف الكثير من المال."

"هذا لا يهمني،" قالت جوزي باي. "إن لم أنجح السنة سأعود في السنة القادمة. أبي قادر على دفع التكاليف. بالمناسبة ياآن، يقول فرانك ستوكلي إن الأستاذ تريمن يؤكد على فوز غيلبرت بلايث

بالميدالية، وأن إميلي كلاي مرشحة لنيل منحة أفيري."

"سيزعجني هذا الخبر غداً ياجوزي،" أجابت آن ضاحكة، "أمّا في هذه اللحظة بالذات فلست أعلّق أية أهمية على حصولي على منحة أفيري أو عدمه، مادمت أعرف أن البنفسج في أفونليا على وشك التفتح بألوانه الأرجوانية عند الغور تحت المرتفعات الخضراء، وأن السراخس الصغيرة بدأت تطلّ برؤوسها على طول درب العشاق. لقد بذلت خلال هذه السنة أقصى جهودي. ويبدو لي الآن أني أصبحت أفهم ما المقصود بتعبير: حلاوة الكفاح، لأن أفضل شئ بعد المحاولة والفوز هو المحاولة والفشل. هيا يابنات، لا تتحدثن عن الامتحان! وتأملن معي السماء عند نهاية تلك البيوت، وتخيّلن كيف يمكن أن تبدو خضرتها الباهتة هذه فوق أشجار الزان الأرجوانية في أفونليا."

"ماذا سترتدين من أجل حفل التخريج ياجين؟" سألتها روبي بلهجة عملية.

أجابت جين وجوزي معاً. وهكذا حاد الحوار بهن إلى دوامة الأزياء. أمّا آن، التي ارتكز مرفقاها على حافة النافذة واستندت ذقنها الفتيّة على يديها المتشابكتين، فقد أطلقت العنان لرؤاها الخفيّة بعد أن سافرت عيناها نحو سماء الغروب البهية فوق أسطح أبنية المدينة وقمم أبراجها. وراح خيالها يحبك أحلام الغد المرجوّة بخيوط الصبا والتفاؤل الذهبية.

نعم، كان كل ما ترومه ينتظرها مشرقاً عند أبواب سنين المستقبل، حاملاً معه خيارات كثيرة غامضة. كل سنة أشبه بوردة تنتظر تحقق الوعد ليتمّ حبكها في إكليل الخلود.

٣٦
المجد والحلم

أخيراً، أطلّ الصباح الذي سيتمّ فيه لصق النتائج النهائية لجميع الامتحانات على لوحة إعلانات معهد كوين. كانت آن وجين تسيران في الشارع معاً متوجهتين إلى المعهد. كانت جين تمشي مرحة وهانئة البال؛ فالامتحان قد انتهى، وهي متأكدة على أقلّ تقدير من نجاحها، من غير أن تقلقها أية اعتبارات أخرى على الإطلاق، ما دامت لا تسعى وراء أمجاد تجعلها تحت رحمة براثن القلق الناجم عن الأمل بالفوز والخوف من الفشل. ومع أن الطموح يستحقّ بذل العناء لنيله، إلاّ أنه لا يُكتسب بثمن بخس، بل يتطلب مستحقاته من العمل الشاق وإنكار حاجات الذات، والعيش في دوّامة القلق، لأن الإنسان مُجبر عادة على دفع ثمن أي شئ يحصله أو يأخذه من هذا العالم. وكان هذا بالتأكيد السبب الذي جعل آن تمشي شاحبة وصامتة، لأنها بعد عشر دقائق من الوقت ستعرف من فاز بالميدالية ومن فاز بمنحة أفيري. وفي تلك الأثناء لم تشعر أنه يوجد في هذا العالم ما يستحقّ أن يسمى زمناً غير تلك الدقائق العشر.

"لا شكّ أنك ستفوزين بواحدة منهما في جميع الأحوال،" قالت جين، التي ما كان يمكن لها أن تستوعب إجحاف المعهد في حال وزّع الجوائز بطريقة أخرى.

"لست آمل بالحصول على منحة أفيري،" أجابت آن. "يزعم الجميع أنها ستكون من نصيب إميلي كلاي. وبكل صراحة ياجين لست أجد في نفسي أية شجاعة أدبية تمكّنني من التوجّه نحو لوحة الإعلانات لأبحث عن اسمي أمام الجميع. لذلك سأقصد حجرة زينة

البنات فور وصولنا، وأرجو أن تقرأي النتائج وحدك ياجين ثم تبلغيني الأنباء. وأنا أناشدك باسم صداقتنا الطويلة أن تفعلي هذا بأسرع ما يمكنك. وإذا لم أحقق أي فوز لا تنقلي الخبر إليّ بدماثة، بل أعلميني الحقيقة بكل بساطة. ومهما حصل لا تحاولي التخفيف عني. عديني بهذا ياجين."

وعدتها جين بإخلاص، ولكن نظراً لما جرى بعد ذلك، لم يكن هذا الوعد ضرورياً، لأنهما ما كادتا ترتقيان درجات ردهة المعهد حتى شاهدتا الشبّان الذين كانت الصالة مكتظة بهم وهم يحملون غيلبرت بلايث على أكتافهم ويصيحون بأعلى أصواتهم:

"يحيا غيلبرت بلايث، حامل الميدالية."

شعرت آن للحظة بدوار الهزيمة وخيبة الأمل المريرين. ها قد أخفقت إذن، وربح غيلبرت! لا شكّ أن ماثيو سيشعر بالحزن! لقد كان متأكداً من فوزها.

ولكن، بعد هنيهة!

صاح أحدهم فجأة:

"ثلاث تحيات للآنسة شيرلي، الفائزة بمنحة أفيري!"

"آن،" شهقت جين، وهما تهرعان إلى غرفة زينة البنات وسط التهنئات الحارة. "ربّاه، أنا فخورة بك جداً ياآن! أليس هذا بالحدث الباهر؟"

تحلّقت بقية البنات حولهما حالاً، وأصبحت آن مركز جمع ضاحك مُهنيء. ربتت البنات على كتفيها، باركن لها، صافحنها بمودة، دفعنها وجذبنها حيناً، وضممنها حيناً آخر، ووسط كل هذا الصخب المرح استطاعت آن أن تهمس لجين قائلة:

"ألن يشعر ماثيو وماريلا بالسعادة! لا بدّ أن أكتب لهما حالاً لأبشّرهما بهذا الخبر."

كان حفل التخريج هو الحدث المهم التالي. وجرى في قاعة اجتماعات المعهد الفسيحة. أُلقيت الخطب، قُرئت المقالات، غُنيّت الأغاني، وتمّ التوزيع العلني للشهادات والجوائز والميداليات.

كان ماثيو وماريلا هناك، وقد تركّزت أعينهما وآذانهما على طالبة واحدة عند المنصة.. صبيّة ممشوقة القوام، ترفل بفستان من اللون الأخضر الفاتح، يصطبغ خدّاها بحمرة باهتة، وتلمع عيناها كأنهما نجمتين. صبيّة كانت واقفة تقرأ أفضل مقال أُلقيَ في ذلك الحفل، بينما جرى الهمس بين الحضور بأنها الفائزة بمنحة أفيري.

"هه، ألا تشعرين بالسعادة لأننا احتفظنا بها ياماريلا؟" همس ماثيو بعد فراغ آن من قراءة مقالها، والذي تكلّم في تلك اللحظة لأول مرة منذ دخوله القاعة.

"إنها ليست المرة الأولى التي أشعر فيها بالسعادة،" ردّت ماريلا. "ولكنك تستسيغ دائماً مناكدتي في هذا الأمر ياماثيو كُثْبيرت."

انحنت الآنسة باري التي كانت تجلس خلفهما، ووكزت ظهر ماريلا بمظلّتها، ثم قالت:

"ألست فخورة بالبنت آن؟ أنا بصراحة فخورة بها جداً."

عادت آن مع ماثيو وماريلا إلى أفونليا في ذلك المساء لأنها شعرت أنها لن تحتمل الانتظار يوماً آخراً بعد انقطاعها عن الذهاب إلى البيت منذ شهر نيسان. وهناك استقبلتها براعم أزهار التفاح المتفتحة، والعالم المنعش البهيج.

كانت ديانا بانتظارها في المرتفعات الخضراء، وعندما صعدتا إلى الغرفة الشرقية البيضاء، التي وضعت ماريلا على حافة نافذتها أصيصاً من الورود المتفتحة، نظرت آن حولها، وسحبت نفساً طويلاً مفعماً بالسعادة.

"آه يا ديانا، ما أحلى العودة من جديد. تفرحني رؤية قمم أشجار

التنوب الدقيقة وهي تنتصب مستقبلة السماء الوردية.. وذلك البستان الأبيض.. وملكة الثلج الحبيبة.. أليست رائحة عبق النعناع منعشة؟ ووردة نبتة الشاي تلك.. إنها تبدو وكأنها مزيج أغنية وأمل وصلاة في وقت واحد! وأنت ياديانا، ليس هناك أحلى من رؤيتك ثانية!"

"ظننت أنك أصبحت تحبين تلك المدعوة ستيلا مينارد أكثر مني،" قالت ديانا معاتبة. "أخبرتني جوزي باي بهذا، وزعمت أنك مفتونة بها."

ضحكت آن، ورشقت ديانا بباقة من الزنابق الذاوية.

"ستيلا مينارد هي أغلى فتاة على قلبي في هذا الوجود باستثناء فتاة أخرى، وأنت هي تلك الفتاة ياديانا،" قالت. "أنا أحبك أكثر من أي وقت مضى.. ولديّ الكثير من الأخبار لأسارّك بها. كل ما في الأمر هو أني الساعة أفضّل الجلوس لأتأملك بصمت. أنا في الحقيقة متعبة؛ وأظن هذا التعب عائد إلى سعيي وراء كل تلك الآمال التي تقت إلى تحقيقها، وإلى انكبابي الدؤوب على الدرس. وأنوي غداً أن أمضي ساعتين على أقل تقدير وأنا مستلقية على العشب في البستان من غير أن أشغل فكري بأي شئ على الإطلاق."

"كان ما قمت به إنجازاً عظيماً ياآن، وأحسب أنك الآن لن تلتحقي بسلك التعليم بما أنك حصلت على منحة أفيري، أليس كذلك؟"

"كلاّ، لن أفعل، وسألتحق بجامعة ردموند في شهر أيلول. أليس هذا عظيماً ياديانا؟ ولن تكاد تمضي أشهر العطلة الثلاثة بكل مسرّاتها، إلاّ وأكون قد تزوّدت بمخزون جديد تماماً من الآمال المستقبيلة. أظن أن روبي وجين ستلتحقان بالتعليم. ربّاه، أليس من المفرح أن نكون قد نجحنا جميعاً بما في ذلك مودي سبرجيون وجوزي باي؟"

"عرض أوصياء مدرسة نيوبريدج على جين استلام التعليم في مدرستهم" قالت ديانا. "وسينصرف غيلبرت بلايث إلى التعليم أيضاً لأنه مضطر لهذا، فوالده لا يستطيع تحمّل مصاريف الجامعة في

السنة القادمة. ويبدو أن غيلبرت ينوي الاعتماد على نفسه في شقّ طريقه. وأظنه سيحصل على المدرسة هنا إذا قررت الآنسة إيمز المغادرة."

سيطرت على آن دهشة مباغتة غريبة، فهي لم تكن تعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وكانت تعتقد أن غيلبرت أيضاً سيلتحق بجامعة ردموند. كيف ستستطيع المتابعة بدون منافستهما المحرّضة؟ ألن يكون العمل سطحياً إذا خسرت هذا الصديق العدو؟ حتى وإن كانت الدراسة تتعلق بمراحل علمية عالية تتضمن رتباً مهمّة؟

وفي صباح اليوم التالي، شعرت آن أثناء وجبة الإفطار بصدمة تثقل قلبها عندما لاحظت مدى تدهور صحة ماثيو، وكانت واثقة بأنه بدا أكثر هرماً ممّا كان عليه قبل سنة.

"ماريلا،" قالت بنبرة ملتاعة عندما غادر ماثيو البيت، "هل ماثيو بخير؟"

"كلا، إنه ليس كذلك،" أجابت ماريلا بانفعال. "لقد تعرّض إلى نوبات قلبية خطيرة هذا الربيع، وهو لا يحاول الاهتمام بنفسه أبداً. كنت قلقة عليه قلقاً عظيماً، لكنه تحسّن مؤخراً، كما أننا استأجرنا عاملاً جيداً ليساعده، وآمل أن يجعله هذا يرتاح قليلاً، لعله يستعيد شيئاً من نشاطه. ولا شكّ أن وجودك بيننا سينعشه، فأنت تسعدين قلبه دائماً."

انحنت آن فوق الطاولة وضمّت وجه ماريلا براحتيها.

"أنت نفسك لا تبدين بصحة جيدة ياماريلا، ليس كما أحبّ أن أراك. تبدين مرهقة. وأخشى أنك كنت تنهكين نفسك بالعمل، ولا بدّ أن ترتاحي الآن بما أني هنا. لن أخصص لنفسي إلاّ يوم غد فقط، أزور خلاله جميع الأماكن العزيزة على قلبي، وأنبش أحلامي القديمة. أمّا بعد ذلك فسيأتي دورك لترتاحي وتسترخي كما تشائين، بينما أتكفّل أنا بأداء جميع الأعمال والواجبات."

ابتسمت ماريلا بحنان وهي تتأمل وجه صغيرتها.

"إنه ليس العمل ياآن.. بل رأسي هو السبب.. صار الصداع نادراً ما يفارقني الآن.. هنا خلف عينيّ. لقد ظلّ الطبيب سبنسر يعزو السبب إلى النظارات، لكن النظارات الجديدة لم تفدني بشئ. ويُقال إن طبيب عيون مشهور جداً سيأتي إلى الجزيرة في نهاية شهر حزيران، ويريد مني الطبيب سبنسر أن أراه. أظنني مضطرة إلى هذا، لأني ما عدت أستطيع القراءة أو الخياطة بارتياح. حسناً ياآن، لقد كان إنجازك في المعهد إنجازاً جباراً، فمَن غيرك استطاع خلال سنة واحدة نَيل إجازة تعليم من الدرجة الأولى، والفوز بمنحة أفيري. إني أراه عملاً عظيماً حقاً، أمّا السيدة ليند فتزعم أن بلوغ المجد يتبعه السقوط، وأنها لا تؤمن إطلاقاً بالتعليم العالي للنساء، فهذا حسب زعمها لا يتناسب مع مجالهن الحقيقي في الحياة. ولكني لا أوافقها على كلمة واحدة ممّا قالته.. أوه.. إن الحديث عن ريتشيل يذكرني بأمرٍ ما.. تُرى هل سمعت شيئاً عن مصرف آبي في الآونة الأخيرة ياآن؟"

"سمعت أن مركزه متقلقل،" أجابت آن، "لِمه؟"

"هذا ما قالته ريتشيل. زارتني ذات يوم في الأسبوع الماضي وأعلمتني أن الناس يتكلمون عن إمكانية إفلاسه، وهذا سبّب لماثيو قلقاً جمّاً لأن جميع مدّخراتنا مودعة في ذلك المصرف.. كل قرش منها. لقد رغبت منذ البداية أن يودع ماثيو أموالنا في مصرف الادّخار، ولكن السيد آبي العجوز كان صديقاً مقرّباً من والدنا، وكان دائماً يودع أمواله في مصرفه. وقال ماثيو إن أي مصرف يديره السيد آبي هو مصرف مأمون لأي شخص."

"أعتقد أنه لم يعد إلاّ الرئيس الصوري لذلك المصرف منذ عدّة سنوات،" قالت آن. "فقد أصبح طاعناً في السن، والرؤساء الفعليون لتلك المؤسسة هم أبناء إخوته."

"عندما حذّرتنا ريتشيل، طلبت من ماثيو أن يسحب مدّخراتنا في الحال، فقال إنه سيفكّر بالأمر، لكن السيد راسل أعلمه أمس أن المصرف على ما يرام."

استعادت آن نشاطها بعد ذلك اليوم الجميل الذي حلمت به بين أحضان الطبيعة، ولم تفارقها ذكراه بعد ذلك أبداً. كان يوماً صاحياً وبراقاً ومعتدلاً، تزحمه البراعم والأزهار، ولا تشوبه أية غيوم أو ظلال. أمضت بعضاً من ساعاته الرغيدة في البستان، ثم قصدت نبع خرير الحورية وتخوم الصفصاف ووادي البنفسج، وزارت منزل القسّ وقضت وقتاً ممتعاً مع السيدة آلن. أخيراً، عندما حلّ الغروب بألوانه الرائعة التي غلّف بها الغابة، وبسناه الدافئ الذي دفقه بين فرجات التلال الغربية، صحبت ماثيو أثناء سَوقه للأبقار من المرعى الخلفي عن طريق درب العشاق.

كان ماثيو يتتبع الطريق بخطى وئيدة ورأس منحنٍ، وكانت آن الهيفاء المنتصبة القامة حريصة على ملائمة خطواتها المندفعة مع خطواته البطيئة.

"لقد أرهقت نفسك بالعمل ياماثيو،" قالت لائمة. "لماذا لا تحاول التساهل قليلاً؟"

"هه، لا يبدو أني قادر على هذا،" أجاب ماثيو، وهو يفتح بوابة الفناء ليدخل الأبقار. "كل ما في الأمر هو أني شخت وتقدمت في السن ياآن، لكني أظل أنسى هذه الحقيقة. لقد كان الانهماك في العمل الشاقّ ديدني في هذه الحياة، وأظنني أفضّل أن تحين ساعتي وأنا أعمل."

"لو كنتُ ذلك الصبي الذي أرسلتما تطلبانه،" قالت آن بتوق حزين، "لكان بإمكاني الآن مساعدتك بشتى الطرق، ومنحك الفرصة كي ترتاح قليلاً. وقلبي يتمنى لو أني كنت صبياً من أجلك فقط."

"ولكني أفضّلك على دزينة من الصبيان ياآن،" قال ماثيو وهو يربّت

على يدها. "انتبهي إلى هذا.. دزينة من الصبيان. حسناً، إن الشخص الذي فاز بمنحة أفيري لم يكن صبياً، أليس كذلك؟ كان الفائز بنتاً.. ابنتي أنا... ابنتي التي أفخر بها كثيراً."

ابتسم لها ماثيو وهو على وشك دخول الفناء بابتسامته الحيية المعهودة، وحملت آن معالم تلك الابتسامة إلى غرفتها عندما أوت إليها ليلاً، حيث جلست لفترة طويلة عند نافذتها المفتوحة تفكّر بالماضي وتحلم بالمستقبل. كانت ملكة الثلج في الخارج تتشح ببياض غامض تحت ضوء القمر، وكانت الضفادع في المستنقع وراء منحدر البستان تصدح بالغناء. وظلّت آن تتذكر دائماً الجمال الفضي المسالم لتلك الليلة، والسكينة العطرة التي شملتها، فقد كانت آخر ليلة تعيشها قبل أن يلامس الحزن قلبها تاركاً بصماته على حياتها، ولا حياة تبقى كما كانت عليه في السابق ما إن تلمسها في يومٍ ما تلك اللمسة الباردة المطهّرة للنفوس.

٣٧
الحصّاد الذي يُدعى الموت

"مـاثـيـو.. مـاثـيـو.. مـاثـيـو.. مـــا بِـــك؟ مـــــاثـيـو.. أأنت مريض؟"

انطلق صياح ماريلا المذعور، متشنجاً ومتقطعاً مع كل كلمة نطقت بها، خلال نفس اللحظة التي كانت آن تجتاز فيها الرواق وهي تضم باقـة من النرجس الأبيض.. ذلك النرجس الذي مـضـى بعـد ذلك وقت طويل قبل أن تستطيع التطلع إليه ثانية أو شمّ عبيره.

سمعت آن صراخ ماريلا، ورأت ماثيو واقفاً عند باب المطبخ وهو يحـمل بيـده ورقـة مطوية، بينمـا كـانت قسـمـات وجـهه الذي اصطبغ بالزرقـة الكالحـة مـتـقلصـة بطريقـة غـريبـة. وعلى الفـور رمت أزهارها واندفعت نحو ماثيو هي وماريلا معاً، لكنهما كانتا قد تأخرتا كثيراً في تداركه قبل أن يهوي أرضاً عند العتبة.

"لقـد أغـمـي عليـه،" شـهـقت مـاريلا. "آن..اركضـــي حــالاً، واستدعـــي مارتن.. بسرعة.. بسرعة! ستجدينه في البيدر."

لم تكن قد مضت لحظات على عودة العامل المستخدم مـارتن من مكتب البريد عندمـا هرع لإحضـار الطبيب، معرجـاً في طريقـه على السـيد والسـيدة باري ليطلب منهمـا التوجّه إلى المرتفعات الخضـراء، واللذين صـحبتهمـا السـيدة ليند التي صدف وجودهـا عندهمـا. وعندمـا وصلوا وجدوا آن وماريلا الذاهلتان وهمـا تحـاولان عبثاً إعادة مـاثيو إلى وعيه.

دفعـتـهـمـا السـيـدة ليند جانبـاً بلطف، انحنت على مـاثـيـو، جسّت نبـضـــه، وضـعت أذنـهـا على قلبـه، ثـم نظرت إلى الوجـهين المرتـاعين

بأسى، وزحفت الدموع إلى عينيها.

"أنا آسفة ياماريلا" قالت بصوت أجشّ. "لا أظننا.. نستطيع.. القيام بأي شئ من أجله الآن."

"سـيدة ليند، أنت.. لا تعنين.. أن.. أن.. ماثيو..." تمتمت آن بوجه شاحب وشفتين ممتقعتين من غير أن تجد في نفسها الجرأة على التلفظ بتلك الكلمة المروّعة.

"نعم، ياصغيرتي، أخشى أن هذا صحيح. انظري إلى وجهه. عندما تألفين رؤية هذا المنظر نتيجة كثرة تكراره في حياتك؛ كما حدث معي، ستعرفين فوراً ما الذي يعنيه."

نظرت آن إلى الوجه الهامد.. تفرّست فيه.. نعم لقد كان موسوماً بختم ذلك الحضور الجليل.

عندما جاء الطبيب أعلن حال وصوله أن الموت كان فورياً، وعلى الأرجح خالياً من الألم. وعزى سببه إلى صدمة مباغتة. وعُثر على سر تلك الصدمة القاتلة في الورقة التي كان يحملها ماثيو، والتي كان مارتن قد أحضرها صباحاً من مكتب البريد. كانت تحتوي على إشعار بإفلاس مصرف آبي.

انتشر الخبر في أفونليا بسرعة، واحتشد الجيران والأصدقاء في المرتفعات الخضراء طيلة النهار. تزاحموا هناك، وجاءوا وراحوا وهم يؤدون الخدمات للميت والأحياء. ولمرّة واحدة وحيدة كان ماثيو كُثْبيرت الخجول الهادىء مركز اهتمام أفونليا كلها، بعد أن طوقته رهبة الموت بغلالاتها البيضاء، عازلة إياه عمّن حوله كملك تمّت مراسم تتويجه.

هبط الليل الداجي برفق على المرتفعات الخضراء، وأغرق الدارة القديمة في بحر السكون الثقيل. كان ماثيو مسجّى داخل نعشه في الصالة، بشعره الأشيب الذي أحاط وجهه الهادئ.. هادئ ومفتر عن ابتسامة وديعة تكاد توحي أن تلك السكينة المخيمة عليه ليست إلاّ إغفاءة قصيرة تدغدغها الأحلام اللطيفة. كان ماثيو مسجى داخل

نعشـه يرقد بسلام بين الأزهار.. أزهار يانعة رقيقة.. كانت أمـه قد زرعتها في حديقة المرتفعات الخضراء منذ أيام عرسها.. أزهار.. عرفت آن ولع ماثيو الخفي الصامت بها، فجمعتها وأحضرتها إليه بوجه امتصّت اللوعة لونه، وعينين مكروبتين اشتعلت نارهما واستعصى دمعهما. أحضرتها إليه وهي تعلم أن هذا كان آخر عمل تستطيع القيام به من أجل ماثيو.

في تلك الليلة، لازم آل باري والسيدة ليند المرتفعات الخضراء. وقصدت ديانا الغرفة الشرقية، وتوجهت صوب آن التي كانت تقف عند نافذتها، وقالت لها برقّة:

"آن، أترغبين.. يا غالية آن.. أن أنام عندك الليلة؟"

"أشكرك يا ديانا،" أجابت آن وهي تعاين وجه رفيقتها بنظرات رزينة. "أرجو ألاّ تسيئي فهمي إذا قلت لك إني أرغب في البقاء وحدي. أنا لست أشعر بالخوف ياديانا، ومنذ أن وقعت بنا هذه الواقعة ما استطعت الاختلاء بنفسي دقيقة واحدة. وأرغب حقاً في الانفراد والإخلاد إلى سكينة تامّة قد تساعدني على استيعاب ما جرى، لأني ما زلت غير قادرة على ذلك. يُهيأ لي .. يهيأ لي في لحظة أن ماثيو لم يمت.. ثم.. يهيأ لي في لحظة أخرى أنه قد مضى على موت ماثيو زمن طويل، وأني أشعر بهذا الوجع السقيم المخيف منذ ذلك الوقت."

كانت ديانا قادرة على استيعاب نحيب ماريلا المسعور، وخرقها بلوعة حارقة لجميع قيود التحفّظ والعادة التي فُطرت عليها، لكنها لم تستطع فهم ما قالته آن كثيراً.. لم تستطع فهم ذلك التفجع الصامت الخالي من الدموع.. ولم تستوعبه. لكنها رضخت لرغبة آن، وغادرت الغرفة بهدوء تاركة إياها وحدها في أول سهرة لها مع الأحزان.

رجت آن أن تطلق العزلة دمعها. فقد كان من الرهيب بالنسبة إليها ألاّ تستطيع ذرف عبرة واحدة على ماثيو.. ماثيو الذي أحبته كما

لم تحب أحداً.. ماثيو الذي كان دائماً رفيقاً بها.. ماثيو.. ماثيو الذي مشت معه مساء أمس ساعة الغروب.. ماثيو الذي يرقد الآن في إحدى غرف الطابق الأرضي المعتمة.. تحيطه هالة من السلام الرهيب الجليل.

رجت آن أن تطلق العزلة دمعها، لكن الدمع استمرّ عصياً عليها. ركعت بالقرب من نافذتها حيث حطت أجنحة الظلام.. و لا دموع. تطلعت إلى النجوم فوق التلال.. ولا دمـــوع.

لا شئ.. لاشئ سوى ذلك الوجع المروع المفجوع الذي ظلّ ينهش وينهش في أحشائها إلى أن غلبها النوم تعباً من كل آلام اليوم وأحزانه.

في الليل استفاقت، ووجدت نفسها مطوقة بالسكون والعتم، مطوقة بمواجع الذاكرة التي استرجعت أحداث النهار.. تلك الأحداث التي جثمت على صدرها كأنها موجة من الأسى الموغل في القدم. رأت وجه ماثيو وهو يبتسم لها، كما ابتسم لحظة افترقا عند البوابة في الأمسية السابقة.. سمعت صوته يقول.. ابنتي.. ابنتي التي أفخر بها.. وفجأة.. انسال دمعها، انسال.. انسال حتى بكت كما لم تبك أبداً، وسرعان ما تسللت إليها ماريلا عندما سمعتها لعلها تحاول التخفيف عنها.

"لا..لا.. لا تبكِ الآن يا غالية.. إن هذا لن يعيده.. ليس.. ليس من الصواب أن نبكي. كنت أعرف هذا البارحة، غير أني لم أستطع تمالك نفسي حينها. لقد كان دائماً نِعم الأخ الطيب الخلوق ولكن هذه مشيئة الله الذي يعلم ما لا نعلم."

"دعينـــي أبكي يا ماريلا،" نشجت آن. "لا يعدل ألم الدموع ألم ذلك الوجع الذي تناهشني طيلة النهار. أرجوك ابقي معي قليلاً، ابقي.. وضميني إليك.. فهذا الحزن حزننا. ما استطعت السماح لديانا بالبقاء معي.. هي رفيقة لطيفة وطيبة ورقيقة.. لكن هذا الحزن

ليس حزنها. ولا يمكنها أن تكون قريبة مني بما يكفي لتساعدني لأنه لا علاقة لها بهذا الحزن. هو حزننا وحدنا.. حزننا أنا وأنت ياماريلا.. هو حزني وحزنك. آه يا ماريلا.. ماذا سنفعل بدون ماثيو؟"

"لدينا بعضنا يا آن. ولا أدري ما الذي كان سيصيبني لو أنك لم تكوني هنا.. لو أنك لم تحضري إلينا أبداً. آه يا آن، أعرف أني ربما كنت حازمة معك في تربيتي لك، ولكن إياك أن تظني أني لا أحبك بقدر ما أحبك ماثيو. أريد إخبارك بهذا ياآن ما دُمت قادرة على التعبير عن مشاعري. فأنا لم يكن من السهل عليَ في يوم ما أن أبوح بمكنونات قلبي ببساطة، ولكن في أوقات مثل هذه الأوقات، تكون الأمور أكثر سهولة بالنسبة لي. أحبك ياآن كما قد أحب طفلة من لحمي ودمي، ولقد كنتِ منذ أن وطئت المرتفعات الخضراء فرحي وسلوتي."

بعد يومين، حُمل ماثيو من فوق عتبة باب بيته. حمل ونُقل بعيداً.. بعيداً عن الحقول التي حرثها.. بعيداً عن البساتين التي أحبها.. وبعيداً عن الأشجار التي غرسها. وعادت أفونليا إلى هدوئها المعتاد، بل حتى المرتفعات الخضراء سرعان ما انجرفت في خضم شؤونها وعاداتها اليومية، فأُنجزت الأعمال ولُبيّت الواجبات، رغم افتقاد ماثيو الموجع في جميع العادات المألوفة. كانت آن جديدة على الحزن، وهالتها رؤية طبيعة الوجود على حقيقته، وأنه كان يمكن للحياة القديمة التي عاشوها أن تأخذ مجراها بدون ماثيو. وانتابها إحساس يختلط فيه الخجل بالندم عندما اكتشفت أنها مازالت تشعر بنفس تلك السعادة القديمة عند رؤيتها للشمس المشرقة وراء أشجار التنوب، وللبراعم الوردية المتفتحة في الحديقة، وأن زيارات ديانا كانت تفرحها، وأن أحاديثها المرحة كانت تحرّضها على الضحك والابتسام. اكتشفت آن، بكل بساطة، أن عالم الجمال والأزهار والحب والصداقة لم يفقد شيئاً من قدرته على إطراب مشاعرها وإرضاء أهواء قلبها. وأن الحياة مازالت تناديها بصوتها الملحاح الهادر.

"على نحو ما، يبدو لي وكأنني أخون ماثيو عندما أسعد بكل هذه الأشياء من حولي رغم عدم وجوده بيننا." كاشفت آن السيدة آلن بأحزانها ذات مساء، بينما كانتا في حديقة منزل القسّ. "أفتقده.. أفتقده كثيراً ياسيدة آلن، ومع ذلك أرى أن العالم والحياة مازالا جميلين وممتعين. لقد قالت ديانا اليوم شيئاً مضحكاً، ووجدت نفسي ياسيدة آلن أضحك. وعندما مات ماثيو ظننت أني لن أستطيع الضحك من جديد مطلقاً، وبطريقة ما، أشعر أنه لا يجدر بي الضحك أبداً."

"عندما كان ماثيو على قيد الحياة كان يحب سماع ضحكك، وكان يعرف أنك تسعدين برؤية الأشياء الجميلة حولك،" أجابتها السيدة آلن برقّة. "ورغم رحيله الآن، لا شكّ أنه مازال يرغب في استمرار الأمور كما كانت عليه. أنا واثقة أنه لا ينبغي لنا إغلاق قلوبنا في وجه ما تهبه لنا الطبيعة من تعويضات تساعدنا على الشفاء، ولكني أفهم مشاعرك، فنحن جميعاً نختبر الشعور عينه عندما نفقد شخصاً عزيزاً، ونتصدى لكل ما نظن أنه يبعث البهجة في نفوسنا، ما دام ذلك العزيز الفقيد غير موجود معنا ليشاركنا إياها. وفي الغالب يسيطر علينا الإحساس بأننا نرتكب الخيانة بحقّ أحزاننا عندما يعود إلينا اهتمامنا بالحياة."

"قصدت المقبرة هذا الأصيل وزرعت أجمة ورد على قبر ماثيو،" قالت آن بوداعة حالمة. "انتزعت شتلة من أجمة الورد الأسكتلندي الذي أحضرته أمه من اسكتلندا منذ زمن بعيد.. أعرف أن ماثيو كان يخصّ تلك الورود بحبّ عميق مميز.. كانت تلك البراعم التي غرستها تنبثق صغيرة ورقيقة بين أغصانها الشائكة. وغمرتني سعادة كبيرة لأني استطعت غرسها عند قبره.. كما لو أني كنت أقدّم له شيئاً يتلهف على وجوده بالقرب منه. وأرجو أن يحصل على ورود مثلها في الجنة. ولعل أرواح جميع تلك الورود البيضاء الرقيقة التي أحبها على مدى سنين طويلة ستكون بانتظاره عندما يعرج إلى السماء. ربّاه، لقد

تأخر الوقت ولا بدّ لي من الذهاب إلى البيت الآن، لأن ماريلا وحدها، وهي تشعر بكثير من الوحشة مع حلول المساء."

"أخشى أنها ستشعر بوحشة أشد وطأة بعد التحاقك بالجامعة،" قالت السيدة آلن.

لم تنبس آن ببنت شفة، وسرعان ما ألقت على السيدة آلن تحية المساء وعادت أدراجها ببطء إلى المرتفعات الخضراء. كانت ماريلا تقتعد درج الباب الرئيسي، عندما وصلت آن وجلست إلى جانبها. كان الباب خلفهما مفتوحاً، تسنده قوقعة صدفية كبيرة وردية اللون، تحتوي اعوجاجاتها الداخلية شيئاً من آثار لون غروب الشمس البحري.

جمعت آن بعض الأزهار الرحيقية الصفراء وزينت بها شعرها، مستلطفة ذلك العبير الذي كان يفوح حولها كلّما تحركت كأنه نفحة عطر أثيرية.

"كان الطبيب سبنسر هنا أثناء غيابك،" قالت ماريلا. "وأخبرني أن أخصائي العيون سيصل المدينة غداً، وأصرّ على ضرورة ذهابي لفحص عينيّ. أعتقد أنه عليَ الذهاب لوضع حدّ لهذه المشكلة التي أعانيها. وسأكون شاكرة لله إذا وصف لي الرجل النظارات المناسبة. ألديك مانع ياآن في البقاء وحدك هنا خلال فترة غيابي؟ سيصحبني مارتن بالعربة، وهناك بعض الملابس التي يجب كيّها، ومعجنات ينبغي خبزها."

"سأكون على ما يرام، وستأتي ديانا لتسليتي. لا تخافي سأحرص على البقاء متيقظة أثناء إنجازي لمهمتيّ الكوي والخَبز. ولا داعي لأن تقلقي بشأن تنشية المناديل أو تنكيه الكعك بالعقار المسكن للأوجاع."

ضحكت ماريلا.

"ياللطفلة التي كنتها ياآن، مع كل أغلاطك في تلك الأيام. كنت لا

تكفّين عن إقحام نفسك في المآزق، حتى كدت أظنك ممسوسة. أتذكرين يوم صبغت شعرك؟"

"وكيف لي أن أنسى ذلك اليوم،" ابتسمت آن، وهي تتحسس الضفيرة الغزيرة التي كانت ملتفة حول رأسها. "عندما أتذكر الآن كم كان يسبب لي شعري ذلك القلق العظيم أضحك من نفسي قليلاً، لكني لا أسترسل في الضحك مطلقاً، لأنه كان حينها يمثل لي مشكلة حقيقية. ربّاه، كم كانت معاناتي من نمش وجهي ولون شعري معاناة مريرة. والحمد لله لأن النمش زال نهائياً الآن، كما أن الناس يلاطفونني كثيراً عندما يزعمون إن لون شعري يبدوأقرب إلى الكستنائي.. جميعهم ما عدا جوزي باي طبعاً. وأعلمتني أمس أنها ترى شعري أكثر حمرة من ذي قبل، أو ربما جعله ثوبي الأسود يبدو كذلك. وسألتني عمّا إذا كان الناس ذوو الشعر الأحمر قادرين على الاعتياد عليه أبداً. أتعرفين ياماريلا، لقد قررت أخيراً إعلان عدولي عن الاستمرار في محاولة استلطاف جوزي باي. ورغم أني بذلت من أجل ذلك مجهوداً جباراً سميّته ذات مرّة بالمجهود البطولي، يبدو لي أن جوزي باي لا ترغب في أن يستلطفها أحد."

"جوزي ليست إلاّ واحدة من آل باي،" قالت ماريلا بنفور. "ولذا فهي لا تستطيع إلاّ أن تكون لئيمة. أظن أن هذا النوع من الناس يُخلق في الحياة من أجل هدف معين. لكني لا أعرف شيئاً عن هذا الهدف أكثر ممّا أعرفه عن الهدف من وجود الأشواك. هل ستمتهن جوزي التعليم؟"

"لا، ستعود إلى معهد كوين في السنة المقبلة. وكذلك مودي سبرجيون وتشارلي سلون. أمّا جين وروبي فستتفرغان للتعليم، وقد عثرت كل منهما على مدرسة مناسبة. ستعلّم جين في نيوبريدج، وروبي في منطقة ما في الغرب."

"أظن أن غيلبرت بلايث سيتفرغ للتعليم أيضاً، أليس كذلك؟"

"نعم،" أجابت آن باختصار.

"ياله من شاب وسيم،" قالت ماريلا وهي شاردة الذهن. "رأيته في الكنيسة يوم الأحد الفائت وأدهشني طوله وما بدا عليه من سمات رجولية. وهو يشبه أباه كثيراً عندما كان في مثل سنه. كان جون بلايث شاباً رائعاً، وكنّا في ذلك الوقت صديقين مُقربين جداً، بل إن الناس اعتادوا على القول بأنه خطيبي."

نظرت آن إليها باهتمام مفاجيء.

"أوه ياماريلا.. وماذا حدث؟ لماذا.. لم.."

"تشاجرنا. وعندما طلب مني مسامحته رفضت. كنت في الحقيقة أنوي مصالحته بعد فترة من الوقت، لأني رغبت في معاقبته أولاً تشفيّاً لما كان يعتمل في نفسي من حنق وغضب. لكنه لم يعد بعد ذلك أبداً، فجميع آل بلايث يتميّزون بكبرياء جبّار. طبعاً.. تآكلني الندم فيما بعد.. وكثيراً ما تمنيت لو.. لو أني سامحته عندما سنحت لي الفرصة."

"إذن لم تكن حياتك خالية من أية عاطفة شاعرية، رغم كل شئ،" قالت آن برقّة.

"نعم، أظن أنك تستطيعين تسميتها كذلك. طبعاً، لا أعتقد أنه كان سيخطر على بالك شئ من هذا بمجرّد النظر إلي، لأن أحداً لا يستطيع الحكم على الناس من مظهرهم الخارجي فقط. على كل حال، نسي الناس مع الوقت أمري وأمر جون، حتى أنا نسيت، لكن كل شئ عاد لي عندما رأيت غيلبرت يوم الأحد الماضي."

٣٨

منعطف الطريق

ذهبت ماريلا إلى المدينة في اليوم التالي وعادت مساءاً. كانت آن مع ديانا في دارة منحدر البستان، وعندما رجعت إلى البيت وجدت ماريلا جالسة عند طاولة المطبخ وقد ارتكز رأسها المنحني على يدها. شئ ما في طريقة استكانتها اليائسة اخترق قلب آن كموجة صقيعية، فهي لم تر ماريلا مطلقاً محبطة العزيمة كما كانت في تلك اللحظة.

"أأنت تعبة ياماريلا؟"

"نعم.. لا.. لا أعرف،" أجابت ماريلا بصوت مرهق، وهي تنظر إليها. "نعم، أظنني تعبة، لكني ما كنت أفكر بهذا، لم يكن هذا ما يشغل فكري."

"هل رأيت أخصائي العيون؟ ماذا قال؟" سألتها آن بجزع.

"نعم رأيته، وفحص لي عينيّ، ثم أعلمني أني إذا تخلّيت عن القراءة والخياطة كلية، وإذا تجنبت أي نوع من الأعمال المرهقة للعيون، وإذا التزمت جانب الحذر بالامتناع عن البكاء، وإذا وضعت النظارات التي أعطانيها، عندها، يظن أن عينيّ قد لا تزدادان سوءاً، وأن صداعي سيزول. لكن، إذا لم أنفذ تعليماته فسأفقد بصري بعد ستة أشهر. وسأصبح عمياء.. عمياء ياآن!"

لم تستطع آن التفوه بأية كلمة بعد ذلك التساؤل الفزع المتلهف الذي قابلت به ماريلا، وشعرت أن المفاجأة قد عقدت لسانها، ثم استجمعت شجاعتها وقالت بصوت لم تستطع تورية انقباضه:

"لا تنظري إلى الموضوع بيأس ياماريلا، تعلمين أنه أعطاك أملاً. وإذا كنت حريصة فلن تفقدي بصرك، وإذا ساعدتك النظارات الجديدة

على شفاء صداعك فسيكون هذا إنجازاً عظيماً."

"لا أدعو هذا أملاً" قالت ماريلا بمرارة. "فأية قيمة لحياتي إذا لم أستطع القراءة أو الخياطة أو القيام بأي عمل مشابه؟ ففي الحالتين سأفقد بصري أو سأموت كمداً. أمّا البكاء، فكيف أمتنع عنه وأنا أشعر بهذه الوحشة القاتلة. لكن لا فائدة من مناقشة هذا الموضوع الآن، وسأكون شاكرة لك إذا أحضرت لي فنجان شاي، فأنا مرهقة وجائعة. وأرجوك ياآن، لا تخبري أحداً بهذا الأمر ولو لفترة من الوقت على الأقل، لأني لن أحتمل مجيء الناس إليَ متسائلين ومشفقين، ثم رواحهم وهم يلوكون مصيبتي فيما بينهم."

بعد أن تناولت ماريلا طعامها، أقنعتها آن بالإخلاد إلى النوم، ثم قصدت غرفتها وجلست في العتم عند نافذتها لا تؤنس وحدتها إلاّ دموع عينيها وهموم قلبها.

ربّاه، كيف انحدرت الأحداث إلى هذا الدرك المحزن منذ أن جلست في نفس المكان ليلة عودتها من المعهد! حينها.. كان قلبها مليئاً بالأمل والسعادة، وكان المستقبل يلوّح لها بوعوده الوردية. أمّا الساعة فهي تشعر وكأنها قد عاشت بعد تلك الليلة دهوراً طويلة.

جلست آن عند نافذتها طويلاً، وواجهت الواقع بشجاعة، وما أوت إلى فراشها إلا بعد أن عمّ السلام قلبها، وافتر فمها عن ابتسامة راضية. نعم، شعرت بالسلام والرضى لأنها استطاعت استقراء واجبها بصدق بعد أن عاينته بموضوعية، ووجدت فيه مصلحتها، كما هو حال الواجب دائماً عندما نواجهه بإخلاص.

بعد بضعة أيام، شاهدت آن ماريلا ذات مساء، وهي تعبر الفناء ببطء بعد أن أنهت حديثها مع زائر غريب عند البوابة. كانت آن لا تعرف عن ذلك الرجل سوى أنه يُدعى جون سادلر وأنه من كارمودي، وتوجست شرّاً من زيارته بعد رؤيتها التعابير المرتسمة على وجه ماريلا.

"ماذا يريد السيد سادلر ياماريلا؟"

جلست ماريلا ونظرت إلى آن. كانت الدموع المترقرقة في عينيها تتحدى تحذيرات أخصائي العيون، وكان صوتها الواهي يتكسر وهي تقول:

"سمع برغبتي في.. بيع.. المرتفعات الخضراء.. وجاء يعرض شراءها مني."

"شـــراؤها! شراء المرتفعات الخضراء؟" لم تصدّق آن ما سمعته أذناها. "ماريلا أأفهم من حديثك أنك تنوين بيع المرتفعات الخضراء؟"

"ليس عندي أي حلّ آخر ياآن، لقد فكّرت بذلك مطوّلاً. ولو كانت عيناي سليمتين، لبقيت هنا وحاولت إدارة الأعمال، ولتدبّرت أمري مع وجود مستخدم جيد. ولكني لا أستطيع شيئاً من هذا والحال على ما هو عليه. وبين ليلة وضحاها قد أفقد بصري نهائياً، وحينها لن أتمكن من تولّي أية مهمة. ربّاه، ما ظننت أبداً أني سأرى اليوم الذي سأبيع فيه بيتي. ولكن أحوالنا المعيشية قد تزداد سوءاً على سوء مع مرور الوقت، إلى أن يأتي يوم لا يرغب فيه مخلوق بشراء المكان. لقد فقدنا كل قرش من مدّخراتنا مع إفلاس المصرف، وعلينا تسديد بعض الكمبيالات التي كان ماثيو قد حرّرها في الخريف الماضي. نصحتني السيدة ليند ببيع المزرعة والإقامة في بيت ما.. عندها على ما أظن. ولا أتوقع أن يأتي هذا المكان بالمال الكثير.. فهو ليس كبيراً جداً.. والبناء قديم.. ولكن ثمنه قد يكفيني شرّ الحاجة. كم أنا شاكرة لله لحصولك على المنحة ياآن، ويحزنني ألاّ يكون لك بيت لتقصديه في أوقات عطلتك، لكني أظنك ستتقبلين الوضع فيما بعد."

قالت ماريلا ما قالته، ثم انهارت وبكت بمرارة.

"لا يجب أن تبيعي المرتفعات الخضراء،" قالت آن بلهجة حاسمة.

"آه يا آن، أتمنى لو أني لم أكن مضطرة لهذا، ولكن أنت تعلمين علم اليقين أني لا أستطيع البقاء وحدي هنا، سأجن حزناً ووحدة..

وقد أفقد بصري، أعرف أن هذا سيحدث يوماً."

"ولكنك لن تبقي هنا وحدك ياماريلا، فأنا سأكون معك لأني لن ألتحق بجامعة ردموند."

"لن تلتحقي بجامعة ردموند!" نحّت ماريلا يديها عن وجهها المتعب ورفعته معاينة آن بدهشة. "لِم، ما الذي تعنينه بهذا؟"

"أعني ما قلته بالضبط. سأتخلى عن المنحة الدراسية. لقد اتخذت قراري ليلة عودتك من المدينة. أكنت تصدقين حقاً أني أستطيع تركك وحدك وسط كل هذه المشاكل ياماريلا، بعد كل ما فعلته من أجلي. مازلت منذ تلك الليلة وأنا أفكّر وأخطط. دعيني أحدثك عن خططي؛ يرغب السيد باري في استئجار مزرعتنا للسنة القادمة، وهذا سيكفيك عناء الاهتمام بها. وأنا سألتحق بالتعليم، لقد قدّمت طلباً إلى المدرسة هنا.. لكني لا أظنه سيُقبل، لأن القيّمين عليها وعدوا غيلبرت بلايث بها. غير أني واثقة من حصولي على مدرسة كارمودي.. أخبرني السيد بلير بذلك ليلة أمس في المخزن. طبعاً لن يكون هذا مثالياً بقدر ما سيكون عليه الحال لو عُيّنت في مدرسة أفونليا، ولكني أستطيع استئجار مكان للسكن هناك من أجل أيام الشتاء القارسة، وفي أيام الطقس المعتدل سأعود إلى أفونليا بالعربة، بل حتى في الشتاء يمكنني المجيء في نهاية الأسبوع. وسنحتفظ بحصان من أجل هذا. أوه يا ماريلا، لقد خططت لكل شيء وسنقضي اوقاتنا معاً؛ أقرأ لك، وأدخل البهجة إلى قلبك، ولن أدعك تشعرين بالوحشة أو الكآبة أبداً. صدّقيني ياماريلا سنكون سعيدتين معاً وحميمتين جداً.. أنت وأنا."

أنصتت ماريلا، كامرأة تعيش حلماً.

"آه يا آن، أعرف أني سأكون أحسن حالاً إذا بقيت معي، لكني لا أستطيع السماح لك بالتضحية بمستقبلك من أجلي، سيكون هذا شيئاً رهيباً."

"كلام فارغ!" ضحكت آن ضحكة مرحة. "ليست هناك أية

تضحيات، ولا شئ في هذا العالم أسوأ من التخلي عن المرتفعات الخضراء.. لا شئ يمكن أن يؤلمني أكثر من ذلك. لا بدّ أن نحتفظ بهذا المكان الغالي العتيد، لقد حسمت رأيي ياماريلا، لن أذهب إلى جامعة ردموند، وسأبقى هنا وسألتحق بسلك التعليم، ولا داعي لأن تقلقي عليَ أبداً."

"ولكن.. طموحاتك.. و.."

"مازلت طموحة كما كنت طيلة عمري. كل ما في الأمر أني غيّرت أهدافي. سأعمل كي أكون معلّمة قديرة، والأهم من ذلك سأساعدك على إنقاذ عينيك، كما أني أنوي متابعة دراسة المقرر الجامعي في البيت. ربّاه، في جعبتي عشرات من المشاريع ياماريلا، وقد ظللت أتدارسها فيما بيني وبين نفسي لأسبوع كامل. أعرف أني إذا قدّمت لهذه الحياة أفضل ما عندي فإنها بالمقابل ستمنحني أفضل ما لديها. عندما انتهيت من معهد كوين بدا لي المستقبل منبسطاً أمامي كأنه طريق مستقيم، حتى شعرت أني أستطيع رؤية جميع المعالم الموجودة على امتداده. الآن، يوجد في هذا الطريق منعطف، ولا أعرف ماذا يوجد بعد هذا المنعطف، ولكني سأؤمن أن ما فيه هو الأفضل، ولهذا المنعطف سحر غامض ياماريلا، لأنه يحفز عندي الرغبة في أن أعرف كيف سينبسط الدرب بعده..أية أمجاد سيتضمنها.. أية ظلال يختلط فيها السواد بالبياض.. أية بقاع غريبة.. أية جمالات جديدة.. وأية مرتفعات وتلال ووديان."

"لا أشعر أنه يجدر بي موافقتك في التخلي عن كل شئ،" قالت ماريلا، ملمّحة بذلك إلى المنحة.

"ولكنك لا تستطيعن منعي. أنا الآن في السادسة عشرة والنصف من عمري وعنيدة كالبغل، كما قالت لي السيدة ليند ذات مرة،" أجابت آن ضاحكة. "ولا تحاولي ياماريلا النظر إليَ بعين الشفقة، تعرفين أني لا أحب الشفقة، كما أنه ليس هناك من داعٍ لها. ومجرّد

فكرة بقائي في المرتفعات الخضراء الغالية على قلبي يجعلني سعيدة من صميم قلبي. لا أحد ياماريلا يمكن أن يحب هذا المكان كما نحبه أنا وأنت.. لا أحد.. ولذلك لا بدّ لنا من الاحتفاظ به."

"ياصغيرتي البارّة!" قالت ماريلا مذعنة، "أشعر وكأنك وهبتني حياة جديدة. ورغم أن واجبي يقتضي مني التشبث بموضوع التحاقك بالجامعة، أعرف أني لن أتمكّن من إقناعك بالعدول عن رأيك.. ولذلك لن أحاول..لكني سأعمل على تعويض هذا لك يا آن."

ذاع في أنحاء أفونليا خبر تخلي آن عن الذهاب إلى الجامعة وعزمها على البقاء وامتهان التعليم، وجرت حوله مناقشات كبيرة. ورأى الناس الطيبون الذين لا يعرفون شيئاً عن مشكلة ماريلا أن هذا كان تصرفاً أحمقَ من آن. أمّا السيدة آلن فلم تعتقد ما اعتقدوه أبداً، وباركت قرار آن بكلمات تقدير مشجعة جعلت دموع السعادة تنهمر من عيني الصبيّة، وشاركتها السيدة ليند في هذا التقدير. وفي ذات مساء قصدت المرتفعات الخضراء ووجدت آن وماريلا جالستين عند عتبة الباب الرئيسي في شفق الصيف الدافئ. كانتا تحبّان الجلوس هناك ساعة الشفق، وكان عثّ البساتين الأبيض يتطاير في أرجاء الحديقة، ورائحة النعنع تفوح في الجو الرطب.

حطّت السيدة ليند جسمها الثقيل على المقعد الحجري قرب الباب، والذي انبثقت خلفه نبتة خبيزة. ثم أخذت نفساً طويلاً بدا خليطاً متشابكاً من التعبير عن الراحة والإعياء.

"أؤكد لكما أني سعيدة بالجلوس أخيراً. لقد بقيت واقفة على قدميّ طيلة النهار، ولا شكّ أن مائتي باوند هي حمل ثقيل جداً على قدمين اثنتين فقط. لا شئ أكثر نعمة ياماريلا من ألاّ يكون المرء بديناً، وعساك تكونين مقدّرة لنحولك. حسناً ياآن، بلغني أنك عدلت عن ارتياد الجامعة، وكم سررت عندما سمعت هذا الخبر. لقد حصلت الآن على العلم المناسب الكافي للمرأة، وأنا لا أحبذ ارتياد البنات للجامعات مع الرجال، وحشوهن لرؤوسهن باللاتينية والإغريقية وكل ذلك الهراء."

"ولكني سأدرس اللاتينية والإغريقية رغم ذلك ياسيدة ليند،" قالت آن ضاحكة. "سأنتسب إلى كلية الآداب، وسأدرس كل شئ يمكن أن يدرسوه في الجامعة، هنا في المرتفعات الخضراء."

رفعت السيدة ليند يديها معبرة عن دهشتها وتخوّفها.

""ستهلكين نفسك ياآن شيرلي."

"أبداً، إن هذا سيجعلني أزدهر. طبعاً، لن أحمّل نفسي فوق طاقتها، كما تقول زوج جوسيا آلين، بل سألتزم جانب الاعتدال، بالإضافة إلى أنه سيكون لدي الكثير من أوقات الفراغ في أمسيات الشتاء الطويلة، لأني سأعلّم في كارمودي كما تعرفين، وأنا لا أميل لأعمال التطريز وما يشبهها."

"لم أكن أعرف أنك ستعلّمين في كارمودي، وأغلب ظني أنك ستستلمين مدرسة أفونليا، فقد قرّر القيّمون على المدرسة تعيينك فيها."

"سيدة ليند!" صاحت آن وهي تقفز على قدميها مدهوشة، "كيف حدث هذا؟ ظننت أنهم وعدوا غيلبرت بلايث بتسليمه إياها!"

"نعم كانوا قد فعلوا هذا، ولكن غيلبرت سمع أنك قدّمت طلباً للمدرسة فذهب إليهم مساء أمس.. كان لديهم كما تعلمين اجتماع عمل.. وأعلمهم عن رغبته في سحب طلبه، واقترح عليهم تعيينك، وقال لهم إنه مضطر إلى التعليم في مدرسة وايت ساندس. لقد تخلّى عن المدرسة هنا من أجل إرضائك طبعاً، لأنه عرف مدى توقك إلى البقاء مع ماريلا. ولا بدّ أن أعترف بكل صراحة أنه كان عملاً نبيلاً وشهماً منه. بل تضحية حقيقية أيضاً، لأن عليه الآن أن يدفع أجر إقامته في وايت ساندس، وكلنا نعرف أنه مُجبر على إعالة نفسه وكسب ما يمكّنه من متابعة دراسته الجامعية. وهكذا، قرر القيّمون على مدرسة أفونليا قبول طلبك. وكدت أموت غبطة عندما جاء توماس إلى البيت وزفّ لي البشرى."

"لا أشعر أنه ينبغي لي قبول هذا،" همهمت آن. "أعني.. لا أظن أنه يجدر بي الموافقة على قيام غيلبرت بتضحية مثل هذه من.. من أجلي أنا."

"لا أعتقد أنك تستطيعين منعه الآن، فقد وقّع أوراق تعيينه مع القيّمين على مدرسة وايت ساندس، ولن ينفعه رفضك. ولذلك لا بدّ أن تستلمي المدرسة هنا وتأكدي أنك ستكونين مسرورة فيها ما دامت قد خلت أخيراً من آل باي. كانت جوزي آخر تلميذة فيها، ولا شكّ أنها لم تكن تلك التلميذة التي يمكن الاستهانة بها. لقد ظلّ العديد من آل باي يرتادون هذه المدرسة على مدى عشرين سنة، وأعتقد أن مهمتهم في الحياة كانت تذكير المعلمين دوماً بأن الأرض ليست موطنهم الحقيقي. لكن.. بحقّ السماء.. ما هذا الذي أراه! ما معنى ذلك الغمز واللمز المنبعث من الطابق العلوي في دارة آل باري؟"

"إنها ديانا ترسل لي إشارة حتى أذهب لرؤيتها،" قالت آن ضاحكة. "فنحن ما زلنا متمسكتين بتلك العادة القديمة التي اخترعناها. أرجو أن تعذراني قليلاً، سأذهب لأعرف ما الذي تريده مني."

أسرعت آن على طول منحدر حقل البرسيم كأنها الغزال، واختفت بين ظلال الغابة المسكونة، تتبعها عينا السيدة ليند بنظرات عطوفة.

"هناك قدر كبير من الطفولة في بعض تصرفاتها."

"هناك قدر أكبر من الأنوثة في كثير من تصرفاتها الأخرى،" أجابتها ماريلا التي تلبّستها حدّتها القديمة تلبّساً مؤقتاً.

رغم ذلك، يبدو أن الحدّة لم تعد واحدة من صفات ماريلا المميزة التي كانت تشتهر بها سابقاً، كما لاحظت السيدة ليند، وكما أسرّت لزوجها توماس في تلك الليلة.

"بكل صراحة ياتوماس لقد أصبحت ماريلا كُتْبيرت إمرأة لينة العريكة،"

قصدت آن مقبرة أفونليا الصغيرة في المساء التالي لتضع بعض الأزهار اليانعة على قبر ماثيو، ولتروي أجمة الورود الأسكتلندية. مكثت في ذلك المكان المسالم حتى حلّ الغروب، متآلفة مع سكينته وهدوئه وسط هسهسة الأعشاب التي انبثقت بملء إرادتها بين القبور، وخشخشة أوراق أشجار الحور التي تشبه حديثاً وديعاً. وكان الوقت قد شارف الغروب عندما غادرت آن المكان وتوجهت نحو التلة المشرفة على بحيرة المياه البراقة.

كانت أفونليا تستلقي تحت التلة كأنها الحلم؛ كأنها بقعة من السلام العريق. وكان الجو يعبق بعبير عذب كما لو أن ريحاً نفخت على حقول من البرسيم فحرّضتها على نشر أريجها الطيب. تأملت آن أضواء البيوت تشعشع هنا وهناك بين فرجات الأشجار، وقد استلقى وراءها البحر سديمياً وقرمزياً، دؤوباً في زمجرته الملحاحة، بينما حطّ الغروب على الكون كأنه لوحة رائعة من الألوان المتمازجة الرقيقة، والتي بدت أكثر رقّة أثناء انعكاسها على سطح البركة الساكن. حرّك ذلك السحر الأخّاذ لواعج آن، ففتحت له بوابات قلبها لتستقبله باستسلام.

"أيها العالم العزيز،" تمتمت، "أنت بديع الجمال، وأنا سعيدة لأني أعيش فيك."

ماكادت آن تتابع طريقها حتى رأت عند منتصف طريق التلة شاباً طويلاً يخرج من بوابة مزرعة آل بلايث وهو يصفّر. كان ذلك الشاب غيلبرت، وسرعان ما مات الصفير فوق شفتيه عندما رأى آن. رفع لها قبعته بكياسة لحظة مرّ بها، وكان على وشك المُضيّ قُدماً لو لم تقف آن وهي تمدّ له يدها.

"غيلبرت،" خاطبته بوجنتين ضرجتهما حمرة الحياء، "أودّ شكرك لأنك تخليت لي عن مدرسة أفونليا. كان هذا تصرفاً نبيلاً منك، وأريدك أن تعرف أني ممتنة لك."

صافح غيلبرت اليد التي امتدت إليه بلهفة.

"في الحقيقة هو ليس كرم أخلاق مني ياآن، كنت سعيداً لأن الفرصة أتاحت لي تقديم خدمة صغيرة لك. تُرى هل سنتصافى الآن؟ هل سامحتني أخيراً على غلطتي القديمة؟"

ضحكت آن وهي تحاول من غير جدوى سحب يدها من يده.

"لقد سامحتك ياغيلبرت منذ ذلك اليوم عند ضفة البركة، رغم أني حينها لم أكن أعرف هذه الحقيقة. ربّاه، كم كنت بنتاً عنيدة ومغفلة. كنت.. كنت.. حسناً، يمكنني الآن الإدلاء باعتراف كامل على ما أظن... كنت منذ ذلك الوقت آسفة لأني لم أصافيك."

"لا بأس، سنكون الآن من خيرة الأصدقاء،" قال غيلبرت بوجه متهلّل. "لقد خُلقنا ياآن لنكون صديقين حميمين، لكنك ظللت تعاندين القدر مدة طويلة. أعرف أننا نستطيع مساعدة بعضنا كثيراً. ألن تتابعي دراستك وأنت هنا؟ وأنا أيضاً سأفعل هذا. تعالي سأوصلك إلى البيت."

عاينت ماريلا آن بنظرة فضولية عندما دخلت الأخيرة المطبخ.

"من كان هذا الذي صحبك إلى نهاية الدرب ياآن؟"

"غيلبرت بلايث،" أجابت آن التي شعرت بالسخط على نفسها لأنها احمرّت خجلاً. "التقيت به عند تلة آل باري."

"ما كنت أظنك على هذه الدرجة من الوفاق مع غيلبرت حتى تقفا عند البوابة لنصف ساعة وأنتما تتحدثان،" قالت ماريلا وهي تبتسم ابتسامة ذابلة.

"لم نكن على وفاق.. بل كانت بيننا عداوة قوية، ولكننا ارتأينا أن الأمر سيكون أكثر واقعية إذا حولّنا تلك العداوة إلى صداقة طيبة. أحقاً وقفنا هناك لمدة نصف ساعة؟ مرّ الوقت وكأنه بضع دقائق. ولكن، كما ترين ياماريلا، علينا أن نعوّض حديثاً انقطع بيننا لمدة خمس سنوات."

جلست آن في تلك الليلة عند نافذتها لمدة طويلة وهي تشعر بالرضى والحبور. خرخرت الريح بنعومة بين أغصان الكرز، وتصاعد في الجو عبق النعناع، وتراقصت النجوم فوق أشجار التنوب عند الغور، وومض ضوء غرفة ديانا من خلال الفرجة المعهودة بين الأشجار.

نعم، كانت الآفاق التي تفتحت أمام آن قد ضاقت منذ ليلة عودتها من معهد كوين، ولكن، حتى وإن كان دربها المقدّر عليها اقتحامه درباً ضيقاً، فهي واثقة بأن براعم السعادة ستزهر على امتداده. لا شيئ سيحول دون حصولها على مسرّات العمل المخلص والإلهام المتبصّر والرفقة الغنية المتجانسة روحاً ومزاجاً.

ولا شيئ.. لا شئ يستطيع حرمانها من حقها الطبيعي بالتحليق في عالم أحلامها المثالي ودنيا خيالها الجوّال، ففي هذه الحياة يوجد دائماً منعطف في الطريق!

"مادام الله في ملكوته السماوي فالدنيا بألف خير،" همست آن بصوت عذب.


Twitter: @alqareah



ISBN 978-91-88356-33-8
9 789188 356338

دار المنى